

الدكتور الطاهر أحمد مكي

القصة القصيرة

دراسة ومختارات



دار المعارف

فلسطين

القصة القصيرة

دراسة ومختارات

دكتور الطاهر احمد مكي

أستاذ الأدب في كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة

١٩٩٩



دارالمعارف

- الطبعة الأولى : ١٩٧٧
- الطبعة الثانية : ١٩٧٨
- الطبعة الثالثة : ١٩٨٣
- الطبعة الرابعة : ١٩٨٥
- الطبعة الخامسة : ١٩٨٨
- الطبعة السادسة : ١٩٩٢
- الطبعة السابعة : ١٩٩٧
- الطبعة الثامنة : ١٩٩٩

الإهداء

إلى نانا . . .

إنها تعرف لماذا !

مقدمة

بالحاح من القراء، كتابة وهاتفيا، كان لابد أن أعود إلى القصص المختارة بشيء من الإضافة.

كانوا يسألونني: لماذا توقفت عند جيل الرواد والقمم؟. والحق أنني كما قلت في بداية هذا الكتاب استهدفت من الدراسة والمجموعة أن أقدم عرضا موجزا، وشافيا في الوقت نفسه، لتطور القصة نظرية، وأن يقابل هذا التأريخ لها فن وإبداع، عن طريق النصوص المتكاملة، التي تخدم هذه الغاية، فتأتي موضوعاتها وأشكالها الفنية ممثلة للفترة التي نعرض لها من حياتنا خير تمثيل.

وقد وقفت بالتمثيل القصصي فعلا عند فترة معينة، فقد كان في النية والقصد - ولا يزال - أن أوصل المسيرة حتى يومنا، ولكن الأمر اتسع بين يدي، فأنا لا أعرض للقصة في مصر وحدها، لا في هذه المجموعة التي بين القارئ الآن، ولا تلك التي أعمل فيها وسوف تصدر في قابل الأيام، وإنما تمتد إلى العالم العربي كله، وأراه أمة واحدة، رغم توالي المحن، ونكبات الزمن، وتكاثر الأعداء، وضعف الأمين، وخيانة القوى، على ما يقول الأمام على رضى الله عنه، والكثير مما ينشر في البلاد العربية ليس ميسرا لنا هنا في مصر بسهولة، ولا أريد أن أسقط قطرا، ولا مذهبا، ولا

اتجاهها، ولذلك أوصل جمع القصص ونخلها، واختيار الأفضل منها، والأكثر تمثيلا لمدرسته، دون تأثير بصخب إعلامي أجوف وزائف في كثير من الأحيان.

وإلى أن يصدر هذا الكتاب حاملا هذه المجموعة الجديدة ومقدّما لها، رأيت أن أعود إلى القصص المختارة في هذه المجموعة التي بين يدي القارئ بشيء من التنقيح، فاستبعدت من القصص تلك التي توقف كاتبوها عن الإبداع فعلا، أو ما كان غيرها يغني عنها اتجاهها، وجئت بما كان أدق تمثيلا لمبدعيه، وأضفت عددا محدودا من القصص الجديدة، تمثل خطوة إلى الأمام في الزمن والمكان والإبداع، وأتمنى أن تغني عن كثير، ولو إلى حين.

لا شيء يسعد الكاتب مثل أن يجد لما يخط صدى عند قرائه، تعليقا ومناقشة واعتراضا، لأن غاية المبدع، والناقد مبدع على نحو ما، أن يصل بتجربته أو بأفكاره إلى قرائه، فإذا بلغ هذه الغاية، فذلك هو عين التوفيق وغاية المنى.

الطاهر أحمد مكى

رمضان ١٤١٢ هـ

مارس ١٩٩٢ م

كلمة في البدء

أردت لهذه الدراسة، وهذه المختارات من القصص، أن تحقق أكثر من غاية، أن تضع بين يدي القارئ تصوراً عاماً، موجزاً وشاملاً، للقصة عبر التاريخ، في الشرق والغرب، وخطوطاً عريضة لتقنية القصة الحديثة، واتجاهاتها في الأدب العربي، وألواناً منها لا تقف عند بلد عربي بعينه، ولقد وددت مخلصاً لو أن جظ البلاد العربية من المختارات كان أشمل مما أوردت، وهي رغبة اصطدمت بأن ما تمنيته من القصص والقصص قلماً كنت ألقاه.

وقد راعيت في اختيار القصص أن تجيء ممثلة لكل الاتجاهات، في مختلف المراحل، ووقفت بجهدى عند هذا الحد، لأن التحليل والتفسير فيما أرى عمل ذاتى بحت، وتطفل على الكاتب والقارئ، بحسبى أن أقول ما هي خصائص القصة الجديدة، وأن أقدم له نماذج مميزة منها، ثم أدعه معها، يفهم منها ما يريد، في ضوء إمكاناته الثقافية، وأبعاده المزاجية، وحركة عمره، ولحظة تأمله، ولست أرى للفن تفسيراً واحداً هو الصحيح، إنه متجدد دائماً، ومتطور أبداً.

ويجىء ترتيب القصص في الأعم الأغلب تاريخياً، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولم أقف بالاختيار عند العمالقة، وإنما اخترت

للجيل الصاعد وللناشئة ممن توهمت أن لهم مستقبلاً مع القصة في غدها القريب، ولم أقف بالمختار عند الأدب العربي، وإنما قدّمت له نماذج من القصة العالمية، في اللغات المختلفة ليدرك القارئ معها أين نحن من هذا الجنس الأدبي.

الذين يفرمون بقراءة القصة تذوقاً، والذين يبحثون عنها نموذجاً يحتذونه فيما يكتبون مبتدئين، والذين يعشقون المعرفة ويستهووهم التاريخ، والذين يأملون أن تقع أيديهم على مجموعة من القصص يحللونها ناقدين أو مفسرين، هؤلاء جميعاً آمل أن يجدوا في هذا الكتاب بغيتهم، فإن أرضاهم فتلک غاية كل كاتب، وإن لم يجدوا فيه ما يرغبون، أو عنّ لهم من الملاحظات ما يمكن أن يضاف إليه أو يقوم من أمره، فلهم الشكر سلفاً على ما يقترحون أو ينقدون.

شيء من التاريخ

• أصول بعيدة :

تعد القصة في شكلها الفني الحديث آخر الأجناس الأدبية ظهوراً، فهي لا تذهب إلى أبعد من القرن التاسع عشر، ولكنها في الوقت نفسه من أعرق ألوان الأدب تاريخاً، فمنذ أن جاء الإنسان إلى الحياة كان الطفل يقفز ويضرب، يعمل ويغنى، ويتحدث ويخترع، ويحكى في الوقت نفسه، وتجذب الجدّة حفيدها بالحكاية، أو ترعبه بالأسطورة، ويلقى الإنسان آخر، بعيداً عن شواغل الحياة والعيش، فيملآن فراغهما بسمر تلعب فيه الحكاية دوراً ملحوظاً، خرافة تمثل خوارق الطبيعة، أو مجوناً يدغدغ عواطف السمع، أو سخرية تثير الضحك، أو مركباً للوعظ والتربية.

والقصّ على لسان الحيوان أقدم ما عرف الأدب، والصلة بين الإنسان والحيوان قديمة، تعارفا منذ التقياً على وجه الأرض، ونشأت بينهما صلة روحية، أعان الحيوان الإنسان في كفاحه من أجل البقاء، وأثاره بما عليه من غرائز لا تتخلف، ومن صمت يحيطه بالغموض والأسرار، وقوة ليست لدى البشر، ومنفعة استحق من أجلها أن يقدر أو يعبد، ووجد الإنسان نفسه في حاجة إلى الحيوان، وغير قادر على تعليل الظواهر التي تعرض له علمياً، فحاول تفسيرها عن طريق الخرافة، اعتقد أن له روحاً، وأنها تبقى بعد

موته، وتكون قادرة في الحالتين على الخير والشر، فكان من الطبيعي ان يتقرب إلى قوى الخير فيه، وأن يسترضى قوة الشر، ووسيلته إليه القرابين والعبادة، واعتقد بعض الناس في التناسخ، وانتقال الأرواح بعد الموت من جسم إلى آخر، سواء أكان جسم إنسان أم حيوان، وأخذ المصريون بهذه الفكرة زمناً، ونقلها عنهم الفيلسوف اليوناني فيثاغورس، وبها قال البوذيون في الهند، وربطوا بين هذا الانتقال وفكرة الثواب والعقاب، وظهرت الفكرة في بلاد اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، وحولها كتب أدب كثير.

كانت الصلة المادية بين الإنسان والحيوان مصدر أدب قوى يصف الحيوان وصفاً خارجياً، في الغالب، أو يتحدث عن منافعه، ويذكر بعض خصال الخير فيه، أو يصف جمال منظره، أو يقص بعض المغامرات في صيده، وعندنا في الأدب العربي الشيء الكثير من هذا. تناول امرؤ القيس حصانه تفصيلاً، ووصف النابغة كلب الصيد، ووقف طرفه طويلاً أمام ناقته، وكتب الجاحظ مؤلفاً كاملاً عن الحيوان وما ارتبط به من معارف وقصص وأشعار. وأهمته الصلة الروحية ألواناً أدبية أخرى جاءت في شكل قصص وأشعار. وأهمته الصلة الروحية ألواناً أدبية أخرى جاءت في شكل قصص وأساطير، وارتبطت بالحيوان على نحو ما، وهي أقدم ما نعرف من مظاهر الأدب.

● الأساطير :

ونعنى بها الحكايات الخيالية، التي توجد عند الأمم في حالتها الأولى، ومادتها أشخاص أو حوادث أو أعمال فوق طاقة البشر،

وتدور فكرتها العامة حول ظواهر تاريخية أو طبيعية، فقد شغل الإنسان قديماً، إلى جانب الحيوان، بمظاهر الطبيعة التي يواجهها صباح مساء، ولم يستطع لها تفسيراً، وأبى أن يتركها كذلك، فشغل بها نفسه، وأخذ يتساءل عن الكون ونشأته ومصدره، والشمس والقمر والنجوم وحركتها، ولمَ كانت هذه الشجرة خضراء، وتلك ذات لون أشهب، وهذا الطائر أسود الذيل، وغيرها من الأسئلة.. وأجاب عن كل ذلك متأثراً بإحساسه بالمساواة بينه وبين بقية المخلوقات، فهو يعتقد عندئذ أن لكل حيوان روحاً كروحه، وأن لكل شيء شخصية كشخصيته، وحاول، التوصل إلى أسرار الطبيعة في ضوء معتقداته هذه، وأجاب عن تلك الأسئلة في قصص حمل اسم الأساطير، تدور حول الحيوان، وترتفع به إلى مرتبة الألوهية أحياناً، ويجب ألا ننسى أن الحيوان يتردد كثيراً في الكتب الدينية، وارتبط به عدد من المعجزات، فهناك بقرة موسى، وناقّة صالح، ونملة سليمان وغيرها.

وتتشابه أساطير الأمم فيما بينها إلى حد كبير، ويرد بعض الباحثين هذا التشابه إلى الصدفة البحتة، ويعلله آخرون على نحو علمي فيردون التشابه القائم بين أساطير الهنود والفرس واليونان والجرمان والروس وشمال أوروبا إلى وحدة أصلهم، وأنهم ورثوها عن آبائهم الأولين، حين كانوا يعيشون معاً في مرتفعات آسيا الوسطى، وهاجرت معهم أينما حلوا، وهو تعليل يضعفه أننا نجد هذه الأساطير عند شعوب أخرى غير آرية، كالصينيين وهنود أمريكا. والذي أراه أن الأساطير، مهما يقل فيها، لون من الإبداع الإنساني، وتشابه

المناخ والظروف المحيطة بالإنسان يؤدي إلى نوع من التقارب في الإبداع، دون لقاء أو تأثير أو نقل، وبخاصة في طفولة الإنسانية، قبل أن تغطي عليها المؤثرات الخاصة، من البيئة والحضارة والثقافة وعوامل الزمن، فتباعد بين أفرادها، وتميز بينهم في الفهم والإحساس وردود الفعل.

فقصة ديانا وإنديميون اليونانية عرف مثلها الأستراليون، والسنغاليون، وبعض قبائل أفريقية أخرى، وخلاصتها في اليونانية: «كانت ديانا إلهة القمر، تسوق جيادها الناصعة البياض عبر السماء، فلمحت إنديميون الراعى الجميل الفاتن نائماً على سفح الجبل، فانحنت عليه وقبلته، وكانت تقف بعربتها كل ليلة في المكان نفسه لتستمع بهذه اللحظة السعيدة، لكنها بعد قليل من الزمن لم تحتمل التفكير في أن يفلت منها جمال إنديميون، فأغرقته في نعاس دائم، وأخفته في كهف لا يدنسه إنسان». وإنديميون هنا، فيما يرى الباحثون، رمز الشمس الغاربة التي يتطلع إليها القمر كلما بدأ رحلته ليلاً. ولا تختلف هذه القصة عند الشعوب الأخرى إلا قليلاً في التفاصيل.

وتباين وجهات الباحثين في تفسير الأساطير. جعلها فلاسفة مدرسة الإسكندرية رمزاً للقوى النفسية والأخلاقية أو مظاهر الطبيعة، كأسطورة إيزيس وأوزيريس، وهو تفسير لا يمكن قبوله على إطلاقه، لأن بعض الأساطير لا يمكن تحليلها على هذا النحو، ومرحلة الرمز جاءت متأخرة نسبياً من تاريخ الإنسانية، ويمكن القول بها إذا كان صانع الأسطورة فيلسوفاً أو رجل دين، يهدف من ورائها إلى مغزى

دينى، أو فكرة فلسفية، وهو مالا يتأتى مع الأساطير البدائية، ويرى آخرون أنها نشأت من التاريخ الحقيقى للإنسان، وأن الآلهة وكبار الأشخاص فيها كانوا ملوكاً وأبطالاً، وأصبحوا آلهة بعد موتهم، وهو رأى يمكن أن نفسر فى ضوءه بعض الأساطير فحسب، ولا يشمل نشأتها كلها، فبعضها لا يرتبط بالأحداث التاريخية للبلد الذى قيل فيه. وثمة اتجاه ثالث يرى أن الأساطير وضعت لتفسير الشعائر الدينية التى يتوارثها البدائيون، ولا يفهمون لقيامها معنى.

ويلحق بالأساطير قصص المسخ، وتحول بعض الناس إلى حيوانات بقوة سحرية، فباخوس إله الخمر فى الأساطير الإغريقية أجر سفينة من قرصان «تيرينيا»، لتنقله من مكان إلى آخر، ولكنهم بدل أن يحملوه إلى غايته اتجهوا به إلى آسيا لبيعوه رقيقاً، فصار باخوس أسداً، وحول الشراع والمجاديف ثعابين، وأنبت اللبلاب حول السفينة، وانطلقت الأصوات من كل جانب، وجن الملاحون جميعاً، ووثبوا إلى البحر، وفيه مسخوا دلافين. والأسطورة تبين على نحو واضح عقيدة الناس فيما تستطيع الآلهة أن تفعله، إذا أراد أحد بها سوءاً.

وخلال عصور الرواية الشفوية خضعت الأساطير، كغيرها من فنون القول، للزيادة والنقص أو التحوير والتبديل، فلما عرف الناس الكتابة، وشاع التدوين، أصبحت أقدر على الاحتفاظ بشكلها. وتنشأ الأسطورة، على نحو ما ألمحنا، بين الدين فى أدنى السلم الاجتماعى، طبقة أو شعباً، ثم تأخذ طريقها صعوداً إلى أعلى، وخلال رحلتها هذه تخضع للتشذيب والتهديب، ويتناولها انكتاب

والشعراء صقلا وتلوينا، ومعالجة، وتبدأ رحلتها من جديد إلى الذين تحت، إلى عامة الناس.

● الخرافة :

وهي قصة أبطالها شخصيات غير عاقلة من الحيوان والجماد، ولكنها تفكر وتكلم وتتصف بالعقل والمنطق، ولها عواطف ومشاعر كالشعر، وتقوم بدور إنساني واقعي، تجيء للتسلية دون أن تستهدف غرضاً معيناً، فتصبح من قصص الحيوان، وقد تتجاوز الواقع، وتسرف في الخيال، وتخرج بأبطالها عن حد الممكن فتدخل في نطاق الأسطورة، وقد تجيء للتربية، وتقصد تحقيق غاية تعليمية محددة فتصبح من قصص المواعظ. وتعود إلى أصول بعيدة جداً، وتجيء شعراً أو نثراً، ولا نعرف أيهما أقدم على التأكيد، ولكن جمهرة الباحثين ترجح قدم الشعر.

والفرق بين الخرافة والأسطورة، أن هذه نبت شيطاني، ينشأ شعبياً، ويولد عفويًا، يخترعه الخيال الفطري لتفسير بعض الحقائق الكونية، وتتميز قصة المواعظ عن الخرافة، بأنها أكبر حجماً، وأشد تعقيداً، وذات مغزى خلقي دائماً، ولا تقتصر كلها على الحيوان، وإن كان موضعه فيها أبين من غيره، والقصص التي وردت عنه أكثر عدداً. وما نتبين فيها من رموز جاء متأخراً، فهماً أو خلقاً، عندما قطع الإنسان شوطاً بعيداً في طريق الحضارة، أما الإنسان الأول فكان يراها حقائق، لأنه ينسب للحيوان طبيعة وروحاً ومنطقاً كالإنسان، ويؤمن بالتناسخ والتحول بينهما، فقصص المواعظ على الرغم من

قدمها لم تنشأ إلا في أمم تركت أطوار البداوة، وفكرت تفكيراً مركباً، لما تحتاج إليه مثل هذه القصص من خيال يستطيع أن يعبر بالإنسان من ظاهرها إلى مغزاها.

• الموطن الأول :

ليس من السهل تحديد الموطن الأول للأسطورة، أو الخرافة التي تجيء للتسلية، لأنها أقدم آداب الإنسانية، أما قصص المواعظ، أو الخرافة الهادفة إن شئت فهي التي يبحث العلماء عن أول وطن لها، وهو أمر من الصعوبة بمكان، وتتباين فيه الآراء بشدة، وبخاصة عندما تحركها دوافع قومية أو عنصرية. ومن البدء يمكن أن نستبعد اليونان، برغم شهرة إيسوب وخرافات وقدمها، فقد وجدت طريقها إلى الوجود في زمن هيروودوت، أو حتى قبله. لأن الحضارة ظهرت متأخرة في بلاد اليونان بالنسبة إلى الحضارات الشرقية، ويرجح أن الشرق كان موطناً لهذا القصص، وأن هجرة الخرافات كانت منه إلى الغرب، ويستدل على ذلك بأن الحيوانات والطيور التي تقوم بالأدوات المهمة فيها، كالأسد والفيل والطاووس والهدهد والثعلب، حيوانات إما آسيوية أو إفريقية.

ودون إحساس زائد بالذات يمكن القول إن القصص المصرية القديم أقدم قصص في التاريخ، ووصلنا منه مجموعة لا بأس بها، جمعها العالم الفرنسي الشهير جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦م)، بعنوان: «القصص الشعبي في مصر القديمة»، وترجمها إلى الفرنسية، وعلق عليها، ونشرها في باريس عام ١٨٨٩م، وتمثل المجلد الرابع

في سلسلة «الآداب الشعبية لكل الأمم». وأول قصة فيها اكتشفت عام ١٨٥٢م، وهي من العصر الفرعوني الأول، وفيها شبه كبير بقصص ألف ليلة وليلة. والحيوان يلعب دوراً محدوداً في هذه القصص، لأنها تعود إلى فترة التوهج الحضاري في مصر القديمة، أي تعود إلى مرحلة تجاوزت عصر الاعتماد على القصص الحيوانية أو الدوران حوله. فمصر المهد الأول لهذا القصص، فيما يرجح، وفيها ظهر لأول مرة، وكان المصري القديم يكن للحيوان احتراماً عميقاً، ويقدر فيه غريزته التي لا تخطيء، وسار هذا الاحترام جنباً إلى جنب مع عبادته للحيوان، وطبع إحساسه هذا الأديان المصرية القديمة بطابع واضح، وقصة الأسد والفأر الشائعة وصلتنا كاملة، على ورقة بردى يرجع تاريخها إلى أيام رمسيس الثالث (١٣٠٠ - ١١٦٦ ق.م)، ونذكر معها أن هذا القصص تجاوز المراحل الأولى والأولية في تلك الفترة.

ويرى المكتشف والمستشرق البريطاني رتشارد برتون (١٨٢١-١٨٩٠م)، و مترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغة الإنجليزية: «أن القصص الوعظي أيضاً موطنه بلاد النيل، أو الأرض السوداء كما يسميها، ومنها هاجر إلى فنيقيا، وجوديا، وآسيا الصغرى، ثم اجتار البحر في سفينة إلى بلاد اليونان»، وهنا التقطها إيسوب، وكان عبداً قبيحاً، مشوه الخلقه قميئاً، ليس له من معالم الإنسان إلا وجهه ولسان، لولاهما لكان قريب الشبه بالحيوان. واستطاع هذا العبد الذي أضاعته الطبيعة، وأضاعه النظام الاجتماعي فسلبه حرته، أن يدخل إلى المجتمع اليوناني من باب العبقرية، ويجلس في صفوف

البارزين من شعراء اليونان، ودفع بقصصه الهادف إلى كل الناس، ويرجحون أن اسمه يرتبط بخرافة إثيوبية، لأن صورته غير إغريقية، وربما كان مشتقاً من كلمة Ethiopia، ومات كما عاش بائساً، فقد اتهمه قومه بالإلحاد، وبالتناول على الإله «أبولون»، فخذفوا به من شاهق صخرة فدق عنقه.

لقد سبقت مصر اليونان في مجال الحضارة بألاف السنين، فليس بدعاً أن تسبق في مجال القصص أيضاً، أليس الأدب إحدى دعائم الحضارة إن لم يكن أهمها وأقواها؟. وكان الاتصال بين مصر وبلاد اليونان قائماً ومستمرًا، ولقد قدم المشرع الأثيني سولون (٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م) إلى مصر في عهد أحمس الثاني، واقتبس شيئاً من قوانينها. وكان إيسوب معاصراً له، وكانت شهرة مصر عامة فما الذي يمنع من انتقال هذا الأدب المدون على الأقل، إن لم نقل الأساطير والخرافات أيضاً، إلى بلاد اليونان؟.

بقي أن نشير إلى أن الدراسات الأدبية الأوربية التي وقفت جهدها على تتبع نشأة القصة في ألوانها المختلفة، ظلت حتى أواخر القرن التاسع عشر، في معظمها، تجعل من الهند وحدها مصدر هذا القصص، متجاوزة مصر تماماً، وكانت في هذا متأثرة بعوامل كثيرة، ربما كان أوضحها أن الأدب المصري القديم، وتاريخ مصر القديمة إجمالاً، لم يكن عُرف منه شيء محقق إذ ذاك على نحو علمي، إلا النذر اليسير، ثم اكتشفت صفحاته الرائعة مع بداية هذا القرن، ومنها أن اللغات الهندية، في التقسيم اللغوي، ترتبط باللغات الأوربية قديماً،

على نحو ما، فهم لا يشعرون معها أنهم في حضارتهم يدينون لأجنبي عنهم بشيء ولو قليل. يقول ماسبيرو في مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه: «إن القصص المصرى الذى وجدناه على أوراق البردى يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد، وربما أقدم من هذا بمئات الأعوام، وليس للهند من القصص ما يقرب من ذلك التاريخ، إن القصص المصرى هو حتى الآن أول ما نعرف من الأدب العالمى، من هذا الجنس الأدبى».

• خرافات هادفة :

تنشأ الأساطير، كما قلنا، تفسيراً لخلقة بعض الحيوان، أو بعض أخلاقه، أو تفسيراً للظواهر الكونية مثلاً، أما الخرافة والموعظة فتجىء والغاية الخلقية تمثل جانباً منها، أو دافعاً إلى خلقها، ولهذا يرى بعض الباحثين أن القصة الخرافية ذات المغزى وقصة المواعظ، وكلاهما واحد، تنشأ في عهود الظلم والاستبداد، عند ما تصبح قولة الحق قاتلة، والتصريح بالحقيقة خطراً، ويستدلون على هذا بأن أشهر من كتب في الخرافات كانوا من الرقيق، أو من الطبقة المستضعفة في المجتمع، لم يستطيعوا أن ينصحوا سادتهم خوفاً من البطش، فأثروا الرمز لما فيه من بعد عن جفاف الحقيقة، وإثارة الظلمة. فإيسوب اليونان كان عبداً، وفيدر الرومانى كان أيضاً من العبيد، و «لقمان» كان عبداً من النوبة، وابن المقفع مولى فارسياً، وهؤلاء أشهر من نسبت إليهم قصص الخرافات في القديم. هل يمكن تفسير نشأتها في مصر على هذا النحو أيضاً؟.

يضربون المثل لهذا النوع من القصص، بأن وزيراً عاقلاً، أراد أن يقدم النصح لمولاه مستتراً، فقص عليه قال: «إن بومة في البصرة أرادت أن تزوج ابنها من بومة في الموصل، فوافقت هذه، ولكنها اشترطت على البومة الأولى أن يكون المهر مائة قرية خراب، فأجابتها بومة البصرة: لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن، ولكن إذا أبقى الله السلطان عاماً آخر قدمت لك هذا المهر وزيادة!». وسمع السلطان القصة، وتأثر بها، وأمر بأن تعمر المدن والقرى الخربة، ودرس واقع بلاده، ليجعل حياة مواطنيه أقل عذاباً.

ومثل هذا التفسير لا يقبل على إطلاقه، وإن أمكن القول بأن مثل هذا القصة يروج أيام الطغيان، على نحو ما تروج النكتة والإشاعة في مصر في لحظات القهر السياسي، بوصفهما سلاحاً سياسياً، أو السلاح السياسي الوحيد الذي يملكه الشعب في مواجهة السلطة، وليس مقبولاً أن نرد القصة كله إلى هذا السبب، لأن الطغاة الذين يراد أخفاء الحقيقة عنهم قد يكونون على قدر من الذكاء يدركون معه مرماها، على نحو ما حدث من أبي جعفر المنصور مع ابن المقفع، وقد يكون على قدر من السداجة فلا يدرك الهدف منها، وقد يضعه الذين حوله في عزلة فلا تبلغ مسامعه، إلا إذا كان هدف القصة أن تثير العامة عليه. وأخيراً فثمة قصص حيوانية لا صلة له بالملوك أو بسياسة الحكم أو بنقد ذوى السلطان، وهذه لا تحتاج إلى عصور ظلم تنشأ فيها.

وإذا تتبعنا القصص الأولى وألوانها وأنواعها فسنجد أن بعضها جاء للتسلية، أو أساطير لا مغزى لها، أو شكلاً أدبياً جميلاً يراد

به تحبيب الناس في فضيلة معينة، بطريقة غير مباشرة، تنأى عن جفاف الموعظة الصريحة، والمواجهة المباشرة، وحصرها في مقاومة الظلم وحده حصر للخيال الإنساني في دائرة ضيقة، وفي مقدمة «كتاب كليله ودمنة»، إذا صحت، نجد دبشليم ملك الهند هو الذى طلب من بيدبا تأليف الكتاب، «يكون ظاهره سياسية العامة وتأديتها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته». وقال عن الكتاب نفسه: «وليكن مشتملا على الجدل والهزل، واللهو والحكمة والفلسفة».

وأبان ابن المقفع الغاية من الكتاب في آخر مقدمته، وهى غاية تصدق على أى كتاب آخر يجيء في هذا الشكل، فأشار إلى أن الناظر فيه ينبغي أن يعلم أنه ينقسم إلى أغراض أربعة: «أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على السنة البهائم غير الناطقة، ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان، فتستمال به قلوبهم: لأنه الغرض بالنوادير من حيل الحيوان. والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان: ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة، فى تلك الصورة. والثالث أن يكون على هذه الصفة: فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً. والغرض الرابع وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة».

• أساطير العرب وخرافاتهم :

كان للعرب فى القديم، كغيرهم، أساطير وخرافات، ولكن الحيوان بعامته، لم تكن له تلك القداسة التى تمتع بها عند شعوب أخرى،

فلا نعرف أنهم عبدوا الحيوان، ولو أن ذوات الفائدة منه، أو الصفات النادرة، أو المخيفة المرعبة، حظيت بقدر واضح من التقدير والاحترام، وحولها قام عدد من الأساطير والخرافات. روى الضبي في «أمثال العرب» أن أخوين كانت لهما فيما مضى إبلى، فأجدبت بلادهما، وقريب منهما واد فيه حية، حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: لو أنى أتيت هذا الوادى الكلى، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها، فقال أخوه: إنى أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحداً لم يهبط هذا الوادى، إلا أهلكته. قال: فوالله لأهبطن. فهبط ذلك الوادى فرعى به إبله زماناً، ثم إن الحية لدغته فقتلته. فقال أخوه: ما فى الحياة بعد أخى خيراً، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخى. فهبط ذلك الوادى، وطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألس ترى أنى قتلت أخاك، فهل لك فى الصلح، فأدعك بهذا الوادى، فتكون به، وأعطيك ما بقيت ديناراً كل يوم، قال: أفاعلة أنت؟. قالت: نعم، فإنى أفعل. فحلف لها وأعطها الموائيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً، فكثر ماله، ونمت أبله، حتى كان من أحسن الناس حالاً. ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعنى العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخى؟. فعمد إلى فأس فأحدها، ثم قعد لها فمرت به، فتبعها وضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، ورمى الفأس بالجبل فوق فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار، ولما رأى ذلك تخوف منها وندم، فقال لها: هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك!»، فذهبت جملتها الأخيرة مثلاً.

وأورد الميدانى، فى مجمع الأمثال، قصة «فى بيته يؤتى الحكم»،

يقول: هذا مما زعمت العرب على لسان البهائم قالوا: إن الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب. فقال الأرنب: يا أبا الحسل (ولد الضب)، فقال: سميعا دعوت. قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عادلا حكمتما. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت!. فذهبت أقواله كلها مثلاً.

وكلتا القصتين، كما نلاحظ، وضعت لغاية خلقية، وليس من الضروري أن تكون هذه الغاية مسلماً بها في عصرنا، أو مما ترتضيه أخلاقنا، فصاحب الإبل خان الحية في القصة الأولى، وكان الثعلب معتدياً في القصة الثانية، والأمران يلمحان إلى لون من خلق الجاهلية، من استخدام القوة والإيمان بها، وأوجز فلسفتها زهير ابن أبي سلمى في شطر بيت من معلقته: «ومن لا يظلم الناس يُظلم».

وأما أساطيرهم قليلة، أو ما وصلنا منها، وموجزة، كالقول بأن شق أنمار الكاهن كان شق إنسان، له يد واحدة، وعين واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الكاهن كان لحمياً يطوى كما يطوى الثوب، ليس فيه من عظم سوى الجمجمة، وأن وجهه في صدره، ولم يكن له عنق. وإن الغول تجيء في صورة امرأة ولها رجلا حمار، وعلى هذا النحو حكايات الجان والعماريت.

● قصص العرب القديم :

تجاوز عرب الجاهلية مرحلة الطفولة في أدبهم، في زمن يعسر علينا تحديده، فكان لهم قصص عربي آخر واقعي، يتمثل في أيام العرب، ويدور حول وقائعهم الحربية، وبعضه قديم جداً، وبعد عن الحقيقي كثيراً، وأصبح من عمل السّمار، كقصة زنوبيا، أو زينب، ملكة تدمر، فأصبح اسمها الزباء، تطوير لاسم زبدي، أمير جيوش الملكة، وذكرت تدمر موطن القصة الحقيقي عرضاً، وجعلت موطن الأحداث مدينتين على الفرات لم تسمهما، يصل بين حصنهما نفق، والذي قُتل في التاريخ أذينة زوج زنوبيا، أثناء الضيافة، فأصبح في القصة عدو الزباء.

وكان لهم قصص عاطفي، كالذي ذكروا بين المنخل اليشكري والمتجردة زوج النعمان بن المنذر، أو كالذي كان بين المرقش الأكبر وصاحبتة أسماء بنت عوف. زعموا أن المرقش عشق أسماء بنت عوف، وهو غلام، فخطبها من أبيها، فاعتذر له بحداثة سنه، وأنه لم يُعرف بعد بشجاعة، فانطلق المرقش إلى بعض الملوك وبقي عنده زمناً، ثم أصاب عوفاً زماناً شديداً، فأتاه رجل من قبيلة مراد فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله، وقال إخوة المرقش لا تخبروه بما حدث إذا عاد، قولوا إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشا، أكلوا لحمه، ودفنوا عظامه، ولمّا قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء،

وبعد لأى تعرف على راعى زوجها، وتوسل إليه أن يحدثها عنه، فقال له: إني لا أستطيع أن أدنومنها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزاً، فتأتيها بلبنها. فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فألقه فى اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط. فأخذ الراعى الخاتم، ولما حلب العنز طرحه فى اللبن، ثم انطلقت به الجارية وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرغبة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، فقرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران فأقبل فزعاً، وقال لها: لم دعوتنى؟ قالت له: ادع عبدك راعى غنمك، فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل فى كهف خبان، فقال اطرحه فى اللبن الذى تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرنى من هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال لها زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة فى طلبه، فركب فرسه، وحملها على فرس آخر، وسارا حتى طرقاه، من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلها، فمات عند أسماء، وقال قبل أن يموت:

سرى ليلا خيالاً من سُلَيْمَى	فأرقنى وأصحابى هجود
فبتُّ أدير أمرى كلِّ حالٍ	وأذكر أهلها وهم بعيد
سكنَّ ببلدة وسكنت أخرى	وقطعت الموائق والعهود
فما بالى أفى وُيخان عهدى	وما بالى أصادُ ولا أصيد

ثم مات، فدفن فى أرض مراد.

وهناك قصص آخر أخذه العرب عن غيرهم من جيرانهم، وصاغوه في أسلوب يتفق مع أذواقهم، وكان النضر بن الحارث في مكة، وهو طبيب ومثقف ورحالة وكثير الذهاب إلى فارس والحيرة، يعارض النبي عليه السلام وينصب له العداوة، إذا جلس الرسول مجلساً فذكر بالله، وحذر قومه ما أصاب غيرهم من الأمم، خلفه بمجلسه وقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلما إليّ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، وقصة رستم وإسفنديار، وكان على النضر أن يدفع ثمن ذلك يوم موقعة بدر بعد انتصار المسلمين، فكان أحد اثنين أمر النبي عليه السلام بقتلهما، لم يعف عنهما، ولم يقبل فيهما فداء. وأوضح مثل لهذا القصص المنقول حكاية شريك مع المنذر، وأنه أتاه في يوم يؤسه رجل يقال له حنظلة فأراد قتله، فطلب منه أن يؤجله سنة، فقال: ومن يكفلك؟ فكفله شريك بن عمرو، فلما كان من العام القابل جلس المنذر في مجلسه ينتظر حنظلة فلم يأت، فأمر بشريك فقرب ليقتل، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليه، فتأملوه فإذا هو حنظلة، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما، وأبطل تلك السنة. فهذه القصة لها أصل يوناني معروف.

والمشكلة التي تواجهنا ونحن نعرض للقصة بألوانها، خرافة وأسطورة وموعظة، عند عرب الجاهلية، أنها دونت بعد زمن طويل، وفي العصر الإسلامي، حين أصبحت الجزيرة العربية على صلوات أقوى، مع انتشار الإسلام، بالثقافات الأخرى التي حولها، فلاندرى هل القصص الذي ينسب إليهم جاهلي فعلاً، أو صنعه الرواة لحظة التدوين. يقول الجاحظ: «ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به، أنهم ليس يلقون

بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم، وإلا غيباً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب أو التصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط، وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، فالرواة عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر، ولذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها».

● القصة في القرآن :

أدرك القرآن دور القصة في إثارة الوجدان، وتحريك العواطف، وجذب انتباه القارئ والسامع، فجعلها إحدى وسائله في تحقيق غاياته، من إثبات الوحي، وتأكيد الرسالة، وتأصيل الدعوة الإسلامية، ولكنها لا تجيء عملاً فنياً مستقلاً، وإنما تخضع للغايات التي يهدف إليها. وتجيء فيه ألواناً:

القصة التاريخية : وتدور حول شخصيات من الماضي، أنبياء ومرسلين، وهي تستخدم التاريخ، لكنها ليست عرضاً له، وتقصد غير ما يقصد، وتعرض غير ما يعرض، وقد تغفل «قصداً تحديد الزمان، وذكر المكان، وتسمية الشخصيات، والتعريف المعتاد بمن تذكر أسماءهم من هؤلاء الأشخاص»، أو تعيد ترتيب الأحداث على نحو يحقق الغاية من إيراد القصة، فهي تطلب التأثير وتستهدف الإقناع. ويعلق الإمام محمد عبده عند تفسير هذا اللون من القصص فيقول: «إن كثيرين من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص... والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص

الأنبياء والأمم الواردة في القرآن. وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعلمها لتتقى من وجهتها. ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير^(١).

القصة التمثيلية : ويقصد بها البيان والإيضاح، أو الشرح والتفسير، فليس يلزم في الأحداث أن تكون وقعت، أو في الأشخاص أن يكونوا وجدوا، أو في الحوار أن يكون صدر، وإنما يكفي في كل ذلك بالفرض والخيال و «القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب، أو بأسلوب الحكاية، لما في ذلك من البيان والتأثير، فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني، كقوله تعالى: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد». فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وإنما تمثيل لسعتها، وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا. ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء: «وقال لها وللأرض ائتيا طوعا قالتا أئينا طائعين» والمعنى في التمثيل ظاهر^(٢).

القصة الأسطورية : وهي تخالف كلا اللونين السابقين، ليست أحداثاً تاريخية واقعية تناولها القرآن ورتبها ترتيباً يحقق الغاية من

(١) تفسير المنار، ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) المرجع السابق، ج ١ ص ٢٨٠ .

إيرادها، وليست قصصاً تمثيلاً أحداثه مفروضة أو متخيلة، وإنما هي قصة بأكملها، وهو اسم ينفر منه بعض العلماء، وأجازه آخرون، ويقول الإمام محمد عبده، كما جاء في تفسير المنار، عند تفسير قصة «هاروت وماروت»: «بيننا غير مرة أن القصص جنات في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار. فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة، ولا تتجاوز مواطن الهداية، ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح. وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين، أو المحكى عنهم، وإن لم تكن صحيحة في نفسها، كقوله: «كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» و كقوله: «بلغ مطلع الشمس». وهذا الأسلوب مألوف، فإننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم، لا سيما في سباق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء، ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية»^(١).

وتنطوي القصة القرآنية على عناصر ثلاثة: الأحداث والأشخاص والحوار، قد توجد مجتمعة، وقد تكتفى القصة منها بعنصر واحد دون بقية العناصر الأخرى، تبعاً للغاية التي تهدف إليها.

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٩ .

والحدث أبرز عناصر القصة القرآنية، وطبيعته مختلفة، تقع قضاء وقدرًا، وتكون خوارق ومعجزات، أو عادية مألوفة، أبطالها من الرسل أو عامة الناس، والحادثة الواحدة تتكرر، تجيء في مواضع عدة، ولكنها تأخذ في كل مكان شكلاً مختلفاً، إيجازاً وبسطاً، كاملة أو مجتزأة، ويعتمد القرآن في عرضها على الألفاظ الضخمة، ذات الإيقاع القوي والتأثير المباشر، مبنية وموسيقية. وقد تقوم على جمل قصيرة مسجوعة، أو تعتمد على تتابع الأحداث السريع، ليبلغ تأثيرها في النفس مداه، وأحياناً تجيء لينة التعبير، سهلة الألفاظ، حين تعرض لأمر عادي. مطابقة لمقتضى الحال.

وتجيء الشخصية في القصة القرآنية مبهمة، أو عامة، أو غامضة، وتكون من الأناسى رجالاً ونساءً، ومن الطيور والحشرات، أو أرواحاً خفية من الملائكة والشياطين والجان. وترد شخصيات الرجال بعامة عارية من أية صفات مميزة، حسية من لون وطول وقصر، أو معنوية من خلق ومزاج وطبع.

وشخصيات الرسل تسيّرهما المبادئ الدينية والمثل العليا عادة، وقد تومىء إلى سلوك معين يضرب به المثل : فموسى عصبى مندفع، وإبراهيم حليم متسامح، ويوسف حصيف واع. وهم في كل الأحوال بشر يغضبون ويفرحون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، يتناولون الأعداء بالدم، ويتوجهون إلى الله بالدعاء، ونعرف أن آدم عصى ربه ونسى ولم نجد له عزمًا، وأن يوسف

احتال حتى جعل السقاية في رحل أخيه، وأن سليمان تدهى لتكشف له ملكة سبأ عن ساقها.

ودور المرأة في القصة القرآنية ثانوي، وتجىء فيه واضحة الصورة، بينة المعالم، تسيرها الغرائز والعواطف الأولية، ولكل واحدة طابعها المميز: فامرأة فرعون واضحة الأمومة برّحنون، وامرأة العزيز مكتملة الأنوثة، تغريها الرجولة، ويستهوئها الجمال، «وابنتا الشيخ» تحبان الفتوة، ويدفعهما الحياء إلى الحيلة، ومريم تحرص على الشرف والعفاف، وتخشى الفضيحة والعار، وتخاف من رسول ربها حين تمثل لها بشراً سوياً، فتستعيذه بالله إن كان تقيّاً، وهي لا تفهم أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر، وملكة سبأ ضعيفة مستحبة، واسعة الدهاء، حسنة السياسة، تلين حتى الضعف، وتستسلم حتى الخضوع، وامرأة عمران دينة، نذرت ما في بطنها محرراً، وامرأة إبراهيم تعجب أن يكون لها ولد، وبعلمها شيخ، وهي عجوز عقيم.

ولا تذكر المرأة باسمها في القرآن أبداً، ولم ترد حواء باسمها ولا مرة واحدة، ويعبر عنها دائماً «بامرأة» مضافة إلى زوجها، إن كانت متزوجة، كامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة إبراهيم، وامرأة عمران، وامرأة العزيز، وامرأة فرعون، وتجيء مرسلة إن كانت غير متزوجة، فملكة سبأ «امرأة تحكمهم»، «ووجد من دونهم امرأتين تزدان»، «وابنتا الشيخ». وكانت مريم الاستثناء الوحيد من القاعدة، فهي تذكر باسمها دائماً، مرسلأ أو مضافاً، صنع ذلك القرآن لمواجهة عقيدة قومها في أن عيسى ابن الله، على حين يراه القرآن

ابنا لمريم، وُلِدَ لغير أب، على نحو ما وُلِدَ آدم، ولأن إصرارهم كان عنيدا، جاءت مواجهة القرآن قوية، وذكر اسم مريم صريحا ومؤكداً في كل المرات التي عرض فيها لهذه القصة.

ويجىء القصص القرآني خالياً من الحوار غالباً، والقليل الذي نلقاه يأتي في مقام التخويف، وليس من الضروري أن يجرى بين اثنين، فقد يجىء بين واحد وكثرة، أو جماعة وجماعة، ويرد في مجال تقرير الدعوة، وبث الأفكار، وهدم العقائد التي يناهضها، وفي مثل هذه القصص يهمل الشخصيات إهمالاً يكاد يكون تاماً، ويكتفى منها ببعض الصفات المبهمة أو العامة، والقليل الذي ترد فيه الأسماء تجيء فيما يشبه الرموز، ليتمكن القارئ أو السامع من متابعة الأفكار، والوقوف على تطورها.

ومجمل القول أن القرآن «يحوّر القصة تحويراً ملموساً ليجعل لها معنى جديداً مختلفاً عن معناها السابق فيه كل الطرافة. وطريقة القرآن في تحوير القصص تحويراً جزئياً أو كلياً ليعث فيها معاني جديدة يلائم بينها وبين روح التقدم في الزمن أمر له خطره، ولكن دارسي الإسلام من المسلمين وغير المسلمين على سواء كادوا يهملونه على الدوام. وهدف القرآن من هذه القصص قلّ ما يكون العرض التاريخي، بل يكاد دائماً يهدف إلى أن يجعل لها مغزى عاماً أو مضموناً فلسفياً. ويحقق قصده هذا بحذف أسماء الأشخاص والأمكنة التي من شأنها أن تحدّد معنى القصة، بصبغها بصبغة حادثة تاريخية معيّنة، وكذلك بحذف التفاصيل التي تبدو خاصة

بنوع آخر من الشعور. وهذه الطريقة ليست غير مألوفة في عرض القصص، فهي شائعة في الأدب الذي لا يعالج الموضوعات الدينية. فمن ذلك قصة فاوست، فقد أضفت عليها عبقرية جوته جديداً تمام الجدة»^(١).

يتسع المقام لأن نأتى في هذه العجالة على ألوان من القصة في مختلف مسارها، بحسبنا أن نقف عند واحدة منها، تلتقى فيها الألوان الثلاثى التى عرضنا لها من قبل، وهى:

• قصة الهبوط :

وهو الاسم الذى اختاره لها فيلسوف الإسلام المعاصر، الشاعر الباكستانى محمد إقبال (١٨٧٣ - ١٩٣٨)، ويراها قصة رمزية أو قصة أسطورية، نأتى على نصها القرآنى، ونلحقه بتفسير إقبال له، وتعليقه عليه.

يقول الله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال:

(١) محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام، ترجمة عباس محمود.

ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغداً حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا: اهبطوا، بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا: اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم منى هدى، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(١).

قصة هبوط آدم من الجنة نجدها فى آداب العالم القديم على صور مختلفة. ومن المستحيل حقاً أن نحدّد مراحل نموها، وأن نرسم فى وضوح البواعث الإنسانية المختلفة التى لا بد أن تكون قد أثرت فى تحديدها البطيء. ولكننا إذا قصرنا بحثنا على صورة القصة كما جاءت عند الساميين، فمن المرجح جداً أنها نشأت عن رغبة الإنسان البدائى فى أن يفسّر لنفسه تعاسته البالغة، وسوء حاله فى بيئة غير مواتية له، تفيض بالمرض والموت، وتعوقه من كل ناحية فى سعيه لاستبقاء حياته. ولمّا لم يكن للإنسان أى سلطان على قوى الطبيعة، فإن نظره إلى الحياة نظرة متشائمة كان طبيعياً، وعلى ذلك نجد فى نقش بابلوى قديم ثعباناً (رمز عضو التذكير) وشجرة، وامرأة تقدم إلى رجل تفاحة (رمز البكارة).

ومعنى هذه الأسطورة واضح، هو أن سقوط الرجل من حال مفترضة من حالات السعادة كان سببه الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة لأول مرة. ويتضح لنا أسلوب القرآن في عرض هذه القصة عندما نقرنه بما ورد في سفر التكوين، ونقظ الخلاف الظاهرة بين رواية التوراة تشير إلى غرض القرآن إشارة لا تقبل الخطأ.

فالقرآن يسقط تماماً من روايته ذكر الحيّة، وحكاية خلق حواء من ضلع من ضلوع آدم، وحذف حكاية الحية تجريد للقصة من طابعها الجنسي، ومما توحى به أصلاً من النظر إلى الحياة نظرة متشائمة، وحذف حكاية الضلع يقصد به الإشارة إلى أن غرض القرآن من رواية القصص ليس السرد التاريخي، كما هو الحال في كتاب العهد القديم الذي يعطينا وصفا لأصل الرجل والمرأة تمهيداً لبيان تاريخ إسرائيل. نعم ورد في آيات القرآن التي تتحدث عن أصل الإنسان بوصفه كائناً حياً لفظ «بشر» أو «إنسان» لا لفظ آدم، الذي احتفظ به للإنسان من حيث هو خليفة الله في الأرض. ويزداد غرض القرآن تحقّقاً بحذفه أسماء الأعلام مثل آدم وحواء اللذين ورد ذكرهما في رواية التوراة، واستبقاء القرآن للفظ «آدم» واستعماله له، إنما هو للدلالة على اسم فرع معين من البشر. واستعمال اللفظ على هذا الوجه لا يعوزه الدليل من القرآن نفسه. فالآية: « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم »^(١) واضحة تماماً في هذا المعنى.

(١) سورة الأعراف، الآية ١١.

ويقسم القرآن القصة إلى حادثتين متميزتين: إحداهما تتعلق بما يصفه بالشجرة فقط ، والآخرى خاصة بشجرة الخلد وملك لا يلى، ووردت الأولى في سورة الأعراف^(١) والثانية في سورة طه^(٢). ورواية القرآن تقوم على أن آدم وزوجه أذلهما الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ، فذاقا من ثمار الشجرتين كلتيهما، على حين تقوم رواية العهد القديم على أن الإنسان طُرِدَ من جنة عدن فور عصيانه الأول ، وأن الله أقام فى الجانب الشرقى ملائكة وسيفاً من لهب يتحرك فى جميع الجهات لحراسة طريق شجرة الحياة .

«يلعن العهد القديم الأرض لعصيان لآدم، أما القرآن فيجعل الأرض مستقراً ومتاعاً للإنسان ينبغى أن يشكر الله عليه. «ولقد مكناكم فى الأرض، وجعلنا لكم فيها معاش، قليلاً ما تشكرون»^(٣). كما أنه ليس هنا من سبب لافتراض أن كلمة «جنة»، أى حديقة، استعملت فى هذا السياق للدلالة على جنة وراء الحس، يُفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض. وطبقاً للقرآن ليس الإنسان غريباً عن هذه الأرض، إذ يقول: «والله أنبتكم من الأرض نباتاً»^(٤) فالجنة التى ورد ذكرها فى القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التى جعلها الله مقاماً خالداً للمتقين.

(١) الآيات ١٩ - ٢٢ .

(٢) الآية ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٠ .

(٤) سورة بوح ، الآية ١٧ .

«الجنة التي وُعد المتقون وصفها القرآن بقوله: «يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم»^(١)، وفي مقام آخر يصفها بقوله: «لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين»^(٢)، على أن الجنة التي ورد ذكرها في القصة كان أول ما وقع فيها معصية الإنسان لربه ثم خروجه من الجنة. والواقع أن القرآن نفسه يفسر معنى «الجنة» كما استعملها في روايته، ففي بيان الحادثة الثانية التي وقعت في هذه القصة يصف القرآن الجنة فيقول: «إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى»^(٣). وعلى هذا فأنا لا أميل إلى اعتبار الجنة التي جاء ذكرها في القرآن تصويراً لحالة بدائية يكاد يكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التي يعيش فيها، ومن ثم فإنه لا يحس بلدغة المطالب البشرية التي تحدد نشأتها، دون سواها من العوامل، بداية الثقافة الإنسانية.

فقصة هبوط آدم إذن، كما جاءت في القرآن، لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسانية من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان. وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقي، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس، هو نوع اليقظة من حلم الطبيعة، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليا شخصية بوجوده.

(١) سورة الطور ، الآية ١٣ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٤٨ .

(٣) سورة طه ، الآيتان ١١٨ و ١١٩ .

هذا إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة عذاب سُجنت فيه إنسانية شريرة العنصر، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية. فالمصيبة الأولى للإنسان كانت أول فعل له تمثل فيه حرية الاختيار، ولهذا تاب الله على آدم، كما جاء في القرآن وغفر له^(١).

• القصص في الإسلام :

وعرف الإسلام القصص أيضاً، ونسب إلى تميم الداري أنه أول من قص في مسجد الرسول، وأنه استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه، ثم أذن له في آخر ولايته أن يفعل ذلك في يوم الجمعة، واستأذن عثمان فأذن له أن يذكر الناس يومين في الأسبوع، وقيل إن القصص حدث في زمن عثمان، وأن تميماً الداري أول من قص، وأن هذه النزعة نصرانية، بقيت عنده بعد إسلامه. وصورة هذا القصص أن يجلس القاص في المسجد، وحوله الناس، فيذكرهم بالله، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى، وأساطير ونحو ذلك. لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب، وقد نما القصص بسرعة لأنه يتفق وميول العامة، وأكثر القصص من الكذب، حتى روى أن الإمام علي طردهم من المساجد، ولم يشن منهم غير الحسن البصري لتحريه الصدق في قوله، وارتفع شأن القصص حتى أصبح عملاً رسمياً، يعهد به إلى رجال رسميين يتناولون عليه أجراً، ولعب قصاصان دوراً كبيراً، أحدهما: وهب بن منبه وهو فارسي، والثاني كعب

(١) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني، ص ٩٧ وما بعدها.

الأخبار، وهو يهودى من اليمن. وكان الحسن البصرى قاصاً من لون آخر، يعتمد على التذكير بالآخرة ونحوها، ويستخرج القصة مما يقع حوله من حوادث.

وفى العصر الأموى استردت القصة الجاهلية مكانتها، إلى جانب التيار الإسلامى الخالص، ونشأ ما أسماه بالقصص السياسى، لخدمة الصراع الذى كان قائماً بين الأمويين والمطالبيين بالخلافة من الشيعة والعباسيين، وازدهر إلى جانب هذين التيارين عنصر قصصى ثالث، يتمثل فى القصص العاطفى، ويدور حول صرعى الحب، ينطلق من الواقع، ويتخذ منه محوراً، ويكسوه ألواناً من الخيال والمبالغات تبتعد به عن الحقيقة، فيصبح وكأنه إبداع أدبى لا صلة له بالحقيقة، رغم الأسماء الواقعية التى تتخلل الأحداث.

لقد استولت أخبار حب جميل وبثينة على خيال الشعب العربى حتى صنع منها قصة غرام، ومازالت تتكاثر وتزايد ويعجب بها الناس حتى أصبحت مجموعة من القصص تعتمد على أبيات الغزل الشهيرة من ناحية، وتستعير بعض ما عند الأمم الأخرى، ورواها القصاص دون أن يهتموا بمصادرها، وتنوعت هذه القصص لتشمل آخرين، من صنع الخيال تماماً، وإن حملوا أسماء واقعية، مثل قيس ابن الملوّح مجنون بنى عامر، وكان العالم اللغوى عوانة بن المحكم الكلبي (ت ١٤٧ = ٧٦٤ م) يقول: «ثلاثة لم يكونوا قط، ولا عرفوا: ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم، وابن القرية، ومجنون بنى عامر».

وهناك من يرد هذه القصة إلى فتى من بنى مزوان، كان يهوى امرأة منهم، يقول فيها الشعر وينسبه إلى المجنون، وأنه عمل له أخباراً وأضاف إليها ذلك الشعر، فحمله الناس وزادوا فيه، وروى الأغاني جانباً كبيراً من هذه الأخبار. وفيما بعد أصبحت مادة محببة من أساطير الغرام عند شعراء الفرس والترك فتموها وزادوا عليها. وما ذكره الرواة من أخبار قيس بن ذريح ولبنى يومىء إلى أنها حدثت فعلاً، ومن ثم فهي موضع ثقة أشد من أخبار المجنون، ولكن المستشرق الألماني سنجر Singer يرى أن هذه القصة تعكس أهم عناصر القسم الثانى من قصة تريستان المشهورة عند الأمم الأوروبية. وثالثهم عروة بن حزام، وهو كجميل بثينة من بنى عذرة، واختلف فى قصته اختلافاً شديداً، فالمستشرق الفرنسى باسيه R. Basset يرى أن أساسها مارواه الشعراء الفرنسيون القدامى فى قصة «فلوار وبلانشفلور Floire Blanchefleur على حين يرى المستشرق الألماني هيه Huet العكس تماماً، ويرجح أنها انتقلت من بلاد العرب إلى أوربا، وهو رأى يدعمه أن القصة الفرنسية، رغم الأصول الإغريقية والبيزنطية التى تُرد إليها، كتبت بين عامى ١١٦٠ و ١١٧٠ م، واتخذت من القاهرة مسرحاً لأحداثها، ويدور الحب فيها بين طفلين يختلفان ديناً وطبقة.

ومن هذا اللون أيضاً قصة وضاح اليمن، عبد الرحمن بن إسماعيل، وينسب فى دهاقين الفرس الذين نزحوا قديماً إلى اليمن، وقيل إنه شُبب أولاً بروضة اليمانية، ثم تعرف فى موسم الحج إلى زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك، وابنة عبد العزيز بن مروان،

فأحبها وجاء دمشق وراءها، ثم لقيها، وعندما فجأهما الوليد أخفته في صندوق، وأدرك الزوج ما بداخله، فأمر بدفن الصندوق، فاحتوته الأرض بمن فيه، وقد صاغ الأستاذ أحمد حسن الزيات الحكاية في قصة جميلة، ذات أسلوب رشيق، وأسمائها: «وضاح اليمن».

● القصة الشعرية :

وتميز هذا العصر بنضج القصة الشعرية، وبلغت أوجها مع عمر ابن أبي ربيعة (ت ٧٢٠ م)، نعم إننا نلتقى بملامح لها عند الشاعر الجاهلي امرئ القيس، ولكنها تأتي عنده موجزة وبسيطة وساذجة^(١)، أما هنا فرقت واستطالت واستكملت أركانها، وأصبحت «الفستق المقشر» فيما يقول حماد الرواية. وكان عمر بن أبي ربيعة في مجتمع الحجاز صنو إحسان عبد القدوس في مجتمع القاهرة، أو المجتمع العربي بعامة إذا شئت، كلاهما وقع على خفايا المجتمع البرجوازي الذي ينتسب إليه وعاش فيه، واتخذ من أسراره مادة لقصصه، شعراً رقيقاً عند الأول، ونثراً أنيقاً عند الثاني، وأعطيانا صورة لبعض ما يحدث حقاً، ويتخفى منزويًا، خشية أو نفاقاً أو تستراً، وأوضح مثل لشعر عمر القصصي رائيته الشهيرة، ومطلعها:

أمن آل نُعم أنتَ غاد فمبكر غداة غدي أم رائح فمهجرُ

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي، امرؤ القيس: حياته وشعره، الفصل: «عاشق المرأة»، الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٨٥.

وهي تجمع الكثير من عناصر القصة الحديثة: قصيرة، وذات حدث، وبسيطة، وتعرض لجانب من الحياة، في لحظة محددة، وذات دلالة، ولكن دون أن يعنى ذلك بالطبيعة أن لها نفس الأحكام والبناء والدقة.

يبدأ عمر القصة بأبيات يصف فيها حبه لنعم، ورسولها إليه، ووقوفها متلهفة تنتظر طلعه، وتحدث إلى صاحبة لها :

أهدا المغيرى الذى كان يُذكر	قفى، فانظري أسماء! هل تعرفينه؟
وعيشك! أنساه إلى يوم أقبر	أهدا الذى أطريت نعتاً فلم أكن
سرى الليل، يحيى نصه والتهجر	فقلت: نعم، لا شك غير لونه
عن العهد، والإنسان قد يتغير	لئن كان إياه، لقد حال بعدنا

ويرسم ملامح شخصية البطل، لا يبالى لفح الشمس، ولا لسعة البرد، جَوَاب آفاق، عليه وعشاء السفر، نحل بدنه، حتى لم يعد له ظل على الأرض:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت	فيضحى، وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر، جَوَاب أرض، تقاذفت	به فلوات، فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظلّه	سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

وأوضح ملامح صاحبه، الشخصية الثانية في القصة، بأنها مدللة، تسكن بيتاً تطوقه الحدائق المخضرة، خلية البال، لا تستعبد لها مطالب العيش فهناك من يقوم على شأنها:

وأعجبها من عيشها ظلُّ غُرْفَةٍ وريَّانُ ملتفٌ الحسداًقُ أخضر
ووالٍ كفاها كلُّ شيءٍ يهملها فليست لشيءٍ آخر الليل تسهر

وخارج الحي يقف البطل خائفاً يترقب، يدبر أمره كيف يصل،
ويجهل بيتها أين يقع، فيستفتى قلبه، ويستهدى رائحته، حتى إذا
هدأ الحي، ونام القوم، وغاب قمير انتظر غروبه طويلاً وقلقاً، تقدم
إلى صاحبه، وحدثهما معاً لا يحتاج إلى تفسير:

فلما فقدتُ الصوتُ منهم وأطفئتُ

مصاييحُ شُبَّتْ بالعشاءِ وأنورُ

وغاب قمير كنت أهوى غيوبه

وروحُ رُعيانُ ، ونومٌ سُمرُ

وخفضُ عني الصوتُ أقبلتُ مشيةً الـ

حُبابٍ وشخصي خشيةً الحي أزورُ

فحييتُ إذ فاجأتها فتولَّهتُ

وكادت بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعضتُ بالبنان فضحتني !

وأنت امرؤٌ ميسورٌ أمرُك أعسرُ

أريتُك إذ هنا عليك ألسم تخفُ

رقيماً وحولي من عدوك حُضُرُ

فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجةٍ

سرتُ بك أما قد نام من كنت تحذرُ

فقلت لها بل قاذبي الشوق والهوى

إليك ، وما نفس من الناس تشمر

فقلت ، وقد لانت وأفرخ روغها

كسلاك بحفظ ربك المتكبر

فأنت أبا الخطاب غير مدافع

على أمير ما مكثت مؤمرا

ويمضيان لحظات جميلة، يصفها في بساطة متوهجة:

أقبل فاهما في الخلاء فأكثر

وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

لنا لم يكدره علينا مكدرا

وبت قرير العين أعطيت حاجتي

فيالك من ليل تقاصر طوله

ويالك من ملهى هناك ومجلس

ويعود إليها يصفها بعين العاشق الواصل، ويومئء إلى رد الفعل

عندها كيف رآها، وكيف وجدته:

نقى الثنايا ذو غروب مؤشرا

حصى برد، أو أقحوان منور

إلى ظبية وسط الخميعة جودرا

يمج ذكى المسك منها مفلج

تراه إذا ما افتر عنه كأنه

وترنو بعينيها إلى كما رنا

ويطويان الليل، يمر بهما الزمان عجلا، وتلوح خيوط الفجر،

ويستيقظ قومها، ويتأزم الموقف:

فلما تقضى الليل إلا أقله
 أشارت بأن الحى قد حان منهم
 فما راعنى إلا منادٍ: ترحلوا
 فلما رأت من قد تنبه منهم
 فقلت: أباديهم فيما أفوتهم
 فقالت: أتحيقألما قال كاشح
 فإن كان ما لا بد منه فغيره
 أقص على أختى بدء حديثنا
 لعلهما أن تطلبيا لك مخرجا
 وكادت توالى نجمه تتغور
 هبوب، ولكن موعدك عزور
 وقد لاح لمعروف من الصبح أشقر
 وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر؟
 وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
 علينا، وتصديقاً لما كان يؤثر
 من الأمر أدنى للخفاء وأستر
 ومالى من أن تعلم ما متأخر
 وأن ترحبا سرباً بما كنت أحرص

ويلقى الشاعر، أو القصاص إن شئت، نظرة على موقفها، وفي
 أى حال لقيت أختيها ولقيتاها، وماذا قصت عليهما من أمرها تطلب
 النصيح عندهما :

فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم
 وقامت إليها حرتان عليهما
 فقالت لأختيها: أعينا على فتى
 فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا:
 من الحزن، تُدرى عبرة تتحدر
 كساءان من خبز، دمعس وأخضر
 أتى زائراً، والأمر للأمر يقدر
 أقلى عليك الهم، فالخطب أيسر

واقترحت الصغرى أن تعيره بعض ملابسها، وأن يخرج معهن
 متخفياً فى زى فتاة :

فقال لها الصغرى: سأعطيه مطرفى

ودرعى، وهذا البرد إن كان يحذر

يقوم فيمشى بيننا متنكراً

فلا سرنا يفشو ، ولا هو يظهر

وتحل العقدة، ويخرج البطل على هذا النحو، بين فتيات ثلاث:
ثنتين مراهقتين، حول الخامسة عشرة من عمرهما، وثالثة ناضجة
تطرق باب العشرين:

فكان مجنّباً دون من كنت أتقى ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر

فلما تجاوزوا الحى، وأمنوا الفضيحة، وبلغوا شاطئ الأمان،
أخذن يعاتبنه على استهتاره وغوايته:

فلما أجزن ساحة الحى قلن لى: أما تتقى الأعداء والليل مُقمرُ
وقلن: أهذا دأبك الدهر سادراً؟ أما تستحى، أو ترعوى، أو تفكرُ

ثم تكون المفاجأة، فأنت تتوقع مع هذا العتاب الأخير، أنهن
لا يردن منه أن يعود، ولا أن يرينه مرة أخرى، على الأقل فى
الصورة التى جاء عليها، ولكن الأمر على العكس تماماً، إنهن
يشجعنه على العودة، فقط يلمحن إليه أن يضل الناس حين يجىء:

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا

لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

تلك هى قصة عمر، وحواره فيها سريع المناقلة، شديد المساجلة،
محبوك الأطراف، ينقل إليك الوقائع موجزة، فى لغة سهلة بسيطة، تخلو

من الإغراب، أقرب ما تكون إلى لغة الحياة اليومية، وتتميز بواقعية واضحة، وفيها النساء كما فى الحياة، حديثاً وطباعاً وأخلاقاً وإشارة.

وقد اتخذت من قصيدة عمر مثلاً، ولم يكن وحده صاحب هذا الاتجاه، ولم تكن القصة وقفاً على الشعر العاطفى، فهناك قصائد أخرى، كالذى عند الحطيئة، تعرض لجوانب الحياة اليومية، من معاناة وجوع وقهر، ولكن عمر وحده هو الذى بلغ بها الغاية.

• أوج القصة العربية الوسيطة :

مع ارتقاء الحياة، وشيوع الثقافة، وازدهار الترجمة، خلال العصر العباسى، وتدفق الثروات، وتناقض الواقع، من ثراء فاحش وفقير مدقع، ومن زهد خاشع وفجور غير محتشم، بدأت أحاديث السمر فى مجالس الخاصة، وبين حلقات العامة، تزدهر وتنوع، ولم تعد مشدودة إلى الأمس وحده، ولا مرتبطة بالحروب والأمجاد فحسب، ولا تقال متعة أو إزجاء للفراغ، وإنما أصبحت سلماً للنقد الاجتماعى، أو التصوير الأدبى، لقد دخل فن القصص دائرة الإبداع. وفى مجال التزاحم الفكرى أخذت القصة دورها فى الصراع، فكان للفلاسفة قصصهم الذى يحملونه أفكارهم دون أن يدرك العامة فى سهولة مرمى ما يهدفون إليه، وأصبح للوعاظ ورجال الدين قصصاً يدفعون به الناس إلى التقى، بطريق غير مباشر، يتدعونه حيناً، ويأخذونه مما حولهم من تراث أحياناً، ويزوقونه بالخرافة والمبالغة على الدوام. وقصص العشاق التى كانت فيما سبق محدودة وبسيطة وساذجة، أصبحت الآن كثيرة وشائعة ومتنوعة، وأكثر جاذبية

وإغراء، واقتحمت مؤلفات الصوفية والمحدثين والمجتهدين واحتلت منها مكاناً بارزاً. وعرضنا لهم تفصيلاً، في دراسة موازنة في كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه: طوق الحمامة».

أول ما نلتقى به من قصص هذه المرحلة كتاب «كليلة ودمنة» وترجمه ابن المقفع من اللغة البهلوية إلى العربية، وهي مجموعة قصص على لسان الحيوان، ذات أصل هندي، وضاعت أصولها الهندية والفارسية، وبقيت لنا في ترجمتها العربية، وجاءت في عدد من المخطوطات تتفاوت فيما بينها عدداً، وإن اتفقت أسلوباً، وباشرت تأثيراً غير محدود على نشأة القصة الأوربية في العصر الوسيط.

وفي مجال التأليف القصصي نلتقى بالجاحظ - وفي أي شيء لم يكتب الجاحظ! - وقدم لنا من خلال كتابه «البخلاء» مجموعة من الحكايات، تدور حول هذا اللون من الأخلاق، التقطها من الجو الذي حوله في البصرة وخراسان، في واقعية دقيقة، يذكر الأسماء والأمكنة والظروف، وأراد أن يكون في كتابه هذا ناقلاً أكثر منه مبدعاً، ولو خُلب للقصة لربما كان لنا معه مولير أو بلزاك آخر، ومع هذا فقد دفع بالقصة العربية خطوة إلى الأمام، حين هبط بها إلى واقع الحياة، وجعل السخرية جزءاً منها، ومزج فيها بين المتعة والجمال والنقد.

وفي هذا العصر فاضت القصص، وعنى المؤلفون بجمعها بكل ألوانها، وأصبحت زينة الكتب في شتى أنواعها، تاريخية أو أدبية

خالصة، أوفقها أو تفسيراً أو موسوعات، وحتى الكتب العلمية الخالصة من نحو وبلاغة. نلتقى بها في كتاب «التبر المسبوك» للإمام الغزالي (ت ١١١١م)، وفي «سراج الملوك» للطرطوشي المؤرخ (ت ١١٢٦م)، وفي «سلوان المطاع» لابن ظفر الصقلي (ت ١١٦٩م)، ولكن هذه الأقاويص تأتي في منطقة وسط بين القصة والنثر الفني.

وجاء الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٩٤٥م)، وكان تركياً مزدكياً ثم اعتنق الإسلام، ومهر في لعب الشطرنج، وبه كان يضرب المثل، فتقدم بالأمر خطوة، حين نشر بين مؤلفاته عدداً لا بأس به القصص. ومن بعده جاء تلميذه التنوخي، أبو علي محسن (ت ٩٩٤م)، وأمضى حياته كلها في العراق، وشغل منصب القاضي في عدد من المدن، ونسى ذلك كله، فلم يعد التاريخ يذكره إلا قصاصاً، ولا يذكر له من الكتب إلا «نشوار المحاضرة» و «الفرج بعد الشدة»، وكشف كتابه الأخير كل كتب القصص على أيامه، فقد طواه علي قدر كبير منها، لم يؤلفها نعم، وجاء بها مسندة، ولكنه أحسن تبويبها، ومهما كان مصدرها الذي التقطها منه، فقد عرف باختياره لها كيف يجعل منها وحدة، ولا أستبعد أن يكون جرى عليه قلمه، تعديلاً وتصويماً وصياغة. وعلى كل حال، كانت أفضل من كتابه الأول، وجاءنا غير مرتب، تشوبه الفوضى والاضطراب، وكلا الكتابين من أفضل ما كتب في قصص العصر العباسي، برغم أنهما لا يتمتعان باهتمام كبير في الدراسات العربية المعاصرة.

ولا توجد في قصص «الفرج بعد الشدة»، رغم الأسماء والوقائع والأمكنة، حدود فاصلة بين الخيال والواقع، بين ما حدث فعلاً وما هو من إبداع القصاص، فرداً أو جماعة، وتعرض لنا الوقائع دائماً صوراً تفيض بالمعاناة، ويعيش أبطالها في توتر دائم، ويجمع الكتاب بين القصة الحقيقية، والمغامرة المأسوية وحتى القصة البوليسية، وكلها محكمة النسيج، وذات عقدة، ونهايات قصصه سعيدة دائماً، وهي إلى جانب قيمتها الجمالية، تقدم لنا إطاراً جذاباً لواقع المجتمع البغدادي وعاداته، وإدراته، والحياة العامة والخاصة على أيامه.

وتمضى القصة في تطورها، ويشهد هذا العصر، قريباً من نهاية القرن العاشر أو بداية الذي يليه، الخطوات الأولى لألف ليلة وليلة، ولكنها سوف تكمل، وتأخذ صورتها النهائية في عصر تال، وفي القاهرة لا في بغداد، وسوف نخصها بحديث مستقل. وحول هذا الوقت أيضاً كُتبت المقامة، وسنعرض لها في فقرة تالية.

● القصة في مصر الوسيطة :

عرفت مصر الإسلامية القصص العربي في زمن مبكر للغاية، فقد أفرد لها معاوية من يقص على الناس، ويتلقى راتبه من الدولة، وصحب حملة الفتح الإسلامي قصص كثير، ارتبط بالحروب والأحداث السياسية وتسرب إلى كتب التاريخ، وأورد ابن عبد الحكم الكثير منه في كتابه «فتوح مصر» ما يتصل منه بمصر

الفرعونية أو القبطية أو بها في عهد الإسلام. وبعضه يحتمل الوقوع، والآخر لا يتفق مع الواقع، وقد يرفضه العقل جملة. من هذا القصص ما هو معروف وشائع، كقصة «عمرو بن العاص والكرة»^(١)، أو قصة «اليمامة والفسطاط»^(٢)، أو قصة التوأمين السجينين^(٣). ثم قدمت بعد ذلك كتاب قصص منظم، خالصا لهذا الغرض، يعد من أقدم كتب القصص في الأدب العربي، وأعنى به كتاب «المكافأة»، لأحمد بن يوسف بن إبراهيم، الشهير بابن الداية..

كان ابن الداية أحد كتاب الدولة الطولونية في مصر، وأصله من العراق رحل أبوه إلى مصر، واشتغل فيها بالعلم والأدب والمال، ونشأ الابن على نمط أبيه، فهو شاعر وأديب، وعالم بالحساب والهندسة والفلك، وأخذ بحظ من الفلسفة، عارف بالدنيا، خبير بشئونها، عاش وسط المظالم الفتاكة، والمفاسد المنتشرة، يمسي معها الرجل غنياً ويصبح صفر اليدين، من المصادرة والنهب والجور. لكن العصر لم يخل من أناس يتشوفون إلى العدل، ويتطلعون إلى الفجر، ويحاولون أن يخففوا على الناس ويلاّتهم ومصائبهم. ورأى أحمد بن يوسف، أن الإشادة بأعمال الخيرين وما صنعوا من بر، ونالوا من جزاء، والتشنيع على الظلمة وما ارتكبوا من جرائم، وأصابهم من عقاب، كفيل بأن يرقق القلوب الصفيقة، ويدعم

(١) خطط المقریزی، ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) الكندی : الولاة والقضاة، ص ٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٢٨ .

النفوس الخيرة، ويشيع الطمأنينة بين الرعية الفرعة، فكان كتابه: «المكافأة»، وجاء في إحدى وسبعين قصة موزعة على ثلاثة أقسام.

جاء القسم الأول منه في إحدى وثلاثين قصة، وقع بعضها في أيام المؤلف، وبعضها في غير عهده، وبعضها في الشام أو العراق، وجعلها تدور حول محور واحد هو: حسن الصنيع بالمكافأة على الجميل بالجميل.

ثم أتبع ذلك بقسم آخر عنوانه «المكافأة على القبيح»، وهو يتضمن إحدى وعشرين قصة، تدور حول مكافأة القبيح بالقبيح، وهو مكمل للقسم الأول فإذا كان ذاك يستحث الإنسان على فعل الخير توقعاً للمجازاة عليه خيراً. فإن هذا يحذر من فعل الشر خوفاً من سوء العاقبة، والمجازاة بالشر.

أما القسم الثالث فاسمه «حسن العقبى»، ويشتمل على تسع عشرة قصة، وهي كالمكملة للقسمين الأولين، وتدور حول من وقع في شدة ثم خلص منها، وكان عرضة لضياح ماله، أو فقدان نفسه، فردّ إليه ماله ووهبت له نفسه كما كان أو خيراً مما كان.

وابن الدابة فصيح في عبارته. دقيق في أسلوبه، قد يضطره تصوير الواقع أحياناً أن يأتي باللفظة العامية، ومنها ما لا يزال باقياً حتى يومنا هذا، كقوله: «فوجدناه قد ركب فحصلني على الباب»، ويستخدم كلمة «حاصل» بمعنى خزانة، و «التليس» بمعنى الزكبية، والمثل العامي: «من عمود لعمود يأتي الله بالفرج». وتضم قصصه

بيئات وعصوراً مختلفة، فمنها المصري والعربي والفارسي والرومي والجاهلي والإسلامي والطولوني والعباسي، وتمتاز بالإيجاز، وقلّة الحوادث والشخصيات، والوصول إلى الغاية عن أقرب طريق، وقوة الربط بين القصة وغايتها.

والمؤلف الثاني الشائبشتي أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ: ٩٩٨م)، وكان معاصراً للتبوخي في بغداد، وعمل في مصر قائماً على خزانة كتب العزيز الفاطمي خليفة مصر، وألف كتابه «الديارات»، وعرض فيه للأديرة التي في مصر والعراق والشام، لم يعرض لها أمكنة للتقى والعبادة، وإنما مهبط للذة والمتعة والفن، من موسيقى وشراب ورقص، وقيان وغلمان، وتغشاها الطبقة العليا في المجتمع، وأعطانا من خلال القصص الذي أورده صورة لحياة عليّة القوم في أيامه، وما يتصل بهم من أمور الطعام واللباس، وأساليب العيش، وإذا كان بين قصصه ما نقله من مؤلفات أخرى، أو شاركه غيره في روايته ففيه أيضاً ما تفرّد به. وهو جرىء فيما يروي، لا يحتشم ولا يداري، يجيء بالفكرة المكشوفة، والتعبير الفاضح، مما يجري حول الجوارى والغلمان، والتغزل بالرهبان والراهبات.

وحول هذه الأعوام كانت القاهرة تستقبل مجموعة جديدة من القصص يتداولها الناس في بغداد، وتلقفتها القاهرة لا لترويها وتستمر بها فحسب، وإنما لتنميتها وتزيد فيها، وتعيد ترتيبها، وكانت هذه المجموعة هي:

● ألف ليلة وليلة :

وآثرت أن أخصها بفقرة خاصة للدور البالغ الأهمية الذي لعبته في الحياة الأدبية العربية بعامة، والآداب الأجنبية على نحو خاص. وكان في أصله ترجمة عن أصل فارسي قديم يدعى «هزار أفسانه»، أي ألف حكاية، وترجع في نشأتها إلى أصول هندية، وقام الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب (ت ٩٤٢م)، بكتابة أول مسودة له في العراق، وأضاف إليها حكايات أخرى نقلها عن بعض القصص من مواطنيه، أما كتاب «هزار أفسانه» فقد أمدّه بالفكرة العامة، وهيكّل الكتاب، وأسماء الشخصيات الرئيسية، رجالاً ونساء، بما في ذلك شهر زاد. وفي البدء كان يُسمى «ألف حكاية»، ثم تحول ليصبح «ألف ليلة»، ثم «ألف ليلة وليلة» فيما بعد.

ومع الزمن أُضيف إليه قصص من مصادر مختلفة، ما بين هندية ويونانية وعبرية ومصرية وغيرها، وفي آخر القرن العاشر أُضيفت إليه قصة كانت تتحرك مستقلة وسط أندية بغداد الثقافية، وهي «رحلة السندباد البحري»، وجاءت صدى لاتساع الإمبراطورية الإسلامية، وفتوحاتها في المحيط الهندي، وهي ذات أهمية كبرى لما تقدمه من معلومات عنصرية، ومأثورات شعبية، وألوان ثقافية، تفتح الباب واسعاً أمام الأدب المقارن، ولكنها من وجهة الأدب الخالص ليست شيئاً عظيماً، فالمغامرات فيها تقوم على نسيج متشابه، فالبطل طاغية، يتلهف على الثروة، ويواجه الخطر ويحتمل

الصدمة، وصامد إزاء الفشل أو الانتصار على السواء. وقصص «عجائب الهند» وأضيفت إلى ألف ليلة وليلة» في هذه الفترة، أروع فناً وجمالاً وأسلوباً.

ونُقل إلى هذا الكتاب، قبل أن يأخذ صورته الأخيرة في مصر، مختلف القصص الشرقية التي مرت عليه خلال القرون، وكان بلاط هارون الرشيد معيناً لا ينضب للقصص الفكاهية والحكايات الغرامية. وأخذ الكتاب شكله الأخير في مصر، في القرن الخامس عشر، ورُتّب ليلة ليلة، والنسخة التي بين أيدينا منه قام بتحريرها يهودى مصرى اعتنق الإسلام في القرن نفسه، واختار فيما يبدو، مجاراة للذوق السائد واستشارة للقارىء، أقل حكاياته حشمة. وصيغة الكتاب غير المتجانسة حملت أحد النقاد المحدثين إلى أن يصفه، في ألفاظ ملؤها الدعابة، بأنه مجموعة قصص فارسية، روتها على الطريقة البوذية، الملكة أستير اليهودية، لهارون الرشيد في القاهرة، خلال القرن الرابع عشر المسيحى. ولكن ذلك لم يقف حائلاً دون أن يغزو الكتاب أوروبا كلها، مجملاً أو قصصاً منفردة، على امتداد العصر الوسيط، وبخاصة بعد أن بدأت ترجمته إلى اللغات الأوربية في القرن الثامن عشر، وهو أشهر كتاب عربى تعرفه أوروبا دون استثناء.

وأسلوب الكتاب مختلف باختلاف الزمان والمكان والعرف والشخص. فالأسلوب الهندى سلس فى قصصه، متماسك الحلقات، والأسلوب العربى يأتى بالقصة مستقلة عن الأخرى، ويتميز أبطاله،

لسبب لم أهد إليه بعد، بالزوجية. فهناك دنيا زاد وشاه الزمان، وقمر الزمان وابن الملك شهرمان، والأمير خلف وأميرة الصين، وغيرها. ويقدم لنا المرأة حلوة عذبة، ذات ثقافة واسعة، وقادرة على إثارة روح الحماسة عند الخليفة، بحيلها الدقيقة الماهرة، ومناقشاتهما البيزنطية، ولا تطلب منه مقابل ذلك إلا أن يرضى رغائبها كديك، وأن يكون معها فحلاً، وستعرف كيف تسعده في عطائها فناً واستسلاماً، أكثر من كل أولئك اللاتي سبقنها. ويتظاهر الخليفة، على نحو ما يصنع كل الحكام، بأن يكون عادلاً، بارعاً في الحكم، يخرج متخفياً بين الشعب، ليتسلى بمتابعة حركة الحياة عن قرب، أو ليرى كيف يؤدي المسؤولون مهامهم.

وأسلوب الكتاب على أي حال سهل المأخذ، مبسوط العبارة، سوقى اللفظ، كثير الاستطراد والتضمين، جرىء الإشارة، لا يعرف الكناية، ولا يقنى الحياء، ولا يصطنع التحفظ، ومن الصعب أن يقرأه الإنسان كله دفعة واحدة، بحالته الراهنة، أما إذا تسقط قصصه واحدة وراء أخرى، فسيجد فيه متعة بالغة الجمال.

وإلى جانب هذا الكتاب المترجم في أصوله الأولى، واستهدف عواطف العامة في رحلته، يدغدغ أحاسيسها بالفكرة المكشوفة، والتعبير غير المحتشم، سلكت القصة العربية طريقاً آخر، يرضى العلماء والمثقفين، ومن يستعذبون اللفظ الغريب، والكلمة المهجورة، ودخلت تاريخ الأدب العربي تحت اسم:

● المقامات :

المقامة شبه قصة قصيرة، تدور حول بطل وهمي، يروي أخباره راوية، وهمي أيضاً، وبطلها رجل أحكم التحيل، وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، فأخباره تدور حول الكدية والخداع، والاحتيال والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية، ولا تحييها شخصية حقيقية، وإنما هي ميدان لعرض النكتة، وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة، وإظهار المقدرة اللغوية. تجمع شوارد اللغة، ونوادير التركيب، في أسلوب مسجوع أنيق، يعجب أكثر مما يؤثر، ويلد أكثر مما يفيد.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين، هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كأبي زيد السروجي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري في مقامات البديع. وبين هذا البطل ورجل آخر صلة وثيقة، ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادث، ويسمعه في كل مجلس، ثم يروي للناس ما عليه من خير أو شر. ذلك الراوي هو عيسى بن هشام في مقامات البديع، والحرارث بن همام في مقامات الحريري. لكن المقامة نلت من العقدة، وهي أهم مميزات القصة، وتجاوزت الشخصية الروائية تحلل نفسياتها، وتدرس أخلاقها، فهي إجمالاً حيلٌ تفسر حياة متكدي، ألقت على صورة واحدة، وانصرف كاتبها عن الموضوع إلى الأسلوب، يعرض للموعظة ويهتم بالنكتة المستملحة، وينثر بين سطورها الألفاظ اللغوية والنحوية، وكل ذلك في لغة جزلة كثيرة الغريب، وأسلوب مسجع محكم الوزن.

جاءت مقامات البديع الهمذاني (ت ١٠٠٨م) في إحدى وخمسين
مقامة، وبطلها أبو الفتح الإسكندري عاقل ذو ثقافة واسعة، يقول
الشعر الرائع، ويسلك أوعر المسالك في اللغة والنقد والأدب، ويخرج
منها مطمئنا إلى علمه، معتمدا على سداد رأيه، لا تصرعه صعوبة،
ولا تفوته حيلة. وقد خبر الحياة، وذاق حلوها ومرها، وسعى في
الاحتيال على الدهر القاسي بشتى طرق الكُدْيَة، وعرض نفسه لشتى
المواقف، فهو خطيب يتحدث إلى الجماهير تارة، وهو مشعوذ
يضحكهم بالأعيبه ومكره وكذبه تاره أخرى، تراه في المقامة
الساسانية زعيما لجماعة من بني ساسان، وفي الخمرية إماماً يصلي
بالناس، وفي القزوينية في زى الغزاة المجاهدين، وفي القردية قراداً
يرقص قرده، وفي الموصلية دجالاً يدعى إحياء الموتى، عملاً بمبدأ
«الغاية تبرر الوسيلة»، لقد قسا عليه الدهر كما قسا على غيره من
أهل العلم والأدب، فتصعلك وتسؤل، وامتهن الكُدْيَة، ولم يترك
مدينة في ما حوله من بلاد إلا رحل إليها يطلب الرزق، وعاد في
كل الأحوال خاوي الوفاض.

وبعض مقامات البديع جاءت في أسلوب قصصي شائق، يكشف
بهجته أحياناً الإطناب المتكلف، والزخرفة المصنوعة، والرغبة الملحة
في التعليم، وينطوي بعضها الآخر على قصص طريف نابض بالحياة،
لا يخلو من روعة وامتعة، ويعكس ظرف المؤلف وخفة روحه.

ووضع الحريري (ت ١١٢٢م) خمسين مقامة، وبطل مقاماته
أبو زيد السروجي من أهل الكدية الذين احترفوا التسؤل، ووسيلته

فيها فصاحة لسانه وسحر بيانه، وتشبه مقامات الهمداني من حيث النزعة التعليمية، وتفوقها في ذلك، ولكن مقامات الهمداني أسهل مأخذاً، وأقل تكلفاً، وأكثر ابتكاراً للحوادث، على حين يغلو الحريري في السجع والتعقيد، وتحفل مقاماته بالكنايات التي تشبه الألغاز، وبالأحاجي النحوية، والمسائل الفقهية، والفتاوى اللغوية، والغريب من الألفاظ، واستحدث فيها من فنون العبث اللغوي الجمل التي تقرأ طرداً وعكساً من غير أن يتغير معناها مثل قوله: «كبر رجاء أجر ربك»، واستخدم أحياناً جملاً كاملة خلت حروفها من الإعجام، أو جاءت معجمة كلها، وخلق بهذه الأساليب عقول معاصريه، ومن أتوا بعده من هواة الألغاز والأحاجي في عصر الاحتضار.

كانت المقامة تجديداً في القرن العاشر الميلادي، وليس هنا مكان أن تناقش نشأتها، وهل ابتدعها الهمداني، أو سبقه بها ابن دريد اللغوي، المتوفى عام ٩٣٤م، لأنها تعيننا جنساً أدبياً فحسب على يد أي كاتب ابتدعت وبأي قلم خطت، ومعها بلغ النشر الفني في اللغة العربية قمة الإحكام والصنعة، في ذوق العصر الذي شهد مولدها، وكان انتشارها عبر بقية العالم العربي سريعاً، فبلغت الأندلس أقصى حدوده في الغرب شمالاً عام ١١٠٨م، أي في نفس العام الذي توفي فيه الهمداني، حملها إليه يوسف بن علي القضاعي. وفي الأندلس كتب أحمد بن عبد المنعم القيسي الشريشي أوفى شرح لمقامات الحريري، حتى يومنا هذا، وحاول كثيرون تقليدها، ولأغراض شتى، ولكن أحداً لم يبلغ في هذا المجال ما بلغه

الهمداني وصاحبه الحريري. وأخذت طريقها إلى لغات أخرى، فاحتذى نهجها الأدب العبري والأدب السرياني، وتركت تأثيراً واضحاً في الآداب الإسبانية.

• هجرة القصة إلى أوروبا :

أول لون من القصة، بمفهومها العام، عرفته أوروبا في العصر الوسيط وشاع في أرجائها، مأخوذ من أصول عربية واضحة، وهو كتاب « التربية الدينية *Disciplina clericalis* » ليهودي أندلسي من وشقة، يدعى موسى سفردي، اعتنق الكاثوليكية عام ١١٠٦م ودخل التاريخ تحت اسم بدرو ألفونسو، وتضمن كتابه ثلاثاً وثلاثين قصة شرقية، يغلب على الظن أنه كتبها بالعربية أولاً ثم ترجمها فيما بعد إلى اللغة اللاتينية، ونقلها عن كلية ودمنة، ورحلة السندباد، ومصادر عربية أخرى، وأورد فيه الكثير من الأشعار، والأمثال والخرافات، وقصص أخرى مرحة ولاذعة وجارحة للحشمة، مثل قصة خدعة غطاء السرير، والشاب الغيران الذي يحبس امرأته ويغلق عليها الباب، فتركه في الطريق وتأبى أن تفتح له. ولقى الكتاب ذيوماً واسعاً فترجم كله أو بعضه إلى اللغات: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية والعبرية، ولغات أخرى، وانتفع به كل الذين جاعوا بعده من القصص.

وأخذ كتاب « كلية ودمنة » طريقة إلى أوروبا في زمن مبكر، فقد أمر ألفونسو العالم بترجمته إلى اللغة الإسبانية عندما كان أميراً عام ١٢٥١، ومن قبل ذلك تُرجم إلى اللغة العبرية، وعنهما ترجمه إلى

اللاتينية بعد الترجمة الإسبانية بسنوات قليلة، يهودى اعتنق الكاثوليكية أيضاً، يدعى يوحنا دى كالبوا، وعن هذه الترجمات الثلاث اجتاح أوروبا فنقل إلى أكثر من أربعين لغة.

وأول ما ترجم من ألف ليلة وليلة «قصة السندباد»، قبل أن تصبح جزءاً منه فى المشرق، ووصلت أوروبا عن طريق ترجمة يونانية نقلت عن السريانية، وهذه عن العربية، فى أواخر القرن الحادى عشر. وعن طريق ترجمة أخرى أمر بها ألفونسو العالم أيضاً عام ١٢٣٥م، والصورة العربية الإسبانية لهذا الكتاب تضم ستا وعشرين حكاية، تربطها بعضها إلى بعض حكاية أساسية واحدة، على نحو ما نرى فى «ألف ليلة وليلة» ومجزها: أن أميراً اتهمته زوج أبيه بأنه أراد أن يغصبها، فقضى أبوه بموته، ولزم الأمير الصمت، وتأجل تنفيذ الحكم سبعة أيام، دار النقاش فيها بين زوج الأب وسبعة من العلماء، ودارت أحاديث هؤلاء حول مكاييد المرأة وحيلها وشدوذ طبعها. وفى اليوم الثامن ينتهى الأجل المحدد، ويخرج الأمير عن صمته، ويظهر لأبيه الملك براءته، فيعفو عنه، ويلقى بزوجه فى النار.

لم يُترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» كاملاً على النحو الذى نعرفه عليه الآن إلى اللغات الأوربية قبل القرن الثامن عشر، وما كان ذلك ممكناً، لاتساع حجمه، والجهد الكبير الذى يتطلبه، ولأنه لم يأخذ صورته النهائية فى مصر إلا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، ولكنه تسرب رواية شفوية، أو ترجمات كتابيه،

قصة وراء أخرى عن طريق الأندلس، أو مع التجار والرحالة، وبدون هذا الاحتمال لا يمكن تفسير تأثيره الواضح في الأدب الإسباني الوسيط، فجمهرة كبيرة من أقاصيصه ذات صلة واضحة بحكايات ألف ليلة ليلة، وبعضها لا يعدو أن يكون صياغة جديدة، في لغة أجنبية، لمناخ مختلف عليها أن تأخذه في الاعتبار.

وجاء خوان منويل الإسباني (١٢٨٤م - ١٣٤٨م) بمجموعته « الكوند لوكارنو EL Conde Lucarno »، فدفع بالقصة خطوة إلى الأمام، أضاف إلى غاياتها المتعة، بعد أن كانت وقفا على التريفة والتهديب ورغم أنها مقتبسة من أصول عربية عرف المؤلف كيف يصوغها في قالب مبتكر، ويضفي عليها طابعاً شخصياً خالصاً، في روح فكه معتدل لا يجرح الشعور ولا يتبدل، وقدّر لأقاصيصه أن تحتل مكاناً جديراً بها في تاريخ الأدب العالمي، وأن يصبح معها أول أديب صاحب أسلوب ثري، من كتاب العصور الوسطى، نهل من ينابيع عربية. ولم تتوقف القصة عنده، واصلت سيرها نحو الأفضل، احتفظت بخصائصها الجوهرية، من حدث متوتر يوقظ الاهتمام دائماً، وأسقطت ما كان حواشي، واكتسبت خصائص جديدة، تستهدف الإبقاء على اهتمام السامع والقارئ دافئاً حتى النهاية، وفي مكان آخر من أوربا، في إيطاليا بالذات، سوف تتغرب في الجانب الأكبر منها.

● بداية القصص الأوروبية :

كان الإيطاليون أصحاب السبق في تخليص القصص الأوروبية الوسيط من تقشف وقناعة القصص الإسباني، ولقد قامت أولى

هذه المحاولات فى القرن الرابع عشر فى روما، داخل حجرة فسيحة من حجرات قصر الفاتيكان، كانوا يطلقون عليها اسم «مصنع الأكاذيب»، اعتاد أن يتردد عليها فى المساء نفر من سكرتيرى البابا وأصدقائهم للهو والتسلية وتبادل الأخبار... وفى مصنع الأكاذيب هذا كانت تخرج أو تُقصر كثير من النوادر الطريفة عن رجال ونساء إيطاليا، بل وعن البابا نفسه، مما دعا الكثيرين من الأهالى إلى التردد على هذه الندوات حتى لا يهزأ بهم فى غيبتهم. وكان من أكبر رواد، «مصنع الأكاذيب» مثابرة، وأخصبهم خيالاً، رجل غريب الأطوار، اسمه بوتشيو Poggio اشتغل نصف حياته سكرتيراً للبابا، وتزوج وهو فى السبعين من عمره فتاة فى الخامسة عشرة، وبدأ بهذا الزواج حياته الأدبية، فدوّن النوادر التى قصها وسمعاها فى «مصنع الأكاذيب»، فأعطاها بذلك شكلاً أدبياً أسماه «الفاشيتيا Facetia»، تداولته بعده أجيال عديدة من الكتاب^(١).

وكانت المحاولة الثانية، وفى القرن نفسه، على يد بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣-١٣٧٥م)، من أب إيطالى وأم فرنسية، فياض بالمتعة والإثارة، وكتب عام ١٣٤٩م حكاياته التى أسماها «الديكاميرون»، أو الليالى العشر، ضمنها مائة حكاية، أسندها إلى سبع سيدات وثلاثة رجال، اعتزلوا مدينة فلورنس بعد أن اجتاحتها الطاعون، وقرروا إلى الريف، وأقاموا فى قصر أحدهم ولكى ينسوا ما خلقوا وراءهم من مناظر الموت وآثار الدمار، ورغبة فى أن

(١) رشاد رشدى : فن القصة القصيرة، ص ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٥٩ .

ينسوا آلامهم، وترجىة للفراغ بينهم، فرضوا على كل واحد منهم أن يقص على أصحابه كل ليلة حكاية، وأنهوها في عشرة أيام.

لم يخترع بوكاشيو قصصه، واستخدم في كتابته مصادر لاتينية وعربية، وأساطير وحكايات شفوية، وكان أول كاتب أوربي يستخدم الفن الشرقي في تسلسل القصص والربط بينها، وبذلك مهد الطريق لمن جاءوا بعده.

وحكايات بوكاشيو طويلة، وتربط بينها المناقشة والمناسبة، تتنوع موضوعاتها، وتغلب عليها السخرية، طافحة بالشهوة، مليئة بحب الحياة، تعرّى غوايات الرجال ومباذلهم، وأسلوبه رائع وفخيم، يشدك إليه عنف التناقض بين مواقفه، كالذى بين السنداجة والفجور في قصة على بك، والفتاة التى أصبحت ناسكة، ومنظر الحب بين راهب وفتاة طائشة، وفي لحظات الراحة يتحدثون عن المجد الخالد، وقصصه معقد، وأشد كثافة، ويستخدم خيوطاً أكثر مما يستخدم سواه من معاصريه أو السابقين عليه، وثمة حكاية رئيسية عنده، تتغذى بعناصر موازية تثيرها، كأحداث جديدة مثلاً، وفيما يتصل بفن القص والحوار وبناء الشخصيات لا مثيل له، ويرى النقاد أن القصة الحديثة تبدأ معه، من بين قلمه تدفقت أشكالها الأولى، وقلده الكثيرون في إيطاليا وبقية البلاد الأوربية، ودفع بإيطاليا إلى مكان الصدارة في الحياة الثقافية بين بقية دول القارة، وترجمت قصصه سريعاً إلى كل لغاتها.

وإذا تجاوزنا عصر بوكاشيو إلى القرن الذى يليه، أعنى القرن الخامس عشر، وجدنا إيطاليا تموج بألوان من قصص «الفاشيتيا»،

كتبها أدباء إيطاليون يتمون إلى حركة الإنسية Humanismes، بعضها ماجن للغاية، والبعض الآخر كتب لغايات خلقية، وأشهر قصص هذا القرن «السمين Grasso» للقصاص الإيطالي أنتونيو مانيتي Manetti (١٤٢٣ - ١٤٩٧)، ويراها النقاد أروع قصص القرن الخامس عشر، ومع ذلك يرجح أن مصدرها «قصة النائم اليقظ» في ألف ليلة وليلة، غير أنها حافلة بخطوب الدهر، وذات تأمل مختلف.

وعلى امتداد القرن الخامس عشر غزا هذا الجنس الأدبي إسبانيا وفرنسا، ففي الأولى كتب أنتونيو دي لاسل (١٣٩٨ - ١٤٦٢)، وربطته صلة صداقة وطيدة في روما مع بوتشيو والقصاص الإيطاليين الآخرين، مجموعة من الحكايات بعنوان: «خمس عشرة متعة للزواج»، وفيها يسخر على نحو تقليدي من رذائل الزوجات وتضحيات الأزواج، ونوادره لذعة، استمدتها من الخرافات، ثم انتقلت إلى المسرح فيما بعد. وربما كان من المحتمل أنه مؤلف «مائة رواية جديدة»، ونشرت عام ١٤٣٨ م، وألفت في بلاط برجونيا، لتسلية الأمير فيليب الصالح، وهي حكايات برجوازية، ذات واقعية خليعة العذار إلى حد بعيد، ولغتها بسيطة، وصريحة بلا موارد، ولكن دون أن تكون لها قيمة نفسية.

ومن المفيد أن نشير إلى مجموعة كتبها ألفونسو مرتينيث، كاهن مدينة طلبيرة (ت ١٤٧٠ م)، بعنوان: «كرباج Corbacho»، وقصصها ينضح واقعية، وربما كانت متأثرة بالقصة العربية، كما يوميء إليه

اسمها، وأياً ما كان الأمر فهي تلتقى في جوانب منها، مع كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي، وألمحنا إلى هذا الجانب في كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة»^(١).

● بداية النهاية :

واصلت قصص بوكاشيو تأثيرها على امتداد القرن السادس عشر، في عدد من البلاد الأوربية، دون تجديد واضح أو تطور يذكر، وأكثر المؤلفين قرباً منه مواطنه بنيدللو لومبرادو Bandello Lombrado (١٤٥٨ - ١٥٥٣)، رجل دين رحالة، وكان موضع عناية مرجريت ملكة نبرة، وعينه إنريك الثاني ملك فرنسا أسقفاً لمدينة أجن Agen في فرنسا، وترك لنا ٢١٤ قصة، ظهرت فيما بين عامي ١٥٥٤ و ١٥٧٣م، وتعكس إلى حد بعيد عادات وتقاليد العصر، ولا يمكن القول بأن المؤلف في مستوى بوكاشيو، ولكن ليس مبالغة أن نقول أنه يقرب كثيراً منه، وقد عاشت قصصه، وكان مقروءاً على نحو واسع، وترك تأثيراً واضحاً في عدد من الكتاب الآخرين، وبخاصة شكسبير.

وتميزت القصة في إسبانيا خلال هذا القرن، بأنها تجيء قصيرة ومستقلة، ولكنها تمثل جزءاً من مؤلف كبير، من جنس أدبي آخر، رسائل تربوية، أو روايات رعوية، وندين لهذا اللون الأخير بقصة عربية جميلة: «ابن سراج وشريفة الجميلة»، لم تلتقطها المصادر

(١) أنظر الفصل الخاص بتأثير طوق الحمامة في الأدب الإسباني، الطبعة الرابعة،

العربية، لأنها ألفت جماعياً، وفي شكل شفوي، لحظة إنتهاء الإسلام دولة في الأندلس، وخلاء الساحة من المؤرخين والمدونين.

وكانت فرنسا البلد الوحيد الذي طاول إيطاليا في القصة خلال هذا القرن، فكتبت مرجريت (١٥٥٣-١٦١٥) الزوجة الأولى لهنري الرابع ملك فرنسا مجموعة قصص سارت فيها على نهج «الديكامرون» أخذت منه الشكل العام وسارت على نهجه، فقسمت مؤلفها إلى ليال عشر، وخمسة رجال وخمس نساء، وفي مياه كوترية المعدنية، أعلى جبال البرانس، كل واحد منهم يحكى قصة في كل يوم، لتبلغ القصص مائة، ولكن الحلقات توقفت عند القصة الثانية والسبعين لموت مرجريت، ونشرت هذه القصص عام ١٥٨٨ ، وجاءت على نحو ما عند بوكاشيو، كل قصة يتلوها حوار ونقاش، والمغامرات فيها واقعية غالباً. وتميزت عن كل الذين قلّدوا الأديب الإيطالي، بأنها زادت عليه شيئاً، دفعت بالمزيد من التميز والحياة في شخصيات الأبطال، وتجرى أحداثها في جو من التقوى الجادة، والمشاعر الدينية الخالصة، ولو أنها جافة أحياناً، وتلقى بملاحظاتها على مشاعر الشخصيات، وتحاول تحليل الدوافع الداخلية للأحداث.

ونلتقى بعد مرجريت بكاتيها دي برييه DesPeriers (١٥٠٠-١٥٤٤م)، وكتب مجموعة من القصص أعطاها عنواناً: «تسليات جديدة، وعظات بهجة»، وجاءت في معظمها قصيرة، وفي جانب منها خرافات، ولكنها أشد حيوية ولمعناً من أقاصيص صاحبة

الجلالة، وقد استغلها لافونتين فيما بعد، وقصاص آخرون. وكتب رسالة أخرى عنوانها Cymbalum Mundi ، ونشرها عام ١٥٣٧ م، وجاءت في شكل لوحات وحوار بالغ الجرأة، وفتحت أمامه باب الاضطهاد والملاحقة واسعاً، متهماً بالإلحاد والزندقة.

وإذا توغلنا في القرن السابع عشر وجدنا القصة تميزت بطابع ملحوظ، بعدت عن الأصول الأولى، أدبية أم شعبية أم مجهولة القائل، وعندما كتب الروائي الإسباني العظيم ثرفانتيس (ت ١٦١٦) مجموعة قصصه: «روايات نموذجية»، دافع في المقدمة عن أصالتها: «إنها ذاتية تماماً، ليست تقليداً ولا مسروقة، أبدعها ذكائي، وأنجبها قلمي» وينسب إلى هذا القرن القصاص الفرنسي شارل بيرو Perrault Charlies (١٦٢٨-١٧٠٣ م)، وأسهم بمجموعة من القصص الجميل، جمعه من أفواه الرواة، ويصور التقاليد الشعبية على أيامه، وتميزت من بينها مجموعة «حكايات أمي لوا»، وأسعدت أجيالاً من الأطفال الأوربيين.

ومع نهاية القرن خبا وهج القصة، وانزوت بين مختارات الأمثلة والحكم والنوادر والقصائد، تجيء كجملة اعتراضية في المؤلفات الذائعة الانتشار، ولم يتميز بين الذين عرضوا لها كاتب يمكن أن يفرض نفسه على ذاكرة التاريخ، ولكنها لم تمت كجنس أدبي، وقد نجدها عند كتاب بعينين عن هذا اللون من الأدب، مثل مكيافلي، وليونارد دافنشي، والكاتب المسرحي الإسباني لوبي دي فيجا، أوترسو دي مولينا، وتميز الأخير بأنه لم يترك الاهتمام بها

أبداء، ولكن ما حرره فيها متواضع للغاية، إذا قيس حتى بما كانت عليه في القرن الرابع عشر.

وسقطت القصة كجنس أدبي في القرن الثامن عشر الميلادي، إنه عصر الاهتمام بما هو عملي، ومادي وملموس ومفيد، وربما كان الكاتب الفرنسي الذائع الصيت لافونتين، أشهر من نمى هذا الجنس فيه، ولكنه كان كاتب خرافات أكثر منه قصاصاً. وهناك من عالج هذا اللون من كبار الأدباء، مثل فولتير ومدام دي ستال، دون أن يكونوا قصاصاً أو موهوبين في كتابتها، إنما فعلوا ذلك ليدلوا على قدراتهم الأدبية، على نحو ما فعل الدكتور محمد حسين هيكل، في مطلع هذا القرن، حين كتب رواية زينب، فلم يكن مدفوعاً بانفعال حقيقي، أو مستجيباً لفيض داخلي، وإنما كتبها لأن مثل هذا اللون من الأدب، فيما يرى، يجب أن يكتب في العربية، دون أن يعنى ذلك أنه روائي أو قصاص.

ولكن هذا العصر بدأ يشهد مولد شكل أدبي محدد، في نطاق القصة، وقريب جداً منها، وهو: تصوير العادات، ومع نهايته ازدهرت الرومانسية، وبلغت الذروة، وأفسحت الطريق أمام قصص جديد، قيم وأصيل، وأمام نظريات هامة لم تعرف من قبل حول القصة والقصاص، ومع ذلك كله، فيما يلي من صفحات.

القصة الجديدة

كُتبت القصة قبل القرن التاسع عشر في أحجام مختلفة، ولأهداف متعددة، دون إحساس واضح بأهميتها كجنس أدبي مستقل، له شخصيته وإيقاعه الذاتي، واختلط الكم بالكيف، وانعكس ذلك على تقدير القصة، فاعتبرت نوعاً أدبياً مفضولاً، دون أن يدرك أحد أن الحكايات الصغيرة، والصفحات القليلة، يمكن أن تتسع لألوان من الجمال والمشاعر الإنسانية، أكثر وأعمق مما يمكن أن يوجد في أية رواية عامرة بالصفحات. كان من الضروري أن نبلغ هذا القرن لكي تستقل القصة جمالياً، وأصبح عادياً أن تقرأ قصة قصيرة كاملة، دون أن تكون في حاجة لأن تضمها إلى قصة أخرى، أو تدمجها في جنس أدبي مختلف، لانتشار الصحافة، وتعدد المجلات، وتنوع صدورها، أسبوعية وشهرية وفصلية، وحرصها على أن تضم صفحاتها قصة أو أكثر، وفيما بعد يضمها الكاتب إلى وصيفاتها وينشرها ويتخذ من عنوان إحداها عنواناً للكتاب.

ارتباط القصة بالصحافة في هذا القرن أدى إلى ظهور وتشجيع ما يمكن أن ندعوه بقصة الظرف المناسب، حين يراعى الكاتب مقتضى الحالة الذي تتحرك الصحيفة في نطاقه، وإدراك الظروف المتغيرة سياسياً وثقافياً واجتماعياً، أو حتى كأعياد الميلاد، وفضول العام، ومواسم الامتحانات، والاكتشافات العلمية، حتى لا تجيء

قصته نشاراً، ومع نجاح القصة فثأ أخذت من الصحيفة أو المجلة مكاناً ممتازاً، كافتتاحية رئيس التحرير، أو التعليق السياسي، أو الخبر الهام، وأصبحت تدور حول الأحداث السياسية، والوقائع المثيرة للجماهير، وموضوعات اللحظة، وبدأ كبار الكتاب في إسبانيا - مثلاً - يكتبون وينشرون قصصاً حول حرب كوبا والفلبين، أو حول الصراع الاجتماعي والديني، وكان إذ ذاك حادثاً وعنيفاً. وفي فرنسا بدأوا يصورون عن البرجوازية وتحللها، واتساع المستعمرات وشقاء أهلها، وهكذا حددت الصحافة إيقاع القصة، وجعلت منها مناضلة دون قصد، تتنفس بالشكوى والاحتجاج والتمرد، والتزام جانب الضعفاء والذين تطحنهم قسوة الحياة.

لقد تميّز القرن التاسع عشر في الأدبين الأوربي والأمريكي بأنه عصر القصة، ومجرد ذكر أسماء ذات اعتبار مثل: موباسان، ودوديه، وتشيفوف، وأوسكار وايلد، وإدجار ألان بو، وهوفمان، وغيرهم، يعطينا صورة واضحة عن القدر الذي بلغته عالمية هذا الجنس الأدبي. وإلى جانب ذلك طبعها سمات خصبة ومتنوعة، وعرفت المذاهب الأدبية المختلفة، من الرومانسية، والبارناسية الرمزية، والطبيعية والمودرنزم. ويستحيل علينا في هذه النظرية العابرة والعامّة أن نحلل ألوان القصص التي زخر بها هذا القرن، أو نقف عندها، أو نتحدث ولو في سطور عن أعلامها، ولكني أود أن أقف عند أربعة كانوا الرواد، اثنان منهما دفعا بها إلى الوجود، وهما: إدجار آلن بو الأمريكي، وجوجول الروسي، واثنان أعطاها شكلها الفني

الدقيق وتركا تأثيراً واضحاً في القصة العريية، وهما: موباسان الفرنسي، وتشيوخوف الروسي.

• نيقولاى جوجول :

عندما جاء جوجول إلى الحياة، في نفس العام الذى ولد فيه ألن بو، عام ١٨٠٩ ، كانت القصة العاطفية، فى صورتها البدائية، تسيطر على الأدب الروسى المشهور، وما أغزر الدموع التى سكبها آلاف القراء، وبخاصة النساء، على القلوب الكسيرة، حلق بها الحب، وحملها فى نهاية المطاف إلى الفشل والإخفاق.

وُلد جوجول لأحد صغار الملاك، وقضى طفولته فى مزرعة عائلته، وجزءاً من شبابه فى معهد النبلاء، وفى جو أوكرانيا الهادىء وحركة المدينة الناعسة، تنسم على مهل التقاليد والعادات والذكريات، يمارسها فى حياته اليومية، أو يسمعها قصصاً وحكايات فى بيتهم، وبين لداته، واستقرت فى أعماقه، وامتلاً ذهنه بالأفكار الغريبة، والآمال الحالمة، وطمح أن يكون ممثلاً. وفى عام ١٨٢٨ رحل إلى مدينة بطرسبرج، مدينة ليننجراد الآن، لكى يحقق رغبته، وكان فشله على خشبة المسرح ذريعاً، فاضطر أن يعمل كاتباً صغيراً فى الحكومة، ليكسب ما يساعده على العيش، ثم بدأ يتجه إلى الأدب، قرض الشعر أولاً، وفشلت قصائده الرومانسية فشلاً ذريعاً فاتجه إلى القصة، ونشر بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى المدينة مجموعة قصصه الأولى، نصفها عن الجنيات والنصف الآخر أساطير تأثر فيها بالرومانسين الألمان، وفيها يحاول الشياطين السفلة أن يخدعوا

الفلاحين، أشداء وقلوبهم خالية من الهم، وربما نجحوا في إفساد علاقة غرامية، ولكنهم يلقون الهزيمة في النهاية على يد حدّاد أديب، أو فتاة ماكرة.

لقيت هذه المجموعة نجاحاً أدبياً هائلاً، وتأثرت بالرومانسية، وترك فيها الأدب الشعبي بصماته واضحة، وفيها يتلاقى المرح والرعب، وتتعدد الألوان وتتدافع، ولكن بعضها انحرف نحو طريقة جديدة، بعدت به عن الرومانسية، واقتربت به أكثر إلى واقع الحياة، إلى الأشياء الحقيرة التي تحدث كل يوم، في المدن والقرى وبين بسطاء الناس، وتضحك وتبكي في الوقت نفسه: شاب خجول يلغى ذاته، وتسيطر عليه عجوز نشطة من أقربائه. اثنان من الجيران، مزارعهم صغيرة، وعقولهم فارغة، يفقدان صداقتهما لسبب تافه، ويصبحان خصمين، ويقضيان بقية حياتهما في المحاكم والتقاضى، وهكذا، وأبدى جوجول في كل هذه القصص قدرة غير عادية على الملاحظة، ومحاكاة الأصوات والروائح والصور، في أسلوب بارع، وموسيقى متميزة، وتلاًلاً نثره، في تدفقه السريع، كما يتلأأ التيار الجارف، تحت أشعة الشمس اللامعة، متألقاً، فياضاً بالحياة، قوياً لا يقهر. ولكن جوجول، بدا منتشياً بتأثير أسلوبه، وقدرته البالغة على التصوير، وتمكنه من مادته يعث بها، كالمشعوز، وقد روّعه الملل والحطة اللتان قام بتصويرهما، واستشعر في أعماقه رعباً مدوياً، من تفاهة حياة معظم البشر وخشونتها.

وقد حاول في البدء أن يهرب إلى بطولات الماضي، وأن يندس بين مثل الرجال الأقوياء، فكتب روايته القصيرة «تراس بولبا»، وبعد

محاولات غير موفقة في الأبحاث التاريخية والتدريس عاد إلى كتابة القصة من جديد، واتخذ مادتها مما يدور حوله في مدينة بطرسبرج، واتسمت بالغموض والمفارقات، وفيها بدأ يستخدم الضحك سلاحاً، بعد أن كان يضحك لغير هدف، ويكشف عن الواقع التعس الذي يعيشه عامة الناس، وتعكس أعماله في هذه الفترة قلقاً عقلياً غامضاً ومحيراً، وإلى هذه الفترة تعود قصة «المعطف» ولو أنه نشرها بعد ذلك بسنوات، وبلغت شهرة واسعة، وبطلها كاتب بسيط، تركزت أحلامه كلها في معطف جديد، وكان لهذه القصة الوهمية تأثير هائل، وكُتبت بطريقة هزلية ساخرة، ولم يعرّها معاصروه اهتماماً لأن نهايتها غير طبيعية، ولكنها تضمنت كل الموضوعات الأساسية التي كان يدور حولها الأدب الروسي في تلك الفترة: إحساس الرجل العادي البسيط بالظلم الاجتماعي القاهر، وأحلام الفقراء ونهايتهم، وكان دستوفسكى يرى أن كل تقاليد النثر الروسي تعود إلى «المعطف»، وتأثر بها وعشرات غيره، وكان ترجنيف يقول مورياً، ومعتزلاً بسبق جوجول في مجال القصة الحديثة: «لقد أتينا جميعاً من تحت معطف جوجول»!

ولكن جوجول نفسه لم يكن يدرك تأثير مؤلفاته، وكان يكتب عادة وهو في غيبوبة تامة، ملهماً ومدفوعاً ومطيعاً كمن يسير أثناء نومه، ممزق الداخل، تتنازعه كافة أنواع القلق الخلقى والدينى، ولم يكن قد مارس الحب مع أية امرأة، فسيطرت عليه العقدة والأمراض الوهمية، والآلام النفسية، وكان في الوقت نفسه مرحاً، حاضر البديهة، قادراً على سرد ما هو تافه، وكتابته والضحك منه،

وإضحاك الآخرين عليه. وإلى جانب طموحه كان مولعاً بالشهرة، معتزاً بمهنته، يحسن اختيار اللفظ المناسب، وشخصياته من الواقع، وتجلي ذلك في مسرحيته «المفتش العام»، وفيها استخدم اللغة الدارجة، تخالطها التعبيرات الخشنة أحياناً، والتي يتكلمها أنصاف المتعلمين، وأثارت عاصفة متربة عند عرضها، وتلاطمت الآراء حولها، بين مؤيد محبّد، ومعارض مهاجم، فترك روسيا، ورحل إلى أوروبا، واستقر به المقام أخيراً في روما.

كان إمام جوجول بمشكلات عصره السياسية والاجتماعية متواضعاً، ولم يكن ينتمى إلى أية جماعة فكرية، ومع ذلك كان شديد الرغبة في مناقشة مستقبل وطنه، ويحاول رفع مستوى التقاليد الثقافية، ويحلم بانتشار التعليم، ويؤمن بالنتائج الهائلة التي تتحقق من وراء تعميمه، ولم يدرك جيداً ما أحدثه أدبه، وارتاع عند ما وقعت جمهرة الناس على ما فيها من معان لم يفكر فيها ولا أرادها، وكان عليه أن يتخذ موقفاً إيجابياً، فركن إلى التأمل والدين بحثاً عن النصح، وعندما عاد إلى روما للمرة الثانية سقط في قبضة رجال الدين، وكتب عدة مقالات فلسفية دافع فيها عن الحكم المطلق، والرق والإعدام والكنيسة الأرثوذكسية وفضيلة الطاعة، وكل ما فضحه في مسرحيته «المفتش العام»، وكانت نهاية محزنة لفنان عظيم. وموزع المشاعر والأحاسيس، ممزق الداخل والولاء، اجتاحه إرهاب عصبي أودى بحياته، في فبراير من عام ١٨٥٢، وشهد جنازته الآلاف من الناس، تقديراً مؤثراً لأول قصاص روسي عظيم.

أسهم جوجول في خلق القصة القصيرة، وكانت إضافته في الموضوع أكثر منها في الشكل الفني، ولكنها إضافة لم يكن من الممكن أن تتطور القصة وتكمل بدونها، لقد تجاوز الاتجاه الرومانسي الذي كان سائداً في عصره، في اللغة والموضوع، واتجه إلى الأرض والفلاح، والإنسان العادي، وحدد الموضوع شكل القصة واللغة التي تكتب فيها، واتسعت الفجوة بين القصة القصيرة والحكاية، فهذه تحكى في لغة منمقة حكاية الأمير وست الحسن والجمال تسوى الهوائل، وترسم البطولات الخرافية، وتلك تحكى في لغة بسيطة لحظة واقعية دافئة من حياة إنسان عادي يكدح طوال النهار.

لقد دفع جوجول بالقصة القصيرة خطوة واسعة حين بعد بها عن الرومانسية، وعن اللغة المنمقة المزوقة، وعن الغريب، وحين نزل بها إلى الحياة اليومية بلحظاتها العابرة، وشخصياتها المتفردة، وصراعها الدائب، وحين ربطها برباط لا ينفصم مع واقع الحياة، وكان له من الحس الفني ومن الإدراك ما جعله يخرج بالطفل الوليد إلى الوجود متخففاً من كل الأثقال التي تحول دون نموه وتعوق تقدمه، وكأنما أدرك أن القصة بناء رهيف ينوء بالفصاحة وبالدروس الفلسفية والأخلاقية، فالتزم الموضوعية البحتة في كل ما كتب من قصص قصيرة، وصور الحياة كما هي عليه، بلا تزويق ولا وعظ ولا إشادة^(١).

(١) الدكتورة لطيفة الزيات: مقومات القصة القصيرة، مجلة الرسالة، العدد ١٠٩١،

● إدجار ألن بو :

كان علماً متميزاً في الأدب الأمريكي، ولد صدفة في بوستون، ولكنه لا ينتمى إلى مجموعة المؤلفين فيها، وأمضى جانباً كبيراً من حياته في نيويورك، ولم يتأثر بأى من الطرز الأدبية التي سادتها، ظل فريداً، شاعراً وناقداً وقصاصاً، وخارج دائرة الأدب الأمريكي، علم وافد من العالم القديم، وزهرة دخيلة وعبقة، بين زهور أمريكا البرية الشائكة. وليس ثمة أمريكي ممتاز يصعب الوصول إلى ترجمة حقيقية له مثل ألو بو، واعترافاته لا يوثق فيها كثيراً، يكفي أن نشير إلى أنه أعطى في ثلاث مناسبات مختلفة، ثلاثة تواريخ متباينة لمولده، وتتباين بينها كثيراً، وكان مزهواً بفوضى شبابه فيما يبدو، وأطراها دائماً ما استطاع، واختلف فيه الدارسون بين إطراء يبلغ قمة المجد، ونقد يتجاوز حد العدا.

ولد في بوستون ١٩ يناير ١٨٠٩، لأب ضابط ثائر وممتاز، تخلى عن حقوقه ليصبح ممثلاً من الدرجة الثانية، ولأم ممثلة ممتازة، وفي العام الثالث من مولده توفيا بداء السل، وتركاه وراءهما ثلاثة أبناء على باب الله، أكبرهم في الخامسة من عمره، وأثار موقفهم المحزن عاطفة الشفقة عند جار لهم، وكان من تجار الطباق الأغنياء، فاختر إدجار، وهو أوسطهم، وكان طفلاً جميلاً فتناه، وبعدها جرى كل شيء في صالحه، حمله أبواه بالتبني إلى إنجلترا وهو في السادسة من عمره، وأدخله مدرسة خاصة في ضواحي لندن أمضى فيها خمسة أعوام، وعندما عادوا إلى الولايات المتحدة واصل تعليمه على يد عدد من المدرسين الخصوصيين،

حتى إذا بلغ الثامنة عشرة من عمره دخل جامعة فرجينيا عام ١٨٢٦ وفي هذه السنة نفسها اندفع يقترض بلا حساب، ورفض متبنيه أن يسدد ديونه، وغاضباً عليه أخرجه من الجامعة، وألحقه موظفاً بمكتب جار سابق لهم، ولم يعجبه العمل فتركه، وعاد إلى بوستون، وفيها نشر ديوانه الأول بعد قليل، ديوان شعر صغير، محدود القصائد، ثم انتظم في سلك الجيش عام ١٨٢٧ لمدة سنتين، بلغ فيهما درجة «رقيب»، وسمع أن والدته بالتبني توفيت فذهب لتعزية زوجها، وعفا هذا عنه، وتوسط له في أن يدخل الكلية الحربية، ولكنه طرد منها بعد عشرة شهور لسوء سلوكه، فتنكر له أبوه بالتبني من جديد، وعندما توفي بعد قليل وفتحت وصيته، تبين أنه تجاهل إدجار تماماً ولم يوص له بشيء.

وما لبث أن رحل إلى مدينة بلتيمور، شدته إليه شاباً وطموحاً، وكانت عاصمة الجنوب الأدبية إذ ذاك، ولكن أعماله الأدبية الأولى لم تصادف نجاحاً، إلى أن نال جائزة القصة القصيرة عام ١٨٣٣م، وفيما بعد قال جون كيندى وكان أحد أعضاء اللجنة التي فحصت قصص المتقدمين، إن بو كتب قصصه في خط جميل للغاية، كما لو كان طباعة، وجلدها في أناقة، وأن اللجنة منحته الجائزة متأثرة بهذا الجانب الشكلي إلى حد كبير، وقد قدم ست قصص، اختار منها واحدة للنشر بعنوان «المخطوطة وجدت في زجاجة»، وعاش على امتداد عامين مع خالة له، ثم توسط له جون كيندى لكي يعمل في المجلة الأدبية التي تصدر في المدينة، وما لبث أن اختص بتحريرها وحده. وفي عام ١٨٣٣ تزوج من ابنة خالته، فتاة جميلة

وغمضة، فى الرابعة عشر من عمرها، وفى حبه لها وجد شعاعاً مضيئاً، أشرق فى أعماقه، وأنار حياته الحزينة. جاءت لتفتح له أبواب السعادة والنجاح والمستقبل، وأدركت معه المجلة الأدبية ذيوعاً واسعاً، وحملت معها شهرته ناقداً وقصاصاً، ولكن بعد ثمانية عشر شهراً تركها وعاد صايحاً من جديد.

وأضى فى فيلادلفيا خمسة أعوام، عمل محرراً فى بعض صحفها، وانتقل إلى نيويورك ليعمل فى المهنة نفسها، وقرّ رأيه على أن يستقر فيها. ولكن عاداته السيئة حالت بينه وبين الاحتفاظ بأية وظيفة لمدة طويلة، وبين ألوان الشقاء والشهرة التى تحاصره من كل جانب ماتت زوجته عام ١٨٤٧، وعلى الرغم من أدبه والإقبال عليه، وعمله القاسى، رأى نفسه مضطراً لقبول المساعدات المالية. ومع وفاة زوجته بدأ نصف مجنون، وسقط نهائياً فى عالم اللامبالاة. وبعد عامين بدأ يداعب إحدى صديقات طفولته، يتحسس الطريق إليها زوجاً، فلما استجابت له رحل إلى الجنوب لينهى إجراءات الزواج، ولكن ما إن التقى برفاقه القدامى فى بلتيمور حتى أغرق نفسه فى الشراب من جديد، كان يسكر حتى البلادة، وبعد أيام وجدوه فاقد الوعى تماماً، وما لبث أن توفى فى ٧ أكتوبر ١٨٤٩م، وله من العمر واحد وأربعون عاماً.

كان بو شاعراً وناقداً وقصاصاً، ويهمنا من إبداعه الجانب الأخير فحسب، وهو الذى أجاد فيه وتميز، وامتد به الخيال عبر أرجائه، وجاءت قصصه كلها قصيرة، بعضها تحليلى والآخر

خيالى، وأغرم فيها بالمناظر العابسة، والقلاع الشهباء، والمباني القديمة، انهارت تماماً أو قامت لها بقايا، ويستخدم تقنية رياضية تنطلق من وصف المناخ الهادئ، وتندفع بالقارئ فى نعومة إلى عالم مجنون، وانفعالات متوترة، وبؤس قاتم، وكلها تترك فى أعماقه شيئاً غامضاً ومرعباً، والموت وحده هو الذى يريح منها، وحتى عناوين قصصه قاتمة، ولا تخدم القصة عنده أى هدف غير أن تجمد الدم فى العروق، ومع ذلك فهو ينمى فكرته فى مهارة عالية، ويحمل القارئ إلى النقطة الحاسمة، يثير أعصابه تماماً، ولا يفكر فى غير التأثير الذى يحدثه فى أعماق قرائه، وكانت وجهة نظره التى دافع عنها دائماً: «إن التهذيب ودروس الأخلاق لا مكان لها على الإطلاق فى الإبداع الفنى». ورغم أن عالمه ينوء بالرعب والمآسى جميل وأخاذ، وهذا المزج المحكم بين الرعب والجريمة والمعاناة يدفع بالحزن فى أعماقنا على غير إرادة، ويجعل منا رومانسين حتى لو كان كل ما حولنا من شقاء يشدنا إلى الواقع الأليم شداً.

لم يحدث أن عرّى النقاد الأمريكيون مؤلفاً أمام الجمهور ليرى كل نقائصه كما فعلوا مع بو، لقد ضغط عليها كثيراً الناقد جريزولد Griswold ، وهو أول من كتب سيرته، ولكن الكتاب المتأخرين كانوا أكثر موضوعية، ويقول عنه ولز Willis وعرفه عن قريب : « كان منضبطاً ومجتهداً، هادئاً وصابراً، فارساً ومحترماً، ولطيفاً ».

في عام ١٨٨٥ رُفعت في متحف الفن الحديث في نيويورك لوحة تذكارية لبو، كُتب عليها: «كان عظيماً في عبقريته، تعساً في حياته، بائساً في موته، ولكن شهرته ستبقى إلى الأبد».

• جي دي موباسان :

ظلت القصة القصيرة على نحو ما وصفنا في الفصل السابق، إلى أن جاء موباسان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٥٠-١٨٩٣)، وكان شاعراً وقصاصاً وروائياً ومؤلفاً مسرحياً، وتلمذ على الكاتب الفرنسي فلوير، وربطته بأسرة موباسان علاقة وثيقة، وتبناه وبسط عليه رعايته، فكان يصحح له أخطاءه، ويرشده إلى مصادر ثقافته، ونصحته ألا ينشر شيئاً قبل أن يتمكن من أصول القصة وتقنياتها. وبدأ حياته مناضلاً في صفوف الطبيعيين تحت راية إميل زولا، وبتأثير منه ومن أستاذه فلوير انتهى إلى الواقعية، مطلقة وجافة وساخرة لا ترحم. وجاءته الشهرة مع قصصه الأولى، وفيما بعد نشر كثيراً منها، وفيها تتعاش ألوان من البرجوازية الباريسية، وفلاحين من نورمانديا، ماهرين وحقراء وخشنين، ورسم أولئك وهؤلاء في دقة رائعة، وبفن لا يعلى عليه.

كان يرى أن الحياة واقعا تختلف عما يقرأه في القصص والروايات، فليس الحب والزواج أهم ما فيها، ومن الأمور العادية التي تحدث كل يوم ما يصلح موضوعاً لقصة، ومن الأفراد العاديين الذين يتحركون بين غمار الناس ما يصلح أن يكون بطلاً، ومنابع إلهامه جنسية، والجنس منبع خطر للإلهام، لأنه يصبح متناقضاً بسهولة،

والقصص والروايات التي كانت في أصلها احتجاجاً عاطفياً على استغلال الجنس وامتھانه تصبح بسهولة مجرد طريقة أخرى لاستغلاله وامتھانه. والرجل الذي يختار الجنس كمنبع للإلهام كمن يرث بيتاً للدعارة، فقد يستعمله بالطبع ليجعل حياة موظفيه أسعد وأحسن، ولكن من الممكن دائماً أن يستعملهم لمنفعته ومتعته الخاصة^(١) ومن ثم كان مجاله الخاص «الجماعات المغمورة جنسياً في القرن التاسع عشر الأوربي، ولقد عالج الموضوع آخرون من قبل دون شك، ولكن موباسان كان الرجل الذي وسمه بطابعه، الرجل الذي ربط نفسه علانية بالبغايا، وبالفتيات ذوات الأطفال غير الشرعيين. لقد عومل هؤلاء كنكتة قبيحة حقاً، حتى أرساهم هو كموضوع حقيقي، نكتة من نكات قاعات الموسيقى، والصحف الهزلية التي عرفت الحقيقة الكامنة وراء نفاق العصر البراق»^(٢).

لقد انتهت به التجربة إلى أن الملامح العابرة والأحداث البسيطة، والأفراد المغمورين، لا تصلح الرواية للتعبير عنهم في الواقعية الجديدة، وأن القصة القصيرة تجيء منفصلة، وتعبيراً عن لحظة محددة، أفضل قالب يصب فيه انطباعه عنهم. وكان هذا اكتشافاً خطيراً، ومن أهم الاكتشافات الأدبية في العصر الحديث، لأن القصة التي ارتضاها موباسان، ولأمت مزاجه، وافقت روح العصر، وكانت وسيلة طبيعية للتعبير عن الواقعية الجديدة، وغايتها اكتشاف

(١) فرانك أوكونور: الصوت المنفرد، مقالات في القصة القصيرة، ترجمة الدكتور

محمود الربيعي، ص ٦٣، القاهرة ١٣٨٩-١٩٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦.

الحقائق من الأمور الصغيرة العادية المألوفة، ولعل هذا هو السبب في انتشار القصة القصيرة منذ موباسان حتى يومنا هذا^(١). وكأى عمل جديد ورائع وأصيل، رفض الناس قصص موباسان في بادئ الأمر، لأنها جاءت على خلاف ما سبقها من قصص، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا روعة الفن فيها، فأقبلوا عليه، وارتببت باسمه في وطنه فرنسا، وفي خارجها.

كان يتصور الحياة قبيحة، ويركز إلتفاته في نقطة صغيرة منها، وهي عادة نقطة كئيبة رثة غير شائقة، ويأخذ هذا الجزء الصغير فيضغطه إلى أن يعبس أو يدمى، ولكن أتعس قصصه يومض في روايتها بريق الشهوة، إنه يحب ذلك الاتصال الكهربى للحم البشرى، فهو «رينوار»^(٢) القلم. ولم يكن يرى في قصص الحياة التي كان عليه أن يرويها، سواء قصص الفلاحين أو الأمراء، غير فكاهة دقيقة مستخفية، وبلغ أدق الحيل الفنية في وصفه لمسلاة الألم والغباء والبذاءة، وقصصه الإباحية تستثير دائماً الشرارة السريعة للعقل اللاتينى. ولقد كتب كثيراً من القصص، وأشخاصه لا ينعمون براحة دينية أو روحية، وهو شاعر في زى ساخر، متشائم وقاسى القلب، وأصبح الرسام الأكبر للعبوس البشرى، يرسم وليس به حب أو كراهية، ولا غضب ولا عطف، فهو يعرض علينا كل الأرواح الغريبة، وكل منكودى الطالع، عرضاً واضحاً بحيث نراهم بأعيننا

(١) الدكتور رشاد رشدى: فن القصة القصيرة، ص ٩ .

(٢) رسام فرنسى شهير، من بين أعلام المذهب التأثيرى فى الرسم، وعاش من

نحن، فنجدهم أروع من الحقيقة نفسها، لقد استطاع بضربات قليلة من قلمه اللدن، أن يعيد الحياة إلى كل جهاد الفلاحين النورمنديين، اتصل بهم، وأدرك طرائق عيشتهم، وغرائزهم وأفكارهم، فجاء تصويره لهم صادقاً وأميناً، وعابساً كئيباً في الوقت نفسه. كان دائماً يلتقط قصصه من بينهم، ومن شفاه صائدي الأسماك، والممثلات والعاشرات والكتبة، ويردد: علينا أن نقفز إلى النجوم من سلم الملاحظة الدقيقة.

● تشيخوف :

بعد تسع سنوات من رحيل جوجول، أو في عام ١٨٦٠ م علي التحديد، طرق تشيخوف باب الحياة، والحالة في وطنه أشد سوءاً، والإرهاب أعلى كلمة، وبعد إغتيال الإمبراطور إسكندر الثاني عام ١٨٨١ م، إزداد الحكم المطلق قساوة وعنفاً، فجمد الحياة الثقافية، وحافظ على امتيازات النبلاء، وعمق الفروق الطبقية، وقيد التعليم، وشدد الرقابة، وواد المبادرة، واضطهد الأقليات، واستحالت الحياة عند الطبقة المتوسطة والمثقفة إلى جمود مميت، وعكس الأدب كآبة ذلك العصر.

ولد أنطون تشيخوف في «تاجا نروج» على بحر أزوف، ابناً لصاحب حانوت صغير، وحفيداً لعبد من رقيق الأرض، ليس أمامه ليزيح تلال الشقاء من طريقه غير العمل المضني، والكفاح الشاق الدعوب. وبعد سنوات دراسية بائسة في مسقط رأسه لحق بأسرته الكبيرة في موسكو، تناضل هناك ضد الفقر، من أجل حياة أقل

بؤساً، وحقق شيئاً مما أراد، فدخل كلية الطب، وبدأ أثناء الدراسة ينشر صوراً قلمية ساخرة، بأسماء مفتعلة ومتعددة، يهدف من ورائها أن يريح شيئاً، وسرعان ما أصبحت الكتابة شاغله الرئيسي. وحين حصل على شهادة الطب هجره إلى الأدب، وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره توطد مركزه كقصاص من الصف الأول، وبعدها لم تتوقف شهرته أبداً، وعندما توفي بالسل عام ١٩٠٤ م، اعتبر مواطنوه ذهابه خسارة قومية كبرى، ولم تستطع أية اتجاهات سياسية أن تؤثر في شعبيته، وظل عدد قرائه في العهد القيصري وبعد الثورة الشيوعية واحداً لم يتغير، ولقى في الأعوام الأخيرة تقديراً خاصاً خارج بلاده، وبخاصة في البلاد التي تتكلم اللغة الإنجليزية، ويعد اليوم واحداً من أعظم كتاب القصة في العالم، وأهم كتاب روسيا وأوضحهم تأثيراً فيمن جاءوا بعده.

عندما كان في التاسعة والعشرين من عمره أوجز حالته التي كان عليها حين اقترح في لهجة تجمع بين السخرية والمرارة والصدق والإحساس بالرضا، أن يكتب قصة عن شاب أبوه من رقيق الأرض، وعمل مساعداً في حانوت، وصبيّاً في جوقة، وتلميذاً في مدرسة، وطالباً في الجامعة، تربي على نفاق الأكابر، وتقيل أيدي القسس، وتقبل أفكار الآخرين دون سؤال، وعبر عن امتنانه لكل لقمة خبز تناولها. جُلد مراراً، وذهب حاف القدمين ليعطى دروساً، وتشاجر في الشارع، وعذب الحيوانات، وتلمس الذهاب إلى بيوت الأغنياء من ذوى قرابته ليأكل، وناق الله والإنسان دون سبب، سوى أنه وعى عدم أهليته. هل تستطيع أن تكتب قصة عن الطريقة التي

اعتصر بها هذا الشاب شخصية العبد من نفسه قطرة قطرة؟. وكيف شعر وهو يستيقظ ذات صباح أن الدم الذى يجرى فى عروقه دم حقيقى وليس دم عبد؟ (١).

تميز تشيخوف بأنه عرف وطنه جيداً، وملاً قصصه بممثلين لكافة دروب المجتمع، من الفلاحين والنبلاء، والموظفين التافهين، وكتبة الأقاليم، والتجار الغشاشين، والمدرسين المملين، والقساوسة المتواضعين، وضباط الشرطة الجهلة. وباختصار كان الإنسان العادى البسيط يمثل الشخصية الرئيسية عنده، شخصية خالية من أية سمات بارزة، وتعيش حياة تافهة، اهتماماتها حقيرة، وأفكارها وضيعة، يخسر الواحد منهم على مائدة القمار فيعاقب ابنه بالسياط فى الصباح التالى، ويرقص طرباً عندما تنشر الجريدة المحلية اسمه فى حادث مرور، أو ينال وساماً يضعه على صدره، ويسير به فى الشوارع مزهواً، وقد ترك معطفه مفتوحاً فى يوم شديد البرودة.

سخر تشيخوف من كل هؤلاء، واتخذ منهم مادة قصصه، وتمتع بقبرة باهرة على تصوير غباء العاطلين، وسكر الحوذية، وخيانة الزوجات، وانخداع الأزواج، وارتشاء رجال الشرطة، وبخل التجار، وفضح فى غير موارد رياء الناس وحمقاتهم وتفاهة ما يفكرون فيه، ولكنه فى أواخر حياته قلل من الفكاهة والسخرية، وركز على الجوانب السلبية المدمرة فى حياة البشر.

(١) فرانك أوكونور: الصوت المنفرد، ص ٦٩ .

كانت قصص تشيخوف متنوعة الموضوعات، واتسمت بالسلبية تجاه الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانت تحكم أقدار روسيا في أواخر القرن التاسع عشر، وما كان يهيمه من الأحداث العادية تصوير الانحطاط الروحي في أعماق النفس الإنسانية، ومن ثم تميزت شخصياته باللامبالاة، وخور العزيمة، لا يعرفون ماذا يفعلون بحياتهم، ويسيروا في طريق مألوف ارتاده قبلهم آلاف وآلاف، يعيشون في مدينة صغيرة موحشة، يحتسون الفودكا، ويلعبون الورق، ويثرثرون بأحاديث مكررة، وغير ذات معنى، ثم يعترتهم السأم والملل من تشابه الأيام والليالي، ويفقدون القدرة على الانفعال العنيف، أو العمل المثمر، ضحايا التفاهة والرتابة، وعاجزون عن الإفلات من طوفان الأحزان. وكان ذلك نتيجة طبيعية للأحوال الاجتماعية والسياسية التي كانت تسود المجتمع الروسي إذ ذاك.

كان تشيخوف على النقيض من شخصياته وأبطاله دوؤبًا نشطًا، ودافع عن العمل والإرادة، وآمن بالصحة والذكاء والموهبة، والإلهام والحب والحرية، واستهوته في فترة من حياته أفكار تولستوى الأخلاقية التي تؤمن بعدم مقاومة الشر بالعنف، ولكنه عندما زار مستعمرة العقاب في «سخالين» تخلى عن هذا العقيد، وأكد من جديد قيمة النضال والإيمان بالتححرر، وكتب بين الجد والهزل: «إن العقل والعدل يخبرانني بأن هناك قدرًا من الإنسانية في البخار والكهرباء أكبر مما في العفة والنبات»، وابتعد عن السياسة لأنه رأى الأفكار الديمقراطية ذات المحتوى القديم لم تستطع أن تقود الإنسان نحو التححرر، ولم تكن الديمقراطيات الجديدة قد ولدت

بعد، فآثر الابتعاد عنها، ولكنه لم يعادها، وكان واحداً من ذلك
 التآخي الواسع الذي ضم الطبقة المستتيرة المتحررة على أيامه،
 يشاركهم سلوكهم ومطامحهم، وعندما حرم صديقه جوركي،
 الأديب الروسي الخالد، من عضوية الأكاديمية، بقرار من القيصر
 لأسباب سياسية، وكان عضواً فيها، استقال محتجاً وكان يكرر
 دائماً: «من لا يريد شيئاً، وليست له آمال ولا مخاوف، لا يستطيع
 أن يصبح كاتباً عظيماً».

ثمة سمة تجعل من قصص تشيخوف دائماً وحياء، وهي فهمه
 للواقع النفسي، ويقوم موقفه من شخصياته على نبذ التصنع والمباهاة،
 وكرهه لرومانسية التمويه والزخرفة، والتنطع في الحديث، كما
 كان يكره النغم الخطابى. والصوت المرتفع، وهو يعرض شخصياته
 مجردة من التلفيق والأكاذيب، ويعرض جوهرها فاضحاً الأوهام
 والعادات، فجاء إبداعه صادقاً ومخلصاً، وامتزج بشفقة نقية، وسخرية
 شفافة، ولم يلبس رداء الواعظ أبداً، ولم يكن داعية أخلاق، واكتفى
 كما لاحظ جوركي بأن يقول: «أيها السيدات والسادة، إنكم
 تعيشون بطريقة سيئة». على حين تنم ابتسامته عن سماحة إنسان
 بالغ الحكمة، ويتسم قصصه بالدفء الحنون، تجاوز الواقعية
 الكلاسيكية، وكتب قصصه بأسلوب تأثرى، يعتمد على التفاصيل
 الرمزية، المنتقاة بعناية، ولها إيقاع لفظى، وجاءت فى شكل وحدات
 شعرية، أكثر منها وحدات قصصية خالصة.

لقد أدار ظهره للاستهلالات المطولة، والتحليلات النفسية
 والمنطقية، والصور الفاقعة، وترك شخصياته تعبق بأريجها الخاص،

وتجئ في لحظاتها المزاجية الخاطفة، دون تعمق أو تكامل، تثرثر فيما لا يناسب الموضوع، تحاور في أحداث غير معروضة، ويحركهم رجالا ونساء في أردية النوم، ويفسرهم لنا عن طريق التوافه، وقال عن نفسه يوماً: «أنا أكتب من الذاكرة، لا أستطيع أن أنقل عن الطبيعة مباشرة، وموضوع قصتي يجب أن يمر بمصفاء عقلي، حتى لا يبقى إلا ما هو ممثل وهام» وما يعده تشيخوف هاما يبدو ليس كذلك عند الوهلة الأولى، فالتفاصيل الجانبية، والتي لا صلة بينها، والايحاءات المستترة، تجعل من القصة إيقاعاً منسجماً، وتكتسب لوناً رمادياً موحداً، ومناظره الطبيعية لقطات سريعة، كالرسم بالألوان المائية على الطريقة اليابانية. وتفتقر قصصه إلى الحبكة المشيرة، وإيماءاته حاذقة وخفية، وتترك الكثير لخيال القارئ وذكائه، وتنقصها الحيوية عادة، ويخامرنا الإحساس بأنها لم تأت بشيء محدد ولا يتضح المعنى في معظمها إلا بعد أن تقرأ آخر جملة، وبعدها تبدأ التفكير، وكثيراً ما يكون للتأخر قوة الاكتشاف أو الإلهام^(١).

هذه الطريقة عند تشيخوف، إلى جانب أسلوبه المصقول بعناية، والذي يتسم بالبساطة والرشاقة، تجعل منه واحداً من أساتذة القصة القصيرة الحديثة في العالم، وتحس بتأثيره في مؤلفات كتاب آخرين كثيرين، من كاترين مانسفيلد إلى أرنست همنجواي، أو كاترين آن بورتير، أو محمود تيمور. ولم يضع

(١) مارك ساونيم: مجمل تاريخ الأدب الروسي: ترجمة صفوت عزيز جرجس، ص ١٥٦ وما بعدها، القاهرة بلا تاريخ.

أسس القصة في وطنه وفي العالم فحسب، ولكنه أيضاً عبد الطريق أمام الرواية الحديثة، وإنه لمن المستحيل أن تصور روايات جوركي في الشكل الذي جاءت عليه، لو لم تسبقها قصص تشيخوف.

● عصر القصة :

وبعد هؤلاء، أو حتى معهم، بهرت القصة كجنس أدبي جديد القارئ الأوربي، وأعان على ازدهارها ذبوع الصحافة، وانحسار الأمية، وارتقاء الثقافة بعامه، فشهدت روسيا غير من ذكرنا تيرجنيف وتولستوى وديستوفسكى، ولمع في فرنسا فلوير وإميل زولا، وأتاتول فرانس، وآخرون، واحتل أرفنج وشنجتون وهورثون، وبرت هارت، مكاناً ملحوظاً، وعبروا من خلال قصصهم، في صيغ مكثفة، عن الأزمات التي مرت بها أمتهم. على حين كانت القصة القصيرة «تختنق في إنجلترا تحت وطأة الأسلوب المزوق المنسق أولاً، وتحت وطأة الوعظ الأخلاقي ثانياً، وتحت وطأة الاعتماد على الغريب، والابتعاد عن واقع الحياة ثالثاً، وفي العشر سنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حين ظهر في إنجلترا أخيراً كاتب قصة قصيرة، شابت قصصه نفس الشوائب التي خنقت مجرى القصة في إنجلترا طوال القرن، فقد جاءت قصص «رايدر كبلنج» مشوبة بشوائب البطولات الجوفاء البعيدة عن واقع الحياة، وبالدروس والحكم، لا الدروس الأخلاقية في هذه المرة، بل الدروس الاستعمارية، بالدعاية جنباً إلى جنب مع نغمة التمييز العنصرى. ولم يأت للقصة الإنجليزية القصيرة أن تستكمل مقوماتها إلا بعد أن انحدر الاتجاه

الرومانسى فى الوقت الحالى فى اللغة والموضوع، واندحرت معه كل محاولة للوعظ والإرشاد والدعاية، وتحميل القصة القصيرة مالا تحتمل. وانضمت القصة الإنجليزية إلى تيار القصة العالمية بظهور كتاب مثل «كاترين مانسفيلد»، و «كوبارد» كتاب يلتزمون الموضوعية التامة، ويصورون الحياة على ما هى عليه. دون محاولة لتزييف هذه الحياة، ودون محاولة لإثقال شكل فنى رهيف بالوعظ والإرشاد»^(١).

ولا نكاد نتجاوز القرن التاسع عشر إلى القرن الذى نعيش، حتى يعم هذا الفن العالم بأسره، ويتخذ منه كثيرون قالباً يصبون فيه خطراتهم وآرائهم وملاحظاتهم، ونلتقى فيه بكل طبقات الكتاب، وبكل ألوان المذاهب والاتجاهات، وهو ثراء يجعل مهمة الناقد فى تتبع هؤلاء عسيرة، وملاحقته للجديد فى مجال القصة أشد عسراً.

(١) الدكتورة لطيفة الزيات، مجلة الرسالة العدد ١٠٩١، ١٠ ديسمبر ١٩٦٤،

نحو تحديد الخصائص

● ما القصة القصيرة :

يبدو للوهلة الأولى أن القصة لا تختلف عن الرواية إلا في الحجم، وأن الوسائل التقنية الأخرى واحدة عند القصص والروائي، كلاهما - مثلاً - يستطيع أن يأتي بقصته أو روايته في ضمير الغائب، أو المتكلم، وأن يجيء بها في شكل يوميات أو مذكرات، وأن يستخدم الوصف أو الحوار، وأن يغرق معها في الرومانسية أو يلتصق بعالم الواقع، وأن الرواية يمكن أن تضغط فتصبح قصة، وأن القصة يمكن أن تمط فتصبح رواية. وهو تبسيط للأمور بأكثر مما تحتمل، لأن الفارق بين الاثنتين كبير للغاية. وأول ما نلاحظ منه أن الرواية أخذت، وتأخذ، في كل بيئة لونها، وفي كل عصر شكلاً، على حين أن القصة، وهي أكثر شباباً، وفي الوقت نفسه أقدم الأجناس الأدبية تاريخاً، ظلت وفيه لماضيها، ولم تتنكر لأصولها الأولى، إنها حتى اليوم تقال في كل مكان، بين الشعوب البدائية، وعند أشد الأمم رقياً، ولو أنها في الحالة الأولى تفتقد نية القيام بعمل فني، وهو ما يميزها عن الثانية.

ما القصة؟.. إن أي محاولة لتعريفها أو تحديد خصائصها تضطرنا إلى الاقتراب من ألوان أدبية أخرى، إن لم تكن قصصاً خالصاً فهي به أشبه، كالأسطورة والمثل والخرافة ومجرد الحكى،

ثم الرواية أخيراً. وسنحاول أن نجد للقصة الحديثة تعريفاً عند أولئك الذين عايشوها إبداعاً، وعالجوا قضاياها نقاداً، وشهد لهم عالم الأدب بالسبق في مجالها.

من بين التعريفات الكثيرة للقصة اخترت واحداً، ربما كان أكثرها وضوحاً أو هكذا بدا لي، وهو للقصاص والناقد الأمريكي إدجار آلن بو، وأورده عرضاً وهو يتحدث عن مواطنه القصاص الأمريكي هوثورن Hawthorne (١٨٠٤ - ١٨٦٤) يقول: «تقدم القصة الحققة، في رأينا، مجالا أكثر ملائمة، دون شك، لتدريب القرائح الأرقى سموًا، مما يمكن أن تقدمه مجالات النشر العادية الأخرى.

«ينى الكاتب القدير قصة، لن يشكل فكره ليوائم أحداثه إذا كان فطناً، إلا بعد أن يدرك جيداً أثراً ما، وحيداً ومتميزاً، عندئذ يبتدع الأحداث ويركبها بطريقة تساعد في إحداث الأثر الذى أدركه. وإذا عجزت جملته الافتتاحية عن إبراز ذلك الأثر، فمعنى ذلك أنه فشل فى أولى خطواته. وفى عملية الإنشاء كلها يجب ألا تكتب كلمة واحدة لا تخدم بطريقة مباشرة التصميم الذى خطط من قبل».

ويتحدث الناقد الأرجنتى المعاصر أندرسون إمبرت عن «حكاية قصيرة ما أمكن» حتى ليتمكن أن تقرأ فى جلسة واحدة، ثم يضيف: «يضغط القصاص مادته، لكي يعطيها وحدة نغم قوية: أماننا عدد قليل من الشخصيات، وشخصية واحدة تكفى. ملتزمين بموقف نترقب

حل عقده بفارغ الصبر.. ويضع القصاص النهاية فجأة، في لحظة حاسمة». إنه يدافع عن النظرية التي تقول إن القصة لها تأثير كلي. ويتحدث عن وحدة الاندفاع، من الدفع والاهتمام، وتنفجر في نهاية يمكن أن يتوقعها القارئ بدءاً، ومع ذلك ينتظرها. وإلى جانب ذلك يجب أن تكون موجزة، وفي الوقت نفسه مؤثرة، لكي تعوض القوة ما تفقده حجماً. ومن ثم فإن كل كلمة، وكل جملة، يجب أن تكون ثملة بالمعنى، وبأكبر قدر من الإيحاء، وأن تكون طاقتها قادرة على التحمل، لكي تحقق القصة إنجاز الإبداعات الكبرى.

عندما تقول غادة السمان في قصتها «ليلي والذئب»: «أمي مشغولة، مشغولة دائماً، لا أدري كيف وجدت الوقت ذات يوم لولادتي، ربما أبقنتني في جوفها شهراً إضافياً ريشماً وجدت لي في زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً» فإنما تعطى في كلمات قليلة معنى مكثفاً، يضع أمامنا الصورة مجسمة، ذات بعد ثالث، تغني عن صفحات طوال من الوصف.

وإليك صورة من قصة يوسف إدريس «أبو سيد»: «وتركت رمضان وراءها يتحسس تجاعيد وجهه، ويمس على رأسه التي كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور، ويشد شعر رجله الكث الذي أبيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد. وتأمل الصبي وكأنه يراه لأول مرة منذ سنوات!». إنها لوحة كاملة، هادئة الإيقاع، شهباء اللون، خفيفة الصوت، بارزة الوصف، ذات بعد ثالث، وتغني عن صفحات.

تولد القصة الجيدة كلا، ومنذ اللحظة الأولى تسقط بين يدي المؤلف كيانه كاملاً، تصوراً يتوقعه، وبخاصة نهايتها، وبعد ذلك تجيء العناصر الأخرى: تقدير جرعة الاهتمام، تخير الألفاظ، البحث عن الألوان الموحية، وفي كلمة واحدة: العمل. ولقد يكون مفيداً للنقاد والدارسين أن يقارنوا بين مسودات المؤلف الأولى وما نشر، وبين الطبقات المختلفة لقصة ما، وهو شيء لما ننتبه إليه في مصر، وملاحظة ما أدخله المؤلف من تغيير في كلماته، بإحلال لفظ مكان آخر، أرق أو أدق، أو أسهل انسياقاً في النغم، أو حذفه تماماً لسبب أو لآخر، ومن إلغاء جملة ارتأها حشواً، أو زيادة أخرى تعطي الصورة وضوحاً أدق، أو إعادة نظمها لتكون أكثر اتساقاً فيما بينها، أو مع غيرها. وأن يكون على وعى بما يعنيه الاتقان لتحقيق العناصر الحيوية في القصة: الإيجاز والاهتمام والتوتر. ويجب أن تختم القصة بإحكام، دون أن تترك مجالاً لثغرات جديدة، أو أية شروح تالية لها، مثل هذا العمل قد يأتي عليها، ويذهب بحقيقتها. في قصة نجيب محفوظ «عبر لولو»، اتفق البطل مع فتاته، والتقى فكراهما: «قام فقامت، أعطاهم ذراعاً فتأبطتها، مضياً نحو باب الكشك وهو يقول: سأطلق الرصاص في جميع الجهات. سرقص ونغنى ونمرح»، ومعها انتهت القصة، وبدأ عمل القارئ، إن البقية يجب أن تترك لخياله وهو خلاق أيضاً، ونجيب محفوظ وهو قصاص متمكن من فنه يعرف أن القصة يجب أن تنتهي هنا.

نحن بإزاء جنس أدبي محكم، لا يسمح بالفضول أو التزويد بما ليس في خدمة النهاية التي حددها منذ البدء على نحو دقيق،

فى خدمة التوتّر أو القوة التى ينهض عليها البناء، فى حل العقدة التى ينتظرها القارئ مشتاقاً. ولا يمكن للقصاص أن يجنح أو يسهر أو يبطئ، دون غاية، فى رسم الجو أو تصوير الشخصيات، أو المناظر الطبيعية، أو الحوار. ومن الممكن طبعاً أن توجد هذه العناصر كلها فى قصة، ولكن فى خدمة البناء القصصى، على نحو ما سرى.

الحوار: يمكن أن يستخدم، ومن الضرورى جداً أن يكون قصيراً، موجزاً محكماً، بلا فضول، بل وقد يلعب الحوار دوراً رئيسياً كعنصر قصصى. وهناك قصص تقوم فى مجملها على الحوار، كما فى قصة «عنبر لولو» لنجيب محفوظ، أو قصة «شقاء» للقصاص الروسى تشيخوف، وقد تجئ على العكس فتخلو منه تماماً، كما فى قصة «ذراعان» لمحمد أبو المعاطى أبو النجاء، دون أن يمس هذا فى شىء حقيقة الجنس الأدبى، أو روعة القصة وتماسك بنائها.

الخلق النفسى: يستطيع القصاص الجيد، فى نطاق الحدود الدقيقة التى تحكمه من الزمن والحدث والعاطفة والاهتمام والحيز المحدود، أن يجعل الإبداع النفسى عابراً على الدوام، بسيطاً وواضحاً، ومن خلال خطوط قليلة عادية، ولكنها صلبة دائماً، وفى خدمة القص، دون أن يعنى ذلك بأية حال أن القصة الجيدة تتطلب شخصيات ذات بساطة فكرية، أو نفسيات غير معقدة، من الذى يستطيع أن يؤكد، دون أن يخشى الوقوع فى الخطأ، أن شخصية رمضان فى قصة «أبو سيد» ليوסף إدريس، بسيطة الفكر مسطحة النفس؟.

الوصف والمناخ: كل وصف للطبيعة أو الأشياء أو الأشخاص، يجيء حشواً ولا يخدم العمل الفني يمزق الانسجام، لأنه ينحرف باهتمام القارىء، ويزعجه، ويبعده عن محور القصة، والاهتمام به، ولا يؤدي أية وظيفة خاصة، ولكن القصة قد تتطلب وصفاً، وبدونه تصبح مقطوعة الرأى، ولنتذكر الأوصاف القصيرة الملتهبة فى قصة غادة السمان، أو الدقيقة الهادئة المتشابكة فى قصة يحيى حقى، لنذكر أننا أمام وصف ممتاز، يتنفسه قصاص عظيم. والوصف الذى فى أول قصة «طريق شجر الكافور»، لمحمد عبد الحليم عبد الله، يسهم فى خلق جو ضرورى، لكى تمسك القصة بالقارىء حتى النهاية، فلا يفلت منها إلا مع آخر فقرة. وكان أن بو أستاذاً فى استخدام هذا المورد، ويكون فحوى الجانب الأكبر من قصصه، وبدون هذا الجو تفقد جاذبيتها، ومعناها أيضاً. فوصف المناظر الطبيعية، كما فى قصة «ملك برجوازي» لروين داريو، ليست شيئاً زائداً فى القصة، ولا بعيداً عنها، ويجب أن يكون كبقية العناصر التى تكونها، فى نطاق العقدة وخدمتها، لكى يتحملها الجنس الأدبى دون أن تسيء إليه.

ولا تتطلب القصة الجيدة إعداداً مسبقاً، إنها تتجه إلى الحدث مباشرة، تأسر القارىء وتغرقه فى مادتها منذ اللحظة الأولى، يبدأ يوسف جوهر قصته «الأفيون»: «أحقاً يا سيدى الطبيب تستطيع أن تشفينى؟ إني لا أرى فى يدك سماعة، وحجرتك خالية من أسلحة الجراحة وأجهزة الأشعة.. فكيف أنت مستطيع أن تستأصل الداء الوبيل... أبهذه الصورة على الحائط؟!.. ما اسمها؟... الأمل.. أين

هو؟... إن الفتاة تبدو حائرة وفي يدها قيثارة ممزقة الأوتار.. آه..
 بقي وتر واحد.. خيط رفيع.. دقيق كأنه وهم.. أمممكن حقاً أن
 ينبعث منه نغم.. وأن يوحى بالأمل.. حسناً.. إننى أصدقك..
 وسأستلقى على أريكته المريحة، وسأتكلم فى الضوء الخافت.
 وأطلق لأفكارى العنان.. بلا خجل.. لن أحبس خاطرأً واحداً فى
 رأسى.. سأعطيك الفرصة كاملة لتحللىنى.. من يدرى.. لعلك تنجح
 حيث أخفقت العقاقير..». وعلى امتداد القصة يقدم الكاتب ملامح
 البطل، حسية وفكرية، بارزة ومجسمة، فى شكل اعترافات مناسبة،
 دون أن تأخذ الشكل الخارجى للاعترافات، ويقدم معها العقدة
 وحلها ويقدمها إلى القارىء شيئاً فشيئاً فى أسلوب مصقول، من
 العنوان حتى آخر كلمة، وكلها تخدم أغراض الكاتب فى نسق
 يكاد يكون رياضياً.

والقصة الجميلة يجب أن تبدو واقعاً، حياة حقيقية تتحرك حولنا،
 دون إغفاء ينحرف بنا، أو تطويل يدفع الملل فى نفوسنا، وأن
 تجيء متميزة فيما تلبس من أزياء، صنعت لها وحدها، ولا يشركها
 فيها غيرها، وأن تكون إلى جانب ذلك موحية، تجعلنا نفكر، مهما
 كانت واقعية وموجزة، وأن تبقى فى مجال الخيال، متلائة، تفتح
 الباب واسعاً وعريضاً أمام ذكاء القارىء، أو السامع، وخياله، ليخلق
 معها ما شاء، يلتقط الفحوى والفكرة، وربما معان أخرى أعمق،
 وذات قيمة بالغة. ومع الخيال العالى والراقى تبلغ القصة مرتبة
 الرمز، وترتدى ما هو رمزى، والرمز يتطلب مشاعر مكثفة، وبناء
 راقياً للتجارب الإنسانية، وتخطيطاً تتجدد معه التجربة بكل عمقها،

وبأوسع مداها، فى كل مرة يعرض فيها الرمز. وعندما تصبح القصة رمزية فى وضوح، تتجاوز أن تكون مجرد متعة أو تسلية أو غطاء للواقع، وإنما تصبح فى هذه الحالة تجسيماً للواقع نفسه.

وكل قصة جيدة تعبر فى وحدتها عن وحدة فلسفتها ومفهومها للعالم، وهذا المفهوم ليس انعكاساً لمعرفة محصلة تهدف إلى توضيحه، وإنما هو قبل أى شىء شكل من الإحساس بالعالم وبالحياء، وترجمة لموقف منه، ومحاولة الانسجام معه، ومن هنا فإن تلاحم أية قصة يجب أن يكون طبيعياً، والحديث عن الطبيعة يفترض المثل الذى يحتذيه الفرد، لكى يدرك العالم طبقاً لتركيبه المزاجى.

يمكن أن نقول إذن أن القصة :

- حكاية أدبية.
- تدرك لتقص.
- قصيرة نسبياً.
- ذات خطة بسيطة.
- وحدث محدد.
- حول جانب من الحياء.
- لا فى واقعها العادى والمنطقى.
- وإنما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية.
- لا تنمى أحداثاً وبيئات وشخصاً.
- وإنما توجز فى لحظة واحدة، حدثاً ذا معنى كبير.

تروى القصة خبراً، وليس كل خبر قصة، ولكي يصبح الخبر كذلك لا بد أن تتهيأ له الخصائص التي أشرنا إليها من قبل، وفي مقدمتها أن يكون أثره كلياً، وأن تكون وسيلتنا إلى ذلك ترابط تفاصيله، وأن يصور ما نسميه بالحدث، وهو يتكون من بداية ووسط ونهاية.

فالبداية، أو الموقف عند بعض النقاد، ينشأ منها موقف معين، وتنمو لتبلغ الوسط، أو المرحلة التالية، وتتجمع كلها لتنتهي إلى النقطة الفاصلة، وهو سبب وجود الحدث في الأصل، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة، وتمثل نهاية الحدث، لحظة التنوير، ولكن وجود حكاية تنطوي على هذه الأقسام من بداية ووسط ونهاية لا يعنى دائماً، بالضرورة، إنها تصور حدثاً، فقد تجيء أخباراً متعددة تتجاور، وليس حدثاً ينمو طبيعياً، وتترابط أجزاؤه كل جزء يرتبط بسابقه، ويؤدي إلى ما يليه، حتى يبلغ غايته.

ينشأ الحدث غالباً من موقف معين، يتطور إلى نهاية معينة، ومع ذلك يظل ناقصاً، لأن تطوره من مرحلة إلى أخرى يفسر لنا كيف وقع، ولكنه لا يفسر لم وقع، ولكي يستكمل الحدث وحدثه، ويصبح كاملاً، يجب أن يجيب على سؤالٍ لم، إلى جانب الأمثلة الثلاثة الأخرى كيف ومتى وأين وقع، والإجابة على هذا السؤال تتطلب بحثاً عن الدافع، أو الدوافع، التي أدت إلى وقوع الحدث بالكيفية التي وقع بها. وهذا يتطلب بدوره التعرف على الأشخاص

الذين قاموا بالحدث أو تأثروا به، فما من حدث إلا كان وراءه مُحدث، شخص أو أشخاص، يترتب عليه وقوع الحدث على نحو معين، والحدث هو الشخصية وهي تعمل، وتصوير الفعل دون الفاعل يجعل القصة أقرب إلى الخبر المجرد، لأن القصة تصور حدثاً متكاملًا له وحدة، ووحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصوير الشخصية وهي تعمل.

ويجىء تصوير الشخصية وهي تعمل عملاً له معنى، وهذا المعنى ليس مستقلاً عن الحدث، يمكن أن تضيفه إليه أو تفصله عنه، وإنما ينشأ من الحدث نفسه، وجزء لا يتجزأ منه، وبدون المعنى يصبح الحدث ناقصاً، لأنه يقوم على الفعل والفاعل والمعنى، وهي وحدة لا يمكن تجزئتها. وقد يبرع القصاص في رسم شخصيات قصته، ويبدع في تصوير ما تقوم به من أفعال، ومع ذلك تظل قصته ناقصة، لأن الحدث لم يكتمل، جاء دون معنى. وتكون القصة في هذا أقرب إلى التاريخ، ويسمى هذا اللون منها القصص التسجيلي. والقصة وحدة متكاملة، لا يتضح معنى الحدث أو يقوم في جزء منها دون الأجزاء الأخرى، فالحدث والشخصية والمعنى وحدة، ويساند كل منها الآخر ويقوم على خدمته.

وكاتب القصة يحاكي حدثاً لا يشارك فيه، ومن الخطأ أن يقرر رأياً أو فكرة في سياق القصة إلا إذا جاءت على لسان أحد من شخصياتها، وكان لها علاقة بتطور الحدث، والتقارير من الأشياء التي تعيب النسيج القصصي عيباً شديداً، والقصاص الماهر يترجم

ما يريد إلى معادل موضوعي، وبقدر ما ييرع في إيجاد المعادل، تكون فنية القصة وتميزها. فالكاتب يصور الحدث ولا يشارك فيه، ويدعنا نرى الأشياء من خلال شخصياته، ومن ثم وجب أن تجيء اللغة أقرب ما يكون إلى لغة الشخصية التي تتحدث إلينا، أو يتحدث الكاتب إلينا من خلالها.

● اللغة :

وقضية اللغة في القصة والمسرح تثير كثيراً من النقاش المتجدد، وما أريد أن أعرض لها تفصيلاً، فليس هنا مكانها، والذين يرون أن تتفاوت لغة القصة يقولون: «من غير المعقول في القصة على الإطلاق أن يجعل الكاتب شخصه تتكلم بمستوى لغوي واحد، وخاصة إذا كانت اللغة المستعملة غير اللغة التي تتكلم وتفكر بها في الحياة، كما يجعل كثير من كتاب القصة عندنا أشخاص قصصهم تفكر وتتكلم باللغة العربية الفصحى. وليست المسألة عامة أو فصحي كما يفهمها الناس أو كما يتناظرون حولها في النوادي والندوات، ولكن المسألة عندما تتعلق بكتابة القصة مسألة خطيرة للغاية. وقد آن لكتابنا ممن يفعلون ذلك أن يدركوا هذه الحقيقة، وهي أنهم ليسوا أحراراً في أن يجعلوا شخص قصصهم تتكلم أو تفكر بالعربية الفصحى كما يترأى لهؤلاء الكتاب، فإن من البديهي أن أية قصة تحاكي حدثاً، وأن أي حدث يحكي الواقع، واقع الحياة التي يمثلها الحدث، ولا أعتقد أن أحداً من كتاب القصة عندنا أو في العالم أجمع ينكر أنه واقعي، فإن كيان الكاتب القصص إنما يقوم على هذه الواقعية، أي على محاكاته

للوّاقع وقدرته على إقناع القارئ بأن قصته تمثل هذا الواقع، ولذلك فالكاتب الذى يجعل شخوص قصته تتكلم وتفكر بلغة غير اللغة التى تفكر وتتكلم بها فى الحياة، يهدم من أساسها الواقعية التى هى السبب فى كيانه، لأن الحدث إنما يقوم على الأشخاص وتفاعلهم بعضهم مع البعض، فإن جاءت محاكاة الأشخاص ناقصة جاء الحدث ناقصاً، وبالتالي انعدمت الواقعية. والعجيب أن هذه الظاهرة ينفرد بها كتاب القصة عندنا، دون كتاب القصة فى أى مكان آخر فى العالم، ولعل السر فى هذه الظاهرة الغريبة هى أن كتابنا لم يتخلصوا بعد من المفهوم القديم للأدب الذى يقوم على الصياغة اللفظية، وهو يختلف تماماً عن المفهوم الذى قامت عليه القصة فى الآداب الغربية، وهى القصة التى يحاول كتابنا تقليدها^(١).

تلك هى وجهة نظر الداعين إلى تفاوت اللغة فى القصة، كما عرضها الدكتور رشاد رشدى، وفيها بعض الحق والكثير من الباطل. أما الحق الذى فيها فهو أن اللغة المستخدمة فى القصة يجب أن تعكس إلى أقصى حد ممكن الجو النفسى لشخصها، وما عداه فقابل للمناقشة أو باطل كله. والجو النفسى لا يرتبط باللغة عامية أو فصحية، حتى لو كانت هذه جزءاً منه، لأن جانباً كبيراً منه وبخاصة ما كان حواراً، يتوقف على نغم الكلمة الموسيقى حين تلقى، وهو ما لا يمكن تصويره واقعاً إلا على المسرح، وجملة «السلام عليكم»،

(١) رشاد رشدى، فن القصة القصيرة، ص ١٧٧ .

وهي فصيحة وعامية، تعكس ألواناً من الأجواء النفسية والأمزجة تبعاً لطريقة إلقائها، يقولها شيخ عالم أهلّ على جماعة، أو أستاذ قدم على طلابه، أو رجل من الأعيان أشرف على رفقته، أو معلم مر بالقهوة التي يجلس عليها عادة، وهي تختلف في كل الحالات، نغماً وإيحاء، وليس لنا من طريقة لتصويرها كتابة، ويجيء التمييز بينها إذا كان الكاتب مقتدرًا، ولا دخل للغة هنا.

والقول بأن العامية متخذة في اللغات الأجنبية فيه إسراف شديد، لأن التفاوت في اللغات الأجنبية بين لغة الأدب ولغة المشافهة محدود للغاية، وقد يجيء الكاتب الأمين ببعض الألفاظ أو الجمل التي تستعمل في اللغة الدارجة قليلاً، واستثناء لاعتبارات فنية لا يمكن تجاوزها، ولكن عمله، في مجمله، يجيء في لغة الكتابة والتدوين، وليس في لغة المشافهة والحديث. على حين أن العاميات العربية، وليست عاميتنا واحدة، تتفاوت بشدة، وتكثر حتى في المدينة الواحدة، وبعدت مسافة الخلف بينها وبين الفصحى، لأسباب تاريخية واجتماعية ليس هنا مجال بسطها، وكتابة القصة فيها، أو جانب منها، يقصر الإحساس بها على المجال الذي يستخدمها وحده، والجملة يقولها بطل ينتمي إلى بيئه اجتماعية معينة، من أدنى السلم في حي السيدة زينب، ذات نكهة معينة، لا تجد الصدى نفسه، عند واحد من الطبقة بعينها، في حي الجمالية أو بولاق مثلاً، ولا أريد أن أبعد بالأمر خارج هذه الأحياء ذات المستوى الاجتماعي المتقارب، والمناخ النفسي المختلف، إلى أحياء أخرى تتفاوت اجتماعياً وفكرياً إلى حد بعيد، في مناطق

أخرى من القاهرة، ولا إلى الموازنة بين عامية المدينة والقرية، أو بين عامية الصعيد والوجه البحرى ، أو بين العامية فى مصر وغيرها من الأقطار العربية.

والفصحى لا تقف عائقاً، وهى على التأكيد أكثر فائدة، أو أقل ضرراً إن شئت، إذا أريد للقصة أن تكون أدبياً يتجاوز المحلية واللحظة، ويدخل مجال العالمية والخلود، ويأخذ مكانه بين أجناس الأدب الأخرى. والقول بأن الفصحى لا تساعد على توضيح ملامح الشخصية يردده أننا نترجم روائع القصص العالمى، فى مختلف اللغات الأجنبية، باللغة الفصحى، نقلا عن لغاتها الأصلية، وفيها تتوالى شخصيات من فئات شتى، تعبر عن حقائقها وأحوالها، وتكشف عن أعماقها وبواطنها، وتصور مشاعرها وعقلياتها، فى عربية فصيحة لا نحس معها بأن الاتساق الفكرى للقصة قد مسه خلل، أو قصر فى التعبير عنها فكرة، وتصويراً.

إن كاتب القصة، فيما يرى محمود تيمور، إذا تنقل بين العامى والفصحى فى عمل واحد، سواء فى السرد أو فى الحوار، فسح المجال لثغرات وفجوات فنية، يشعر بها هو والقارئ، كأنها مساقط الهواء التى يتعرض لها ركاب الطائرات فى نواحي الجو، أو ركاب السيارات فى الطرق غير المعبدة، إذ يفقد العمل مظهر التناسق والتوافق والألفة فى التعبير، كما تفقد القطعة الموسيقية ما يطلق عليه اسم «الهارموني»^(١).

(١) محمود تيمور : أدب وأدباء ، ص ٦٥ ، القاهرة ١٩٦٨ .

والحق أن محمود تيمور حاول في البدء أن يكتب الحوار في قصصه باللغة العامية، ثم استبان فشله، فعاد إلى الفصحى، واعترف في مقدمة مجموعته «الشيخ جمعة»: «كنت مقتنعا أولاً أن لغة الحوار في القصص يجب أن تكتب باللغة العامية لأن ذلك أقرب للواقع في الحقيقة. وقد كتبت فعلاً حوار كثير من أقاصيصي وقصصى بهذه اللغة. ولكنى عدت فعدلت عن هذا الرأي، بعد تجارب عديدة دلتني على خطأ فكرتي، فالهاوية موجودة بين اللغتين. فإذا استعملناهما معاً جنباً إلى جنب، واحدة للأوصاف وأخرى للحوار وجدنا تناقضاً في الكتابة، يكاد يكون ملموساً، يصدم القارئ عند انفصاله من لغة إلى لغة.. ولا يوجد هنا إلا واحد من أمرين: وهو إما أن نكتب كل القصة باللغة العربية، أو كلها باللغة العامية، لنقضى على هذا التباين الشاذ، وتحل محله الألفة والتناسب، وبما أن اللغة العربية هي لغة الكتابة وجب علينا إذن أن نكتب القصة جميعها، أو صافها وحوارها باللغة العربية. ويجب على الكاتب أن يتوخى في كتابة حوار السهولة ما أمكن، ولا حرج عليه إذا استعان ببعض ألفاظ أو ببعض جمل صغيرة عامية إذا اضطرته الحاجة لذلك، وهذا ما أتبعه الآن في كتاباتي القصصية الجديدة، وعلى هذا النمط أخرج طبعاتي الثانية لمؤلفاتي.

• القصة والرواية :

لم يتحدد بعد بدقة لا في أذهان القراء، ولا حتى النقاد، الفصل بين المصطلحين، ولا تزال حتى اليوم نطلق لفظ القصة على الرواية، فإذا أردنا القصة نفسها، في صورتها الحديثة. استخدمنا اللفظ

نفسه، أو أضفنا إليه صفة «القصيرة» أو استخدمنا كلمة «الأقصوصة»، وأظن أن الوقت حان لنخلص من هذا الخلط، فتصبح القصة علماً على هذا الفن الذى تحدده تقنية معينة، وعرضنا لها من قبل، ومقابله فى الفرنسية لفظ Conte وأن نطلق الرواية على الفن الآخر، وهو ما يقابل فى الفرنسية لفظ Roman وأن نطلق على ما ينجى وسطاً بينهما الرواية القصيرة، وهى تقابل كلمة Nouvelle ذلك «أن مصطلح قصة قصيرة تسميه خاطئة فى ذاته، فالقصة العظيمة ليس من الضرورى أن تكون قصيرة على الإطلاق، والفكرة الشائعة عن القصة القصيرة من أنها فن صغير فكرة خاطئة بالضرورة. إن الفرق بين الرواية والقصة أساساً ليس فرقاً فى الطول، إنه فرق بين القصص الخالص والقصص التطبيقي، ودفعاً للبس أقول إننى لا أحاول أن أغض من شأن القصص التطبيقي، وكل ما هناك أن القصص الخالص أكثر فنية، ولست على يقين إلى أى حد يفضل الفن على الطبيعة، كما أئننى لست على يقين من الطريقة التى ينضبط بها هذا الفرق، إذا أمكن ضبطه على الإطلاق»^(١).

والواقع أن الروائي والقصاص يستخدمان المادة نفسها، يلتقطانها من قضايا الإنسان ومشاكله وواقع الحياة، وإنما يجرى الاختلاف من الشكل الذى تأخذه عند كل واحد منهما. ويمكن القول إن طول الرواية هو الذى يحدد قالبها، وإن قالب القصة القصيرة يحدد طولها، ولا يوجد أى مقياس للطول فى القصة القصيرة إلا ذلك المقياس

(١) فرانك أوكونور، الصوت المنفرد ص ١٢ .

الذى تحدده المادة نفسها. فالروائي قادر على تحويل الثوانى إلى دقائق فى القراءة، واللحظة إلى تحليلات متأنية، ووصف «القبلة» مثلاً، وقد لا تستغرق أكثر من دقيقة عادة فى واقع الحياة، تشغل عنده حيناً أكبر فى مجال الوصف، كما لو كان قد التقطها بطريقة التصوير البطيء Raletti وهو يتمتع بالصفحات وبالزمن، وقادر على أن يمتد بالبناء، ولا يخشى ملل القارئ، لأنه يمكن أن يتجه داخل الرواية إلى اللقطة التى تستهويه، فيقف عندها ويتأملها، وإن عجزاً، بما يمكن أن يدفع الملل فى نفسه، وهناك المناظر والوصف واللوحات المنعزلة، والتحليل والرسوم الجانبية، يأتى بها الروائي لإظهار قدرته على الوصف، وقد تشغل صفحات، وهو يقف عند التفاصيل الدقيقة، والأحداث الموازية، ويحلل نفسيات أبطاله، ويرز الملامح الذاتية لكل شخصية، وكل ذلك ليس ممكناً فى القصة القصيرة.

أما فى القصة فعلينا أن نتجه إلى الحدث، وأن نعبر عنه فى لغة مركزة، وعبارة محكمة، لا تحتمل الاستطراد أو التزيد، ويحقق القصاص هدفه الفنى عن طريق المزوجة بين التكثيف والبساطة، والوضوح والرمز، ومن خلالها يعبر عن الكثير من المشاعر والأفكار. وتجىء القصة متوترة بالنسبة للمشاهد، سامعاً أو قارئاً، وتتطلب تعبيراً قادراً أن يعكس ذبذبات اهتمام لا يتوقف، على حين تعكس الرواية توتراً أخف، واهتماماً متفاوتاً. والقصة بناء محكم لا يسمح بالهوامش، والحدث فيها مكثف وهو كل شىء، ويجىء الوصف موجزاً، ومرور الشخصية به سريعاً، بينما يدوب الحدث فى الرواية بين العناصر الثانوية الأخرى. وإذا أخذنا لهما مقابلاً من عالم

الماديات، قلنا إن الرواية أشبه بالفلم السينمائي، والقصة أشبه بالتصوير الفوتوغرافي. الأولى تتسع لمزيد من الأحداث والتطور، وقد يتطلب الموقف تغييرها أو ضغطها أو حتى حذفها أثناء العمل. بينما في الثانية يحدد المصور بدءاً الجانب الذي يصوره، والزاوية التي يلتقط منها الصورة، وما يتطلبه إتقان العمل من مسافة وضوء.

والكاتب المقتدر يعرف كيف يميز بين الموضوعات، ويدرك في حدس واضح أى الأشكال يناسب كل منها، فلا يختار موضوع الرواية لقصة، والعكس صحيح أيضاً، لأن كتابة الرواية أو القصة لا تقوم على مجرد الاستطراد في البناء أو ضغطه كيفما اتفق، ويقول ألبرتو مورافيا في مقدمة مجموعته قصص إيطالية *Rocanti italiani* «إن شخصيات القصص وليدة الحدس الذاتى، أما شخصيات الرواية فهي وليدة الرموز».

وإذا كان من السهل التمييز بين القصة والرواية، فإن تحديد الرواية القصيرة أو القصة الطويلة كما كان يقال أحياناً، أسهل شيئاً، لأنها تجيء في منتصف الطريق بين الاثنتين، وقد اختفى تعبير القصة الطويلة في الأدب الأوربي، دون أن يأسف أحد عليه، لأن هذه ليست قصة قصيرة نفخ في صورها، أو زيد في صفحاتها، وإنما اتسعت لأن موضوعها ونموها تطلب عدداً من الصفحات أكثر مما تتطلبه القصة القصيرة عادة، وإذا استكملت عناصرها الفنية تحدث في مشاعر القارئ، رغم طولها، إثارة تجيء دفعة واحدة، على نحو ما تحدث القصة، غير أن وحدة الذبذبة الشعرية وهي إحدى خصائص القصة تجيء فيها أكثر امتداداً.

القصة في الأدب العربي

لم تنشأ القصة القصيرة من أصل عربي كالمقامات والقصص الحماسية، والحكايات والأمثال والخرافات والأساطير والنوادر، وإنما ترعرعت بتأثير من الأدب الأوربي مباشرة. نعم حاول الجيل القديم أن يستعمل أسلوب المقامات في النقد الاجتماعي فكتب محمد المويلحي، المتوفى عام ١٩٣٠م، «حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن» على نمط مقامات البديع الهمداني والحريري، ينقد فيها ما رأى في زمنه وحوله من ضعف أو خلل أو فساد، فكانت صورته عن الشرطة والنيابة، والمحامي الأهلبي، والمحامي الشرعي، والوقف، والطب والأطباء، والمحاكم، والأعيان والتجار، وأرباب الوظائف والعمدة، والمدنية الغربية وغيرها. ومن بعده كتب حافظ إبراهيم، المتوفى عام ١٩٣٢م، «ليالي سطيح»، وتأثر فيها بالمويلحي، وأجمل محمود تيمور رأيه فيهما: «بينما نرى المويلحي يحاول الارتفاع بكتابه عن المقامة، والدنو من القصة الفنية، بما يرسمه من شخصيات ناضجة، ويصوره من وقائع شائقة، نرى حافظاً متمسكاً بالمقامة لا يخرج عن إطارها، فهو لا يعنى في قصته بالناحية الفنية، عنايته بالناحية الخطابية والوعظية»^(١). وكان لعائشة التيمورية محاولات أقل توفيقاً منهما.

(١) محمود تيمور : ملاحم وغصون ، ص ٢٧ .

أما أول اتصال لنا بالقصة الأوربية القصيرة فجاء عن طريق الترجمة، وازدهرت في مطلع هذا القرن، دون أن يعنى ذلك أنها كانت دقيقة، وتمت ترجمة أعداد هائلة منها إلى اللغة العربية، وتمصير جانب كبير منها، ولم تتوقف الترجمة عند أدب أمة بعينها، وإن تمت في معظم الحالات عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وكانت هذه القصص لكبار الغربيين من الروس والإنجليز والفرنسيين والأمريكيين والإيطاليين وغيرهم، وكان من بين المترجمين من يتصرف في القصة وينحرف بها إلى ما يهوى القارئ، يخلق مواقف جديدة أو يسقط مواقف كانت قائمة، أو يستولى عليها وينسبها إلى نفسه.

وهناك من لا يعرف اللغة الأجنبية، وأوتى حظاً كبيراً في اللغة العربية، فترجم له القصة، ويتولى هو صياغتها، يضعها في قالب عربي، ويكتبها في أسلوب عربي فصيح، وكان مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦-١٩٢٤) أبرز هؤلاء جميعاً، وكتابه «العبرات» مجموعة من القصص الفرنسية، المغرقة في الرومانسية، ترجمت له، وصاغها في أسلوبه الرشيق، فجاءت مغرقة في الحزن، تفجر الدموع في العين والقلب، بين قراء يعانون من هموم قاصمة في حياتهم الخاصة والعامة على السواء، ولكنها بعدت عن أصولها، بسبب المترجم أو المنفلوطى نفسه، فجاءت حديثاً مباشراً، في أسلوب تقريرى. لا يهتم بالسياق أو ترابط الأحداث، وفقدت في صورتها الجديدة خصائص القصة القصيرة، ولكنها أسهمت في تهيئة المناخ، ولفت الأذهان، وترغيب القراء في مثل هذا اللون من الأدب.

● المدرسة الحديثة :

كونها جماعة من الكتاب المصريين، خلال الحرب العالمية الأولى، وغايتها أن تبعث خير ما في الثقافة الوطنية من تراث، وأن تستوعب منجزات الحضارة الحديثة على أيامهم، ورفعت راية التمصير والقومية في مجال الأدب، كما رفعه غيرها في مجال السياسة والاقتصاد. واتخذت من جريدة الفجر لساناً لها، وتميزت بالناية بالعلوم الحديثة، والفنون الجميلة، إلى جانب اهتمامها بالأدب وبتأثير منها بدأ يبرز إلى الوجود أدب مصرى أصيل، يعكس حياة المجتمع المصرى فى صدق وإخلاص، ويواجه واعياً حركات الجمود والتخلف والنظر إلى الوراء، ويقاوم الغزو الأجنبى، وذوبان الشخصية المصرية فى أنماط السلوك الوافدة فى الوقت نفسه، وينقل اهتمام الكاتب أو الأديب من الدوران حول نفسه، أو حول الحاكم، إلى الاهتمام بالطبقات الأكثر معاناة فى المجتمع والمرأة منها على وجه خاص.

ويذكر الأستاذ يحيى حقى، وكان ضمن أعضاء المدرسة، فى كتابه، «فجر القصة المصرية» عدداً من أسماء أعضائها الكثرين فمنهم: الدكتور حسين فوزى، ومحمود طاهر لاشين، وإبراهيم المصرى، وحسن محمود، ومحمود عزمى، وحبيب زحلاوى. ونشأت هذه الجماعة بين يدى محمد تيمور وكانت تجتمع فى قصر صغير يطل على شريط سكة حديد حلوان بالمنيرة، هو قصر آل رشيد أصهار بيت تيمور، و «وجدت هذه الجماعة الصغيرة غذاءها فى صحيفة أدبية أسبوعية، أصدرها سنة ١٩١٧ المرحوم

عبد الحميد حمدى باسم «السفور»^(١) وكانت تدعو إلى اعتناق المذاهب الأوربية فى الأدب والتاريخ، وإلى التحرر من التقليد ومحاولة البحث عن أدب مصرى صميم، وتطوير الأسلوب إلى ما يوافق مقتضيات العصر، وتوجيه الأنظار إلى دراسة أدباء مصر وشعرائها، مثل البهاء زهير.

وكانت محاولاتهم تهدف إلى تشكيل الأدب العربى فى صورة جديدة، تستجيب لمتطلبات العصر، وتنأى عن التقليد والصناعة والنزوع إلى أخيلة الغير، وقامت هذه المدرسة إلى جانب مدرستين أخريين تميزتا فى الثقافة والاتجاه، فكانت هناك مدرسة أحمد لطفى السيد، ومن أبرز أعضائها منصور فهمى، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، ومحمود عزمى، وأحمد ضيف، ومصطفى عبد الرازق، وكانت الأخرى تضم إبراهيم المازنى، وعباس محمود العقاد، وعبد الرحمن شكرى، وعباس حافظ، ومحمد السباعى، وعلى أدهم، وعبد الرحمن صدقى وآخرين. ولكن المدرسة الحديثة هى التى اضطلعت بالعبء الأكبر فى نشأة القصة القصيرة كتابة لها ودعوة إليها، ومن بين أعضائها أول قصاص مصرى، كتب أول قصة عربية فى صورتها الحديثة.

ويميل الأستاذ يحيى حتى إلى الاعتقاد بأن أعضاء المدرسة الحديثة مروا فى مرحلتين:

(١) ذكر الأستاذ عباس خضر فى كتابه «القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩٣٠» ص ٩٠ معلقاً على هذا الخبر بأن مجلة السفور صدرت عام ١٩١٩.

«الأولى مرحلة اتصال ذهني بالأدب الفرنسي والإنجليزي. فقد تعلموا في مدارسهم هاتين اللغتين، وقرأوا في المدرسة أيضاً مؤلفات كبار أدبائهما... ثم قادهم جوعهم الثقافي إلى ارتياد آفاق أخرى، فقرأوا لكتاب يجذبونهم، لما في حياتهم من مأس أو لقدرتهم على البهلوانية، فكانت على مائدتهم تتردد أيضاً أسماء جوته وأوسكار وايلد وإدجار آلان بو، وهنري فيرلين ورامبو وبودلير، بل في الأدب الإيطالي مؤلفات بيراندللو وترجموا له، والصابرون منهم يطوفون أيضاً بجحيم دانتي، فإذا ضاقوا وطلبوا الفكاهة قرأوا مارك توين، وبوكاشيو، وكان من النادر أن نسمع باسم الجاحظ أو المتنبي، ولم تكن أسماء أعلام النقد تشغل مكاناً كبيراً في حديثهم، وكان التعصب لكاتب لا لمذهب هذه هي مرحلة الغناء الذهني».

«الثانية: انتقلوا إلى مرحلة أخرى أسميها مرحلة الغذاء الروحي التي حركت نفوسهم وألهبت عواطفهم ودفعتهم للكتابة بحرارة الشباب، انتقلوا إلى هذه المرحلة الثانية حينما قرأوا الأدب الروسي وبهرهم جوجول وبوشكين وتولستوى ودستوفسكى وترجنيف وأرتز باتشيف وأخيراً جوركي، فهذا أدب يتحدث بحرارة وانفعال شديد عن الاعتراف والنزعة إلى التطهر والفداء والبكاء على مآسي الحياة، والإيمان بالقدر والثورة عليه في وقت واحد، يحدثهم عن الصلاة والتراويل، وعن الخمر والبغاء، والجريمة والعقاب، والقديسين والشياطين... ودهشوا حين رأوا هذا الأدب، إلى جانب حفاوته بدراسة النفس البشرية، والمشكلات الاجتماعية، ليس بأقل حفاوة في وصف الطبيعة ومشاهدها والتغني بجمالها، وكل هذه أجواء

توافق مزاج الشباب الشرقى الملتهب العاطفة، المحروم من الحب. لذلك لا أكون بعيداً عن الحق إذا أرجعت إلى الأدب الروسى الفضل الأكبر فى إنتاج أعضاء المدرسة الحديثة، وتكون القصة بذلك قد مرت من التأثر بالأدب الفرنسى على يد هيكل إلى التأثر بالأدب الروسى على يد هذه المدرسة الحديثة، ولما كان أغلب أعضاء هذه المدرسة يتقنون الإنجليزية خيراً من الفرنسية، فقد كان من حسن الحظ أن الإنجليز عنوا أكثر من الفرنسيين بترجمة الأدب الروسى ترجمة دقيقة غير مقتضبة، هذا على الرغم من أن دستوفسكى وتورجنيف عاشا فى باريس زمناً لا فى لندن»^(١).

• الرواد الأوائل :

على يد محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) وُلدت القصة العربية الحديثة، مع قصته الأولى «فى القطار»، وجاءت ثمرة ناضجة لاتصاله القوى والمباشر والمبكر بالثقافة الأوربية، فقد أرسلته أسرته ليتعلم الطب فى برلين، فعُدل عنها ليدرس القانون فى باريس، ومكث هناك ثلاثة أعوام شغل فيها بالأدب والمسرح أكثر مما شغل بالجامعة. ثم عاد إلى مصر مع بداية الحرب العالمية الأولى، واشتغل بالصحافة حيناً وبالتمثيل قليلاً، واهتم بالأدب والفن، وكان رائداً فى مجال القصة والمسرح، وبشر بأدب مصرى قومى، محلى الصبغة والطابع، يهتم بما حوله، ويلتقط منه مادته، وطبق ما دعا إليه فى أدبه، فالتقط مادة قصصه من الفلاحين ومظالمهم، والموظفين

(١) يحيى حقى : فجر القصة المصرية ، ص ٨٠ وما بعدها .

وانحرافاتهم، والمرأة ومشاكلها، وجاءت في لغة سليمة، خالية من الركاكة ومن الصناعة اللفظية على السواء. وحرص على أن تجمع السمات الفنية لهذا الجنس الأدبي الجديد على اللغة العربية، من الشخصيات والأحداث، وأن يزاوج فيها بين القص والحوار. وتأثر في واقعته وأنماط قصصه بالأدب الفرنسي بعامته، وموباسان على نحو خاص، ومصر بعض قصصه أحياناً، لم يكتف ذلك ولا أخفاه، جاء في مقدمة قصته «رَبِّي لَمَنْ خَلَقْتَ هَذَا النِّعِيمَ»: «هذه القصة لموباسان الكاتب الفرنسي الشهير، بدّل المعرب أشخاصها وزمانها ومكانها وموضوعها، ممصراً كل شيء بها، فلم يبق من الأصل إلا روح الكاتب»، ويراه المستشرق الروسي كراتشكوفسكى في دراسته عن الأدب العربي الحديث: «منشئ الأصوصة المصرية، ومبتكر التصوير الواقعي للحياة الاجتماعية الحديثة، كان ملماً كل الإلمام بالآداب الأوربية، قوى الملاحظة دقيقاً، فوضع أقاصيص صغيرة مأخوذة من صميم الحياة المصرية، بأسلوب يحاكي موباسان أو تشيخوف». وقد جمعت قصصه بعد موته، وضمت إليها خواطره، ونشرت بعنوان: «ما تراه العيون».

ومع محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣)، تقدمت القصة خطوات أوسع إلى الأمام، وإذا لم يطاول أخاه في المسرح، فقد فاقه في القصة، بحكم التطور، وامتداد حياته، وكان مثله أصيلاً رغم أنه، فيما يقول عن نفسه، قرأ طويلاً في موباسان وتشيخوف، وتأثر بهما كثيراً، وتحدث عن هذا التأثير في أكثر من مكان في كتاباته، واعتبر موباسان «زعيم الأصوصة الأكبر» ونشر أول مجموعة له

عام ١٩٢٥ ، بعنوان: «الشيخ جمعة وقصص أخرى»، ومثل أخيه كانت صلته بالأدب الأوربي مباشرة، فقد أقام في سويسرا أكثر من ثلاث سنوات.

تعاونت ظروف كثيرة على أن تجعل من محمود تيمور قصاصاً متميزاً في فترة مبكرة من شبابه، وأعانته مزاجه الهادئ على أن يجود فنه، وأن يعمق معرفته بأصوله، وأتاحت له الحياة الميسرة أن يقرأ ويرحل، وأن ينشر العديد من قصصه في زمن مبكر، في المجلات المختلفة دون أن يتقاضى عليها أجراً، في فنون مختلفة، عالج الشعر المنشور، وكتب خواطره عن الحياة والمجتمع، وتحدث عن رحلاته وأسفاره، ومارس النقد عجلاً وقليلًا، وحرر عدداً من المسرحيات، وكانت القصة القصيرة المجال الذي تفوق فيه، وأسهم في مجالاتها بإضافات قيمة. وجاءت قصصه في عشرين مجموعة كاملة.

جاءت كتابات تيمور الأولى ذات نزعة رومانسية ساذجة، وهو شيء طبيعي، فكلنا في سن الشباب يتأثر بما هو ذاتي وحزين وداعم في الحياة والفن، ولكنه ما لبث أن هجر نفسه إلى ما حوله، وأدرك أن القصة كلما اقتربت من الحياة «كان نفعها أعظم، وتأثيرها أشد، إذ أن المرء لا يستفيد ولا يتأثر من الخيالات والأوهام بقدر ما يتأثر من الحقائق التي تحيطه والتي يعيش في جوها». ومع هذا الاتجاه كانت بداية رحلته نحو الواقعية.

وكما صنع أخوه من قبل، وكرد فعل لمواجهة السحق النفسي الذي تعرض له المصريون على يد الاستعمار البريطاني، جاءت

دعوته إلى أدب مصرى «يتكلم بلساننا، ويعبر عن أخلاقنا وعواطفنا، ويصف عوائدنا وبيئتنا أصدق وصف. هذا الأسلوب فى نظرى أهم شىء يجب أن نلتفت إليه، ونعيره مجهودنا الكبير فى نهضتنا الجديدة، لأنه المرآة التى تنعكس عليها صورتنا الحقيقية»^(١). ومن ثم بدأ يلتقط مادته وشخصه من الحياة المصرية الخالصة، فى الريف والمدينة، بين الفلاحين والموظفين والحرفيين والتجار، وممن عاشهم وخالطهم أحياناً، أو من الطبقة الاستقرائية التى ينتسب فيها، بكل فضائلها ونقائصها على السواء، ويرى الحياة بجانبها، ما كان خيراً دافقاً أو شراً خالصاً، ونلمح تعاطفه مع الطبقات الشعبية، وجاء قصصه عنها جيداً ودافقاً، وحين يخرج عن نطاقها ليكتب عن الطبقة الأرستقراطية، تفقد قصصه الكثير من توهجها، فتجئ باردة لا روح فيها، ويصبح خياله فيها تقليدياً، ومعها تضيع روح الفنان، وتبقى له مهارة القصاص.

ويكثر محمود تيمور من الرحلة، وتتسع آرواه وآفاقه، وينضج مع الزمن وتأخذ الواقعية عنده شكلاً تحليلياً، وتخف حدة الألوان المحلية، ومع التطور السياسى تأخذ شكلاً قومياً عربياً، وتتجاوز القومية إلى العالمية فتعنى بمشكلات الإنسان: «فلا خلود لأدب إلا إذا كان تعبيراً صادقاً عن الإنسان».

ولغة تيمور فى قصصه بسيطة وصادقة، هادئة ودقيقة، فأتاح لها ذلك مجالاً أوسع للترجمة إلى اللغات الأجنبية، وكان هو نفسه

(١) محمود تيمور، مقدمة «الشيخ جمعة»، ص ١٠، الطبعة الثانية.

داعية عظيما لروعة اللغة العربية وسلامتها، وفي ضوء فلسفته التي انتهى إليها ردّ إلى الفصحى بعض أعماله، التي كتبها بالعامية في مطلع حياته الأدبية.

* * *

وجاء بعده الأخوان شحاتة وعيسى عبيد، فتقدما على طريق القصة خطوات، وكان حظهما من الذيوع ومن التقدير أقل من حظ رفاقهما، لقد توفي عيسى عام ١٩٢٣، وترك مجموعتين من القصص، حملت أولاهما عنوان «إحسان هانم»، ونشرت عام ١٩٢١، والأخرى «ثريا» ونشرت بعدها بعام. وصدر لأخيه شحاتة مجموعة بعنوان «درس مؤلم» نشرت عام ١٩٢٢، وامتدت به الحياة طويلا بعد أخيه، وتوفي عام ١٩٦١، بعد أن هجر الأدب، وتوقف عن الكتابة، وابتلعه النسيان فلم يلتفت إليه أحد، رغم أنه عاصر النهضة الأدبية في مصر منذ نشأتها حتى بلغت القمة، وما نعرف من حياته قليل للغاية، ويستنتج الأستاذ يحيى حقي من قصصه أنه «من أبناء كنيسة شرقية لا أظن أنها الأرثوذكسية، إذ نجد معظم أبطاله هم هرمين ومارى وأليس وميشيل، وميشيل هذا إما موظف في محل تجارى أو فى بنك الكريدى ليونيه». وحاول عباس خضر أن يرسم له صورة تقريبية، من خلال قصصه واستجلاء ما وراء أبطاله، وبلقاء معاصريه وأقرانه^(١). وقصص الأخوان شحاتة وعيسى يدور حول أسر متوسطة، تكافح لتحفظ بمستواها، وبنات يتعلمن فى مدارس الراهبات، ولأن

(١) عباس خضر: القصة القصيرة، ص ١٢٩ وما بعدها.

بيئتهما المسيحية أتاحت لهما قدراً من الاختلاط لم يتح لغيرهما، كانا أقدر على إدراك المشكلات كل التي تحيط بالمرأة. وقف عيسى إبداعه على وصف حياتها، وإمكاناتها القليلة التي لا تتيح لها أن تعمل في ميادين النشاط الاجتماعي، ولا تعطىها الحق في أن تخرج من البيت بغير إذن زوجها، ويؤكد على ضرر الحجاب، وما يترتب عليه من مضار، وما يداخل النفوس من خوف عند مواجهة الجديد. وكتب شحاتة عن المرأة أيضاً، وبطلاقة أكثر، فبطلته شابات محدودات الأفق، مخلوقات تعسة، لا تخرج اهتمامتهن عن الزواج والإنجاب، ونهايات قصصه مضحكة، توحى إلى القارئ بأفكار محزنة، تذكر معها تشيخوف في الحال إذا كنت قد قرأت له من قبل. وكلاهما كان داعية أدب مصري، وهي الدعوة التي استأثرت بأذهان عدد كبير من المثقفين على أيامه، في مواجهة الاستعمار وألوان التبعية الأخرى.

وبعد الأخوين شحاتة وعيسى ينجى طاهر لاشين (١٨٩٥-١٩٥٤)، واتخذ من الأدب هواية، فهو أصلاً مهندس دراسة ومهنة، وأفاده تمكنه من اللغات الأجنبية في تذوق ما كتب من القصة وعنها في الأدبين الفرنسي والإنجليزي، أصيلاً أو مترجماً إليهما من لغات أخرى، وانتسب إلى المدرسة الحديثة، ووقف جهده على القصة وحدها، ينشرها في المجلات على أيامه، وقد ينشر القصة الواحدة أكثر من مرة، لأنه أضاف إليها جديداً، أو أجرى في بنائها تعديلاً، أو طلباً للذيق والشهرة. والمتأمل في قصصه الصغيرة الجميلة «لا يفوته أن يدرك مبلغ تأثيره الكبير بأمثال ديكنز وترجنيف ودستوفسكي من أعلام القصصيين في الغرب، أولئك

الذين مزجوا الفن القصصي برسالة الإصلاح الاجتماعي، تلك رسالته يحن دائماً إلى بثها متمزهاً بالمذهب الواقعي، ويلوح أنه يشعر بعبء مسئوليته الأدبية الإصلاحية، فهو يترث في استجماع ملاحظاته من صور الحياة، حياة الطبقتين الوسطى والسفلى على الأخص، بحسناتها وعيوبها، ثم يبذل مجهوده الفني في حبك قصته مازجا المزاح بالجد، متوخياً الدقة في التعبير الفكهي، وهي طريقة كاد ينفرد بها بين كتابنا القصصيين ولا يحاكيه فيها غير القصصي المجيد يحيى حقي، الذي ابتداءً يؤلف بعده بقليل^(١). و طاهر لاشين مصري أصيل من حي السيدة زينب، ينتسب في الطبقة الوسطى، برغم أصوله التركية البعيدة، وعرف بين أصدقائه بالدعابة والمرح، وذهب بأكبر قسط من الفكاهة وخفة الظل، ولذلك لا تجد في «تلك الألوان المظلمة التي تجدها في فن بعض الكتاب الأوربيين، ولا يجب أن نلومه على ذلك، فليس ذلك مجاله، وليس من طبيعته. والواقع أن هذه الألوان المظلمة لم تكن ظهرت بعد في الفن القصصي».

في البدء كان طاهر لاشين يكثر من الشخصوص في قصصه كثرة مسرفة، وملتقى في القصة الواحدة بعدد غير قليل من الشخصيات، فتفقد القصة قوة التأثير من ناحية، والتركيز من ناحية أخرى، فهو لا يركز على شخصية واحدة أو جانب من جوانبها، أو يسلط الضوء قوياً وكاشفاً على فكرة واحدة يعزلها عما عداها، ولهذا

(١) أحمد زكي أبو شادي في مقدمته لمجموعة قصص طاهر لاشين: «يحكى

تفقد قصصه الأولى التناسب بين عناصرها، ولكنه فيما بعد زاد وعيه بتقنية القصة وعناصرها، فعنى بالإنسان من حيث هو إنسان، دون نظر إلى بيئته أو جنسه أو طبقته الاجتماعية، وعرف كيف يختار شخصية واحدة، يبرزها في صورة واضحة، مركزة ومؤثرة، ومع ذلك لم يبعد عن الواقع المصري، فقصصه تدور حول بيت الطاعة وتعدد الزوجات والزواج بالأجنبيات، والسكارى والمواخير^(١). وظهرت قصصه في ثلاث مجموعات: سخرية الناي ١٩٢٦ . ويحكى أن ١٩٢٨ ، والنقاب الطائر ١٩٤٠ .

• القصة المعاصرة :

وحول هذه الأعوام كان آخرون كثيرون يكتبون القصة، هوية وتفضلاً، دون أن يلتزموا بقواعد القصة وأصولها، ينشرونها في الصحف والمجلات، دون أن يجمعها كتاب، كما فعل أحمد خيرى سعيد وآخرون. وبعضهم جرب كتابة القصة، وكتب فيها قليلاً، ثم انصرف عنها إلى غيرها حين وجد نفسه يتفوق في مجالات أخرى، ومن هؤلاء مى زيادة، وسلامة موسى، وأحمد أمين، وإبراهيم المصرى، وإسماعيل مظهر، وحسين فوزى، ومحمد شوكت التونى، وآخرون أقل أهمية. ومنهم من كتب عدداً من القصص، ودخل التاريخ من باب آخر كتوفيق الحكيم، أو كتب فيها كثيراً ولكنه كان أقرب إلى المقالة القصصية منه إلى القصة القصيرة، كفن له أصول محددة، مثل إبراهيم المازنى.

(١) دكتور سيد النجاج : تطور فن النصى القصيرة فى مصر ص ٢١٠ وما بعدها.

و حين نتجاوز هذا الجيل من الرواد يتدافع الكتاب على القصة القصيرة، وتخصصها كل مجلة أسبوعية، أو صحيفة يومية، بمكان حتى ولو كانت تتحرك في مجال آخر غير الأدب، ويبلغ الاهتمام قمته حين يخصها أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بمجلة مستقلة حملت اسم «الرواية»، تعنى بشئون القصة والرواية فحسب، إبداعاً وترجمة ونقداً، وصدرت عام ١٩٣٧، وظلت تصدر على امتداد أعوام ثلاثة، ثم توقفت مع قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وعادت قضايا القصة إلى مكانها من مجلة الرسالة وبين هؤلاء الكثيرين من بدأوا عطاءهم في تلك الأيام، وداوموا عليه في سخاء، وأصبحوا من أعلام القصة المصرية مثل: يحيى حقي، وسعيد عبده، ومحمود كامل.

ومع الحرب العالمية الثانية خفت صوت الأدب بعامة، عزلت مصر عن العالم، وشُغل الناس بالحرب، واستفحلت أزمة الورق، وصعب النشر، وقلّ حجم الصحف، وتمضى سنوات الحرب بطيئة وثقيلة، وفي الظلام المادى والفكرى، ومع قسوة الحياة، وارتفاع الأسعار، وندرة الكثير من الطعام واللباس، وصرامة الرقابة، وانتشار ألوان الثراء الفاحش، والسلوك الفاجر، والسوق السوداء، بدأ الناس يتلملون في أعماقهم، ويتشوفون إلى فجر قريب، وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى تفجر كل شيء، في مجال السياسة، وفي دنيا الأدب أيضاً، وكان الجديد الذى شهدته الساحة الثقافية ربط الأدب بالحياة، وربط الاستقلال السياسى بالعدل الاجتماعى، ووضع المواهب فى تصوير الواقع السيئ، والدعوة إلى إصلاحه، والدفاع

عن الطبقات الكادحة في الريف وفي المصانع، ودخل اليساريون المعمة علناً لأول مرة، مبدعين وناقدين، يمثلون اتجاهاً مستقلاً، ودفعوا بغيرهم لأن يلقى نظرة على قاع الحياة في مصر تقليداً لهم، أو قطعاً للطريق عليهم، وفي هذه الأيام سوف تلمع أقلام جديدة، كنجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ومحمود البدوي، ويوسف جوهر، وأمين يوسف غراب، ومحمد عبد الحلیم عبد الله وآخرون كثيرون. وكان تدافع الأقلام عنيفاً وصاحباً، أثرى حياتنا بكل ألوان القصص، رمزية وواقعية ورومانسية، وأطل القصاص على كل جوانب الحياة في مصر، وصوروا مختلف طبقاتها، الريف والمدينة، الفلاحون والعمال. الطبقات الدنيا والوسطى والعالية، ولا نكاد نتجاوز هذا العقد، حتى نجد أولئك الذي تنسموا أجواء سابقة، وتكونوا ثقافياً على وهج الصراع فيه فكان لنا يوسف إدريس، ونعمان عاشور، ولطفى الخولي، ويوسف الشاروني، ولو أن بعضهم ترك القصة إلى المسرح، أو إلى السياسة، أو توقف عن الإبداع لسبب أجهله.

وتدافع حول القصة كثيرون، بعضهم يشر بمستقبل، وآخرون وجدوا في سهولة النشر، وغيبة النقد دافعا، فمضوا يكتبون أي كلام، وكان ازدهار المسرح المصري في الستينيات على حساب القصة القصيرة، لأن أعلامها، ربما باستثناء نجيب محفوظ، تركوها ليكتبوا للمسرح، فقد كان يجد من الدولة تشجيعاً مباشراً، ويدر على كتابه خيراً وقيماً، ويتيح لهم في الوقت نفسه أنماطاً من الرمز يختبئون وراءها، وفي تلك الأيام كان الكثير مما يود الكاتب

الشريف أن يقوله، والكثير مما عليه أن ينقده، ويقف في طريقه، وتحول دون ذلك صعب لا يمكن تخطيها. ولعبت الصحافة دوراً هاماً في إطفاء وهج القصة، لقد قلت صفحاتها، وشغلت في مجملها بالإعلان إن كانت رائجة، أو بكل تافه إن كانت راكدة لا قراء لها، ولم تعد الصحف الأسبوعية غير الأدبية تنشر قصصاً، ولم تعد لنا مجلات أدبية أسبوعية دائمة، نصدر الكثير منها في فورة عاطفية، حين نحس بالنقص، أو نغار مما يصدر في بلاد أخرى، أو لدوافع سياسية وفنية، أو لغرض شخصي، كأن نتيح لشبه أديب عاطل مكاناً يتعيش منه، أو نسلط الضوء على كاتب فاشل، أو حتى غير أديب وغير كاتب، ونضعه رئيساً للتحريير، فلا يحسنون تحريرها، ولا اختيار القائمين عليها، وتكون النتيجة سقوطها كأداة توصيل، ومسرح تربية وإعداد، ويجيء بعد عام أو أعوام وزير آخر، يستقل دم القائمين عليها، فيثار من المجلات نفسها بالغائها، وهكذا اختفت مجلات كثيرة لعبت في حياتنا الأدبية بعامة دوراً كان ملحوظاً وباهراً، كالثقافة والرسالة والمجلة والفكر المعاصر والقصة والشعر، ومجلات أخرى.

في مثل هذا المناخ واصل السير أولئك الذين يستطيعون أن ينشروا قصصهم في الصحف اليومية، معتمدين على جاههم الأدبي، وهم قلة نادرة، وهاجر كثيرون بفكرهم إلى المجلات التي تصدر في البلاد العربية، أو كانوا ينتسبون في شلة تمسك بمقدرات القليل الذي ظل يصدر شهرياً، أو قادرون على أن يتشروا إبداعهم في كتب، وهكذا وصلنا بالقصة إلى منعطف خطير، ولم يبق في

الساحة إلا قلة من العمالقة، نتاج أجيال سبقت، يمكن أن تشدك إلى ما تكتب، وأن ترغمك ذهنياً على أن تقرأ لها، وتترقب إبداعها، أما الكثرة الكاتبة، فهم غشاء صنعت منه أجهزة الإعلام أدباء ومفكرين، على حد تعبير الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود. وبدأت القصة تعاني كغيرها من فنون القول، من مزاحمة السينما والمسرح والتلفزيون، وزهد الناس في القراءة. وبعض القصص الذي ينشر تحس أن كاتبه كسول، يكرر نفسه، ولا يمثل تقدماً أو جديداً على طريق الفن، لأنه لا يعكس معاناة داخلية، ولا يجد طريقه إلى النشر لجودته، وفي أغلب الأحيان يكون لموظف كبير، اكتشف مواهبه أخيراً، وهو على أبواب المعاش، أو لأناس ارتبطوا به، يعملون معه في مكتبه، أو يعاونونه في حياته اليومية، وهو يفرض هذره على ما يوجّه من مجلات تصدر عن وزارته، أو وزارة يعمل فيها أصحابه.

• القصة في العالم العربي :

فإذا تجاوزنا مصر إلى بقية العالم العربي، وجدنا سوريا ولبنان تآتيان في المقدمة، وفيهما ولدت القصة القصيرة في زمن مبكر، مع مولدها في مصر، أو بعده بقليل، وكانت الظروف متشابهة، فعرف لبنان من القصص ميخائيل نعيمة، وخليل تقي الدين، ومارون عبود وآخرين، وشهر من كتاب سورية الدكتور عبد السلام العجيلي، وزكريا تامر، وكلاهما يكتب قصصاً من المستوى الرفيع. وفي هذا الجانب من العالم العربي تميز الفلسطينيون بقصص جيد قبل كارثة الاستعمار الصهيوني، فلما أتى على وطنهم، وتوزعهم العالم

العربي، حملوا مأساتهم فوق رؤوسهم، وفي قلوبهم، وكانوا أمناء مع واقعهم، وحوله دار قصصهم، من أولئك الذين عايشوا المأساة منذ البدء، ومن أولئك الذين تفتحت عيونهم يوماً فوجدوا أنفسهم لاجئين أو منفيين أو مهاجرين، ويستطيع المؤرخ أن يقف عند عشرات منهم، مثل غسانى كنفانى، وإبراهيم أبو ناب، ووليد رباح، وعلى زين العابدين، وآخرين.

وفي العراق كانت القصة اليسارية من أهم أشكال الأدب، وأعمقها فعلاً في نفوس الشبان لسنين طويلة، وحسبنا أن نذكر قصص ذو النون أيوب، وغائب طعمة من المخضرمين، وأعطيا مثلاً قوياً لجيل من الشبان جاء بعدهما، رغم أن تقنية القصة الحديثة لا تتحقق كاملة في كل أعمالهما، ولا يزال الطابع اليسارى هو الغالب على قصص شاكر السكرى في مجموعته «التجربة والحقد»، وعلى لطفية الدليمى في مجموعتها «البشارة» وعلى عبد الجبار الحكيم في مجموعته «المواجهة وأحلام الصغار»، وعلى بثينة الناصرى في مجموعتها «حدوة حصان».

وقدم السودان نماذج قليلة في مجال القصة، واقعية الاتجاه، وخير من يمثله الطيب صالح، وقد اكتشفه الناقد رجاء النقاش، وقدمه إلى العالم العربى فى روايته الشهيرة «موسم الهجرة إلى الشمال»، وأثبت فيما بعد، أنه لا يقل تفوقاً فى مجال القصة عنه فى مجال الرواية، فهو متمكن من تقنياتها، ويستمد شخوصه من البيئات التى عايشها فى السودان أو فى الخارج.

وربما كان المغرب العربي آخر من لحق بالقصة في اللغة العربية، وهو شيء طبيعي، فقد كان آخر من تحرر، وطبيعة الاستعمار الذي خضع له تختلف عن طبيعي الاستعمار في المشرق، كان الاستعمار هنا، يدعم اللغة العربية، ويحرص عليها، وفي الشام بالذات، ولعبت مدارس المبشرين وإرسالياتهم دوراً كبيراً في هذا، فقد كان القصد إيقاظ القومية العربية ودعمها لتواجه الخلافة الإسلامية في تركيا، وتمزيق وحدة الدولة الإسلامية، ولكن الاستعمار، والتبشير معه، حرص في شمال إفريقيا على اضطهاد اللغة العربية، إلى حد العمل على استئصالها. وتخریب داخل الإنسان العربي، وشغل أهله بقضية التحرير السياسي أولاً. وخلال أعوام المعاناة جاء بعضهم إلى القاهرة، وتعلم في جامعاتها، وعلى يدهم ولدت القصة الحديثة في المغرب، وأبرزهم عبد الكريم غلاب، وعبد السلام بن جلون، وعلى طريقهم سار جيل من الشبان أوضحهم محمد الصباغ، والأولان يمثلان إتجاهاً واقعياً، والأخير أميل إلى الرومانسية، وبعدهم جاء جيل آخر، متمكن من فنه، ويكتب قصصاً جيداً، أمثال: عبد الجبار السحيمي، ومحمد زفزاف، ومبارك الربيع وغيرهم.

وفي ليبيا بدأت القصة متأخرة، لقد كانت تحت الاستعمار الإيطالي الفاشي المباشر، فلم يترك للثقافة العربية متنفساً، ومع الاستقلال بدأت المحاولات القصصية الأولى، بتأثير من القصة المصرية، أو من الشبان الليبيين الذين تعلموا في مصر، تظهر على استحياء في الصحف والمجلات، وكانت البداية مع مجموعتين

لعلى المصراتى وهما. «الشراع الممزق» و «حفنة رماد»، ولا تتوفر على عناصر القصة الحديثة كاملة، ولكنها تعكس الواقع الليبى بخيره وشره، وكانت صيحة احتجاج ضد سوءاته، ومهدت الطريق لجيل من القصاص الشبان جاءوا بعده، تقدموا على طريق القصة الصحيحة خطوات، ولكنهم لم يخرجوا فى محتواها عما سبقوا إليه.

وكانت الجزائر آخر من لحق بالركب، وتقدم لنا فى هذا المجال ثلاثة من القصاص، أبو العيد دودو، ويكتب على قلة قصصاً تسجيلياً يلتقط مادته من القطاعات الشعبية، والطاهر وطار، ويرجى له مستقبل باهر إذا واصل الرحلة بنفس القوة، فقد طوى المسافة التى سبقت فيها الجزائر، ليكون على مستوى القصة فى بقية أنحاء الوطن العربى، تقنية ومادة، وهو تقدمى فى نزعتة، وينزع إلى الرمز حين يعز عليه الوضوح، وأحمد منور، وهو شاب فى أول الطريق، يشر بغد طيب، إذا واصل الرحلة ولم يتوقف، وأخذ نفسه بتعميق التجربة، معاناة. وتلملماً، وأحكم قبضته على تقنية القصة قراءة وتعلماً.

● المرأة قصاصة :

وفى ميدان القصة لمعت أدبيات عربيات، يمارسن هذا الفن فى أصالة واقتدار، وعبرن عن مشاعر الأنثى وهمومها وأشواقها فى صدق وأمانة، وكن أقدر من غيرهن على رصد موقفها من حركة الحياة حولها. بعض هؤلاء الأدبيات آثرن السلامة وقصرن فنهن

على تصوير واقع المرأة، في مجال البيت أو العمل أو العاطفة، وفي تحركها البطيء على طريق التقدم، على نحو ما نجد عند سميرة عزام في «الظل الكبير» أو بنت الشاطيء في «صور من حياتهن»، أو وداد سكاكيني في «مرايا الناس»، أو نوال السعداوى في «تعلمت الحب»، أو سلمى الحفار في «يوميات هالة». وآخريات اتجهن إلى تصوير التحرر العاطفي للمرأة العربية، بعد كبت طويل، أذل روحها، فجاء أدبهن صرخة احتجاج عنيفة ضد كل ما عاناه جنسهن طوال عصور الانحطاط.

وثمة أسماء تمثل هذا الاتجاه، مثل صوفي عبد الله، وجاذبية صدقي من مصر، وهند سلامة من لبنان، وتجيء عادة السماء السورية قمة وحدها في هذا الاتجاه، فهي ذات أسلوب رشيق، وصور آسرة، وجملها مشحونة بالتوتر دائماً، تعالج قضاياها على مساحة واسعة، وقد تعطي مجموعة من قصصها رؤيا متكاملة، كما في «ليل الغرباء»، ولأنها تمارس الصحافة إلى جانب القصة أكسبها ذلك آفاقاً واسعة، وهي كثيرة الرحلة قراءة وواقعاً، فأسهم ذلك في تلوين مصادرها وتعددتها، وأبطالها غرباء دائماً، عربية في أوربا، أوربية في اليمن، سورية في الجامعة الأمريكية، فتاة ترك قربتها لتعمل في المدينة، وتذهب بالغبية إلى ما هو أبعد من هذا، ترى الفرد يحس بأن الوطن سافر عنه واغترب، والتاريخ رخن، واستأثرت السلطنة بذلك كله. وهناك غربة على صعيد العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة، وبين الرجل والرجل في العمل، وثرصد الواقع البشري بتمتظار لا علاقة له بمفاهيم الخير

والشر التقليديّة، إنها قصاصة من الطراز الأول، وتشعر وأنت تلهث بعينك وفكرك ومشاعرك بين سطور قصصها أنك تسير معها على جمر ملتهب.

● القصة وهموم الإنسان العربي :

بذلت محاولات كثيرة لتصنيف موضوعات القصة، وهي محاولات كلها عابثة، لأن تنوع الموضوعات يمكن أن يمضى بلا نهاية، كاهتمام الإنسان نفسه، وإذّن فمن الأفضل أن نلاحظ كيف تعكس القصة في كل عصر اهتماماته المختلفة، ومشاكل الإنسان المتنوعة على أيامها، على نحو ما أشرنا إليه في عرضنا التاريخي، ولنلق الآن نظرة مجملة على واقعنا المعاصر: نحن نعيش عصراً يشهد سلسلة من الأحداث الكبرى عدلت الكثير من مفاهيم الفن والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والدولية، وتطلبت أشكالاً جديدة للتعبير عنها، ودفعت أمام القارئ بألوان من الاهتمامات والمشكلات والمعاناة لا حد لها، ويكفي أن تفكر لدقائق في أزمة الإسكان والمواصلات، وتفجر السكان وقلّة الغذاء. واتساع المعرفة الإنسانية، والتقدم المريع في عالم التقنية، وفي التخصص يصبح مع كل يوم أكثر وضوحاً وضيقاً، وفي تفتت الذرة، وقانون النسبية، وفي إضافات علم النفس العميقة، وفي حربين عالميتين، وخمسة حروب مصرية، وفي إنسان يزداد كل يوم صغراً في مواجهة عالم يزداد كل يوم ضخامة، في إنسان يجيد أروع التقنية، تصعد به إلى القمر، ويدور معها حول الأرض، ولكنه لم يستطع أن يقهر الموت، ولم يتتصر على الشيوخوخة، إنسان دمرته التعاسة، وحيرته الميتافيزيقا. وكل

ذلك ترك بصماته واضحة على الساحة الجمالية، وأدى إلى طريقة جديدة للإحساس بالحياة والتاريخ. وأخذ الأدب شكلاً ومحتوى يعكس هذه الحقائق، ومن ثم يجب ألا تدهشنا جملة سارتر حين يقول: «إني أكتب لزمني، لا يهمني من سيجيئون بعد»، ولا يدهشنا أيضاً أن الأدب يعبر عن الإنفعالات الأكثر بدائية ووقاحة وعرياً، ويبحث عن التعبير الأشد قساوة ووقعاً.

لقد عشق العربي القصيدة بطولها المحدود وموضوعها الواحد منذ القدم، والقصة أقرب ألوان النثر إلى الشعر، وفيها الكثير من خصائصه، برغم ما يبدو بينهما من بعد للوهلة الأولى، يجمع بينهما أن عماد كل منهما التكثيف والتوتر والتلاحم العاطفي والجمالي، وأن إبداع القصة كإبداع الشعر، يومض فجأة، وينشق كشرارة، ويجيء عفويًا، وقد يمضي القصاص أياماً لا تعرض له أية فكرة لأية قصة، حتى ولو كانت رديئة، وقد تتساقط في خياله عشرات الأفكار الممكنة، ويعجز عن حملها إلى الورق. وقد تقفز في أعماقه أفكار القصة مع كلماتها وألوانها، وهو يتنزه، أو يتسكع في الشوارع، أو يقرأ، أو في القطار، أو في السينما، أو يجلس على مقهى، أو على مرأى الأمواج البيضاء من حافة البحر، على نحو ما تقع الأبيات وأشطارها في فكر الشاعر وعلى لسانه، فيمسك بها وبقالبها العروضي معها. والمشاعر والأحاسيس التي تثيرها فينا قصة جميلة لا تبعد كثيراً عما توقظه في قرارة نفوسنا قراءة قصيدة رائعة. من الشعر، وكل ذلك يجعل منها فناً محبباً إلى الكاتب والقارئ على السواء، ومن هنا كان الذين يكتبون القصة في العالم العربي كثيرون،

بالنسبة إلى المسرح أو الرواية مثلاً، ولو أن هذا لا يعنى بالضرورة أن كل من كتب فيها أجاد أو أتى بشيء جديد وجميل.

إن كتاب القصة مدعوون إلى أن يكونوا في مستوى همومنا، وما كان جديداً في الخمسينيات من المطالبة بجلاء المستعمر، ودعوة الفكر اليساري إلى ربط الفن بالحياة، والالتفات إلى الطبقات المطحونة، أصبح في الستينيات أمراً مقررأ، لقد حرر الإصلاح الزراعي قطاعاً عريضاً من الفلاحين، ونقلت القوانين الاشتراكية ملكية المؤسسات الكبيرة إلى الدولة، وتمتعت الطبقة العاملة بالحماية من الفصل التعسفي وبالتأمين الصحي والاجتماعي. ولكن إلى جانب ذلك، جددت في غيبة الدستور والقانون، وقسوة الرقابة، وبطش الأحكام العرفية، وهي معلنة منذ عام ١٩٣٩، باستثناء عامي ١٩٥٠ و١٩٥١، أيام حكم الوفد المجيدة، هموم من لون جديد، ربما كانت أقسى وأشد خفاء، صمت عنها كبار الأدباء قهراً، أو مداراة، أو تقيّة، أو لأنهم قبضوا الثمن، ترفاً قاتلاً، وجاهلاً مزيفاً، ولم يلتفت إليها القصاص الشبان، لأن حظهم من المعاناة والتجارب محدود، ومعرفتهم بما يجري قاصرة. حتى إذا جاءت هزيمة ١٩٦٧ بكل ما فيها من عار ومرارة، عرت أنماط حياتنا السياسية الزائفة، وأحدثت شرخاً رقيقاً في جدار الخوف، تنفس الفكر معه، وقال الناس شيئاً، وبدأت قلة من القصاص تسلط الضوء على بطائن النسوء، وتجار السوق السوداء، والصفقات المريبة، والصوص الكبار، والمنافقين وحملة القماقم، وسرعان ما تلاشى الأمل، وعادوا من جديد يكتبون القصة في صورتها القديمة، يعكسون قضايا تجاوزها الزمن.

إن القصة في صورتها الجديدة التي نتوقها، وطال شوقنا إليها في مصر، هي التي ترد إلى الناس إيمانهم بالوطن، وولائهم للعمل، وتشيع فيهم التفاؤل والأمل، وتقوى بينهم روح المقاومة، وتبشر بوطن جديد، تزدهر فيه الحرية والديمقراطية والعدل الاجتماعي، وبغد جميل لا قهر فيه ولا إرهاب، تفعل ذلك فنا يتسرب إلى النفس في خفاء، ويعمل في داخلها دون ضجيج، وليس خطابة رديئة، ولا وعظاً ساقطاً.

مختارات من القصة العربية

في القطار

أول قصة قصيرة في الأدب العربي

صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته، ويرد للشيخ شبابه، ونسيم عليل ينعش الأفتدة، ويسرى عن النفس همومها، وفي الحديقة تمايل الأشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدم الصباح، والناس تسير في الطريق وقد دبّت في نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكثب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة، وأسائل نفسي عن سر اكتئابها فلا أهدى لشيء.

تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة، فلم أنجح. فألقيت به على الخوان وجلست على مقعد، واستسلمت للتفكير كأنى فريسة بين مخالِب الدهر.

مكثت حيناً أفكر ثم نهضت واقفاً، وتناولت عصاي وغادرت منزلى وسرت وأنا لا أعلم إلى أى مكان تقودنى قدمائى إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكراً ثم اهتديت للسفر ترويحاً للنفس، وابتعت تذكرة، وركبت القطار للضيعة لأقضى فيها نهاري بأكمله.

وجلست فى إحدى غرف القطار بجوار النافذة، ولم يكن بها أحد سواى وما لبثت فى مكانى حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن فى أذنى (وادی النيل، الأهرام، المقطم) فابتعت إحداها

وهمت بالقراءة وإذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين، أسمر اللون طويل القامة، نحيف القوام كث اللحية، له عينان أقفل أجفانهما الكسل، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد. وجلس الأستاذ غير بعيد عني، وخلع مركوبه الأحمر قبل أن يتربع على المقعد، ثم بصق على الأرض ثلاثاً ماسحاً شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير. ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبّة وجعل يردد اسم الله والنبي والصحابة والأولياء الصالحين، فحولت نظري عنه فإذا بي أرى في الغرفة شاباً لا أدرى من أين دخل علينا ولعل انشغالي بروية الأستاذ منعى أن أرى الشاب ساعة دخوله.

نظرت إلى الفتى وتبادر إلى ذهني أنه طالب ريفي انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضيعته ليقضى إجازته بين أهله وقومه. ونظرت إلى الشاب كما نظر ثم أخرج من حافظته رواية من روايات مسامرات الشعب وهمّ بالقراءة بعد أن حوّل نظره عني وعن الأستاذ. ونظرت إلى الساعة راجياً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع، فإذا بأفندي وضاح الطلعة، حسن الهندام، دخل غرفتنا وهو يتبختر في مشيته ويردد أشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والتمرس. جلس الأفندي وهو يتسم وأضعاً رجلاً على رجل بعد أن قرأنا السلام، فرددناه رد الغريب على الغريب.

وساد السكون في الغرفة والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود، والأفندي ينظر لملابسه طوراً وللمسافرين

تارة أخرى، وأنا أقرأ وادى النيل منتظراً أن يتحرك القطار قبل أن يوافقنا مسافر خامس.

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأننا نتظر قدوم أحد، فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين، أحمر الوجه براق العينين، يدل لون بشرته على أنه شركسي الأصل، كان ممسكاً مظلة أكل عليها الدهر وشرب. أما حافة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه. وجلس أمامي وهو يتفرس في وجوه رفقائه المسافرين كأنه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين ذاهبون. ثم سمعنا صفير القطار ينبئ الناس بالمسير، وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه إلى حيث هم قاصدون.

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس بينت شفة، كأنما على رعوسنا الطير، حتى اقترب من محطة شبرا، فإذا بالشركسي يحملق في ثم قال موجهها كلامه إلى :

- هل من أخبار جديدة يا أفندي ؟

فقلت وأنا ممسك الجريدة بيدي: ليس في أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم إلا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية.

ولم يمهلني الرجل أن أتم كلامي لأنه اختطف الجريدة من يدي دون أن يستأذني وابتدأ بقراءة ما يقع تحت عينيه، ولم يدهشني ما فعل لأنني أعلم الناس بحدثة الشراكسة. وبعد قليل وصل القطار محطة شبرا فصعد منها أحد عمد القليوبية، وهو رجل ضخم العجثة، كبير الشارب، أفتس الأنف، له وجه به آثار الجدرى،

تظهر عليه مظاهر القوة والجهل. جلس العمدة بجوارى بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبي ثم سار القطار قاصداً قلوب. مكث الشركسى قليلاً يقرأ الجريدة، ثم طواها وألقى بها على الأرض وهو يحترق من الألم وقال:

- يريدون تعميم التعليم ومحاربة الأمية حتى يرتقى الفلاح إلى مصاف أسياده وقد جهلوا أنهم يعنون جناية كبرى.

فالتقطت الجريدة من الأرض وقلت:

- أية جناية؟

- إنك ما زلت شاباً لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاح.

- وأى علاج تقصد؟ وهل من علاج أنجع من التعليم؟

فقطب الشركسى حاجبيه وقال بلهجة الغاضب:

- هناك علاج آخر ..

- وما هو؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الأستاذ من نومه وقال:

- السوط. إن السوط لا يكلف الحكومة شيئاً، أما التعليم فيتطلب أموالاً طائلة، ولا تنس أن الفلاح لا يذعن إلا للضرب لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد.

وأردت أن أجيب الشركسى، ولكن العمدة حفظه الله كفانى معونة الرد فقال للشركسى وهو يتسم ابتسامه صفراء:

- صدقت يا بيه صدقت. ولو كنت تسكن الضياع قلت أكثر من ذلك، إنا نعاني من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه، ونمنعه من ارتكاب الجرائم.

فنظر إليه الشركسى نظرة ارتياب وقال:

- حضرتكم تسكنون الأرياف؟

- أنا مولود بها يا بيه.

- ما شاء الله.

جرى هذا الحديث والأستاذ يغط في نومه، والأفندي ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ثم ينظر لنا ويضحك، أما التلميذ فكانت على وجهه سيماء الاشمئزاز، ولقد هم بالكلام مراراً فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه، ولم أطق سبكوتاً على ما فاه به الشركسى، فقلت له:

- الفلاح يا بيه إنسان مثلنا وحرام ألا يحسن الإنسان معاملة أخيه الإنسان، فالتفت إلى العمدة كأني وجهت الكلام إليه وقال:

- أنا أعلم الناس بالفلاح، ولي الشرف أن أكون عمدة في بلد به ألف رجل وإن شئت أن تقف على شؤون الفلاح أجيبك. إن الفلاح يا حضرة الأفندي لا يفلح معه إلا الضرب، ولقد صدق البك فيما قال. وأشار بيده إلى الشركسى:

- ولا ينبئك مثل خبير.

فاستشاط التلميذ غضباً، ولم يطق السكوت، فقال وهو يرتجف:

- الفلاح يا حضرة العمدة.

فقاطعه العمدة قائلاً:

- قل يا سعادة البك لأنى حزت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة!

قال التلميذ:

- الفلاح يا حضرة العمدة لا يدعن لأوامركم إلا بالضرب لأنكم لم تعودوه غير ذلك، فلو كنتم أحسستم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخاً يتكاتف معكم ويعاونكم، ولكنكم مع الأسف أسأتم إليه فعمد إلى الإضرار بكم تخلصاً من إساءتكم. وإنه ليدهشنى أن تكون فلاحاً وتنحى باللائمة على إخوانك الفلاحين.

فهر العمدة رأسه ونظر إلى الشركسى وقال:

- هذه هى نتائج التعليم.

فقال الشركسى:

- نام وقام فوجد نفسه قائم مقام.

أما الأفندى ذو الهندام الحسن فإنه قهقه ضاحكاً وشفق بيده

وقال للتلميذ:

- برافوا يا أفندى، برافوا، برافو..

ونظر إليه الشركسى وقد انتفخت أوداجه وتعسر عليه التنفس

وقال:

- ومن تكون أنت ؟

- ابن الحظ والأنس يا أنس.

وقهقه عدة ضحكات متوالية.

ولم يبق في قوس الشركسى منزع فصاح وهو يبصق على الأرض طورا وعلى الأستاذ وعلى حذاء العمدة تارة:
- أدبسيس فلاح.

ثم سكت وسكت الحاضرون، وأوشكت أن تهدأ العاصفة لولا أن التفت العمدة إلى الأستاذ وقال:

- أنت خير الحاكمين يا سيدنا فاحكم لنا في هذه القضية. فهز الأستاذ رأسه وتنحنح وبصق على الأرض وقال:

- وما هي القضية لأحكم فيها بإذن الله جل وعلا؟
- هل التعليم أفيد أم الضرب؟

فقال الأستاذ:

- بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. قال النبي عليه الصلاة والسلام لا تعلموا أولاد السفلة العلم.

وعاد الأستاذ إلى حموله وإطباق أجفانه مستسلماً للذهول، فضحك التلميذ وهو يقول:

- حرام عليك يا أستاذ. إن بين الغنى والفقر من هو على خلق عظيم كما أن بينهم من هو في الدرك الأسفل.

فأفاق الأستاذ من غشيته وقال:

- واحسرتاه، إنكم من يوم ما تعلمتم الرطان فسدت عليكم أخلاقكم ونسيتم أوامر دينكم ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وأنكر وجود الخالق.

فصاح الشركسى والعمدة (لك الله يا أستاذ) وقال الشركسى:

- كان الولد يخاف أن يأكل مع أبيه، واليوم يشتمه ويهم بصفعه.

وقال العمدة:

- كان الولد لا يرى وجه عمته، والآن يجالس امرأة أخيه. ووقف القطار في قليب، فقرأت الجميع السلام، وغادرتهم وسرت في طريقى إلى الضيعة وأنا أكاد لا أسمع دوى القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح فى أذنى من صدى الحديد.

[١٩١٧م]

مولانا أبو البركات

عاش الشيخ «أبو البركات» حتى الخمسين من عمره، رقيق الحال، ليس له إلا دخل قليل، إذ كان إماماً في مسجد صغير تداعت أركانه، وسط حي فقير. كان بحاله راضياً بكل الرضا، قنوعاً أشد القناعة، لا يضيق بما فيه من عسرة وإملاق. وهو إلى ذلك سخي الكف، أريحى النفس، يرفق بمن يلقي من الفقراء وأبناء السبيل، فيقتسم معهم اللقمة، تحذوه الحكمة الطيبة: الحسنه فى الدنيا بعشرة أمثالها فى الآخرة. وما كان للرجل أن يطلب نعيم الدنيا أو يتهافت على ما تحفل به من أطنايب، وهو إنما يعمل لآخرته ما وسعه أن يعمل، إذ الدنيا فى عينه دار فناء والآخرة هى دار البقاء.

وكان الشيخ يؤذيه ما يشهده من شقاء الإنسانية وبأسائها، فهو فى ختام كل صلاة يعاهد ربه عهداً لاحقاً فيه أنه لو وصله بعبية سخية من المال لعجل بها إلى اخوانه من عُفاة الحى ينثرها، ليخفف من بلواهم، ويفرّج عنهم كربتهم. ويبعث فى نفوسهم طمأنينة وراحة.

ويبدو أن الله قد استجاب له، فهبطت عليه يوماً من السماء، دون ترقب، ثروة طيبة، جاءت من ورقة نصيب، اشتراها على كره

منه، لا رغبة في كسب، أو غنم، ولكن عوناً لبائعها بما أعطاه من ثمن.

تلقى «أبو البركات» هذه الثروة المفاجئة في دهشة وتحير، ولم يلبث أن احتوته غاشية من ذهول ووجوم، وما هي إلا أن هجس في خاطره صوت يردّد: أن هذا المال ليس لك، فأياك أن تمتد إليه يدك لتتفق منه على نفسك، إنما هو مال الفقراء، أولاهم الله إياه، واختارك قيماً عليه، لتتولى إنفاقه في وجوه البر والاحسان.

وانتفض الرجل انتفاضة هزت كيانه، وقد أفاق من غشيته، فسما ببصره إلى السماء يحمد الله على عطيته، وأقسم والدموع تترقرق على وجنتيه أن يكون أميناً على عهده، وفيما بوعد.

ونفض من ساعته ينفذ خطته، وانطلق يصل طلاب الحاجات بالمنح والعطايا، فما أسرع أن تسامع به القريب والبعيد، فسعوا إليه، وسايروه في تطوافه، يتلقفون منه نفحات المال كأنما هي الغيث المنهمر، وهم يجأرون له بالدعاء الحار، فكان يجيبهم، وابتسامته الوضيئة تشيع على محيائه، بأن ما يجود عليهم به من مال، ليس هو بماله، إن هو إلا عطية المولى خصهم بها، ووكل أمر توزيعها إليه، كل امرئ وحاجته.

وعاد إلى بيته قرير العين بما قال وما فعل. فتناول مع زوجته وعياله عشاء غثاً تافها لا يسمن ولا يغني من جوع.. ولم يلبث أن فر إلى شجادة الضلالة يلوذ بها، ويتعبد ويتعبد، ضارعاً إلى الله أن يسيع عليه عفوه ورضاه، ويغفر له خطايا.

وتواردت الأيام، والشيخ يواصل العطايا يمنحها جزافاً كل من يمدّ إليه يده بالسؤال. وكانت الساحة أمام الدار، منذ الضحوة العالية، تحتشد بجموع الناس من كل صوب. فإذا ما هل عليهم هرعوا إليه، متدافعين بالمناكب، يتصايحون ويتصاحبون، هذا يطالب بضمن كساء، وذاك في حاجة إلى الحصول على دواء، والثالث يطمع في أداء قسط المدرسة لبيه. والشيخ يهش لهم جميعاً، يلاطفهم ويواسيهم ويطلب لهم من الله العون والتوفيق.

وتواترت أيام آخر، وأحس «أبو البركات» وطأة الزحمة وتكالب الجماهير، وتشتد بهم اللجاجة، ويعلو لهم ضجيج، فكانوا تارة يضرعون في مذلة وصفار، وطورا يتوعدون في توقع واجتراء، فازداد الرجل من حيرة وخرج وأحاطت به الهواجس، فلم يدر ما يفعل.

وأقبل عليه صديق يمحضه النصح، فقال له: «دع عنك هذه الوسيلة غير المجدية في بذل المعونات. فقد ينال منك من ليس أهلاً للاحسان، على حين يظل صاحب الحاجة بمنأى عنك، لا ينال من خبرك شيئاً.. يلزم أن ترسم لك خطة في العمل، وأن تضع برنامجاً محكماً للتوزيع، فيصيب صاحب الحاجة حاجته عن حق وعدل، دون ما غبن ولا جور».

ووقعت هذه الكلمات الحكيمة من نفس الشيخ موقع رضا وقبول، فأولاهها على الفور كبير عنايته، وأمسك عن بذل العون إلا لنفر قليلين، هو بحقيقة حالهم أعرف، وانسرح يقلب الفكر، لعل الرأي يُسفر له عن تدبير قويم.

وازدحمت الخطط في رأسه، فعكف عليها يوازن بينها ويتدارسها، وتشعبت المسائل وتداخلت، فاختلط عليه الأمر، لا يدري من أين يبدأ، وأية سبيل يسلك، وإلى أي وجهة يهدف، فما أسرع أن تسرب إلى نفسه الملل، واشتد به الضيق. أليس من الحكمة إذن أن يهب «المال» مؤسسة خيرية، أو مصلحة حكومية، تتولى إنفاقه على ذوى الحاجات، فيريح ويستریح؟.. ولكن أليس هذا برهان عجز يصمه بالنكوص عن أداء الواجب، والتخلي عما كلفه الله من رعاية البائسين؟ وهل يأتمن على مال الله - وديعته إليه - نفراً من الغرباء لا يقيمون للأمر وزناً، ولا يولونه أى اهتمام؟ ومن يدري فقد تمتد أيديهم إليه بالعبث فلا يقنون عليه من شيء. إن الجشع والطمع خلّتان أصيلتان فى طبع البشر.. لا.. لن يدع غيره يتولى شؤون الفقراء، ولن يتخلى عما أمره به الله. سينهض بالأمر ناشطاً غير وان.

وبارح الدار يستروح، ولما عاد جاءته زوجته على استحياء، وأطفالها من حولها يحومون، وقالت له:

«ألم يحن الوقت لتعطينا مما أفاء الله عليك، حتى نشترى كسوة للصغار؟.. أنت تعطى الغريب، وتنسى أطفالك، وهم أحوج إلى العون وأولى به!»!

فرماها بنظرة حادة، وقال: ليس المال مالى وليس لى حق التصرف فيه لنفسى أو لأهلى، إنه مال المعوزين البائسين

- ألسنا من المعوزين البائسين؟!

- إن ما لدينا يكفيننا.. وغيرنا أحق منا.

- أليس في قلبك ذرة من الرحمة بأولادك؟

لقد قلت كلمتي، فاغربي عن وجهي يا امرأة.

وزايلت المرأة الحجرة، وهي تجهش بالبكاء، وأطفالها ينوحون، ونظر الشيخ إليهم يرقبهم في منصرفهم عنه، فراغته ما يحملون على أجسادهم النحيلة من أسمال، ولاذ على الفور بسجادة الصلاة يضرع إلى الله أن يعصمه من المزالتق والعثرات.

وفي بكرة غده، أقبل عليه شخص من معارفه يشكو سوء حاله، ويرغب إليه أن يمنحه مبلغا من المال، يستعين به على شراء كسوة لأطفاله، فطفق الشيخ يقلب فيه النظر لحظات، وقد استشعر بوادر سخط تعتلج في نفسه، على أنه مد يده إلى السائل بمبلغ ضئيل. فقال الرجل في دهشة وامتعاض:

إنه مبلغ لا يفى بكسوة رضيع، فكيف وأطفالى قد شبوا عن الطوق، وعددهم ليس بالقليل؟

فأجابه الشيخ في نبرة عليها مسحة من غضب:

- هذا ما أستطيع أن أقدمه لك.

- يا سيدى إن الأمر جد، أرجو أن ترجم.

فقاطعه الشيخ في لهجة صارمة :

- على عاتقى إنفاذ خطة خيرية هامة، تقتضىنى الحكمة فى

الإنفاق، وحسبك منى ما أعطيتك!

وقدم عليه سائل ممن ألفوا نيل عطائه من قبل، وكان الرجل بادی السقم والهزال، فشكا إليه الجوع، وأقسم أمامه أنه لم يذق

طعاماً منذ أيام، وما لبث أن تهاوى على الأرض ضعفاً وإعياء، فخف إليه الشيخ يعينه على النهوض، وتأثر لحاله أبلغ التأثر، وعجل يدس في يده منحة سخية، أشرق لها وجه السائل، وأطلق لسانه بالدعاء الموصول.

وبعد حين شهد «أبو البركات» صديقه السائل الجائع في مطعم من مطاعم الحى، جالسا إلى مائدة عليها صحن حافل بالثريد يُتوجه كومة من لحم، وقد فاح قتاره شهياً. وتابع خطاه، وهو يغالب هيجة ضارية في معدته.

وعند أوبته إلى داره، جلس يصيب طعامه مع زوجته وأولاده. فإذا هو صحن هزيل من خثارة الجبن، وكسر من خبز يابس، ولم يكبد الصحن يستقر أمامهم حتى امتدت إليه الأيدي في غدو ورواح، حتى أتت عليه في لحظات. وكان «أبو البركات» يرقب عياله في مأكلهم متجههم الوجه، وانصرف عن الطعام ولم يذق منه إلا النزر، وسرعان ما لاذ بسجادة الصلاة.

وتلاحقت أيام، وعاد السائل الجائع يطرق باب الشيخ، ويطلب بمنحته، فألقى عليه الشيخ بمبلغ تافه أخذه السائل على مضض، وانصرف.

وفيما كان الشيخ يجوز بالسوق، إذ وقعت عينه على صديقه السائل الجائع، متبداً ركناً في الطريق، وقد بسط في حجره بعض كسر من خبز يابس، وقطعة من جبن قريش، وانهمك يأكل، فحث الشيخ خطاه، وقد تخايل على فمه طيف ابتسامة!

ويوماً هبط دار «أبي البركات» تاجر من السوق، ورغب في رجاء أن يؤدي له ثمن ما أخذته زوجته من متجره، وقدم له على الأثر رقعة الحساب، وكانت مشحونة بالأرقام، فنظر الشيخ في الرقعة، وقد أخذ منه الدهش كل مأخذ، واستمهله إلى الغد، وقصد زوجته على الأثر، وقد استبد به الغضب، وسألها قائلاً:

- ما شأن هذه الثياب التي يطالبني التاجر بدفع ثمنها؟.

فأجابت : إنها لى ولأطفالي.. نحن فى حاجة ماسة إلى الثياب.

- ولكنك تعلمين أنى فقير لا أملك أداء هذا المبلغ.

- دعك من هذه الدعاية، لديك ما يكفى لدفع ثمن الثياب وغير الثياب، أضعافاً مضاعفة.. انتظرني قليلاً.

وانصرفت مهرولة، وما هى إلا أن عادت حاملة صرة كبيرة، وبادرت تبسطها أمامه مرددة:

- ما أبهاها من ثياب تكسو أطفالك وتكسونى، سوف تدخل البهجة على قلبك حين تبدو بها أمامك!.

وامتدت أصابع الشيخ إلى النسيج تتحسسه، فأدرك على الفور أنه من الصنف الجيد الفاخر، وهبطت يده دون وعى منه، على جيبه الرثة البالية، فأحس خشونتها، وكثرة الرقاع فيها، وألقى نفسه يزمجر زمجرة حبيسة، وهو منساق يقول:

- كيف تسمحين لنفسك بشراء شىء دون إذن منى ؟ من أكون فى نظرك؟!.

- سألتك مرة، فرفضت..

- لذلك تريدان أن تضعيني أمام الأمر الواقع. ترغيبين في فرض إرادتك علي.. لن أدفع ثمن ما جئت به. وعليك برد ما أخذت.
- لن أرد شيئاً..

- إنك لمتوقفة يا امرأة.

- كف عن إهانتى. لم أعد أحتمل ما تفعل، حسبي من سوء تصرفك!.

- اخرسى يا امرأة..

- لن أخرس، بل سأقول ما يحلو لى.

- إلزمنى أدبك يا امرأة، وعليك رد الثياب إلى التاجر في الحال.

- لن أرد شيئاً.

وعجلت إلى الصرة تحملها، وقصدت إلى الباب، فسارع خلفها، واجتذبتها منها، فأمسكت بالصرة متشبثة تحاول إبقائها معها ولبثا يتجادبان. وما أن أدرك الشيخ أن الأمر سيفلت منه، حتى ترامي عليّ صرة الثياب وأخذ يمزقها بيديه وهو يردد:

لن تكون لك. لن تأخذها.

وظفقت في هينجة يواصل تمزيق الثياب.

وتصايحت المرأة صاحبة تولول، وعلا على الأثر نحيبها. وتأهبت للانقضاض على زوجها واقتحم الحجرة نفر من الجيران يعالجون الفصل بينهما.

وما هي إلا أن ترك الرجل وحيداً أمام صرة الثياب وهو يهدر بقوله:

ليس لى أن أستبيح مال الله، فأنفقه على أسرته.. لسنا فى حاجة إلى متاع الدنيا. لنا فى الآخرة عوض خير عوض.

ولم يلد بسجادة الصلاة هذه المرة، بل غادر البيت على عجل، ينشد الهواء لرثييه المختنقتين.

واحتواه الطريق، وهو مشغول بأفكاره تتناوح فى رأسه: ماذا كان عليه أن يفعل؟ أترأه يخضع لسلطان زوجته تؤثر فيه بمختلف المؤثرات العاطفية، تحاول أن ترده عن طريقه؟.. أترأه أسرف على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده حين أقام حجاً بينه وبين متع العيش؟ هل حرم الله الطيبات من الرزق؟ أليس المال من زينة الحياة التى بسطها الله لعباده؟.

وتابع الشيخ خطاه، وهو فى دوامة من هذه الأفكار، لا يكاد ينفذ من حيرة إلا إلى خيرة، كسفينة تتقاذف بها نكباء الرياح.

ولما جن الليل، وأوى الشيخ إلى فراشه، راودته الأجلام تريبه زوجته وأولاده فى مثل تلك الثياب التى أشبعها تمزيقاً، وما كان أجملهم وهم يرتدونها، وعلى وجوههم فرحة الحياة.

وفى بكرة غده بارح الدار إلى السوق.. ورجع بعد قليل يحمل تحت أبطه صرة، حرص على أن يحجبها عن العيون.

ووضع الصرة أمام زوجته فى صمت، ثم انثنى يحل رباطها ويخرج محتوياتها فإذا بها ثياب فاخرة لها وللأطفال!..

ولحظت أن الشيخ قد اجتذب لفيفة من بين قطع الثياب، وما أسرع أن دسها تحت وسادته!.

ولم تمض أيام حتى بدا «أبو البركات» منتفشا في جبة قشبية
يخب فيها خبا.

وأقبل عليه صديقه «السائل الجائع» يطالب بمنحته فصرفه الشيخ
دون عطاء!.

وفي اليوم نفسه عندما حل موعد الغداء، جلس الشيخ ومعه
زوجته وأولاده حول مائدة حفلت بأطيب الطعام، وكانوا يرتدون
حللهم الجيدة، تعلق وجوههم بهجة الحياة.

منذ ذلك اليوم عاش الشيخ «أبو البركات» مع أسرته في بحبوحة
ورخاء، وأوصد باب بيته في وجه كل سائل. وكان في أحاديثه
عن هؤلاء السائلين ينعتهم بالمتعطلين الكسالي، ومن فقدوا الرغبة
في السعي إلى الرزق الحلال، وارتضوا عيش الهوان والمذلة،
يأكلون من جهد العالمين.

وإذا سئل الشيخ «أبو البركات» عما فعل به «عطية الله» التي
أرصدها لذوي الحاجات، تملل في جلسته، وزاغ بصره بهمهم:
إنى في سبيل إعداد مشروع عظيم، يهدف إلى خير المجتمع،
وأن هذا الأمر يقتضىنى دراسة مستفيضة ووقتا ممدوداً.. إن فى
التأنى السلامة، وإن العجلة من الشيطان!!

[مجلة العربى، أكتوبر ١٩٥٩م]

أَحْسَنُ حِمَارٍ

كان سائحاً في بلدته.

لأنه منذ فارقها وهو في الخامسة عشرة لم يكن يعود إليها إلا مرة في كل خمس سنين، أو مرة كل عشر سنين، فيعيش فيها أياماً كما يعيش السائح القادم من القارة الأوربية أو القارة الأمريكية: يوماً في النيل، ويوماً في الصحراء، ويوماً عند أودية الجبال التي تهبط من السيول، ويوماً عند المتحفات والآثار، إلى آخر هذه المنازه والرحلات التي يعرفها كل من عرف البلدة الخالدة: أسوان! وكان يجد في هذه الرحلات من المتعة النفسية ما لا يجده السائح الغريب، لأنه يجمع في نزهته بين ذكرياته الشخصية وذكريات التاريخ. وإنه لفي طريقه إلى الخزان يوماً إذا به يلتفت إلى جانب المسلة الناقصة أو المسلة المهجورة فيراها...!

هي هي الفتاة الروسية الراقصة التي طالما نظر إليها في فندق «الكتاراكت» وتمنى ان يراها في جلسة هادئة ليتعارفا.

رآها هناك وليس معها أحد غير الترجمان ورسول الفندق الصغير وسائق الحمار الذي تركبه، ولا يدري من تركيه لأنه حمار.

وكانت آية في الجمال الفخم المتين، طويلة باسقة الطول، صحيحة الجسم، ينضج خداهما بوهج الصحة، رشيقة لا تذكر

رشاقته بالحلية الدقيقة التي يخشى عليها الكسر السريع، أو بالتمثال الأنيق الذي تميل به نسمة، ولكنها الرشاقة التي تحترم وتهاب.

رآها هي بعينها في أوسع مكان لفرص التعارف: في الصحراء!

وإنه ليخدع نفسه إذا هو أوهمها أنه رأى الفتاة على سبيل المصادفة والاتفاق العجيب. كلا لم تكن مصادفة ولا اتفاقا عجيبا تلك المقابلة في جانب المسلة المهجورة.

لأنه كان في فندق «الكتاراكت» ليلة أمس على خلاف عادته في السهر خارج المنزل ليزور بعض الأصحاب.

وكانت الفتاة الروسية تحيي ليلتها التي دعيت لأجلها من القاهرة، فرقصت وأبدعت، وراحت وهي قبلة الأنظار، بل قبلة الأنظار وأصحابها جميعا، لأنهم أحاطوا بها يهثونها ويتقربون منها، وهي تبتسم وتتخلص إلى طريق الشرفة الصخرية المطلة على النيل.

ثم جاءها مدير الفندق ومعه ترجمان وقال لها: «هو ذا يا آنسة أبرع ترجمان في البلدة يصحبك غدا في زيارة الآثار الشرقية وهو بانتظار أمرك في الصباح.» قالت ضاحكة: «والحمار؟؟»

قال ضاحكا أيضا: «نعم يا آنستي، ثقي بهذه المسألة أيضا. سيكون معك أحسن ترجمان في البلدة، وأحسن حمارا!»

فلما رآها في اليوم التالي، لم تكن المقابلة محض مصادفة لا يعلم بها قبل لحظتها، ولكنها كانت كذلك لا تخلو من عنصر المصادفة السارة، لأن الصحراء واسعة، ومواقع الفرجة فيها متعددة، والوقت من الصباح إلى الضحى ليس بالوقت القصير، فمن الممكن أن

يخرج إلى هذا الجانب في الصحراء عشرون ولا يلتقون، ومن الممكن أن يخرج اثنان ويلتقيان.

فهى إذن مقابلة عجيبة قد اجتمع فيها سرور المصادفة وسرور الانتصار وبقي شيء. شيء واحد. بقي كل شيء فى الحقيقة..

بقي التعارف المنشود الذى بغيره تصبح هذه المقابلة حسرة، ويزول كل ما فيها من السرور فكيف السبيل إليه؟.

هو متحفظ جداً فى هذه المواقف، وإن شئت فقل إنه خجول فى مقابلة الغرباء من الرجال أو النساء. وهى بطبيعة الحال فتاة مدللة تشعر بعزة الجمال، وتجرى على الآداب الأوربية فى هذه المناسبة، فرصة التعارف واسعة جداً على التحقيق.

ولكن المسافة بين المتعارفين أوسع من فرصة التعارف، أوسع من الصحراء، وإن الفرصة لتوشك أن تفلت آخر الأمر بغير أمل فى التجديد. إذا بأحسن حمار فى البلدة يمهد سبيل التعارف أحسن تمهيد.

لأنه جمع على غير العادة، بل جمع على حسب العادة التى اعتادها كل حمار أصيل، فإن هذه الحمير الأصيلة لا تختل النخس اليسير، وقد تستحثها إلى الجرى بأقصى سرعتها بهزة صغيرة فى الركاب، فتأتى بالسرعة التى يعجز عنها الحمار البليد، ولو انهالت على رأسه ألف عصا، واندس فى خاضرته ألف مهماز.

وفى تلك اللحظة كان السائق الغبى يقرب الحمار إلى الفتاة الروسية لتركبه، فنخسه على سبيل الاستعجال، فكانت هى النخسة

المباركة التي لم ينتظرها أحد من الواقفين، لأنه جمع وانطلق في الصحراء، وانطلق وراءه الصبي ليعيده إلى الطاعة، فوقفت الفتاة مدهوشة، وهي تقول للترجمان كأنها تؤنب الفندق ومديره في شخصه: هذا أحسن حمار في البلدة؟

فارتبك الترجمان ولم يدر ما يقول، أو لعله قد ألهم أن يقول أفضل ما يقال في تلك المناسبة، فأقسم لها أنه لأحسن حمار حقا «وإن لم تصدقني يا مدام فاسألي الأستاذ!».

قالت وقد أغرقت في الضحك: وما شأن الأستاذ بهذا؟

فمضى الترجمان في اعتذاره وهو يقول:

«نعم ياسيدتي. إنه من أهل البلدة، وإنه يعرف حميرها جميعا وطالما ركب هذا الحمار بعينه، وخرج به إلى هذا المكان، وإلى كل مكان في أسوان. وعلى فكرة ياسيدتي! إن الأستاذ ليعرف كل قطع الآثار كما يعرف بيته، فاسأليه فيما كنت ياسيدتي تشكين فيه من كلامي عن هذه الآثار اسأليه... أليس كذلك يا أستاذ؟»

بارك الله فيك يا هذا الترجمان!

إنك حقا لأحسن ترجمان في البلدة، وفي العالم!!.

اتصل التعارف بهذه المناسبة الصحراوية المضحكة، وعاد الحمار إلى الطاعة، مشكورا على عصيانه، وتبادلا الحمارين، ليقيم لها الدليل على اطمئنانه إلى الحمار المتهم بالجموح، وقضيا بقية الرحلة معا، وسمع منها الكثير وأسمعها الكثير.

علم منها من هي في بضع كلمات: هي روسية أحببت رومانيا وتزوجت به، وعاشت معه سنتين في بلده، ثم افترقا. وعرفت طريقها إلى الفن على أثر هذا الفراق، وعلمت منه من هو في بضع كلمات: هو من أهل هذه البلدة ومن محبى القراءة، وهي وطنه الذى لا ينقطع عنه، إذا انقطع زمنا عن وطن من الأوطان.

وأدهشته وأدهشها.

أدهشته لأنها وهي الفتاة الراقصة اللاهية تعرف الأدب الروسى الحديث كأنها طالبة في جامعة من الجامعات الكبرى تخصصت فيه.

وأدهشها لأنها لم تكن تتوقع وهي قادمة إلى أسوان أن تعرف إنسانا من أهلها تتحدث إليه عن تحب من كبار الكتاب الروسين، ولا سيما «دستوفسكى».. وأن يتم ذلك كله بفضل حمار وعلى غير انتظار!

لك الله يا أيها العزيز دستوفسكى!.. كم وددت لو قبلت لحيتك الكثة من عارضيك إلى ذقنك في ذلك الصبح البهيج.

وعلم منها أنها ستسافر غدا لتقضى يومين في الأقصر، ثم تعود إلى القاهرة. وعلمت منه أنه عائد إلى القاهرة بعد أسبوع.

وأخذت منه رقم التلفون وعنوان البيت، وقالت وهي تودعه عند باب الفندق: «انتظر منى تلفونا بعد بضعة أيام».

- إلى اللقاء في القاهرة.

- فى القاهرة. فى القاهرة.. إلى اللقاء

* * *

ومضت أيام وهو لا يصدق أنها سوف تتكلم كما وعدت، وإن كانت لهجتها الجادة ومحياها الحزين يوحيان إليه أنها ليست ممن يلغو ويهزل بالمواعيد..

ثم دق جرس التلفون ذات صباح: «من المتكلم؟» هى بعينها، هى الفتاة الروسية التى كان ينتظرها ولا يصدق أنه يسمع صوتها مرة أخرى. ولم يعرفها بصوتها كما عرفها بلهجتها الإنجليزية الضعيفة التى كانت تخلطها بكلمات فرنسية تبدو عليها مسحة اللغة الروسية من بعيد.

- ماذا فلانة ؟

- نعم فلانة.. كيف أنت؟ متى عدت إلى القاهرة؟

- منذ يومين.. عود سعيد يا صديقتى!

قالت: شكرا. إذن لم أتأخر كثيراً فى الكلام.

قال: «بل كثيراً جداً.. يومان يا آنستى ليسا بالشئ اليسير فى الانتظار».

قالت: «هاها.. بهذه السرعة؟ إذن متى أراك؟»

قال: «غداً الساعة الخامسة. أتوافقك هذه الساعة؟»

قالت: «كل الموافقة. إذن غداً الساعة الخامسة.. إلى اللقاء»

* * *

وفى وسع القارئ أن يتخيل لهفة الانتظار فى الصباح.

تسكت ولا ترد عليه وهو يتكلم فلا يبالي، وتقاطعه وتخرج من الحجرة وهو يتكلم فلا يبالي.

وتعرض عنه وتشاغل بنقل هذا الكرسي أو رفع هذه المنضدة فلا يبالي، وتفعل ما تشاء فلا يبالي ما دمت لا تقبض بيدك على لسانه، ولا تمنعه أن يحركه بين شذقيه.

والمهم عنده أن ينفذ ما في صدره بغير توقف ولا مناسبة كيفما كان موضوع الكلام.

وليس مهما أن ترد عليه أو تعقب على ملاحظاته وأسئلته التي يوجهها ولا ينتظر جوابها، فهو على التحقيق لا يصغى إليها ولا يسمعها ولا يفكر في معناها.

إنما يقول ويقول ويقول.

حتى يفرغ مما يقول وأنت لا تدري متى يحين موعد الفراغ.

جزاك الله يا هذا.. وفي هذه اللحظة دون غيرها!

فكيف الخلاص، وكيف الاعتذار؟ ومتى ينتهي هذا الثرثار إذا سمح له بالابتداء.

وبدأ القصة الأبدية بعد دقيقة واحدة من تاريخ دخوله الميمون، وعند الله وحده علم الدقيقة التي ينتهي فيها الكلام.

وكان الأستاذ في زيارته السابقة يطيل صبره عشر دقائق أو ربع ساعة إذا كان لديه متسع من وقت الفراغ، ثم يبدأ بعملية التشاغل فلا تنجح العملية قبل نصف ساعة على أهون تقدير.

ولكنه في هذه الزيارة بدأ العملية في الدقيقة الأولى.

خروج من الحجرة ورجوع، ومحادثات فى الهاتف ولا حديث،
وقراءة فى هذه الصحيفة ثم إلقاء الصحيفة وسائر الصحف بضجر
وتأفف لا تحفظ فيه، وإعراض ومقاطعة واقتضاب وسكوت.
ولا فائدة.

ما العمل؟ ما الحيلة؟ كيف الخلاص من هذه البلوى؟

بعد ربع ساعة كأنها آتاء الجحيم خطرت له خاطرة أخيرة، وهى
الخروج من المنزل كله لإكراه هذا الثرثار على الخروج معه، ثم
يعود فى الوقت المناسب.

فلبس على عجل، وعاد مهرولاً يقول له وهو لا يملك أن ينتظر
جوابه: «معذرة يا صاحبي إذا اضطررت إلى النزول.. إني على
موعد فى المدينة، ولا بد من الذهاب إليه الآن.. الآن بغير إبطاء».
فهم أن ينهض من مكانه وهو أقرب إلى الجلوس منه إلى
النهوض، وقال مترخيا: «أضروى جدا هذه المواعيد فى هذه
الساعة؟».

- نعم ضرورى جدا.. ضرورى جدا. لا مؤاخدة! وسبقه إلى
الباب فلم ير الثرثار بدا من اللحاق به، وهبط السلالم متباطئا كأن
له أملا فى إقناع الأستاذ بالعودة.. ولا ضرورة لهذه المواعيد فى
هذه الساعة!

ولم يتقدما فى الطريق خطوات حتى لمح الفتاة مقبلة من بعيد،
ورأته فاستغربت، ووقفت فى مكانها مبهورة..

يا للطامة الكبرى!

لم يفته أن يحزر ما جال بخاطرها في تلك اللحظة. جال بخاطرها ولا شك أنه استخف بها ولم يحفل بميعادها، ولم يكلف نفسه عناء الانتظار للقاءها، وهي التي يتهافت على لقاءها عشرات، ويتظرون الأيام.

فمن حقها أن تدبر راجعة ولا تسأل.

ولحظة واحدة وقد كانت تهم أن ترجع، ويالها من لحظة قد تنتهى بها حياة ذلك الثرثار البغيض فلم يتردد الأستاذ أن ترك ذلك الثرثار فجأة بغير استئذان وبغير تمهيد.

وصاح به وهو يعدو راجعا إلى البيت: «نسيت المفتاح! نسيت المفتاح! نهارك سعيد».

قال: «هل انتظر؟».

فلا يذكر الأستاذ أجابه أم لم يجبه، وقفز على السلالم حتى فتح الباب ووقف ونبضه يكاد أن يقف.. بالانتظار خمس دقائق مضت وكانت ضحكات الفتاة الروسية الرنانة المجلجلة تسمع فى الطريق.

لأنها عرفت الحكاية بتفصيلها وتصورت الموقف بجميع محرجاته ومفاجآته، واسترسلت فى الضحك بغير انقطاع.

قال لها، وهى أول مرة يجترىء فيها عليها: «على رسلك يا بلهاء، إن الشارع كله يسمع هذه الضحكات».

وتحرك فعلا إلى النافذة يقول لها مازحا: «انظرى، إن الشارع يمتلئ بالسامعين والمتفرجين!».

فماذا رأى؟

من السهل على القارئ أن يحزر الآن ماذا رأى الأستاذ، وماذا رأت الفتاة، وهما ينظران إلى الشارع الذى ليس فيه أحد إلا صاحبنا الثرثار يخطو أدراجه إلى المنزل ليستعجل الأستاذ فى النزول.

فما هو إلا أن وقع نظر الأستاذ على وجهه حتى أخذ هو يضحك كما كانت تضحك الفتاة، ولكنه ضحك فيه كثير من الحنق والدهشة والمجازفة. المجازفة بكل ما يقوله ذلك الثرثار وكل ما يلفظ به، وكل ما يرويه للعارفين وغير العارفين.

قال لها: «يا فلانة! لا أرى خيرا فى الانتقام من هذا الثرثار ولا فى تبكيته والسخرية منه إلا فى أن تفتحي أنت له الباب فى هذه المرة».

فتلقت الاقتراح مسرورة بدورها «الفنى» فيه، وكانت أسرع من صاحبنا إلى جرس الباب، ففتحته، ولبثت هنيهة تصغى إلى ما يقول، وتعجب إذا ابتداء كيف يكون الانتهاء!

وقد كان فى وسع صاحبنا أن يفهم مرة واحدة فينقلب إلى الطريق قبل أن يسأل، ولكنه كان أمينا لطبعه غاية الأمانة، فسأل هذه الخادمة المسكينة الشاخصة بين يديه: «هل الأستاذ موجود؟».

قالت: «الأستاذ نقل من هذا المنزل!»

قال متعجبا: «يا عجبا.. منذ متى؟ إننى كنت هنا من خمس دقائق».

قالت: «وهو قد نقل من خمس دقائق ليس إلا».

وأغلقت الباب، وعادت تستأنف ضحكها وهي تقول : «إنه لا يخجل. وهو يغيظ.»

قال الأستاذ : « بل خجل هذه المرة والله أعلم.»

فنظرت إليه مقهقهة بعينيها الواسعتين، وصاحت به : «أهذا هو الخجل ؟ فماذا كان صانعا لو لم يتفضل بالخجل ؟»

قال : «يسألك أن تصحبيه إلى منزل الأستاذ الجديد !!»

كُنَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ...

ها هو قد تزوج، وها هو يقبل زوجته، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرتة شجرة أسرة، ليست - وهنا العجب - بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجو وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته. وقالت:

- بنت. بنت. هذه نعمة من الله...

فسماها نعمات.

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت.. وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده.

وجاء يومه المرتقب، بين الخشية والأمل، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة وقالت:

- بنت. بنت. هذه عطية من الله..

فسمى بنته الثانية عطيات.

«نعمات» و «عطيات»، لم تكن أسماء بمثل ما هى تلميح إلى الرضا عن اضطرار، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً. حرك الأب الأبر كل ما فى قلبه من شعل الإيمان، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع، وكرّر ابتهاله وتذللته.

فاستجيب في يوم دعاؤه. واستقر في بطن الأم سرّ الصبي الموعود. حينئذ مات أبي، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته. قد أوفى جهده على الغاية، وتحقيق الغرض من وجوده، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال. وهكذا ولدتُ يتيماً. ومع ذلك لست بغريب عن أبي. كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار، أراه يتسم لي ويكاد يناديني..

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمي. كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت عليّ. سرت وحيداً منفرداً خلف النعش، أمّا شقيقتاي، نعمات وعطييات، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدلّيتان من النوافذ. رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون. في تلك اللحظة استفتقت. وأدركت أنني أصبحت رب أسرة. أية أسرة! فتاتان جميلتان، نعم جميلتان، وإن لم تصح شهادتي، ليس لهما غيري. قومت من ظهري المنحني، وسرت رافع الرأس، وتقبلت - على القبر - دون ثورة أو غضب وكره، عبارات التشجيع والعزاء والوصية بالصبر والرجولة.

ثم مرت الأيام ودرج النسيان بأذياله على الماضي وأهله، وإذا بي في صحبة شقيقتي من هنا الناس. ثلاثنا في مستقبل الشباب ورونقه، في مرحة ونزقه، في جريه وقفزه، في عطره ونضرتة، تساو طليق، لا تضغطة شيخوخة مولية، ولا تأخذ بخناقة طفولة

هاجمة. من حسن الحظ أننا لم نكن في سعة تكفى للاتفاق على ثلاثتنا، فقدّم الصبي وحجزت البنتان في الدار، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل في الفضاء، وطبع غير متكلف، كل منهما نمت أثنى، جسماً وعقلاً. لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال. صحبة لم يترك لي صفاؤها مطمعا.. فمن مثلى من الرجال، تحوطه فتاتان - لا فتاة واحدة - بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟ لا تقلّ ملابسي هنادماً ولا أكلى جودة عن زملائي المتزوجين، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذي أتبينه على وجوههم كل صباح في المكتب.

كانت نفسي قاعة وجسمي سعيداً. نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى. حلقنا كاملة: هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته. هي أكثرنا رزانة واتزاناً. في يدها مصروف البيت وتدير خزينه. وبقيت عطيات «دلو عتنا القنونة». التي من أجلها نحرص - في خفية منها - على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً في سياق حديثها ومنتظر إلى أن تحين الفرصة، فنجد أكبر اللذة في تعب البحث عن طلبتها، وفي التحايل على كتمان أمرها إلى أن نعثر عليها في تمام مناسبتها، فنضحك معها لدهشتها، ونشاركها الفرح بهديتنا.. في بعض الأحيان أضع رأسي على ركة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة في شعري، كأُم القرد تفتلي رأسه وتناغيه.. بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهي تخطط لي بعض ملابسي الداخلية. لو تركنا لأنفسنا لعشنا سعداء. في هناء يكمل

بعضنا بعضاً. ولكن كيف يتأتى ذلك وفي الناس إخلاص ومحبة ورغبة في مساعدة الغير وتطوع لعمل الخير والتحريض عليه!! بدأ أقاربي ومعارفي يهمسون لى: «متى تزوج أختيك؟ لقد آن الأوان!» ثم فى مرة أخرى: «كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وأنت قابع فى داركم القديمة. المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار.. أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقابلها؟»

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما وأسأل نفسى:

- هل هذه عيون ظامئة جائعة؟

خيّل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبئ قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد الثور ونزق الجدى.. أيها الشيطان الأسود! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن!

سهرت الليل أفكر. وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى. فاستبانة لى الحقيقة على ضوء النهار، جسداً نيئاً قبيحاً قوى العضلات. لا فائدة من مغالطة الطبيعة. ولا بد من التضحية وتحمل الوحدة، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب.. رسمت لنفسى برنامجاً وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتى. لن ألجأ إلى الأقارب، فهم - كما يقول المثل - عقارب، و إلى الخاطبة، فهى سمسار بين عجزة، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت

إلينا؟ إذا قلبت عنه، ولنذهب إليه، وفي موطنه، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالا. سأعد الشبكة الماكرة بنفسى، وألقيها فى طريقه يدي. هذا صيد حلال. وأى شىء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس إليّ؟

بعت بعض الحلّى، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق التوفير، وأجرت شقة كالحقّ - ولكنها غالية علىّ! - فى جاردن ستى، واشترت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا. عن إذنك يادرب الحجر! لقد ألغى الرق فأعتقنا لوجه الله! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف، منك إلى صلاة المزداد، خطوة مباركة، وداعا وداعاً. فنحن فى دار كل مقام فيها قصير، وكل صحبة إلى فراق. أنتظرين أن أرثيك بدمعة؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء! تسأليننا، البكاء؟ بل اسألينا النسيان، والنسيان السريع...

ولما دخلت العمارة، وقام لنا بواب بربرى له وقار القديسين وهىة الأباطرة ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر، ولما سمعت الوكيل يقول: «هنا الأترية، وهنا الأوفيس» اطمأن قلبى وقلت: قد أحكمت الشبكة، فلنتظر صابرين، وعلى الله توكلنا...

عشنا غرباء زمناً ثم بدأنا نألف الحى وأصواته، ووجوه سكانه وعاداتهم. خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره. واحتوانا المصعد سوياً... لا أدرى

لماذا اطمأن قلبي إليه. ابتسامة مني، وكنت أنا البادئ، وابتسامة منه، أوصلت الحديث بيننا، هو موظف كبير على المعاش. دعوت الله أن يكون له ابن صالح، أو ابن أخ، أو ابن أخت، أو صديق، أو معرفة، وقلت: لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا، وخبروا أحوالنا واستقامتنا، تقدموا بالخطبة. دعوته لزيارتنا فإذا به - لشدة دهشتي - يقبل بسهولة. جاء وزوجته سيدة نَصَف، حنّت على أختي حنو الأم الرعوم، دعتنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهي تنصرف:

- عسى أن تكون ابنتي سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم.

حاولت ألا يظهر غمي على وجهي . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء. وقلت في نفسي: «فلتكن زيارتنا الأولى هي الأخيرة. فلم أجيء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال».

وذهبت في الموعد المضروب، وأنا متحرج ضيق الصدر... وجاءت سنية! أيها الناس! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبتكم. أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلي، ولا تبتمسوا إذا وصفت لكم اضطرابي أمامها وحيرتي.

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتي، ما قبله جاهلية معتمة، وما بعده نور وإشراق. أحدثها وأسارقها النظر، وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله؟ كنت بجانبها كالجرى المبتل يوضع في الشمس... ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة.. كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته. وكأن الثوب نفسه انتهى، فكان هذا الجسد خليلته التي وجد لديها السكنينة وطعم

الحياة.. ثوبٌ كم أبدى وكم أخفى! استدار عليها يكاد يأسرها، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه. هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح، وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه. كل شعرة في رأسها تسابقت إليها، واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها، عالمة أنها تشارك في زينة، سعيدة ناعمة بالدور الذي رسم لها، لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خدش جماله. وضحكت فأسمعتني ضحكة تختصر العمر كله، فيها سداجة الطفولة، ومرح الصبا، ومرارة التجربة.. فم متهم، وعيون بريئة.. لم تهتم بي كثيراً. وما وجهت لي غير نظرة أو نظرتين.

ومع ذلك عندما انصرفت - وأنا أجرّ رجليّ جرّاً - كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى بأصابع توهم أنها تمسح وتربت وهي تندس وتنقب.. شعرت أنني عُرّيت، وقُلِّبت ظهراً لبطن وفحصت، واختبرت، قيست قامتي، وسُبرت، وُزنت وكُيِّلت، عُركت وعُضضت بالأسنان ورننت على الأرض.. حُرّكت أوتار روحى واستمع لموسيقاها.. ثم استخرج من مخبئه كتابي الدفين، فوجهت في النور صفحاته وقرئت سطوره كلمة كلمة. كل هذا والعيون مترددة والشفاء مستفهمة. ثم أصدرت حكماً لن يكون له نقض أو إبرام إلى آخر حياتها وحياتي.

أيها الناس! أشفقوا عليّ مرة أخرى ولا تبتموا من جديد إذا قلت لكم إنني تعبت حقاً، ولكني مع ذلك وجدت التعب لذة كبرى... لم أخش حكماً. بل سرنى أنها تناولتني بالفحص. كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده تقلبه بين يدي

طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ.. انصرفت وأنا لا أزال ألوك
 فى فمى لذة مذاقها.. ولما دخلت شقتنا حانت منى التفاتة إلى
 أختى فقلت فى نفسى - والأسى يملؤها - ما ينقصهما والله
 إلا أن تطول الضفيرة، ويغضى الجورب السميك الركبة، لتبدوا
 شابتين من الريف.. من غد إن شاء الله سأعنى بتوجيههما إلى
 الاعتناء بهندامهما وزينتهما وإلا فشل برنامجى المرسوم محققاً.

ولكنى فى غد نسيت كل شىء إلا سنية! حاولت أن أجد مسوغاً
 لتكرار الزيارة فلم أوفق. بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى.
 ألا أنهم رأوا العابى يسيل وأنا أهدق فى ابنتهم خلسة فرثوا لحالى وأرادوا
 تجنيبى التعلق بسراب؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدئى زاد هياجى،
 فإذا بى - وأنا المعروف باتزانى وأدىبى - أفقد كل سيطرة على نفسى،
 ورأيتنى لشدة دهشتى آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال
 أو مجانين. حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا منى. تصديت
 لها فى الطريق. ألقيت أمامها رسائلى. تتبعتها كظلها. كل هذا وهى
 لا تتكرم على بكلمة أو بابتسامة. أقسم لكم أننى لا أدرى كم من
 الزمن مرّ على وأنا فى هذه الحالة، قد يكون أسبوعاً، وقد يكون شهراً.
 وأخيراً ضاق ذرعى وأحسست أن العذاب لو طال لقصفتنى الألم ودبر
 قلبى وقضى على. هجمت عليها ذات يوم وهى سائرة وأمسكتها من
 ذراعها، لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل، وقلت لها صارخاً:

ماذا تظنين؟ أجرى وراءك طول العمر؟ أليس لى عمل فى هذه
 الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك؟ العفوا! الآن أريد كلمة
 واحدة نعم أو لا.

فنظرت إليّ وابتسمت.....

زرت معها معالم القاهرة فكأننى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل.. كنت أتلو كالبغاء قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً، وأفهمتى جمال معانيها ولفقاتها. فى حديقة الحيوان، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً، كلمتى لأول مرة، من وراء أعمدة السجن المؤبد، عيون صافية جميلة حزينة، وشكت إليّ وحدثها وآامها. الفضل لسنية فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً.. من زحف منهم وطار ودب على أربع..

قالت لى ذات يوم:

– ما العمل إذا؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير، ومرتبك قليل، ولا يدري كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سیتی.. ولما رأتنى مطرق الرأس غمّاً، أضافت تقول:

– ولكن ماما فى صفى..

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى...

كلهم قالوا لى إننى ساعة «كُتِبَ الكتاب» كنت شارذ اللب. ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة. ظنوها من حرج سؤال المآذون الصريح. لا يعلمون أننى – ولا أدري كيف – انتبهت إذا ذاك فحسب، إلى قسوة الفكاهة، وهى تنطبق على، فى المثل القائل:

«راح يصطاد.. اصطادوه..»

ضباب ورماد

قصة رمزية

لم يكن فى الليل نجم واحد وطلع النهار بغير شمس.
هكذا احتجبت شخوص مسرح الطبيعة وراء الستار وقيل للبشر
المتفرج أن انزروا فى جحوركم فليس الليلة تمثيل ولن يكون
عرض فى الصباح. ويسألون عن الخبر فتهمس أعلام الطبيعة الصغرى
من شجر وأنهار:

- لقد اعتكفت أمهاتنا الكبرى فى أبراجها العلوية.

ويردد البشر الواجف:

- ما الخبر؟

فتبتسم الورود الثرثارة ثم تميل على أعوادها متممة:

- إنهن يتدارسنَ أمراً خطيراً.

شاعت فى وجه البسيطة نذر الأمر الخطير. ونبض الجو
بالهمس والصوت المكتوم. فتملك الآدميين فزع غامض انطوى
عليه لا شعورهم ثم تسرب إلى أفئدتهم فى صورة إحساس
ملهوف: إحساس ترقب شىء يخشونه ولا يدرونه ولكنهم يريدونه.

لازمهم هذا الشعور وهم يتمون زينتهم أمام المرايا. وظل فى
حاشية وعيهم وهم يشربون قهوتهم الساخنة. ثم رافقهم وهم

يسعون وراء ما يوصلهم إلى محال أعمالهم. وكانوا لا يزالون يذكرونه وهم يقرأون صحفهم. ثم رجعوا به إذ آووا إلى بيوتهم يأكلون ويتماوتون. أما هو فلم يغادر حجرتة مع قوافل النمل الآدمي بل بقى قابلاً إلى جوار النافذة يرقب طلّاع هذا الصباح الرمادي. وكان في يده كوب من الشاي أخذ يرتشف منه ثم يطلق أنفاسه الساخنة على زجاج النافذة فيكتسى أديمه بضباب فضي. وكأنما خالجتة فكرة فأطرق مبتسماً: إن نهار هذا اليوم يراه الخلق من خلال زجاج ناضح بالضباب ولكنه ما يلبث أن ينقشع فيبين. أما هو فإن نافذة حياته ليس فيها مثل واحد صافي الأديم.

الضباب... هذه حياته وهذا عنصره. وإن كان لقدرة لون ما فهو لون الرماد. الرماد يوم ولد والرماد إلى أن يموت. إن الناس يتألقون جمرًا ثم يستحيلون تراباً، أم هو فيعيش في الموت حيث ولد. إنه دودة آدمية لا يحوى جسمها دمًا بل قيحاً.

قيحاً... يا للبخاعة! لشد ما تمنى لو حوت عروقة دمًا حارًا قانياً! لشد ما انتهى دفء الحياة يسرى في أوصاله فيحرك مستنقع نفسه الراكد! لشد ما زعق وصاح في خلوته.

- إننى مضطهد مظلوم. لِمَ حقت على لعنة الضباب والرماد بينما ينعم غيرى بسورة الجمر والدم...

الضباب والرماد...

أما من فرار من ربقة هذين الشيطانين الغليظين! إنه لا يطلب من جلاديه سوى ساعة واحدة يعيشها كبقية الخلق، يعيشها بقلبه وأمعائه ودمه. يعيشها كما يعيش النبت إذ يمتص حياته من الأرض

أمه. يعيشها بجذور كيانه الممتدة في جوف الكون. وبعد ذلك
 لن يضجره إن مات في الرماد أو عاش فيه.
 لحظة من جمر ودم...

* * *

تصرمت ساعات قصيرة من النهار وهو لا يزال على هجوعه
 يحلم ويرقب. وكان الصباح يزداد دكنة حتى خشى البشر ان
 يكون الشمس قد أصابها ضرٌّ فتك بها، إذ كيف ترضى بهذه
 العتمة تغزو صباحها وهي شمس! وكيف تهادن البرودة فتركها
 تجمد الأطراف وتميت النبات وهي شمس! وكيف تحتمل رؤية
 طرقات المدينة مقفرة موحشة كمسارب المقابر وهي شمس!

ليس هذا صباحهم ولا تلك شمسهم. وأحس الناس أن دنيا هذا
 اليوم غريبة عليهم أجنبية عن إدراكهم حتى صور لهم أنهم يعيشون
 في كوكب آخر غير الأرض، المريخ أو زحل، فكان أن خافوا
 واكتأبوا.

أما هو فقد قهقه في سريره إذ أدرك لتوه أن اليوم يومه والصباح
 صباحه. إنها فرصة العمر قد أتحت له ليحيا في عصره فها هو
 ذا الضباب قد تكاثف لينشق منه ابن الضباب، وها هي ذى الدنيا
 الغريبة على البشر قد جاءت تبسط صدرها لريب الشياطين. لعل
 الرجاء قد أثمر فاستجاب جلادوه الدعاء.

نزل «إبليس الصغير» إلى الطريق يضرب في جنباته الخاوية وقلبه
 يحدثه بأن العالم اليوم ملكه وحده. وكأنه هو زعيم سياسى غداة

استلأته على مقاليد الحكم فأصبح وحده الأمر الناهي بين رجاله وأعوانه. وفرح بهذا الخاطر وانبسط فراح يحدث نفسه حديثاً عجياً.

- هكذا أنا. إنني أشرف الناس جميعاً لأنني أقذعهم سخرية. أنا أكثرهم احتراماً لأنني صعلوك. صعلوك بين الملوك. ملوك صعاليك وصعاليك ملوك. ليس لي دم أزرق.. ها... ولا أحمر. إن دمي أبيض. إنه القيح الملقح ضد كل شعور وإحساس. إنه دم الآلهة المنزهين عن الغضب والفرح والحب والحزن. إن كل ما ليس لآدمي إله.. أو شيطان. فليكن دمي من حريق الأبالسة فلست بمبشس مادمت لا أمت إلى الشر بصلة.

لشد ما أمقت آدم وأبناء آدم وحواء وبناتها. ولم تكن سعادتني لتكمل لولا أنهم يمقتونني كما أمقتهم. ولكن من منا باداً الآخر بالكره؟ لو أنهم ابتدروني يبغضهم فأنا شخص ممقوت يصد السهام بأخرى من نوعها. بينما لا أستحق ثواباً على كرهى لهم إن لم أكن أمقتهم في حين أنني محبوب. محبوب ممن... منهم؟ من نفسى؟ من الآلهة أم من الشياطين؟ هذا لا يهم. يكفي أن أكون شخصية محبوبة في ذاتها. ولكن هذا هراء. فأنا شخصية بغیضة لا جدال في ذلك وعلى أن أبنى سعادتني على هذا الأساس. وإلا فأنا ملعون من نفسى بقدر لعنتي منهم.

بودلير.. هذا الشيطان الملعون المحبوب. ولكن ما لي وله. اننى لا أنهج نهج أحد في الوجود وإلا أصبحت بشراً كبعض أحزاب البشر.

فاوست... إنه معتوه. لقد رغب عامداً في الشيطنة وما هو بشيطان. دفع الثمن من دمه وأثبت المعاملة في صك كأنما يعقد صفقة في سوق مع أن الشيطنة هبة وموهبة. ولذا فما كاد الأجل أن ينصرم ويشرف المسكين على أبواب الأبد حتى نراه يعول ويتحجب كالنساء. وكلام كثير عن تأنيب الضمير والتوبة والندم. ياللعار... كان عليه أن يفخر بنهايته كأى قديس استشهد في سبيل الله. فالحق أنه يجب أن يكون للأبالسة قد يسين كما للأنبياء.

عيب البشر أنهم لا يثبتون على حال فتأتيهم الرهبة في أعقاب الرغبة ويجرى الندم في ذبول سعادتهم. أين هو الرجل الثابت الصامد كهزم خوفو؟ ولكنهم أمواج رقيقة مذعورة يقطعها عود من العشب. هؤلاء البشر...

هذا وغيره وكثير سواه.

ما كان أتعسنى منذ لحظة حين تمنيت ساعة من جمر ودم! الرجل الصمّل هو العنيد كالحمار، الغبي كالبعّل. هو الذي لا يتمنى غير نفسه. لهذا قدس جدودي الثور وعبدوه.

هذا وغيره وكثير سواه.

ولكن هل أنا حقاً كما أصور نفسي أم أكون في الواقع شخصية أخرى مخالفة؟

هل من أجالسهم وأحادثهم يدركون في هذه الصورة أم تراهم يقولون «ياله بن فتى طيب خجول!»... وحق نفسي لأقطعن ألسنتهم ولأدقن رؤوسهم بالأرض.

ومع ذلك أفإن كنت غير نفسى وقابلت نفسى حول مائدة شراب فهل كنت أقول عنها مثل ما يقولون؟ هل يفرض على الناس شخصية اجتماعية أواجههم بها وينكرون على أن أظهر بينهم بشخصيتى الفردية دكتور جيكل ومستر هايد.

لا كان الناس ولا كانت آراؤهم التعسة، إنهم إن قالوا عنى هذا القول فإنما يقولونه ليستروا خوفهم منى ورهبتهم إياى وهذا جهد ضائع. فما أنا معنى بخوفهم أو مشتاق لرضائهم أو شاعر بوجودهم. إننى وحدى من صنع نفسى.

ما لتلك الخواطر تزحم رأسى فتضى نفسى فى يوم عرسى
أىكون هذا شعراً؟ ما علينا. لأمض فى بطن دنياى أحادثها فليس
اليوم وقت المناجاة.

أو صلته هذه التأملات إلى خارج المدينة فما إن أفاق منها حتى وجد نفسه وسط حقول مغشى عليها من فرط البرد وقد أقفرت شعابها من كل دابٍ وخلت أجواؤها من كل طائر. ألقى ببصره على تلك المروج المدعورة فبدت له فى إطار الصباح الرمادى كبعض أحلام النائم التى تتابه فى مطلع الفجر. لم يكن فى الصورة المنشورة أمامه مشهد واحد حقيقى.

واستهوته هذه الفتنة الجديدة فمضى وسط الحقول متخيلاً أنه صاحب هذا الفضاء بأسره. وراقته فكرة أن يكون غنياً غنى طائلاً فابتسم ثم قهقه فى صوت مكتوم. أن يكون صاحب ملايين... إنه يستطيع حينئذ ان يكره البشر بكل ما أوتى من قوى وأن يظهر

هذه الكراهية بشتى ما يحلو له من وسائل. يستطيع مثلاً أن يشتري قانون الحكام وأن يتتاع ذمم أولى الأمر. فإذا ما أمن جانب الدولة وانزاح عن عاتقه خطر السجن سهل عليه بعدئذ أن ينال الناس في أعزما يقدسونه وأن يسخر علناً بكل ما يضعونه موضع الاحترام وأن يسفه كل رأى يربط به القوم أمانيتهم. له حينئذ أن يحقر ويلطخ كل معانيهم كالوطن. والحرية. والمساواة. والعدالة بل والدين نفسه دون ان يخشى عقاباً أو يأبه بآراء الرعايا.

ويصبح في مقدوره أن يتفنن في هذه الأساليب وأن يجعل منها نظاماً قائمة على مؤسسات ثابتة تكون عنوان مسبة دائمة في جبين الناس وهم لا يدرون. فهو يستطيع عن طريق ملاينته أن يجعل من سائس اصطبلاته زعيم حزب سياسى لا يلبث ان يشتري له الأعوان، ويجمع من حوله الأنصار، ثم يحلى أصابعه بالجواهر ويرشق في سترته الأزهار، ويطلقه من بعد ذلك يخطب في قطعان الناس، فما إن يهل عليهم ببلاهته المجسدة وغبائه البشع حتى يضجون بالهتاف والتصفيق وينتهون بحمله على الأعناق. وتصبح لغة الاصطبلات التى يحدثهم بها لغة السياسة المثلى وعنوان البراعة ورمز البلاغة.

فإذا استطاع بعد ذلك أن يوصله إلى كرسى الحكم... ما أعظمها سخرية! وكم تكون الطعنة نجلاء والمسبة فاحشة حين يخلعه بعد ذلك من منصبه ويعيده إلى وظيفته الأولى فيعلم قطيع الخراف الآدمية أن حاكمهم الذى أشادوا بعقريته لم يكن سوى سائس فى اصطبل.

ألته هذه السوانح الشيطانية حيناً من الزمن فما إن أفاق منها حتى وجد نفسه ينتفض من فرط البرد. فقد كانت برودة الجو تنفذ في الجسم كإبر من جليد والريح تهب مثلوجة كأنها أنفاس الأبالسة. وكان صاحبنا قد غادر حجرتة برأس عار وعلى منكبيه درداء خفيف ما لبث ان تأمر مع الجو فاستضاف برودته.

نظر إلى يديه المقرورتين برهة وهو يتسم. كانتا ناصعتي البياض لا يشوبهما سوى صفرة خفيفة في سبابة اليد اليمنى من أثر التبغ. وراقه ما لا حظه من نعومتها ورقى أديمها حتى كأنهما أكف العذارى الخود لا يفارقن مخادعهن ولا تلمس أصابعهن غير المخمل والحرير وقد بلغ من فرط رقتهما أن كادت البشرة تشف عما تحتها من عظام وشرابين. لشد ما أعجبه هذا! أن يده ليست يد رجل...

غير أن البرد القاسى عاد يعكر عليه صفو راحته. فعمد إلى حائط متهدم ليحتمى في جوفه ولكنه وجد أن القرّ قد سبقه إليه. وفجأة شعر بأن نفسه قد تخلخلت وباتت بغير أساس. وأن صدره أصبح فارغاً خرباً موحشاً. وكان كلما لفحه الريح بأكفه الميتة ازداد شعوره بوحدته وبقلة حيلته.

أجل هاهى الريح تصرخ في وجهه بأنه وحيد وحيد. لا صاحب له ولا قرين. يقيناً أنه ولد من أبوين وكان لهذين الأبوين أقارب وأنسباء وأصدقاء فأين ذهب هؤلاء جميعاً إذ بات ثم أصبح فإذا به في عالم لا يعرف من مخلوقاته أحداً، ألم يكن يعنيه أمر هذه الوحدة وهو قابع في حجرتة ولكنه وسط هذا البرد اللثيم شعر بحاجته إلى الدفء فتاقت نفسه إلى الجموع يستتر ويتكتمش.

إذن فما أتعس الإنسان! إنه تافه هفاف بصطنع مشاعره من درجة الحرارة ومن لون المرثيات ومن طعام كثير الفلفل. فهو يحب ويكره ويحسد ويثور، ويفضب ويتقم، ويرضى ويفرح، لأنه لمح قشرة موز ملقاة على عرض الطريق، أو رأى القميص الداخلى لامرأة سائرة أمامه متديلاً من تحت ردائها الخارجى، أو لأنه سمع بائعاً ينادى على بضاعة بنغمة شاذة. أتكون مشاعر الأدميين من التفاهة والرقّة بحيث تستثيرها هذه النكرات الحسية! وهل منع الإنسان حقاً من أن يشعر شعوراً أصيلاً ثابتاً لا يحركه سوى الأمر الخطير والمعنى الجسيم!

إذن ما باله قد ترك شيطنته وأنكر اعتزازه بوحدته وراح يسعى وراء الجموع متمنياً وجود القرناء لمجرد إحساسه بريح باردة تلمح وجهه!

ومع ذلك فإن هذه العلل العقلية جميعها لم تنجح فى تحويل شعوره إلى الوجهة التى أراد. وما لبث أن أحس بأن حاجته إلى الدفء قد تدرجت إلى نوع من الحنين الملح إلى شىء مجهول لا يستطيع إدراكه. شعر بأنه يريد ان يحتضن إلى صدره شيئاً ما وأن يطبق عليه بذراعيه فيعتصره كأن فى أحشائه قطباً مغناطيسياً يتلهف إلى الاكتمال. بقطب معاكس أو كأنما هو جائع إلى شىء فيريد أن ينطلق فى بسيط الأرض باحثاً عن الشبع.

عجباً! أيكون «إبليس الصغير» متعطشاً إلى حب امرأة!

إنه يذكر أن هذا الشعور بالجوع العاطفى كثيراً ما انتابه وهو لا يزال طالباً فى الجامعة تلك الأبنية المهيبة التى لا تحتمل من

معاني اسمها سوى أنها مكان معد لاجتماع نفر متفرق في صعيد واحد. كان يخرج منفرداً ليجوس في الحدائق المحيطة بها فيخطر في طرقاتها المورقة وتقع عيناه على النبات الأخضر وعلى الماء الراكد السجين، ويطرق أذنيه صوت الدوح تسامر جاراتها، وشدو الطيور تسمع أهل الأرض أنغام السماء. وحين تتعب قدماه وتسأم نفسه كان يأوى إلى مقعد مهجور في ركن ظليل فيجلس ويطرق. وما من مرة طال به المقام في هذه العزلة الصامتة إلا وتنبه من أحلامه الحزينة على احساسه بدمعه الساخن يتساقط على كفيه.

كان يبكي من غير وعى. إلا أن وعيه الداخلى كان يدأب على إشعاره في كل بادرة تسنح له بأنه وحيد وأنه محروم. كان يحس بأن نفسه تكاد تتشقق من شدة الجفاف وأن فؤاده يصرخ مطالباً بالعطف والحنان اللذين لا يستطيع العيش بدونهما.

ويذكر أنه في ذلك الوقت كان إذا ذهب إلى مسرح أو سينما لم يكن يعنى بجعل ما يعرض عليه من مشاعر مصورة. غير أن ثمة نوعاً واحداً من المشاهد لم يفشل مرة في استثارته وتحريك لواعجه. فكان يكفيه أن يرى أمماً تمر بيدها على جبين ابنها المحموم، أو أختاً تستقبل في احضانها أخيها العائد من سفر طويل، أو فتاة تحمى عشيقها بجسمها لتدفع عنه خطراً ما. حتى يشعر بأن قلبه يعتصر عصراً.

بل إن كثيراً من مشاهد الحياة العادية ككلب يقبل مبصباً بذنبه لتحية صاحبه، أو زوج يساعد زوجته على الصعود في الترام، أو بائع جرائد يصلح من هندام زميل له، أو عابر يأخذ بيد أعمى

ليوصله إلى الجانب الآخر من طريق، أو بائع فقير يجود بشيء من بضاعته على شحاذ، أو أم ترقب طفلها وهو يلعب وسط المروج.. كان أي واحد من هذه المشاهد كفيلاً بأن يغمر عينه بالدمع ويجعل شفثيه ترتجفان. ثم لا يلبث أن يعرض على نواجذه ويمضي في طريقه كسيفاً وقد عصفت به مشاعره المضطربة.

وكان يخيل إليه ألا نجاة له بغير الحب فالحب على حسب ما كان يرى هو المظهر والمصدر لما يحتاج إليه الفتى من حنان عاطفي.

وأخيراً أحب. ثم قبع في وكره ينتظر الثمار. فكان بعد ذلك مالا يود أن تمر مجرد ذكراه بياله. وإذا به في ذات يوم يهجم على حبه فيخنقه ثم يحطم تمثال من أحب.

وقال: لأكن هذا الفتى الصلب العود المصفح القلب الذي يأنف من أن يبذل أنبل مشاعره في الهوس والسخافات. وكان يحلو له أن يردد قول الأعرابي «ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة! إنما ذلك لضعف فيكم يا بني عذرة».

وأحاط نفسه بالسياج فأصبح في عصمة أنوفة منيعة وبدأ يشعر بجبروت الآلهة.

فما باله اليوم إذن يعود إلى وساوس أيفاع الشبان!

ازداد شعوره بالبرد فغادر مكانه واتثنى صوب المدينة. وكان كلما خطا خطوة آلمته قدماه وكأنما يسير على قتاد مرهف. وبعد أن سار شوطاً مضنياً وقف تحت خميلة وارقة وهو مقرر. ووقع

بصره على قرية بعيدة يتصاعد من أكواخها الدخان فاشتاق النار. وكانت القرية مضمومة على منازل متقاربة تتوسطها قبة بيضاء لجامع أو لمدفن أحد الأولياء ولم يكن بجوار القبة مئذنة. وفي أنحاء متفرقة من هذا المشهد قامت أشجار الجميز الفرعوني العجوز فبدت كشحاذين مكفوفين يدبون على عصي. وظهرت في الأفق البعيد قلعة القاهرة الشامخة تشرف على المدينة فتدمغ كل منظر فيها بطابعه القاهري. وكان الضباب يغلب هذا المشهد بأسره فيبدو كصورة خيالية من تلك الصور التي تصنع خصيصاً للسائحين الأجانب فيتاعونها كتذكارات مثل للطابع القاهري.

* * *

غادر مكمنه من جديد واستأنف السير حثيثاً حتى وصل إلى المدينة. وكانت الطرقات لاتزال مقفرة من السابلة، والعربات تجرى مذعورة بين حين وآخر كأنما تفر من عدو مطارد، وكان السكوت مخيماً في كل مكان حتى خيل إليه أنه يهبط مدينة قد اكتسحها الغزاة فسلموا متاجرها وفتكوا بأهلها.

شاهد مطعماً في طريقه. وشعر بأنه جائع فدخله وبدأ يأكل ما طلب من طعام غير أنه لم يثناول سوى لقيمات حتى أحس بأنه قد فقد شهيته تماماً فأمسك عن الأكل وأشعل لفافة أخذ يشهق دخانها بنهم.

وفجأة وقعت عيناه على فتاة في الجانب الآخر من الطريق تقف أمام نافذة مكتبة، فتاة متوسطة القامة هيفاء القد، ترتدى السواد ولها شعر في لون الذهب. لم تكن هذه أول فتاة صادفها في يومه.

فقد مرت أمامه كثيرات غيرها رآهن يهرولن مطرقات كأنما قد مات أزواجهن وأخواتهن ثم لا يلبث أن يتلاشين في الضباب. ومع ذلك فقد وجد نفسه - ولسبب مجهول - يغادر مائدته ويدفع حسابه ثم يخرج إلى الطريق. لعل ما أثار اهتمامه بهذه الفتاة هو أنها لم تكن مذعورة وجلية كسائر الخلق في هذا الحرب بل وقفت منتصبة في مهابة وهدوء تتصفح في إمعان وتركيز الكتب المعروضة في واجهة المكتبة.

وقف برهة يتأملها من جانب الطريق الآخر.. وخيل إليه أنها شاعرة بوجوده إذ لم تلبث حيناً حتى حانت منها التفاتة لم تستغرق ثواني خاطفة. وهبط على الفتى تردد وخشية فهم بالرجوع إلى المطعم ولكنه وجد الفتاة تدخل المكتبة فعبّر الطريق للتو ولحق بها. ولما دخل المكتبة جعل يحدق فيها عن بعد فرأى عينين زرقاوين. وشفيتين ورديتين. وبشرة في لون الحنطة. وفيما عدا ذلك كان وجهها مغلقاً صامتاً لا تبين قسامته عن عاطفة أو معنى. ثم تكلمت فسمع صوتاً كترجيع الريح وسط الغابات في قلل الجبال. كانت تسأل عن ديوان لشاعر مات في شرح شبابه فعرف الناس بعد موته أنه لم يكن بشراً مثلهم بل روحاً علوية هبطت عليهم من السماء. وبدا على الكتبي المنكمش في دثاره أنه لم يسمع باسم هذا الشاعر من قبل. فهز رأسه واعتذر عن عدم وجود هذا الكتاب لديه.

غير أن الفتاة لزمت مكانها فلم تتحرك وصمتت برهة ثم قالت في إمارة وسيطرة بأنها مستوثقة من وجود هذا الكتاب الذي تطلبه

لديه وتضايق الكتبي من لهجة الفتاة فأجاب في حدة خفيفة بأنه أعرف الناس ببضاعته وها هي الكتب معروضة أمامها فلتبحث فيها كما تشاء.

وكان هو في هذه الأثناء قد اقترب حتى أصبح يواجه الفتاة، فلما سمعها تعبر عن استيائها من وجود الكتاب امتلأ قلبه دهشة. فقد كان الآخر يعرف أن الكتاب موجود كما كان يعرف موضعه من المكتبة، ولكن هذا شيء آخر، فهو يعرف مواضع جميع الكتب في معظم مكتبات المدينة لأنه يعيش معظم حياته في حناياها. أما الفتاة فكيف تأتي لها هذه المعرفة وهو لم يشاهدها في سوق الكتب من قبل ثم إنها لم تر الكتاب ولم تعرف موضعه !

وفي حركة هادئة رفع الفتى يده فاستخرج الديوان من وسط الكتب وقدمه إليها بغير لفظ. ولكنها لم تتناوله منه إلا بعد أن ظلت يده مبسوطة به بعض الوقت. فلما أصبح في كفيها ألقت عليه نظرة ثم رفعت للفتى وجهها الصامت وتحركت شفتاها بلفظ فرد.

- أشكرك.

أما هو فلم يجب. بل ظل يحدجها بعينين مدهوشتين كأنما يشاهد رؤيا من عالم آخر ومع ذلك فلم يد على الفتاة أنها تضيق بنظراته. ولكنها أيضاً لم تبسم له بل قالت بعد برهة :

- لِمَ تحمق في ؟

ولكن الفتى ظل على صمته حيناً طويلاً وأخيراً تكلم من غير أن يحول بصره عنها:

- آه لو أن شعرك أسود...

- إن ردائي أسود.

وبعد برهة صمت استطردت قائلة:

- أرى أنك تهتم بالألوان.

- بل بما توحى به من معان. إن السواد هو العنصر الذي أعيش

فيه.

- السواد...

- أكان من الممكن أن تكوني زنجية؟

- إن عينيّ زرقاوان.

- إنهما جميلتان.

- ولكنهما لا ترضيانك؟

- لا أدرى.

ثم قال مقطباً:

- من أنت!

- أنا...

وصمتت برهة ثم أجابت:

- إنني أحب قراءة شعر الملائكة.

خرج معها إلى الطريق وسار بجوارها وهو مقطب. وبعد برهة
سمعها تقول له:

– لِمَ تبغنى؟

التفت إليها وقد ازداد وجهه عبوساً ثم خاطبها فى شىء من
الحدة:

– لست أتبعك بل أسير إلى جوارك. إن كلينا مدفوع بيد واحدة
وهو ما يضايقنى فبدا على شفتى الفتاة طيف ابتسامة غامضة :
– حقاً!

ووجد الفتى نفسه يصرخ لغير سبب:

– أجل وكأنى موشك على الاستغاثة بالشرطى ليمنعك منى.

– ولكنك تركت مكانك ولحقت بى!

– إذن فقد رأيتنى حين كنت فى المطعم!

لم تجب الفتاة فساد الصمت بينهما. وعلى حين غرة توقف
الفتى عن السير وقبض على ذراع الفتاة بأصابع عصبية وأخذ
يحدجها بنظر من نار. أما هى فلم يبد عليها أثر ما لهذه المفاجأة
بل نظرت إليه فى هدوء وهو يقول:

– أكنت تتوقعين رؤيتى اليوم؟ اعترفى.

ولكنها رفعت عينيها إلى السماء ولوحت بيدها فى الفضاء:

– اليوم ضباب، انظر، ما أشد التفافه حولنا.

واستأنفا السير فعاد إلى إطراقه وهو كظيم، أدرك لتوه أن هذه
الفتاة الغامضة تقبض عليه بيد من حديد وأنها تستطيع معه
ما تشاء.

لقد هبطت عليه من الضباب. ومع ذلك شعر بأنها ليست من عنصره، فهو لا يستطيع أن يسيطر عليها كما يسيطر على مخلوقات مملكة الظلمات التي يعيش فيها. فهو وسط الأبالسة حاكم وأمير. وفي حنايا الجحور المستورة يتأتى له أن يأمر فلا يرد له أمر، ثم إنه يقدر على التحكم في معظم النفوس البشرية إن استطاع أن يدلف إليها من المسارب التي تلائمه، مسارب الدود الأملس والحيات السود حيث لا حكم للقوة السوقية ولا للعنف القبيح بل يطلق المجال للحيلة الملتوية والعقل النافذ والإيهام البارع ولكنه لا يجد مع هذه الفتاة ثغرة ينساب إليها منها.

آه لو كانت سوداء الشعر ولم تكن عيناها زرقاوين..

ومع ذلك فقد أحس بلذة غريبة في سيطرتها عليه وعبوديته لها. وتأمل هذا الشعور الجديد الذي يملأ صدره فأحب لو استطاع دوامه بعض الحين ليتمكن من وضعه تحت مجهره فيجرى عليه تجاربه. وحدث نفسه بأن لا خطر عليه من هذه العاطفة النامية مادام هو لا يوحد ما بينها وبين نفسه أو يلقي بكيانه في خضمها. فهو على يقين من قدرته على إبقاء رأسه فوق سطح الماء. وما دام الأمر كذلك فهو يستطيع أن ينتشل نفسه متى شاء. فهذه القدرة على تجنب نفسه من كل قيد وكفالة الحرية التامة لها في الفكر والعمل هي أتمن ما استطاع انتزاعه من كبد هذه الدنيا البغيضة. وهو في سبيل محافظته على هذه الإمارة الروحية قد قطع صلته بكل الناس ونفض عن قلبه قيد كل عقيدة ودين.

حينئذ أحسَّ بأنه يمسك الكون في كفيه وبأنه في عصمته المعنوية هذه أقوى بكثير من كل طاغية أو إمبراطور. إذاً لا شيء على الأرض يستطيع أن يعتدى على شبر من آفاقه الممتدة إلى ما وراء النجوم. ولا شعب يهدده بالقيام في وجهه ولا ثورة تقدر تسقطه عن عرشه. في حين أن الحكام عبيد لإدارة المحكومين وعبيد لنفوسهم المشبعة بأغراض عمياء تقودهم من أنوفهم إلى هنا وهناك.

التفت إلى الفتاة وقال:

- أترضين بمصادقتي؟

- لِمَ؟

- لأنني أريد أن أحبك.

أطلقت الفتاة ضحكة من مقطع واحد وقالت:

- أنت فتى طيب القلب.

أثارت هذه الإجابة ثورته فصاح:

- لماذا تراوغين؟

- لست أراوغ.

- بل أنت ككل النساء. هل المرأة لا تستطيع إلا إن تكون

قطرة من زئبق تتخذ كل شكل ولا شكل لها. وتسعى إلى كل

غرض من غير أن يكون لها غرض لماذا لا تكونين قطعة من

الحديد الصلب؟

- ماذا تريد.

- أن نتحاب.

- أنت لا تستطيع الحب.

- إننى إذا أردت الحب فلا شىء فى العالم يمنع من قدرتى عليه.

- ولكن الحب ليس إرادة بل هو على العكس من ذلك تماماً. فهل أنت مستعد؟

نظر الفتى إلى وجهها الباهت العذب فأحس بالحنان يتفجر من صدره وودُّ لو حوى هذا الوجه فى يديه وغمره بالقبل.
- أجل.

صمتت الفتاة برهة طويلة وهنى سائرة إلى جواره. ثم التفتت إليه مبتسمة وقالت:

- هل أنت مستعد لأن تنجب منى أطفالاً؟

توقف الفتى عن السير فجأة وصرخ مدعوراً:

- لا لا. إلا هذا.

ضحكت الفتاة وضربت بكفها على كفه قائلة:

- رأيت...

- لا. إننى لا أحب الحياة فكيف تطلين منى أن أعاونها على

الاستمرار والبقاء.

- ولكن أنا هى الحياة أيها الفتى الطيب. فإن رغبت فى فعلك

أن تجب الحياة أولاً.

واصل الفتى سيره إلى جوارها وهو مغيظ. فيها هي الفتاة تكرر دعوتهُ «بالفتى الطيب القلب» - هذا التعبير البغيض الذى نخشى منذ لحظات أن يكون المجتمع قد أطلقهُ عليه.

وبعد برهة رفع رأسهُ وقال :

- هل تتعهدين بأن تبقى إلى جوارى دائماً فأستطيع أن أضغط على لحم ذراعك كلما أردت ؟

- إننى بجوارك ما دمت تؤمن بأن الحب ليس إرادة وبأن الحياة طاعة وخضوع ثم..

- ثم ماذا؟

- لا بدُّ أن تنجب منى أطفالاً.

وجم الفتى. ولكن وجومهُ لم يستغرق سوى برهة قصيرة انطلق بعدها يقول:

- سأفعل كل ما تطلبين. إن عبوديتك تلذ لى وأشعر بأن أحب الأشياء إلىّ هو أن أطيع أمراً لك. إننى أعبدك. أتفهمين؟

وأمسك بكفها يقبلها.

شعر بسعادة غامرة تعرفها حياته من قبل. وودّ لو اختلى بالفتاة ليكى بين يديها بدمع غزير ثم يحدثها عن كل ماضيه. أراد أن يثها لواعجه وأن يطلعها على أشجانه التى تضنيه ثم يسألها الصفح عما سلف ويطلب منها الإرشاد والعون على المستقبل.

لقد طلبت منه أن يخضع للحياة وأن يتنازل عن إرادته. آه لو درت بأنه الآن مستعد لأن يكون أسيراً لها وعبداً لأهوائها..

أن يكون خادمها وكلبها وموطيء قدميها.. فإن مرت بأناملها الناعمة بعد ذلك على جبهته، أو نادته باسمه أو ضحكت في وجهه فقد نال كل شيء.

أجل . إن عبوديته لها أجمل من حرية نفسه أضعافاً. كل شيء يهون ويتضاءل ما دام جسدها الحار إلى جواره.

* * *

أمضى مع الفتاة بقية النهار في حان فلما أن جنَّ الليل وجد نفسه يسير معها طفل صغير ناعم. وتمنى لو استطاع أن يحمل عنها عبء التنفس والكلام والحركة حتى يجنب مخلوقته الثمينة كل عناء أو طيف عناء. فكان يحضر إليها كل ما تطلب ويعدُّ لها ما تشاء من مأكّل ومشرب. وصارت أعظم أمنية له أن يراها راضية قانعة في ركنها الدافئ حيث يغمرها بنظراته الملهوفة. وهو في كل هذا يدأب على تلمسها والضغط على يدها حتى يطمئن إلى بقائها بجواره.

ولأول مرة في حياته أدرك معاني التقديس والعبادة والصلاة.

كان الجوُّ لا يزال فاتك البرودة شديد العتمة والريح تصفر في الطرقات كذئاب جائعة، ولقد خيّل إليه أول أن خرج من الحان أن هذه العناصر التسدّيقة تعبت عليه هجره إياها وانشقاقه عليها ولكنه أشاح بوجهه وهزّ كتفيه. ما له الآن ولها؟

ولكن طال سيره مع الفتاة في جوف الليل فكان لا يرى وجهها كما امتنع عليه الضغط على لحم ذراعها الذي أصبح مستوراً في

معطف كثيف. وكأنما البرد واحتجاب الفتاة عنه قد تأمرا علي النفوذ إلى عاطفته الوليدة فما لبثا أن غلّفاها في إطار من الشباب، ولم يعد الفتى يشعر بالأثر البالغ الذي كان لفتاته عليه منذ لحظات بل أصبح ينصت في وجل إلى زمجرة الريح الغاضبة فبدت له كوعيد طاغية مستبد يهدده بالويل والثبور.

أحاط الفتى خصر فتاته بذراعه و ضغط عليه متمتماً:

- لا. لن يأخذوك مني سأقاومهم إلى النهاية.

ولكن الريح اشتدت وأخذت تلمح وجهه بسنان كالإبر. فأدرك الفتى أن صحبته القديمة قد بدأت العمل. وسرعان ما شاهد الضباب يهبط من جديد على المدينة ليلف معالمها ويحيل مشاهدتها إلى أحلام مخيفة كخرافات الأساطير.

سحب الفتى ذراعه الذي كان يلف به صاحبتة وابتسم في حسرة.

- لا بأس أيها الرفاق. اتركوها لي حقبة وأنا أعاهدكم بأنني لن أنجب منها أطفالاً. أما الريح فلم تهدأ. وأخذ الضباب يثقل ويتكاتف. حتى هذه الترضية لم تخفف من حدة عشيرته الباغية.

- لماذا أنتم غضابي! اتركوني برهة وثقوا بأنني سأنجح في ضم من تدعى أنها الحياة إلى زمركم يا أهل الظلام.

التفتت إليه الفتاة تسأله:

- فيم تفكر؟

لم يجب الفتى أول الأمر. ثم انطلق يضحك ضحكاً مكتوماً
لم تنفرج عنه شفتاه وقال:

- أفكر في رجل له ذنب وفي رأسه قرنان.

نظرت إليه الفتاة في لهفة فخيّل إليه أنه قد نجح في إخافتها.
ولأول مرة في هذا اليوم أحسّ بيدها تمسك بذراعه وتضغط عليها،
لقد كان هو الذي يبدأها دائماً دائماً بالمخاصرة والعناق فماذا دفع الفتاة
الساعة لأن تكون البادئة ! أتراها قاربت منزلها فهي تحييه من قبل
أن تفارقه؟ أم لعلها شعرت بما يدور في رأسه من أفكار فهي
تحاول أن تشد عضده ليقوى على مكافحة غرمائه ؟

إنها إن همت بفراقه فعليه أن يتمالك نفسه فلا يظهر حسرة أو
حزناً بل يسألها في عدم مبالاة عن موعد لقاؤهما المقبل ثم يصافحها
وينطلق.

وسمع الريح تهمس في أذنيه وتقول:

- بل فلتعطها نقوداً فهذا أوقع.

* * *

كانا يسيران على إفريز ضيق والفتاة تتمتم بلحن خافت حزين.
وصادفهما حائط أبيض ممدود في جوف الليل كصراط يوم القيامة.
وهمّ الفتى بسحب فتاته إلى ناحية الحائط الخارجية، ولكنه وجدها
تلزم ناحيته الأخرى فخطا ليلحق بها. ثم خطر له أن لا يتبعها.
لم يتبعها؟ فليمض كل منهما من أحد جانبي الحائط الذي إن
فصلهما برهة فلسوف يلتقيان في نهايته. ولكنه لم يكد يخطو

خطوة في الجانب الآخر حتى هبط عليه شعور غامض قابض فعزم على أن يعود فيلحق بصاحبه. ولكنه لم يفعل. بل واصل سيره فما إن بلغ منتصف الحائط حتى سمع همساً يملأ مسامعه.

- إنك لم تتبعها. ها أنت حرٌّ من جديد فهنيئاً لك بسيادتك المستعادة أنت حرٌّ. حرٌّ. حرٌّ...

ووجد نفسه يقهقه قهقهة شيطانية ويقول :

- أجل. لم تعد الفتاة معبودتى وإلهى. ما هى إلا حشرة مسكينة سأجرى عليها تجاربي بينما أوهمها بأننى مشغوف بحبها. ها! ها! هاى!

وفجأة شعر بأن قلبه يهبط إلى غير قرار. وأحسّ بالدمع يسيل ساخناً من عينيه والغصة تملأ حلقه فصرخ قائلاً :

- رحماك أيتها النفس العاتية! اتركينى أعيش...

وأسرع إلى نهاية الحائط وجال بعينه باحثاً عن الفتاة فلم يجدها.. لم يحاول البحث عنها، بل سار فى طريقه مطرقاً وهو موقن بأنه قد فقدتها إلى الأبد.

وفى هذا الحين دوى الفضاء بصوت الرعد القاصف وومض البرق فى عرض السماء ثم بدأ المطر ينهمر.

وتلاشى شبح الفتى فى جوف الظلمات من جديد.

الأفيون

أحفا يا سيدى الطبيب تستطيع أن تشفينى؟! إني لا أرى فى يدك سماعة وحجرتك خالية من أسلحة الجراحة وأجهزة الأشعة.. فكيف أنت مستطيع أن تستأصل الداء الويل.. أبهذه الصورة على الحائط؟ ما اسمها؟.. الأمل.. أين هو؟! إن الفتاة تبدو حائرة وفى يدها قيثارة ممزقة الأوتار.. آه.. بقى واحد.. خيط رفيع.. دقيق.. كأنه وهم.. أمممكن حقا أن ينبعث منه نغم.. وأن يوحى بالأمل.. حسنا.. إني أصدقك.. وسأستلقى على أريكتك المريحة وسأتكلم فى الضوء الخافت.. وأطلق لأفكارى العنان.. بلا خجل.. لن أحبس خاطراً واحداً فى رأسى.. سأعطيك الفرصة كاملة لتحللى وتغربلى.. من يدري.. لعلك تنجح حيث أخفقت العقاقير..

* * *

فى تلك الأيام البعيدة.. كنت تلميذة صغيرة.. وكنت أذهب كل صباح إلى محطة قرينتا أنتظر قطار الدلتا الذى يحملنى إلى مدرستى فى البندر المجاور. ولم يكن القطار يصل فى مواعده أبداً.. فإن العطب كان كثيراً ما يصيبه فى الطريق، كما أن بيت السائق كان يقع على الخط.. ولم يكن يجد بأساً من أن «يربط» هناك ليشرب كوباً من الشاي..

ولم يكن ذلك يضايق أهل قرينتا الذين تعودوا ذلك.. واستغلوه.. وصاروا يشيرون للقطار إذا خرج من المحطة وهم فى طريقهم

إليها فلا يجد «عم مصطفى» بأساً من الوقوف.. وإذا تصادف ورأى زوجاً من الفراخ، في يد قروية فإن الوقفة تطول وهو «يفاصلها» في الثمن..

وكانت الوجوه التي تركب القطار من قريننا معروفة على مر السنين.. وكنا نستعين بالحديث على انتظار عم مصطفى وقطاره.. وكانت المحطة تتحول في الصباح إلى ما يشبه القهوة.. وقد ساهم «تعلب» في ذلك.

ولم يكن «تعلب» حيواناً.. ولكنه كان عجوزاً طيباً له لحية بيضاء وعينان ثاقبتان تحب النظر إلى بريقهما العسلي، وهو يصنع الشاي تحت شجرة الجميز العتيقة ويوزع أكوابه على الزبائن.

ولم يكن تعلب طيباً في شبابه.. هكذا كان يقول للناس في المحطة.. ويعترف أنه كان من رجال الليل.. وطالما شن مع العصابات الهجوم المسلح على العزب.. وسحب المواشى من حظائر الخاصة الملكية وكبار الأغنياء. وكان يحرص على أن يؤكد أنه لم يسط أبداً على ناس على قد الحال.. ولم يلوث يديه بدم ولا شرفه بالهجوم على عرض.. والمعاصرون لشباب تعلب كانوا يتغامزون أنه مؤلف قصص كشاعر الربابة الذي يجنى أحياناً إلى المحطة وينسب إلى عنتر والزناتي بطولات من نسج الخيال. وعلى أى حال فإن حكايات تعلب كانت لذيذة، وكان بدني يقشعر من وصفه لمغامراته ومخاطراته مع العفاريت، وصراعه مع مارد الطاحونة عندما كان يهزأ بالخوف ويمشى وحده تحت ليل بلا نجوم..

و كنت أشارك فى هذه المناقشات المثيرة بالاستماع فقط.. فإن الأدب كان يفرض على التلميذات الصمت فى المحطة.. وحتى التلاميذ لم يكن يتحدثن إليهم. كلام الأولاد مع البنات كان عيباً فى قرينتنا.. وكل القرى..

كانت أمى تقول لى منذرة: «عمر ك الآن ثلاثة عشر عاماً.. إنى حملت بك وأنا فى هذه السن.. إياك أن ترفعى عينك من الأرض وأنت ماشية فى الطريق».

فإذا كان أبى حاضراً التحذير فإنه يعلق ضاحكاً وهو يلف سيجارته. ويقول معارضاً وكأنه فقيه واسع الإطلاع: «أولادكم خلقوا لزمان غير زمانكم.. بتك الآن تقرأ الجرنال فهل كنت أنت تعرفين الألف من النبوت..» ثم يلتفت إلى مكملته وهو يمر على «البفرة» بطرف لسانه: «كانت أمك حاملاً بك.. ومع ذلك كانت تشتري بمصرفها حلوة.. واسألنى حنضل».

ولم يكن أبى كاذباً.. فإن حنضل كان «جروبي» قرينتنا.. وكان كل الصبيان والبنات يعرفونه.. ويعرفون عضاه الطويلة التى يعلق عليها حلواه ويمط منها قطعة بأصابعه كلما امتدت إليه يد بمليم. وكان وجه أمى يحمر كأنه يذكرها بفضيحة وتقول فى خجل فتاة الثالثة عشرة «وما ذنبى، إنى كنت أتوحم».

لم يسأم أبى أبداً هذا التعليق.. ولم تسأم أمى الرد.. وإنى لأدرك الآن وقد امتدت بى الأعوام أن نقاشهما ذاك كان نوعاً من الغزل.

ومع أن أبى كان يطلب إلى أن أفتح عينيّ ولا أرخيهما إلى الأرض فإنى لم أكن أفعل.. وكان مجرد التفكير فى أن يصبح فى بطنى طفل كما حدث لأمى يملؤنى غرابة واضطراباً وإحساساً بخطر مجهول يقترب منى.. وزاد شعورى بالخطر أن أمى صارت تتحدث عن حجزى فى البيت وكيف أن أحوالى غير راضين عن استمرار خروجى وسفرى.. لأن ذلك يكاد يكون عاراً.. وكانت أمى تشفع ذلك بقولها إن ثيابى صارت تضيق على صدرى بشكل يلفت الناظرين.. ثم تميل على أذنى هامة: «هل حدث لك ما يحدث للبنات فى سن البلوغ». وإذا سألتها فى دهشة ما هو الذى يحدث؟! تغطى ابتسامتها بكفها وتقول لى وهى أشد منى خجلاً: «ما دام الأمر لم يحدث.. فليس من الضرورى أن تعرفى الآن»..

* * *

وكان القلق الذى تبشه أمى فى نفسى بهذه الأحاديث يصاحبه قلق آخر أن أحجز من المدرسة.. فقد كانت أمنيّ أن أحصل على شهادة الثقافة، وكنت متفوقة على زميلاتي تفوقاً جعل معلماتي يباهين بى المفتشات.. وقالت لى الناظرة إنها تستطيع أن تلحقنى بعد الثقافة بمعهد الفنون للمعلمات فى القاهرة.. وملأت رأسى بأحلام جميلة عن المستقبل.. إننى مادمت دائماً فى المقدمة فإن تعينى فى القاهرة أو الإسكندرية مضمون بعد تخرجى..

وكنْتُ ذهبت إلى الإسكندرية مرة واحدة فى حياتى.. وبعد عودتى شككت أن تكون الجنة بمثل هذا الجمال.. وصارت الحياة فى الإسكندرية هى حلمى الأول والأخير.. وربما كان

ذلك هو الذى حفزنى أن أكون الأولى بعد أن كنت فى الترتيب الثانية أو الثالثة.

* * *

وعندما وصلت إلى «الثقافة» كنت البنت الوحيدة التى تظهر فى محطة القرية مع أنها فى السادسة عشرة. أما زميلتاى سعاد وبثينة فقد كفتا عن الدراسة والسفر. تزوجت سعاد ضابط النقطة.. وتزوجت بثينة نجل العمدة وهو شاب لم يفلح فى المدارس ولكنه لمع فى تجارة المواشى.. وأقام العمدة ابتهاجاً بزفاف ابنه فرحاً هائلاً وذبح لمدعويه عجلاً كبيراً وجاء من القاهرة بفتحية أحمد وشكوكو لإحياء الليلة..

وذهبت إلى بثينة أهنتها. وعرفت منها أن ابن العمدة خطبها من المحطة، وأنه هو الذى دل صاحبه ضابط النقطة على سعاد.. ثم همست أنى مادمت أداوم على الذهاب إلى المحطة كل صباح فستفرج. وكان ذلك من بثينة مداعبة فإنها كانت تعرف أنى أحلم بالمدينة ومعهد الفنون.

وبينما هى تودعنى على السلم فوجئنا بالعمدة والد العريس صاعداً.. فمد إلى يده مسلماً وهو يسألنى: «بنت مين؟!».. وأجبتته متلعثمة وأنا أقبل يده: «بنت إبراهيم صالح..» وأضاف ضاحكاً وهو يهز يدي من جديد «تبقى بنتنا».. وكيف أمك أمينة.. هل تعلمين.. لقد حضرت مع أبوك قبض مهرها، وشهدت على عقد الزواج، وليلة الدخلة أحضرناها بالرفاص عبر النيل من بيت المرحوم جدك.. وكان الرفاص لا يريد أن يرسو أمام بلدنا لضعف الجسر

فى الفيضان.. ولكنى هددت السائق بإطلاق الرصاص على رأسه إذا لم يذهب إلى الشاطيء حيث ينتظرنا الطبل.. ولما غاص الرفاص فى الوحل حملت أمك على كتفى وقفزت بها إلى الشاطيء.. كانت عيلة.. وقال الناس إنها لن تحمل.. ولكنها حملت.. وأنت الدليل.. يازينة البنات»..

هذا كل ما وعيته من حديثه.. فقد كان يخلط كلامه بالضحك.. وكان صوته حنوناً وأبويًا.. ومع أن وجهه كان سميناً فإنك كنت تجد فيه ملامح الأربعين وتحس أن الصحة شيء يمكن أن يمسك باليد فى محياه المتورد..

ومن لهجته الودية تخيلت أنه لو كان رآنى وهو على هذه العلاقة القديمة بأبى لفضلنى على بثينة وخطبنى لابنه.. وحمدت الله أنه نجانى.. ثم تذكرت باطمئنان أن ذلك لم يكن ليحدث فإن صداقته لأبى مردها ولا شك التواضع.. فإن أبى نجار بسيط.. يصلح سواقى القرية.. والقرى المجاورة.. وإذا ابتسم الحظ له.. استدعى لترميم بعض القوارب عند نزول النيل وركود النشاط.. والبيت الوحيد الذى رضى صاحبه أن يضع له أبى الشبايك والأبواب كان بيتنا.. وكان دائماً يقول متهدأ: «لو كان عندى حظ لتعلمت فى صباى نجارة الدواليب والأطقم.. فات الأوان الآن.. وىدى يىست»..

* * *

ولما وصلت إلى البيت أخبرت أبى بما قاله لى العمدة.. وأجابنى أبى مزهواً: «هل صدقت».. وبدأ يحكى لى من جديد الحكايات التى حفظتها عن ظهر قلب.. وكيف أنه والعمدة لم يكونا يفترقان

فى شبابهما.. لأن الفقر والغنى لا يهمان فى الوداد.. وإنما الشهامة
هى التى تجذب الرجل إلى الرجل.

* * *

وأضيت ليلتى ومحطة الدلتا تملأ أحلامى بعد أن عرفت من
بيئة وسعاد أن الرجال يختارون من هناك عرائسهم..

وعندما وقفت فى المحطة فى الصباح خيل إلى أنى نهب العيون
الفاحصة، وأصابنى ذلك بارتباك شغلى عن قصص تعلق وجعلنى
أغض بصرى كما أوصتنى أمى.. وبينما أنا كذلك شعرت بعينه
ترقبانى.. وفى لحظة خاطفة عرفت أن شعورى كان صادقاً..

وعندما وصل القطار تمهل فى الركوب.. ثم تبينت أن ذلك
كان عن قصد.. وأنه تريث لكى يختار المقعد المقابل لمقعدى
ولم أعد فى حاجة إلى أن أختلس النظر لكى أتبين أنه يتأملنى..

* * *

وكنت أعرف «أحمد» منذ الطفولة.. ولكنى لا أدرى متى كففنا
عن أن يتحدث أحدهنا إلى الآخر فإن ذلك حدث تدريجاً منذ بدأ
الشعر يظهر على شفثيه، ومنذ بدأت تظهر فى صوته خشونة
تخيف.. وتذكرنى بتحذيرات أمى.

وكان أحمد يركب القطار مثلى إلى المدرسة الثانوية فى البندر
ثم نجح فى «الثقافة» وذهب إلى كلية الطب.. عرفت ذلك من
تعلق.. فقد كان يناديه بقوله: يادكتور.. وكان يتحدث بصحته..
ويشعر أنه لم يزر طبيياً قط، وسيموت فى المائة دون أن يلمسه

الأطباء وكان يقول لى إن المدينة هى التى جاءت بالأمراض وأن الناس هزلت أجسامهم من الماء المقطر.. وأن هؤلاء النحويين الذين يغسلون الفجل والجرجير تصيبهم العلل ويموتون وعمرهم ناقص.

* * *

وفى ذلك النهار أثناء الدراسة لم يغب وجه أحمد عن عيني وأنا أنظر للمعلمات وأصغى للدرس.

وعند العودة وددت لو أجد أحمد معى فى القطار.. فلما ظهر وجلس قبالتى لم أستطع أن أنسب الأمر إلى المصادفة وأيقنت أنه لى بالمرصاد، وأن نظراته التى تتجنبني تتعقبني.. وفى المحطة التالية نزل الركاب الذين كانوا معنا فى الديوان وصرنا وحدنا..

وتوقعت أن ينتهز الفرصة ويكلمنى وأحسست الدم يلهب وجهي.. فحولت عيني إلى النافذة، ومضيت أتشاغل بالنظر إلى الشمس الغاربة وغيوم ينير تنهال عليها كأنها جبال من الثلج.. ولكنه ظل محتفظاً بصمته، هادئاً فى معطفه الثقيل ويداه فى جيبه..

ومن خلال زجاج لم يعرف النظافة أخذت أنظر إلى قطرات المطر وهى تكبر وتتحول إلى حبات من البرد..

وأحسست كأن حبات من الكآبة تسقط فى قلبى.. وملأني عويل العاصفة رهبة.. واحتجت إلى ابتسامة من هذا الجالس أمامي أرد بها وحشتي ولكنه بقى مغطى بمعطفه وسكوته..

* * *

وفجأة اهتز القطار هزة عنيفة.. وبعد لحظة سمعنا الناس وهم يتصايحون خارجه، وحاولت أن أفتح النافذة العتيقة لكنى لم أستطع. فخف إلى وشعرت بأصابعه وهى تنحى أصابعى الباردة حتى خيل إلى أنها تركت على جلدى أثراً.. وأطللنا معاً لنسمع «عم مصطفى» يسب ويلعن.. لقد خرجت القاطرة عن الخط بعد أن ذهب المطر بصلاية الأرض تحت الفلنكات.. وصاح عم مصطفى: «من أراد المبيت فى القطار فليشرف فإنه لن يسير قبل الصباح»..

وكانت قرينتا تقبع على بعد كيلو مترين تقريباً ولم يكن الوصول إليها سيراً على الأقدام، عبر الحقول الموحلة فى الظلام الحالِك، من هين الأمور. وأخذ الركاب القلائل ينظرون من النوافذ فى تردد وإشفاق.. ثم ذهب البرد والملل بالحدز.. وبدأوا يغادرون القطار تباعاً وهم يسرون ويسخطون..

ومرت الدقائق بطيئة ثقيلة. وصرت أعانى من البرد والجوع والخوف.. ومن صمته. وسألت نفسى ماذا هو صانع؟ هل سيحمل نفسه ومعطفه ويتركنى؟ أم سيبقى هكذا بقية الليل يعذبنى بصمته وبروده؟!

ووجدتنى أبكى.. ولو لم يتحول بكائى إلى نشيج عال لما فطن إلى دموعى ولما انبعث صوته يسألنى: «خائفة أنت».. كلمتان ولكنهما كانتا مملوءتين عطفاً وشعرت كأنه يربت بهما على خدى ويطمئننى.. وأجبتة وأنا أحاول أن أقمع شهيقى: «هل أستطيع أن أمشى فى ونسك إلى القرية».. قال ضاحكاً ضحكة خفيفة: «منذ ساعة وأنا أنتظر أن تتحركى فقد عز على أن أتركك وحدك»..

وكان سلم القطار يعلو عن النجس قرابة متر فسبقني إلى النزول ومد يديه يتلقاني بهما وارتعشت وهو يحملني.. ولم تكن زعشة البرد ولكنها كانت أول يد غريبة تلمسني..

وكان الظلام حالكاً لف في عباة السوداء النجوم والسحاب والشجر.. والمطر ما زال يهطل غزيراً وكأن السماء عجزت عن أن تمسك منه شيئاً..

وفي لحظة صارت ملابسي لاصقة بجسمي، فخلع معطفه ووضعته على رأسي ولكنني أشفقت عليه من الغرق وقلت له إنه يكفيننا معاً.. وسرنا تحت هذا الغطاء ونحن لا نتبين موضع أقدامنا.. وكان متعذراً أن أمشي خطوة في الأرض الزلقة بغير معونته.. فتشبث بذراعه وأحسست وأنا إلى جواره كأنني في أمان من غضب الطبيعة وكأنني صرت فجأة، والمعطف يظللنا معاً، كأنني داخل قوقعة سعيدة.. ووجدت الدفء يسري في أوصالي وهو يقول لي إنه يذكرني منذ كنت طفلة ذات ضفائر وأنه كان يحلو له دائماً أن يرقبني وأنا أنط الحبل في الساحة أمام الدار.. ثم ذهب إلى القاهرة ليدرس الطب.. وهناك كان ينساني تماماً شهوراً بأكملها.. ثم يتذكرني فجأة دون أن يدري لذلك سبباً. وقد يجيء ليراني من بعيد..

وكانت كلماته وهو يروح لي بذلك تنضح صفاء وكان المطر سقط على صوته وغسله.. ولم أعد أدري هل أنا أترنح لأن قدمي تغوص في وحل الحقول أم لأن اعترافه المفاجيء أدار رأسي.. وأحسست في تحفزه لنجدتي أنه يخاف على السقوط خوفاً حنوناً.. ثم يزعم بعد ذلك أنه لا يعرف السبب الذي يجعله يتذكرني فجأة!..

أما أنا فعرفته.. وأيقنت أنه.. الحب..

وحتى لو كنت غبية بليدة لكان حتماً أن أعرف.. فقد حملني آخر الأمر، بعد أن ذهب الخوض في الوحل البارد والانفعال الحاد بما بقي من قواى.. ومضى بي مترنحاً من ثقلى وأحسست وصدري ساقط على صدره وساعدى محيط بعنقه أنه لا هو برغم عبئه ولا أنا برغم الانفعال الذى يطرق ضلوعى نريد لهذه الرحلة أن تنتهى..

ولكن نوراً كان يتحرك من بعيد ويقترب منا.. وقال أحمد وصوته لا تخفى فيه الحسرة: إن النور قادم نحونا.. ولعله يبحث عنك.. وبعد قليل لن نكون وحدنا..

ثم أضاف فجأة.. «قلت لنفسى إنى ربما أراك.. ويشاء القدر ألا أراك فقط بل أن أبوح لك أيضاً بما كنت أريد أن أفاتحك فيه على طول المدى.. والآن فى هذا الظلام الدامس يتوهج حلمى ويضىء حتى كأنى أرى نفسى طيباً لهذه القرية البائسة، أداوى أهلك وأهلى وأنت إلى جوارى زوجتى.. فقولى أنك ترين المستقبل كما أراه».. وحاولت أن أتكلم ولكن صوتى هرب منى فانبرى يتعجلنى فى لهفة: «تكلمى قبل أن يصل الرجل.. قولى إنك لى».. وظللت خرساء.. ولكن يدي تكلمت وهى تمسك يده وتعانقها..

وفهم أحمد.. وفوجئت بشفتيه تمان خدى، وكأن ناراً هى التى مستنى وصعقتنى.. ونقلت فجأة إلى غيبوبة أفقت منها على صوت الرجال الذين يحملون المصابيح وإذا نحن أمامهم وجهاً لوجه..

وكان «العمدة» هو مرافق أبي ومعه عباس شيخ الخفراء تلمع في النور الخافت ماسورة بندقيته وهي تتأرجح على كتفه.. وقال أبي وقد هدأ قلبه : «إننا كنا ذاهبين لناخذك من القطار»..

وفجأة اخترق الصمت والمطر والصقيع ضحكة العمدة وهو يسأل: «ماذا كنتما تصنعان تحت المعطف طول الطريق؟».. وعند ذلك تنبته إلى أنني لا أزال مستظلة مع أحمد تحت معطفه.. فنحيت عن رأسي وأنا أعاني الخجل والارتباك.. وأحسست أن صوت العمدة هو أسوأ ما لقيته في ليلتي.. أسوأ من المطر الذي شربته ثيابي.. ومن الصقيع الذي تجمدت منه أطرافى..

ووجدت أبي شديد الزهو بأن العمدة شاركه في البحث عني.. وضايقني أنه يحتفى به غير حافل بأحمد الذي نقع نفسه في الوحل من أجلى.. ولو لم يقل له العمدة: «كيف أمك يابن وهيبة؟».. لصار نسياً منسياً.. وأضاف العمدة وهو يسقى بالضحك صوته السيء: «كانت أمك تلعب معنا ونحن أطفال حفاة.. وكنا نعيها بأصبع سادسة في قدمها، ولكن وهيبة صار لها ابن دكتور.. ما شاء الله»..

وكان أحمد لم يعجبه الحديث فاستأذن ليميل مع الطريق إلى بيته.. وصاح العمدة في أثره: «لا تدخل تحت العباءة مع البنات مرة أخرى.. فإننا في الفلاحين لا في البندر يابن وهيبة»..

وضحك العمدة وشيخ الخفراء للدعابة، لكن أحمد لم يضحك، ولم يجب بشيء ومضى لسبيله.. وكرهت من العمدة ولعه هذا ببناء الأبناء بأسماء أمهاتهم، كأن الأولاد في قريننا ليس لهم آباء..

وأبديت ونحن نتناول العشاء نفورى من طريقة العمدة فى الحديث.. ولكن أبى دافع عنه وقال إنه رجل حلو الدعابة.. ثم صاح مخاطباً أمى وهى تصب على يديه الماء من الأبريق: «رزق جديد.. العمدة شرع فى بناء طابق ثالث، والشبايك والأبواب والترسينة أنا سأصنعها.. مع أنه عندما بنى البيت جاء بالنجارين من مصر، فتصورى فضل الله»..

* * *

وضحكت وأنا فى فراشى من بساطة أبى.. وقلت لنفسى ماذا يسمى صنيع الله لو عرف أن ابنته ستصبح زوجة طيب.

وتذكرت عند ذلك ما قاله لى أحمد، وكيف أنه يريد فتح عيادته فى قرينتا. وتمنيت لو يطلع الصباح.. وأراه فى المحطة وأسأله إن كان يستطيع أن يعدل حلمه قليلا ويسكننى فى مصر الجديدة ولو لفترة.. فقد تمنيت كثيراً أن أعيش هناك..

ولم يقدر لى أن أبوح لأبى بأمر أحمد.

فإن أحمد.. مات فى الصباح.. أصابته رصاصة وهو واقف فى المحطة ينتظر القطار.. ودخل فى نفسى حين بلغنى النبأ أنى اشتركت فى قتله فلعله لم يبكر إلا لينتظرنى..

وسقطت مريضة.. وكنت أبكى وأصرخ وأتوجع وأدعى الألم فى عظامى، وهو فى قلبى..

ولم أكن أمسك دمعى إلا لأسأل: «هل وجدوا القاتل».. فإن أبى كان يقول إن العمدة لن يستريح إلا إن قبض عليه..

وكانت الشبهة محصورة في أسرة بينها وبين أسرة أحمد ثار قديم..

وقال تعلق إنه رأى أحد شبان هذه الأسرة واسمه سرحان في المحطة وشرب عنده الشاي ولكنه لم يره وهو يطلق النار. وقبض على سرحان.. ولكن النيابة لم تستطع أن تحصل منه على اعتراف.

* * *

ومضت شهور والتحقيق معلق. وذات ظهر قال لنا أبي وهو متهلل: «ستسمعان خبراً غريباً»..

وظننت أن أبي سيخبرنا أن سرحان قد أقر بجريمته، ولكنه قاطعني قائلاً: «ما لنا والقاتل والقتيل.. تصورى الطابق الذى بناه العمدة والشبايك التى صنعتها بيدي والترسينة.. إنها لك.. كل هذا العز لك.. فإنك ستكونين حرم العمدة.. ألم أقل لكما أن الفقر والغنى لا يهمان وأن الشهامة هى التى تربط الرجال بالرجال».. وصرخت معترضة. ولكن صرختى صرعتها لكمة قاسية.. وأيقنت أنه لن يسمح لى بحرمانه من فخر حياته.

* * *

وانتقلت إلى بيت العمدة وأنا أحس لكمة أبى على وجهى وعلى قلبى..

والحق أنه لم تكن لى رغبة فى المقاومة.. وإنما يقاوم من يحب الحياة.. أما وقد ذهب أحمد فإن كل الأمور صارت تستوي

عندى.. و كنت أعتبر الأيام التي جئت أقضيها في الطابق الجديد أيام فتاة أخرى لا يعينى أمرها.

و كانت صديقتى بثينة زوجة الابن تسكن الطابق الذى تحتى. و كانت تصعد إلى كلما وجدتنى وحدى وتحاول أن تسلينى وتقول لتضحكنى: «من كان يظن أن زميلتى المدرسة تصبح إحداهما حماة الأخرى.. أتعلمين أنك الآن أمى فى القانون.. زوجى ابن زوجك ولكنه شاحب هزيل يبدو كأنه أكبر من أبيه سناً»..

والحق أن العمدة كان فحلاً.. و كان يدخن الحشيش مع أصحابه فى الطابق الأسفل ثم يصعد إلى وقد انتصف الليل.. و كان على أن أحتفظ بعشائه ساخناً، وبنفسى فى أبهى زينة، لكى يلتهمنا معاً بشهية الوحوش وفضاظتها.

وفى تلك الليلة وأنا فى انتظاره رأيت فى الترسينة أصحابه منصرفين.. وانتظرت طويلاً أن يصعد ثم خفت أن يكون غلبه النوم فى المنذرة كما يحدث له أحياناً عندما يبدأ سهرته بالحشيش ويختمها بالأفيون. وقررت أن أهبط إليه حتى لا يلحقنى تأنيبه.. ولكنى توقفت فى آخر السلم فقد سمعت صوته يرتفع غاضباً وهو يناقش شخصاً وكان الصوت الآخر هو صوت تعلق بائع الشاى فى المحطة يقول فى ارتباك: «وماذا أفعل فى أقوالى أمام النيابة. شهدت أنى رأيت سرحان فى المحطة لكنى لم أره وهو يطلق النار».. ويصرخ زوجى فى غضب: «تذهب إلى النيابة وتغير أقوالك.. وتقول.. إنك رأيت سرحان وهو يقتل أحمد.. وإنك

سكت لخوفك من أهل سرحان.. هذه عشرة جنيهات هل تريدها
أم تريد أن أضربك بالنار كما ضربت أحمد؟»..

كما ضربت أحمد!..

وجدت نفسي في فراشى أعض الوسادة.. وأخفى فيها لوعتى..
ومع ذلك تحاملت على نفسي وكنت في استقباله رقيقة مرحة
وكانما ألهمت بالغريزة أن المرأة سلاحها الضعف والرياء.
وجلس لاهثاً ليستريح من صعود السلم وقد أحال الغضب عينيه
إلى كأسين من الدم.. وقال لى: «أحضرى الجوزة.. فقد أضع
النكد النفسين اللذين شربتهما تحت».

وجئت بالجوزة.. وكان قد علمنى كيف أضع الفحم على
الطباق.. وجلست عند قدميه كالجارية أنفخ النار.. وسألته فى
شفقة عن سبب نكده.

قال وهو يمر بيده الغليظة على شعرى: «شغلانة العمودية متعبة..
أريد أن أثبت التهمة على قاتل أحمد.. ولكن الناس لا يساعدوننى»..
فأخذت بيده وقبلتها وأنا أقول له: «يا لك من شهيم»..
قبلت اليد التى قتلت أحمد ومسحت خدى فى ركبته..
وشغفه ذلك فرفعنى وأجلسنى فى حضنه..

وصعد إلى رأسه دم النشوة ودوار المخدر وقال، وقد ذهب
حذره ومضى يسحقنى على ضلوعه: «الولد أحمد بن وهبة أحسن
صنعاً بموته فلو أنه الآن حى لكان فى وسعه أن يقول إنه مشى

مع حرم العمدة من المحطة إلى القرية تحت عباءة واحدة.. وأن أشياء حدثت في الطريق»..

* * *

وتمنيت لو أنشبت أظافري في عنقه وأصرخ: «ألهذا كلفته حياته ثمناً.. أم أنك توقعت أنني لن أرضى بك وأنتى هاربة معه. ولن أكون فريستك وهو حي»..

ولكن بدلا من أن أخنقه مددت أصابعي في القصة التي يدخنها، ولأول مرة وضعتها على فمي واستنشقت دخانها المعطر وهو في دهشة من أمرى، فطالما حاول أن يغيريني بمشاركته ولكنى عصيته..

وكان على حق في دهشته.. من أين يعرف أنني كنت في حاجة إلى أن أغيب عن وعي لكي أقوى على البقاء مع قاتل أحمد في حجرة واحدة وفي فراش واحد..

* * *

وسبب آخر كان يحبب إلى الغيوبة.. كنت أريد أن أنام إلى الأبد ولا أحس حركة الجنين البغيض الذي أودعه القاتل في أحشائي.. كانت هناك وثيقة زواج لكنى لم أقتنع لحظة أنه ابن شرعى لى..

وأنام إلى الأبد أيضاً حتى يقع الحدث الذي كنت أنتظره..

فقد كتبت إلى أهل أحمد رسالة بلا توقيع أخبرهم فيها أنهم يستطيعون أن يشتروا من تعلق الحقيقة.. ومن أجل ذلك كان الانتظار قاسياً ورهيباً..

كنت في حاجة إلى الغيوبة لكي أستطيع أن أصبر.. وكنت في حاجة إليها لكي أنجو من مواجهة الحدث حين يحدث..
ومن أجل هذا امتدت يدي إلى الأفيون الذي كان العمدة يحتفظ به في مخدعه..

* * *

ولولا الأفيون وعالم الذهول الذي أرسلني إليه لظلمت ساهرة وسمعته يئن وينزف الدم في بئر السلم..

هناك وجدوه في الصباح جثة هامدة، وفي رقبة وصدرة سبع طعنات كلها في مقتل..

ووجدت نفسي أصرخ.. وظن الناس أنني مفجوعة فيه، ولم يعرف أحد أن فجيعتي كانت في أحمد، وأنتى وجدت الفرصة لأبكي عليه بلا رقيب..

وورثت العمدة.. ورثت عنه تسعين فداناً.. لكنني رفضت الميراث الذي تركه في أحشائي وخلصتني منه إحدى القابلات..

ولما وجدت المال في يدي جئت إلى المدينة وعشت فيها.. وأعطتني كل ما يشتريه المال لكنها لم تعطني النسيان.. وعدت إلى المخدر لكنني نعم على بالغيوبة الطويلة ويريحني من التفكير

المريير.. إن كل من مروا فى طريقى كان نصيبهم القتل.. «أحمد
والعمدة والروح البريئة التى لم تر النور»..

عشر سنين الآن أيها الطبيب وأنا عبدة للمخدر.. أغضب عليه
فى الصباح وأضرع إليه فى الضحى.. وكأنه عاشق نذل وهبته
حياتى..

* * *

هذه هى يا سيدى الطبيب قصتى.. قصتها عليك مفصلة ولم
أخف عنك شيئاً.. وبقى أن تفعل أنت شيئاً.. فهل أنت مستطيع
بهذه الصورة على الحائط التى توحى بالأمل.. وبهذه الأريكة
المريحة التى تغرى بالهذيان والاعتراف.. هل أنت مستطيع أن
تشفينى؟.. ليتك تستطيع.. خذ كل ما أملك.. الأرض الملعونة..
والحلى والنقود.. وأرجعنى طالبة تقف فى المحطة.. تنتظر القطار..
وتصفى خلية القلب لقصص تعلب..

الله محبة

كان كل شيء بينهما يبدو طبيعياً، كما يبدو بين كل فتى وفتاة..
وليس فيه شذوذ. ولا غرابة، ولا ينذر بمأساة..

كان شقيقاً لإحدى صديقاتها، وكانت تراه دائماً كلما رأت
شقيقته، ثم أصبحت ترى شقيقته كلما رآته، ثم أصبحت تراه دون
أن ترى شقيقته!..

وإذا بها في شوق دائم إليه.. إلى وجهه الأسمر في لون البن
المحروق.. وعينه السوداوين الذكيتين، وقامته المديدة كأنه فرعون
صغير، ولم يكن يميزه عن فرعون إلا أدبه الكثير، وصوته الخفيض،
وكلماته التي ينطقها ببطء كأنه يتزعمها من بئر عميقة، وينطقها
بلهجة صعيدية يحرص عليها رغم أنه لا يزور الصعيد إلا في كل
عام مرة أو مرتين ليجمع محصول أرضه...

وإذا بها تعيش دائماً معه، في ذكرى لفتاته ولمساته وابتساماته
النادرة. وإذا بها تضحك كلما تذكرت لهجته الصعيدية، ثم تقلده
فيها حتى كادت هي الأخرى تنطق بها.

وعندما التقت شفتاها بشفتيه لأول مرة، عرفت أنها تحبه.. وإن
لم تعرف إلى أي حد يمكن أن تحبه!..

ولم تكن في شك من أنه يحبها.. إنها تقرأ الحب في عينيه،
وتشربه من شفتيه، وتسمعه مع أنفاسه..

إنها تحبه.. ولكن إلى أين؟..

إلى أين هذا الحب؟!..

وحاولت أن تهرب من تساؤلها.. حاولت أن تهرب من مستقبلها..
حاولت أن تهرب من الحقيقة التي تجاهلتها منذ أن رآته ومنذ
أحبته..

إنه قبضى..

وهي مسلمة..

ومضت بها الأيام في عذاب، وذبلت عيناها تحت ثقل دموعها،
وذوى عودها حتى كأنها تجف، وسقطت سحابة فوق وجهها فبدت
كأنها تعيش دائماً في سحاب.. وكانت تراه فترى دموعها في عينيه،
وترى كأنه مع عودها في سباق نحو الجفاف، وتراه يعيش معها في
سحاب.. كانت تعلم أنه يتعذب مثل عذابها، وأكثر..

وبرغم ذلك لم يواجهها الحقيقة..

لم يقل لها إلى أين.. ولم تسأله إلى أين..

ولكنها لم تستطع أن تهرب طويلاً من تساؤلها، ولا من مستقبلها..
كانت كلما ضم شفتيه إلى شفتيها سمعت دقاً كأنه دق دقوف الزفاف،
وكلما أراحت رأسها على صدره أحست أنها في «الكوشة» وكلما
رآته آتياً نحوها من بعيد خيل إليها أن الملائكة ينشدون من حولها:

«مبروك عليك عريسك الخفة»!!

وكان يجب أن تبحث عن حل.. عن نهاية يستقر عندها حبها..

وبدأ تفكيرها يتخذ خطوطاً عملية.. إنه يستطيع أن يشهر إسلامه..
ويستطيع بعد ذلك أن يتزوجها..

إنها مجرد شكليات.. أن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويقول
أمام القاضي: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله».. ثم يصحبها بعد ذلك إلى المأذون!..

واستراحت إلى هذا التفكير، وقررت أن تدفعه إليه..
وكانهما كانا على موعد.. فلم يكذ يلتقى بها ويسحب شفتيه
من فوق شفتيها، حتى قال بصوته الخفيض وكأنه ينزع كلماته من
بئر عميقة:

- لقد فكرت طويلاً.. يجب أن ننتهي إلى حل..

قالت وكأنها تزغرد:

- هل تشهر إسلامك؟!..

وصمت طويلاً وكأن شفتيه الرقيقتين قد اختفتا من وجهه،
وعادت تقول وقد انهارت فرحتها:

- إنك لا تريد.. لا تريد أن تتزوجني..

وتحركت شفثاه ببطء..

- لي سؤال واحد..

- ماذا؟..

- هل لو طلبت منك أن تخرجني عن دينك.. تخرجين؟

وأجابت فوراً، وكأنها لم تفكر، ولا تريد أن تفكر:

- نعم..

ثم سكتت ولم تعلق بشيء، وكأنها أحست بخطورة ما وافقت عليه.. أحست بأن شيئاً كبيراً مجهولاً قد تخلى عنها، وتركها معلقة بين السماء والأرض، وسلط عليها هواء رطباً يملأ صدرها ويعصف في عروقها..

وابتسم ابتسامة حانية وقال وهو يحتضنها بابتسامته، ويمسح بيده فوق رأسها كأنها يد قسيس طيب تباركها:

- إلى هذا الحد؟!!!!..

قالت وهي لا تنظر إليه، وليس في صوتها سوى حشجة:

- لقد قلت إننا يجب أن ننتهي إلى حل.. أى حل!!..

قال وقد أحس ما بها:

إن كلا منا يريد أن يضحى للآخر بأعز ما يملك.. ولكنى لا أريدك أن تضحى، أو على الأقل لا أريد أن أضحي بدينى لمجرد أنه مفروض فى أن أضحي به..! لتترك الله يختار بيننا.. فهو صاحب دينك ودينى..

- وكيف يختار الله؟!!!!..

- لنجرب الحظ.. فهو أبسط مظاهر حكم القدر..

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضية، وقدمها إليها قائلاً:

- اختارى لك وجهها..

وابتسمت، أو حاولت أن تبسم، واختارت أحد وجهى قطعة النقود، واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع قطعة النقود فى يدها

قائلاً:

- اقدفى بها فى الهواء.. والوجه الذى يسقط إلى أعلى يغير صاحبه دينه!!..

وحاولت مرة أخرى أن تبتم، ولكنها لم تستطع ووجمت، وأحست أنها مقدمة لتسير فوق الصراط المستقيم.. وعندما قذفت بقطعة النقود فى الهواء أحست أنها تقذف بقلبها..

وانحنت إلى الأرض وقد جحظت عيناها، وكتمت أنفاسها.. ثم شهقت شهقة خافتة، ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها..

أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية.

وارتبك وهو بجانبها، ولم يدر ماذا يقول، ثم افعل ضحكة جافة.. قائلاً:

- هل صدقت؟!.. لقد كنت أهزر إنها نكتة أردت أن أسليك بها.. لا تأخذوها على محمل الجد.. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من القمار..

قالت وهى لا تزال ساهمة:

- إنه القدر.. والحب قدر!!..

- لا.. لن أسمح لك..

- لا تتعب نفسك.. لقد قررت..

- قل لى.. هل كنت تشهر إسلامك لو رفضت أنا أن أعتنق

المسيحية؟!..

ولم يجب، ولكنها لمحت دموعه في عينيه.. دموعاً تشهد على حبه، وتقسم بجميع الأديان أنه لها.. فانكفأت على صدره تبكى.. وجمعتهما الدموع في دين واحد..

ولم تنم ليلتها..

ولم تحس بالإسلام وبأنها مسلمة.. قدر ما أحست هذه الليلة.. بل خيل إليها أن كل حياتها وكل ذكرياتها كانت كلها للدين.. أشياء صغيرة مرت بها ولم تكن تذكرها أصبحت تذكرها وكأنها قطعة من حياتها.. الحاجة أم إبراهيم مريية والدها التي تأتي لزيارتها كل أسبوع لتبخر البيت ثم تطوف فوق رأسها بالمبخرة وهي تقرأ الأوراد وتتلو الأدعية.. وأم عبده «الماشطة» التي كانت تدخل معها الحمام في صفرها وتذلك جسدها البكر وهي تسكب فوقه الماء الساخن، وتتمتم «اللهم صلى عليه وسلم.. قل أعود برب الفلق من شر حاسد إذا حسد».. وزيارتها «للقرافة» لتقرأ الفاتحة.. وصوت المقرئ الذي ينبعث من الراديو ويتلو القرآن وقسمها بالنبي في كل مناسبة.. أى نبي تقصد عندما تقسم اليوم؟!..!!

إنها مسلمة ولم تكن تدري أن الإسلام يعيش في حياتها إلى هذا الحد.. إنها لا تصلى ولا تصوم، ولكن هناك من الإسلام شيء أكثر من الصلاة والصوم، شيء يختلط بدمها، ويتردد مع أنفاسها ولم تكن تحس به لأن الإنسان لا يحس بدمه ولا يعد أنفاسه..

وكادت تجن..

يارب.. لماذا لم توحد الأديان.

يارب.. وإذا كانت هذه إرادتك فما ذنبي أنا!!

وقامت في الصباح مقرحة الجفنين، كأنها أفاقت من إغماء..
 وذهبت للقاءه، وصحبها إلى قسيس ليسألاه عن الإجراءات
 المتبعة.. وكانت تسير بجانبه صامتة، متصلبة العود، شاردة النظرات
 كأنها آتية من عالم آخر.. وكانت تسمع صوته وكأنه آت من
 بعيد.. من بعيد جداً.. ولا تجيب عليه إلا بهزات رأسها وكأن
 الناس في هذا العالم الذي أتت منه ليس لهم ألسنة..

ونظرت إلى القسيس دون أن تراه.. وخيل إليها أنها أمام عملاق
 ضخيم مجلل بالسواد.. وأن رأسه كبير.. كبير جداً.. وذقنه سوداء
 تتدلى حتى ركبتيه.. ولم تسمع شيئاً مما كان يقوله الرجلان وهي
 بينهما.. إنما شردت عيناها تطوفان بالغرفة، ثم سقطت فوق لوحة
 معلقة الجدار.. ولمحت شيئاً مكتوباً على هذه اللوحة.. حروفاً لا
 تستطيع أن تلتقطها بعينيها الشاردتين، إنما هي تهتز وتموج كأنها
 حروف مكتوبة فوق الماء..

وأجهدت عينيها، ودققت النظر، وحصرت ذهنها، إلى أن اتضحت
 الحروف أمامها..

وقرأت: الله محبة..

وابتسمت ابتسامة باهتة.. ثم ابتسم وجهها كله.. وارتخت
 أعصابها المتصلبة، وارتاحت عيناها الشاردتان..

وأحست أن قلبها يهلل ويضحك ويملاً الدنيا كلها ضحكاً..

إن الله محبة.. الله الحب..

إذن فهي مع الله، لأنها تحب، ولأنها هنا من أجل الحب..
 والتفتت إلى القسيس لتراه لأول مرة.. وخيل إليها أنه جميل..
 وجميل جداً.. أشبه بكيوبيد إله الحب الذي يصورونه في الكتب..
 اقترب منها القسيس وربت على كتفها بيد حنون وهو يقول
 في صوت كأنه نغم مزمارة.. مزمارة داود: «بارك الله لك يا ابنتي!»
 وطأطأت رأسها وقد استبدت بها السعادة حتى خجلت منها..
 ثم انصرفت مع فتاها..

وسألته وهما في الطريق:

- إلى أين؟

- إلى المحكمة الشرعية..

- لماذا؟..

- ألم تسمعي ما قاله القسيس!!

- لا..

- إنك لا تستطيعين أن تغيري دينك لأنك لم تبلغى سن الرشد

بعد..

- وما العمل؟..

- سأعتنق أنا الإسلام..

وتعلقت بعنقه وأخذت تقبله في جميع أنحاء وجهه..

وقال وهو يقود سيارته:

- هذه المرة.. إنه القدر!..

وتم إشهار إسلامه.. ولم يكن الأمر لديه يتعدى مجرد شكليات يفرضها عليه المجتمع، ومجرد ورقة يوقعها إرضاء للحكومة.. إن ما بينه وبين الله في قلبه وفي سريره لا شأن للمجتمع ولا للحكومة ولا للمشايخ ولا للقسس به. والله ليس في حاجة إلى هذه الإجراءات ليعرف إيمانه، وهذه الإجراءات أيضاً لن تبدل شيئاً مما بينه وبين الله..

أشهر إسلامه وهو لا يشعر بشيء إلا شعوراً أشبه بالتحدي... تحدى قومه وتحدى قوم فتاته... وربما ارتجفت شفتاه وهو يتلو الشهادتين، وربما ارتعشت يده وهو يوقع الأوراق، ولكنه كذب رجفته وانكر رعشته وأقنع نفسه بأنه يؤدي واجباً يفرضه عليه النبيل، والشهامة، والحب.. وكلها صفات من صفات الله..

وكان عليه بعد ذلك أن يذهب إلى شقيق الفتاة ليخطبها منه إلى نفسه.. وكانت هذه الخطوة أصعب عليه من تغيير دينه.. بل إنه لم يحس أنه قد خرج عن دينه إلا وهو جالس إلى شقيق الفتاة كالتلميذ المرتبك أمام لجنة الامتحان.. يحاول أن يتذكر كل ما اختزنه في رأسه فلا يذكر منه شيئاً..

وقال الأخ الكبير في هدوء:

- إنى لا أستطيع أن أعترض، فأنت تملك جميع صفات الزوج الكامل ولكن..

وسكت الأخ قليلاً، وتعلقت أنفاس الفتى بشفتيه..

واستطرد الأخ قائلاً:

- هل تجيبني بصراحة لو سألتك؟!..

- سأحاول..

- هل أشهرت إسلامك إيماناً منك بالإسلام، أم لمجرد الزواج من شقيقتي.

وسكت الفتى طويلاً.. واحتقن وجهه.. وأخذ يضغط بيده على الأخرى.. ثم قال وهو يختار كلماته بدقة حتى لا يخطيء، وكأنه يختار مواضع قدمه في طريق مليء بالأشواك:

- الواقع أني لم أكن متديناً أبداً.. كنت قبطياً بالوراثة، وكنت أشترك في القليل من مراسم الدين بحكم العادة وبحكم وجودي بين أفراد عائلتي.. ولكني لم أحاول أبداً أن أعى الديانة وعياً كاملاً أو أومن بالدين إيماناً مفصلاً.. إنما كنت دائماً أومن بالله إيماناً مطلقاً مجرداً، وأخافه، وأتقى غضبه. وكنت أومن بالصدق والأمانة وبقية المثل العليا دون أن أربط هذا الإيمان بالدين.. فإذا كان هذا حالى وأنا قبطى، فلا تنتظر منى أن أقول إنى أومن بالإسلام كدين مفضل، بل إنى أعترف لك أنى لا أعلم من الإسلام إلا أنه دين سماوى.

- إذا فأنت لا تؤمن بالإسلام.. ولا بالمسيحية!!

- إنى أومن بالله.. وكل الأديان لله!!

- إن الإيمان يحتاج إلى قواعد يرسو عليها، وإلى خطوط تحدده حتى لا يكزن إيماناً مائعاً يخضع لهوى النفس ولأطماع البشر.. والله عندما فرض علينا الإيمان به فرض علينا أيضاً صور هذا الإيمان

وتفاصيله، وربط نواصيه ربطاً محكماً حتى لا يترك فيه ثغرة يدخل منها المجادلون وبصحبته الشياطين ليضلوا العباد باسم الله سبحانه وتعالى..

- إني أحسدك على إيمانك، وهو نوع من الإيمان يحتاج إلى قوة روحية لا أملكها.. ولكنى لا أريد أن أتزوج شقيقتك في الآخرة، إنما أريد أن أتزوجها في الدنيا.. والدنيا لا تتطلب منى كشرط لزواجها إلا أن أكون قادراً على إسعادها، فاكثف بهذا وأنت تحاسبني، ودع الله يحاسبني على الباقي.

- إن الإيمان شرط لحياة الدنيا وحياة الآخرة.. والله يحاسبك في الدنيا والآخرة.. وأنا أحاسبك باسم الله، وبكتاب المسلمين وكتاب الأقباط..

- إني أحبها.. والله مع الحب!

- إن الحب إيمان.. والإيمان يبدأ بالله والدين!

- إن الله جمع بين قلبينا، وأنت تريد أن تفرق بيننا.. إنك تتحدى الله.

- أستغفر الله.. ولو كان الزواج هو مجرد الجمع بينكما، لترككما لله يصدر فيكما حكمه.. ولكن الزواج هو الأولاد وهو المجتمع.. وأنا لا أستطيع أن أغمض عيني عن جريمة ترتكب في حق أولاد لم يولدوا وفي حق المجتمع.. تصور أولادك عندما ينشأون وهم لا يدرون إن كانوا مسلمين أو أقباطاً.. لا يعرفون نبياً يقدسونه، ولا يعرفون قديسين وأولياء يتشبهون بسيرتهم،

ولا يسمعون هذه القصص الدينية التي تبدو ساذجة، ولكنها تترك في نفوس الأطفال خطوطاً عميقة تنمو معهم وتصون مبادئهم، ولا يمارسون هذه التقاليد والطقوس الدينية التي تبدو فطرية تافهة ولكنها تحيط القلوب الصغيرة بأغلفة من السمو الروحاني وتقطر فيها الإيمان قطرة قطرة حتى تصبح قلوباً كبيرة محصنة أمام الشر وأمام الخطيئة..

وسكت الأخ الكبير كأنه يقيس وقع كلامه على الفتى، بينما الفتى منكس الرأس يدق الأرض بقدمه دقات خفيفة متوالية كأنه لا يريد أن يسمع ولا يريد مزيداً من الكلام..

واستطرد الأخ قائلاً:

- انظر إلى نفسك، إنك فتى صالح. أتدرى سر صلاحك وقوة خلقك؟ إنهما في طفولتك وفي نشأتك.. لقد نشأت وأنت تعرف دينك، وتعرف نبيك، وتربت مخافة الله معك، وشربت الصدق والإخلاص وبقية المثل العليا مع لبن أمك، حتى لو أنك اليوم تنكر الدين، وتنكر تفاصيله، وتنكر طقوسه.. إنى أريد أولاد أختى أن يكونوا مثلك ومثلى، لا أريدهم حيارى بين أم تؤمن في قرارة نفسها بالإسلام، وأب يؤمن في قرارة نفسه بالمسيحية، وكل منهما يخاف أن يفصح عما في قرارة نفسه خوفاً من إغضاب الآخر، وكل منهما يخاف أن يروى لأولاده قصص دينه، ويمارس أمامهم تقاليد وطقوسه.. ثم المجتمع.. و..

. وقاطعه الفتى وهو يصفع ركبته بكفه في حركة عصبية:

- يبدو أننا لن نتفق. وقد كدت أياس!

- خير لك أن تياس..

- إذاً، فلن توافق على الزواج..

- وسأمنعه بكل ما فى من قوة..

- وتركنا للعذاب!!

- إنى أوفر على أختى عذاباً كبيراً..

- وتظن أن الله يرضى عنك؟

- إنى أتقى غضب الله!..

وانتفض الفتى واقفاً، ومد يداً باردة إلى الرجل، ثم اتجه نحو الباب.. وفى البهو الخارجى التقى بالفتاة واقفة وبين عينيها سؤال متلهف، قرأت جوابه فى وجهه المربد وعينيه الغاضبتين وشفتيه المزمومتين حتى كادتتا تختفيان من وجهه.. فشهقت ووضعت كفها فوق شفتيها حتى تكتم شهقتها وارتفعت فى عينيها نظرة فزع وألم كأنها رأت قلبها يذبح أمامها..

ووقف الفتى قبالتها برهة، ينظر إليها ولا يتكلم ولا يمد لها يداً.. ثم نقل عينيه إلى أخيها.. ثم خرج!!..

وفى الليلة نفسها صحب الأخ شقيقته إلى عزبته، ومعها دموعها.. وهناك مرت بها الأيام وهى فى كل يوم تفقد شيئاً من نفسها حتى خيل للناس أنها فقدت عقلها..

جفت حتى أصبحت كعود الحطب. لا يرويه ابتسام ولا ترويه دموع.. وشرد كل ما فيها حتى لم يعد فيها شيء.. ولم تعد تتكلم، ولم تعد تسمع شيئاً مما يقوله لها أخوها، ولم تعد تحس

بجوع أو بشبع، ولا بظماً أو ارتواء، ولم تعد تقف أمام مرآتها،
أو تضع الطلاء على وجهها، أو تمشط شعرها، أو تبدل ثوبها..
أصبحت كياناً مذهولاً يطوف كالخيال بين أربعة جدران..

لم يعد فيها إلا شيء واحد علامة الحياة.. عيناها.. كان فيهما
دائماً بريق خاطف وكانت دائماً مفتوحتين، وكانت دائماً تبحثان عن
شيء.. ربما شيء في عقلها أو شيء في قلبها، أو شيء وراء
الحياة..

ثم بدأت تميل إلى امرأة معينة من نساء العزبة.. تدعوها دائماً
إلى صحبتها ولا تتناول شيئاً إلا من يدها، ولا تتكلم إلا معها..
وأحببها المرأة، وحنّت عليها ودلتها، وأخلصت في خدمتها..

وجلست يوماً تكتب خطاباً.. خطاباً قصيراً.. بضعة كلمات
مرتعة:

«حبيبي..»

«لم أعد أحمّل.. إنى أحس بالجنون يزحف فوق صدري..
سأذهب إلى الله.. ربي وربك.. ربما التقينا هناك!»

وأعطت الخطاب إلى المرأة لتلقيه في صندوق البريد في خفية
من أخيها.. ثم أرسلتها بعد يومين لتقف عند باب العزبة في انتظار
موزع البريد، ربما يأتي إليها برد..

وجاءها الرد.. قصيراً.. بضعة كلمات مرتعة:

«حبيبتى..»

« لا تذهبي وحدك.. انتظري، سأذهب معك.. اخبريني كيف تذهبين ومتى تذهبين.. التاريخ والساعة بالضبط، حتى نصعد سوياً فلا يضل أحدهنا طريقه إلى الآخر.. إن الله موافق على زواجنا والملائكة يعدون حفل الزفاف..»

وفي يوم معين في ساعة معينة، ارتفعت صرختان من ألم في وقت واحد.. إحداهما في عزبة شكري بكفر صقر والثانية في شارع شيكولاني بحي شبرا..

وخرجت سيارة من عزبة شكري تطوى الأرض نحو المركز لاستدعاء طبيب، وكان الطريق طويلاً والطبيب متكاسلاً، وعندما عادت به السيارة إلى العزبة، كانت الصرخة قد سكنت.. إلى الأبد!!

واستدعى الطبيب القريب في حي شبرا فجاء سريعاً.. واستطاع أن يطرد الموت من حول الفتى وأن يسترد السم من أمعائه قبل أن يفتك بها..

كانا قد اتفقا على كل شيء.. اليوم، والساعة، ونوع السم.. ولم يبق أمامهما إلا الزفاف إلى السماء..

ولكن الله أرادها وحدها.. وتركه في الدنيا وحيداً مع عذابه في انتظار زفافه إليها.. إنه يعيش منذ عامين يستجمع شجاعته ليحاول اللحاق بها مرة أخرى.. والطريق صعب، وقد جربه مرة، وذاق أوله، فلم يستطع أن يجربه مرة أخرى..

إنه يعيش هيكلًا متداعياً من ذكريات حبه.. هيكلًا يضم من الروح نسمات هافته.. ويضم من الموت فراغاً كبيراً هائلاً..

يعيش وهو ينثر العذاب من حوله.. فقد عرفت الفتيات القبطيات قصته، وحاولت كل منهن أن ترد له الحياة وتبعد عنه الموت، فلم تنل منه إلا أن تعذبت معه وبه..

ابعدوا عنه.. إنه معذب ينثر العذاب!..

ولكن.. أين الأخ الكبير الجليل؟..

إنه يضلّى!!..

عبر لولو

قام الكشك في الوسط من الحديقة الجنوبية. كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم تكتنفه أغصان الياسمين. وقف في وسطه كهل أبيض الشعر نحيل القامة مازال يجرى في صفحة وجهه بقية من حيوية. جعل ينظر في ساعة يده ويمد بصره إلى الحديقة المترامية مستقبلاً شعاعاً ذهبياً من الشمس المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة انحسرت عنها أوراق الياسمين. ولاحت الفتاة وهي تتجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى الرئيسي. أحنّت هامتها قليلاً وهي تمرق من مدخل الكشك القصير، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر وعينيها الخضراوين. تصافحاً. ثم قالت بصوت ناعم ونبرة اعتذار:

- إني خجلة!

فقال الكهل برقة:

- يسرنى أن ألقاك.

- لا يحق لى أن أنهب وقتك.

- لا يعد ضائعاً وقت تمنحه لعلاقة إنسانية.

- شكراً لطيبة قلبك.

أشار إلى الأريكة داعياً إياها للجلوس فجلست ثم جلس. وقالت:

- لم تسعفنى الجرأة على طلب مقابلتك إلا لأنى فى مسيس
الحاجة إلى رأى حكيم.

- كل إنسان عرضة لذلك، غير أن من يراك فى الإدارة لا يتصور
أنك تحملين هما !

- دعك من المظاهر!

فهز رأسه موافقاً فواصلت:

- وتساءلت طويلاً إلى من يحسن بى أن ألبأ، حتى هدانى
التفكير إليك.

- أستغفر الله.

وتريشت لحظات ثم قالت:

- إنك لا تعرفنى إلا كزميلة فى إدارة السكرتارية.

- بلى.

- فعلى أن أقدم نفسى الحقيقية..

- أهلاً بها.

- هى نفس مقضى عليها بالسجن المؤبد فى شقاء دائم..

- أرجو أن نتكشف بعد تبادل الرأى عن مغالاة عاطفية..

- بل هى حقيقة واقعية..

تجلى الاهتمام فى عينيه وهو يقول:

- إنى مصغ إليك..

فقلت وهى تنهد:

- حسبي أن أعرض عليك الفصل الأخير من المأساة..
فتجلى الاهتمام بصورة أوضح.
- إني يتيمة الأبوين، لى إخوة ثلاثة صغار، نقيم فى بيت زوج
المرحومة أمنا..
- وضع معقد..
- وأبعد ما يكون عن الراحة..
- لا يمكن إنكار ذلك.
- وهو رجل عنيد متعجرف.
- زوج المرحومة ؟
- دون غيره..
- أهو عجوز مثلى ؟
- بل أكبر، وهو لا يحبنا !
- هل أنجب لكم إخوة ؟
- كلا، إنه عقيم !
- ذلك مدعاة لحب الأطفال.
- ولكنه شاذ، وقد أفهمنى عقب وفاة والدتى بأننى المسئولة
وحدى عن إخوتى.
- وساد الصمت ملياً حتى استطردت قائلة:
- لعله بقراره لم يجاوز العقل!
- بلى ولكنه جاوز الرحمة..

- على أى حال أنا لا طمع فى رحمته!

- مفهوم.

وهو يمن علينا بالمأوى وبيعض المساعدات وإن يكن يحتسبها ديوناً مؤجلة..

هز الكهل رأسه دن أن ينبس فقالت متنهدة:

- لعلك تخيلت الصورة التى أعيش فى إطارها، والحق أنى لا أملك النقود اللازمة لملايس فتاة موظفة..

- وشابة فى عز شبابها!

- هكذا تمضى الأيام فى قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أى أمل فى غد أفضل!

فقال الكهل كالمحتج:

- لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهذه العين.

- ولو كانت بالحال التى ذكرت؟

- ولو كانت!

ثم تساءل وكأنه يناجى نفسه:

- مندا يقطع بما يخبئه الغد!؟

فرفعت منكبيها زهداً فى مناقشة فكرته وقالت وهى تنهد:

- وإذا بى أشعر بزحف الزمن، ومن خلال حياة التقشف والمرارة

أخذ الزمن يطاردنى..

- ولكنك مازلت فى مطلع الشباب.

- إني في الرابعة والعشرين من عمري..

- عز الشباب !

- ولكنه في مثل حالتى يعد مرحلة من الشيخوخة..

- لا داعى للمبالغة، إن وضعك، ليس الوحيد من نوعه فى بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب.

فرمته بنظرة غامضة وقالت:

- ولكنى لم أحدثك بعد عن المشكلة الحقيقية !

- الحقيقية؟!!

- التى تتحدثانى فى اليقظة والمنام !

- غير ما سبق ذكره؟

- ما حدثتكَ عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه

المزمن.

فرفع الكهل حاجبيه متسائلا فقالت:

- أصبحت أشعر بشبابى لا كفترة من العمر تتسرب فى ضياع،

ولكن كقوة دافعة، قوة قاهرة، كهبة مقدسة، وحق إلهى!..

نظر الكهل فى بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ فقالت بنشوة

وحماس:

- كم تنازعنى نفسى إلى أشياء وأشياء، إلى كل شىء، إلى

الوجود كله!

ثم وهى تخفض عينيها ونبرة معتصرة بالحسرة والحزن:

- أود أن أرقص وأغنى وأمرح !

اختبأ الكهل في صمته وهو يطبق شفثيه متفكراً. ولما طال انتظارها قالت:

- لعلى دهمتك بصراحتى !

فأصر على الاختباء فقالت:

- لم تتوقع ذلك، أصبحت الأكاذيب وجبات يومية متكررة، ولكن ما جدوى هذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسى؟!!

فتمتم الرجل بحذر:

- صراحتك مشكورة !

- وكان على أن أعلن ما فى نفسى أو أجبن، ولكن كان على أيضاً ان أختار الرجل المناسب، وكنت تخطر على بالى دائماً، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيبة، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحية فتعلقت به قلوب الضحايا !

- أشكر لك إنسانيتك ولطفك.

- لا أنكر أن لى صديقتين حميمتين فى المصلحة ولكنى لم أفد من رأيهما ما يذكر!

- هل كاشفتها بما كاشفتنى به ؟

- كلا ولكنى سألتها الرأى فى مناسبات جادة وخطيرة !

- بم نصحاك؟

- بدت لى إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة !

- زیدینی ایضاحاً.

- لیس الآن موضعه.

- والأخرى؟

- إنها غاية في الغرابة، قالت لي إن مشكلتي عامة وإن بدت خاصة وأنها لا تحل بالحلول الفردية، وأن علينا أن نغير تفكيرنا من جذوره لنحقق تغييراً عاماً وشاملاً...

فابتسم قائلاً:

- لیس رأيها بالجديد علی مسمعی، ولكن كيف كانت استجابتك

لها؟

- لم يستمر ما بيني وبينها طويلاً بعد ذلك فقد ألقى القبض عليها فجأة.

- عرفت المعنية بحديثك، أليست هي زميلتنا السابقة بالحسابات؟

- بلى، وهكذا لم أجد أحداً سواك..

فقال بلهجة أبوية:

- إنك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت أنك قد ترزقين

بابن الحلال غداً أو بعد غد!

- أبناء الحلال متوفرون..

- ألم يقع اختيارك على أحدهم؟

- كلا، إنهم موظفون شبان في مستوى مادي لا يختلف عن

مستواي، وقبول يد أحدهم يعني التخلي عن إخوتي، ودعنا من

تكاليف الزواج ومشاكلها!

فقال الكهل بإصرار:

- عسى أن يجيء عريس غنى يقوم بكافة التكاليف ويسمح بالنزول عن مرتبك لإخوتك !
- هذا حلم وليس عريساً !
- الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

- أرفض أن أقيم ميزان حياتي على الأحلام، إنى أعيش فى جفاف قاتل وبلا أمل، وتفسى تتحرق إلى الحياة والسعادة، وفى كلمة أود من أعماقي أن أرقص وأغنى وأمرح..

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:

- هذه هى مشكلتى الحقيقية !

ولما وجدته مصراً على الصمت عادت تقول:

- يسعدنى أنى وجدت أخيراً الشجاعة لمصارحتك بها !

فجعل يغمغم بكلمات مبهمه فقالت باسمه:

- وطبعى أن أنتظر منك شيئاً غير الصمت..

فجمع عزمه وقال:

- إنى بطبعى وتاريخى أرفض التسليم بوجود طرق مسدودة !

- ولكن طريقى مسدودة !

- ما تزال..

- أرجو أن نعتبرها كذلك إكراماً لى، أنا لم ألجأ إليك إلا مطاردة

بسياط الجزع، وبعد كفر بالأحلام والخوارق !

فقال بوضوح:

- لا رأى عندى دون مراعاة كاملة للكرامة !

- الكرامة ؟

- أعنى السلوك الخليق بفتاة محترمة.

فقلت بتحد:

- لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح التقليدية !

- طيب، هل تتوقعين لدى رأيا آخر ؟

- نعم !

- أن أسوغ لك السقوط ؟

- نعم !

فتساءل الكهل بذهول:

- ألم تجئيني مدفوعة بما ذكرت عن تاريخي وحسن سمعتي ؟

- بلى !

- وتصورت بعد ذلك أن أبارك سقوطك ؟

- نعم !

فضحك الكهل على رغبته وقال:

- الحق أنى لا أفهمك..

- ولكننى واضحة كضوء الشمس !

- الرقص والغناء والمرح ؟

- نعم !

- خبريني عما تتوقعين مني ؟

- أن تصرح لى بأن النهل من متعة الحياة ليس سقوطاً !

- ولكنه ينقلب كذلك أردنا أم لم نرد !

- وإذن فما على أن أصبر حتى أذوى وأذبل وأموت ؟

- بل حتى تفرج..

- كلام لن يكلفك شيئاً ولكنه سيكلفني حياتي..

فقال متحايلاً للهروب من حدة الموقف:

- حدثيني عن رأى صديقتك الأخرى، أعنى التى لم تعتقل ؟

- كان الحديث لمناسبة تقدم شاب لخطبتي فطالبتنى بأن أقبله

دون تردد، وأما عن إخوتى فقد قالت ليس من حق أحد أن يضحى

بحياة آخر فى هذه الدنيا قصيرة الأجل !

فهز الكهل رأسه فى حيرة صامتاً فقالت:

- ولكنى أرفض التضحية بإخوتى !

- بالك من فتاة نبيلة !

- ولكن من حقى أن أحب الحياة، وأن أستمتع بهذا الحب..

- إذا فقدنا الكرامة فإنه لا يطيب لنا شىء.

- من الذى خلق الكرامة ؟

- خلقتها السماء كما خلقتها الأرض..

- ألم تسمع عما يقال عن الفتاة الأوربية ؟

- إنها تنتمي إلى حياة أخرى في أوروبا ولست أملك المعرفة ولا أملك الحكم عليها..

- ولكنها أثبتت لنا أنه من الممكن الاستهانة بالتقاليد الموروثة دون التضحية بقيم إنسانية باهرة!

- قلت إنى لا أملك الحكم عليها..

- هل تهرب من مواجهة الحقيقة؟

- بل أتكلم بما أعلم..

- أخشى أن تعدنى مسئولية ثقيلة اعترضت طريقك الهادئ؟

- بل أود مساعدتك بكل قلبى..

فقلت برجاء:

- إذن قدم لى نصيحة مبتكرة..

- مبتكرة!!

- أجل، لم أعد أو من بالماضى، لقد ورثت تعاستى عن الماضى، لذلك أكره كل ما يمت إليه بصلة، هبنى نصيحة مبتكرة ولو هزئت فى النهاية بما سميته بالكرامة!

- ولكنى صارحتك بما أو من به.

- إنك رجل غير عادى، لا بد أن تتبع منك أفكار مبتكرة، أفكار لا تستمد سدادها من قول سلف أو من عادة أثرت..

- من حقى، ومن واجبى، أن أكون مخلصا لطبعى أبداً.

فقلت وهى تنظر فى عينيه بجرأة:

- أحياناً يخيل إلى أن شراً عصرياً أفضل من خير بال !
- أى ثورة تنطوى عليها جوانحك الرقيقة الجميلة !
- الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعى تحت شعارات متهرئة،
تردها ألسنة محتضرة..
- هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر..
- صدقنى فإن حياتنا وقف قديم متهدم تتحكم فيه وصايا
الأموات..
- كل ذلك لأنك تودين أن ترقصى وتغنى وتمرحى؟
- لأنى أود أن أعيش حياتى.
- وربما تودين غداً أن تقتلى الأنفس وتشعلى الحرائق وتهدمى
الجدران ؟
- فضحكت قائلة فى حبور:
- أود حقاً أن أقتل زوج أُمى، وأن أحرق من يتناول على
رمى بالسقوط وأن أهدم جدران الإدارة !
- ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أبوى وقال:
- لعله الحب ؟
- هه ؟
- لعله حب يائس الذى أضرم فىك نار الثورة !
- لا يوجد حب معين الآن، أحببت مرات وخببت مرات،
أما الآن فأنا أحب الحب وحده !

- لا شك أن للحب عندك قصة !

هزت منكيها في استهانة وقالت:

- أنت تعرف حب المراهقة ومصيره المحتوم.. ذاك واحد،
وحلمت يوماً بحب ممثل، وكان كلما تقدم لى خاطب أبدي قلبى
استعداداً طيباً للحب لا يلبث أن يذهب بذهابه..

- لا قصة حب الآن ؟

- أكبر قصة حب، حب الحب نفسه !

وتبادلا نظرة طويلة. ثم سألته:

- بم تنصحنى يا سيدى النبيل ؟

فقال باسماء:

- أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل والتحريق والهدم..

- أتسخر منى يا سيدى..

- معاذ الله، بل إنك تغريننى بالتعلق بك !

- حقاً ؟

- ما أكثر أوجه الشبه بيننا !

- فيم ؟

- فى التعاسة على الأقل ؟

فقالت باستطلاع:

- لقد سمعت عنك الكثير..

فلاحت فى عينيه نظرة حالمة وقال:

- كنت يوماً ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثم وهو يتسم :

- وذات يوم قررت الانضمام إلى الجموع الثائرة.

وسكت لحظة ثم تمتم :

- ولم أكتف بذلك فجازفت بالعمل في السراييب..

ثم واصل وهو يضحك ضحكة موجزة :

- ثم قضيت من حياتي خمسة وعشرون عاماً في السجن..

- أول ما لفتني إليك حديث بعض الزملاء في المصلحة عندما

أشاروا إليك وقالوا هذا الرجل بطل من أبطالنا القدامى !

- وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين، وبعطف

من البعض ألحقت بالوظيفة، بمرتب مبتدئ، وعماً قليل سأترك

الخدمة دون أن أستحق معاشاً، وقد فاتني الحب والزواج والأسرة،

وإن امتد بي العمر فلا مفر من التشرذم والجوع..

- يا للبطولة !

- لذلك قلت إن بيننا أوجه شبه..

- لكنك بطل !

- لا يذكرني اليوم أحد !

ترامت إليها في الكشك ضحكات هامسة وهي تقترب. مرق

إلى الداخل فتاة وشاب سرعان ما تبادلوا عناقاً حاراً. أسلمت الفتاة

رأسها إلى كتف الشاب وأغمضت عينيها. قلبت رأسها، ولما

فتحت عينيها وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين
الخضراوين. إبتسمت بلا ارتياب يذكر ثم سحبت فتاها من يده
وغادرا الكشك. ضحكت السمراء وابتسم الكهل. وسألته:

- لم اخترت هذه الحديقة مكاناً للقائنا ؟

- كنت أتردد عليها في الزمان الأول...

- لا علم لك بما يدور فيها اليوم ؟

- كلا، كنا نتخذها أحياناً مخبأً ننقض منه على أعدائنا..

فقامت برشاقة آخذة إياه من ذراعه، فمضت به إلى جدار
الكشك. مدت بصرها من الثغرات بين أوراق الياسمين داعية إياه
إلى النظر. نظرا معا وهما شبه متلاصقين حتى فغر الكهل فاه.
وهمست في أذنه :

- انظر إلى الحديقة !

ثم وهي تكتم ضحكة:

- كم أنها مرصعة بالعشاق !

- فوق ما يتصور العقل..

- العقل يستطيع أن يتصور كل شيء لو تخلت عنه القبضة

الخائفة..

فقال في انفعال ظاهر :

- انظري إلى هذه الفاجرة !

- يالها من سكرى بالحب !..

- أهذه حديقة عامة ؟
- لا عيب فيها إلا أنها تشبه الجنة..
- إنها فى عمر الورد ؟
- الحديقة ؟
- الفاجرة !
- يخيل إلى أنه لا زوج أم يرهبها ولا سجن يهددها !
- رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث. تراجعت الفتاة إلى وسط الكشك. وقفت كأنما تستعرض جسمها الرشيق.
- دارت حول نفسها مرتين كأنما تشرع فى الرقص. سألتها وهو لا يتمالك نفسه :
- لم وقع اختيارك علىّ بالذات ؟
- لأنك الرجل الذى قضى زهرة عمره فى السجن.
- كيف ظننت أنك واجدة رأياً جنونياً عند رجل مثلى ؟!
- تخيلت أنه لن ينتشلنى من الموت إلا رجل كان الموت لعبته !
- يا له من مزاح !.
- قلت لنفسى سأجد عنده رأياً جديراً يبطل !
- فتردد قليلاً ثم سألتها :
- ألم تخشى أن أغازلك ؟
- ليس ثمة ما أخشاه فى ذلك !

هز الكهل رأسه مغلوباً على أمره فعادت إلى مجلسها إلى جانبه وهي تسأله :

- أليس في حياتك جانب لهو ؟

فأجاب دون اكتراث:

- أقرأ بانتظام، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر.

- تعيش وحدك ؟

- نعم، لا أقارب لى فى القاهرة.

- ولا أصدقاء لك ؟

- منهم من قتل فى الثورة ومنهم من تبوأ يوماً الوزارة فبعد

ما بينى وبينه..

- والنساء، أليس فى حياتك نساء ؟

- ولّى موسمين فى عمرى..

ففكرت قليلاً وقالت :

- أود أن أعترف لك بسر !

فى تلك اللحظة ترمى إلى سمعيهما صوت رصاص ينطلق بقوة

وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة. تساءلت :

- ما هذا ؟

- رصاص من بندقية سريعة الطلقات..

- كيف ؟.. لم..

- لا أدرى..

- غارة؟!!

- ولكن صفارة الإنذار لم تنطلق، لعله تمرين.

وسكت الضرب. لبثا يرهقان السمع ولم يزايلهما القلق تساءلت:

- هل يعود؟

- لا علم لى..

- هل تستأنف الحرب؟

- من يدري!

- الكلام عن ذلك لا ينقطع.

- وهو ينتهى حيث يبدأ.

- أتفكر فى ذلك كثيراً؟

- إنه ظلنا ومصيرنا.

وفصل الصمت بينهما طويلاً. حتى قال :

- إن الرصاص يحرك غرائز فى أعماقى، لقد زلزل كيانى فى

هذه اللحظة القصيرة.

- يؤسفنى أننى كدرت صفوك.

- لنعد إلى ما كنا فيه، أكنت تتحدثين عن سر؟!!

فابتسمت قائلة :

- أجل.. هناك سر..

فرمقها بنظرة مستطلعة فقالت :

- ثمة رجل فى حياتى.

— حقا؟

— شاب غنى من طنطا!

— ها هو الحلم يتحقق..

— كلا، إنه متزوج.

— ما مهنته؟

— تاجر.

— أتقبلين أن تكونى الزوجة الثانية؟

— لكنه يمقت فكرة تعدد الزوجات.

— هل سيطلق زوجته؟

— ويمقت فكرة الطلاق.

— وماذا يريد إذا؟

— إنه يحبني!

— كذاب!

— أعتقد أنه صادق.

— هل.. هل..

— تقابلنا فى مشرب شاي مرتين..

— ماذا يريد؟

— يريد أن أقابله مرة ثالثة..

— لا كرامة فى ذلك.

- رجعنا إلى الكرامة !
- واضح أنه يريد العبث بك.
- أو أن أعبث به !
- كوني بريئة بقدر ما أنت صغيرة..
- وحدثني عرضاً عن شقة يملكها في الهرم !
- الداعر !
- لم أقطع برأى بعد.
- فهتف بحدة:
- الرقص والغناء والمرح.
- لا أحب لك أن تغضب..
- ومالت نحوه فلثمت جبينه. وجعل ينظر إليها باهتمام وتوقد.
- سأله برجاء :
- ألا تريد أن تمن علي برأى ؟
- عليك أن تصبري حتى يجيء الفرج كما أن علي أن أصبر حتى يجيء الموت !
- فقامت وهي تقول:
- شكراً، وإذا فيجب أن أذهب..
- هتف باستنكار:
- تذهبين..!
- لم أجيء لأقيم هنا.

- أنت ذاهبة إلى الشاب الغنى من طنطا..

- كلا، ليس مواعده اليوم..

- لا يمكن أن تذهبي..

- أن لى أن أذهب..

قام إلى جدار الكشك ورمى بصره إلى الخارج ثم قال بعصبية:

- الحب لا يتوقف لحظة واحدة..

- متع بصرك..

تحول إليها وهو يقول بانفعال:

- كأنك ابنتى!

ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول:

- لا تذهبي إلى مشرب الشاي.

- ليس اليوم..

- إنه يريد عشيقه !

- لم يصرح بذلك.

- أنت ساذجة؟، أنت ماكرة.. ما أنت؟

- أنا مصممة.

- أنت جميلة، وأنت فاتنة، اصبرى..

- يجب أن أذهب.

- إنه يرفض أن يطلق، ويرفض أن يتزوج زوجة ثانية، لماذا؟

لعل زوجته غنية، لعلها رأسماله الحقيقي، وغير بعيد أن تكون أكبر

منه سنًا، لذلك جهز شقة للعبث، يجرى إلى القاهرة باسم التجارة ليمارس الدعارة، هذه هي الحقيقة.

– أشكرك، ولكن آن لى أن أذهب.

قبض على يدها، ثم على ساعدها، وقال وهو يزداد انفعالاً:

– لن تذهبي..

ابتسمت قائلة:

– لقد تأثرت لحالى أكثر مما يجوز..

– لا حدود لما يجوز فى ذلك.

– شد ما أزعجتك.

– أكثر من سبب يشد أهدنا إلى الآخر.

– ولكن الوقت يسرقنا وزوج أمى رجل شرس..

– فلنسحق رأسه ولكن لا تذهبي إلى الشاب الغنى من طنطا.

– إنى راجعة إلى البيت.

ففرق بأصابعه وقال:

– جاءتنى فكرة طيبة.

– فكرة؟

– إنك مشغولة بالحياة، ولا خوف عليك من كهل مثلى،

فلنذهب سوياً إلى عنبر لولو.

– عنبر لولو؟

- حديقة في صحراء سقارة، في المركز منها بركة مترامية من ماء الورد، وتنتشر بها المقاصير المغطاة بالأزهار، وشعارها غير المكتوب افعل ما تشاء.

فاتسعت عيناها دهشة وقالت:

- أنت تدعوني إلى ذلك ؟

- مع آمن رفيق!

- لا أصدق!

- لا يعز شيء على التصديق.

- ولكن .. ولكن ليس الوقت مناسباً.

- كل وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو!

- لم أسمع بها من قبل.

- إنها جنة الأحلام، كل حلم فهو واقع في عنبر لولو.

- إنك تتكلم بصوت جديد، وعيناك تنطقان بمعان جديدة.

جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعياً إياها

إلى النظر وقال محموماً :

- انظري، جميع هؤلاء حمقى لأنهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر

لولو.

- تلك الحقائق النائبة عرضة للخطر!

- إنها ترقد في حضن الأمان وآى ذلك أنه لا يوجد بها شرطى

واحد!

- وماذا تفعل هناك ؟
- كما تهوين، لا أحد يرى الآخر في عنبر لولو.
- انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة !
- إنها فاجرة لأنها تلهو بعيداً عن عنبر لولو.
- إنك تخيفنى!
- لا ظل للخوف فى عنبر لولو.
- تراجعت عن الجدار فلدق بها فى نشاط غير معهود وهو يشد على يدها. وتساءل:
- ألم تجيئى لتسمى نصيحة من كهل ؟
- إنى أمقت النصائح !
- اذهبى معى إلى عنبر لولو.
- رباہ.. إنى أترجع، لعل حديثك الحكيم أثر فى أكبر مما توقعت !
- حديث عنبر لولو ؟
- حديث الصبر والكرامة !
- إنك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء.
- ولكنك تؤمن بها ؟
- إن ربع قرن فى السجن خليق بأن يخل الميزان.
- إنك تخيفنى.
- كلا، ولكنها حيلة نسائية بالية !

- اهدأ، فلنجلس، أود أن أعترف بسر جديد.

- اعتراف آخر؟!!

عادا إلى مجلسهما وهو يلهث. وقبل أن تفتح فاهما تدافعت أقدام مهرولة تند بين ضحكات شابة متوثبة. اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شاب. لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنهما لم يلقيا إلى ذلك بالا. مضت تحاوره وهو يتحين غفلة للاتقضاض عليها. وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التي يستقر عليها الكهل وصاحبه وتخطت الرجل فاختمى لحظة بين ساقيهما ثم قفزت إلى الباب، ومنه إلى الحديقة والشاب في أثرها. سوى الكهل هندامه وتمتم كأنما يناجى نفسه:

- ما أجمل أن يذهبنا إلى عنبر لولو!

ثم قال لفتاته بضيق:

- نحن نضيع وقتاً ثميناً لا يعوض!

فقال تذكره:

- ولكن ثمة إعراف جديد!

- لا قيمة الآن لأي إعراف!

- أود أن أعترف لك بأن حكاية الشاب الغني من طنطا مختلقة

من جذورها ولا أساس لها في الواقع!

- حقاً؟

- بالصدق أعترف لك.

- ذاك يعقد الأمور ولا يسطها!

- وعلى أن أذهب الآن.
- كلا، لن تذهبي.
- لا شيء يدعونا للبقاء.
- بل علينا أن نفهم الأسباب التي دعتك إلى اختراع الحكاية.
- لا أهمية لذلك ألبتة.
- كلام غير علمي، فالحلم له أسبابه كالواقع سواء بسواء.
- أكرر ألا أهمية لذلك.
- فهز رأسه مفكراً وقال باهتمام :
- دعيني أفكر.
- ومسح على جبينه واستطرد :
- شاب.. تاجر.. غني.. من طنطا.. شقة خاصة في الهرم.
- كدت أنسى تلك التفاصيل.
- لا يمكن أن تنسى.
- أنت ظريف ولكنك عنيد.
- أصغى إلي، شاب، تخيلته شاباً، الشباب رمز الجنون، يحب الحياة، وأنت تهيمن بحب الحياة لحد الجنون.
- لكنني تغيرت.
- كذب، لم يمر وقت يسمح بالتغيير.
- يخيل إليّ أني عاشرتك في هذا الكشك عمراً.

- أصغى إليّ يا عزيزتى،.. تاجر.. ما معنى تاجر؟، إنه تقيض الموظف، الموظف رمز الروتين، التاجر رمز الحركة، الموظف ظل الأخلاق التقليدية، التاجر ظل الإنطلاق والأخلاقية.

فتساءلت ضاحكة :

- أترانى حلمت بقرصان ؟

- وأكثر يا عزيزتى، إنك تدعيننا للإيمان بإبليس كما آمن إبليس بنفسه، إنك تنبذين آدم مخلوق الخطيئة والاستغفار، وتعشقين إبليس مخلوق الإبداع والكبرياء، إنك تعيدين للنار كرامتها حيال التراب.
- سامحك الله.. أنت خفيف الروح.

- وما معنى غنى؟، الغنى هو الذى يملك المال والقوة، ولكننا لم نعد فى عصر الأغنياء، أى غنى اليوم هو كاللص الذى لم يهتد إلى أثره بعد، ستطبق عليه يد العدالة فى المساء أو عند منتصف الليل، فالحلم يريد شابًا، غنيًا، لفترة محدودة، إنه يخشى المعاشرة الطويلة، يخشى أن ينكشف مع الزمن عن شخص حقير شرس مثل زوج أمك، فأنت ترغيبين فيه وتكرهين فى الوقت نفسه فكرة دوامه، سوء ظن مكتسب من ماض تبيع..

- أتقرأ الفنجال أيضا ؟

- من طنطا!.. ماذا يقول الحلم؟، طنطا هى مشوى السيد البدوى، صاحب الكرامات والمعجزات، الذى كان يجيء بالأسرى من الأعداء.. فهمت يا عزيزتى؟!!

- فهمت يا سيدنا الشيخ.

- وشقة الهرم؟.. الشقة مفهومة ولكن لماذا فى الهرم؟. الهرم فى ظاهره قبر ولكنه فى حقيقةه يشكل تحديًا للزمن.. للموت.
- تفسير مسل وجميل، ولكن يجب أن نفكر فى الذهاب.
- ابصقى هذه النية من فيك وهلمى إلى عنبر لولو.
- بل إلى البيت..
- ماذا فى البيت مما يغريك بالعودة إليه ؟
- هو بيتى على أى حال.
- سيتغير طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو.
- رمقته بنظرة ارتياب وسألته:
- ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو ؟
- فيه خلوة للعجزة، كل شىء فى عنبر لولو.
- ترى.. ترى أنت جدير بالسمة الطيبة التى تتمتع بها ؟
- أنسيت رأيك فى الوقف القديم ووصايا الأموات ؟
- لكنى تعلمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة هنا !
- لا تسخرى من رجل قضى زهرة عمره وراء القضبان.
- اغفر لى فأنا لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعاً من عمري !
- ولكنه فى حالتك يعتبر مرحلة من مراحل الشيخوخة !
- وقامت متجهمة فقام فى أثرها بحال توحى بالاعتذار، وقال :
- لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه !
- فقالت بنبرة ساخرة :

– شيدت قصرًا ولكن على الرمال !

– حقًا ؟

– الشاب الغنى من طنطا حقيقة من صميم الواقع !

– بل خيال فى خيال !

– حقيقة من صميم الواقع.

فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار. وتوثب ليقذفها بسيل من الكلمات التى انصهر بها شذاه ولكن شخصاً غريباً اقتحم الكشك على غير توقع. اقتحمه وكأنما ألقى به إليه. مشعت الشعر، أغبر الوجه، يتصبب عرقاً. رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه. ضرب الأرض بقدميه بشدة ليزيل عن حدائه ما يطويه من طين. بادلهما النظر صامتاً دون أن ينبس. مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها فى إعياء. جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر. حل بالكشك صمت كالشلل. لكن الفتاة كانت أول من خرج منه. خلصت يدها من قبضة الكهل وقالت:

– أستودعك الله، إني ذاهبة.

فقال الكهل برجاء :

– انتظرى، يجسن بك ألا تسيرى وحدك فى الطرقات الخالية فى هذه الساعة من الأصيل !

وإذا بالشاب الغريب يقول :

– ليست الطرقات بالخالية !

فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشاب :

- جميع الطرقات مطوقة برجال الشرطة !

فتحول غيظ الكهل إلى دهشة وسأله :

- لم ؟

فسأله الشاب بدوره :

- ألم تسمعوا طلقات الرصاص ؟

- بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريباً عسكرياً.

- لم يكن تدريباً عسكرياً.

فسأله الفتاة :

- أكان غارة جوية ؟

- لم يكن غارة جوية.

فسأله الكهل :

- هل بلغتك عنه أنباء صادقة ؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلاً :

- صعد شخص إلى قمة البرج وأطلق الرصاص من بندقية سريعة

الطلقات.

- ما هويته ؟

- لا يدري أحد.

- وما الهدف الذي أطلق عليه الرصاص ؟

- أطلقه على كافة الجهات، على جميع الناس !

- يا للخبر، وكم عدد الضحايا ؟

- لم يصب أحد !
- غير معقول.
- يبدو أنه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحداً.
- حادث غامض.
- إنه لكذلك.
- هيهات أن يثبت عدم الشروع فى القتل.
- ذاك واضح، ولكن ربما صفحته خالية من السوابق !
- فقال الكهل باستياء:
- ليس خلو الصفحة من السوابق بالشهادة الطيبة دائماً، ولا العكس
بالصحيح.
- قول لا يخلو من حكمة.
- أهنتك على حسن إدراكك.
- شكراً.
- لكن لنعد إلى مطلق الرصاص، لعله مجنون ؟
- كلا..
- إنك تتحدث عنه بيقين !
- بل أردد ما تناقله الناس فى الطريق.
- ولكن لم يطلق النار فى جميع الجهات دون أن يقصد إصابة
أحد ؟.
- ذاك بعض السر الذى يسعى وراءه رجال الشرطة.

فقلت الفتاة :

- لعله مجنون بالشهرة.

- لا يبدو كذلك.

فعدت تقول :

- لعله كان في حاجة ملحة إلى الترفيه !؟

فابتسم الشاب قائلاً :

- لا أظن الأمر كذلك.

وسأله الكهل :

- ماذا يقول الناس عنه أيضاً ؟

- يقال إنه كان ضمن وفد دعى إلى زيارة الجبهة ومعسكرات

اللاجئين.

- حقاً !.. لعل أعصابه اهتزت فوق ما يحتمل.

لكنه لم يفقد توازنه قط وإلا لقتل الناس بالعشرات.

- أطلق النار وهو في كامل وعيه !

- وكامل عقله !

- ياله من حادث غامض !

وقالت الفتاة :

- كم أود أن أراه.

فقال الكهل :

- سترينه في جرائد الغد، كذلك تجرى الأمور منذ قديم !.

ثم التفت إلى الشاب وهو يقول كأنما يقدم له نفسه:

– أنا أيضاً ولعت يوماً بإطلاق النار!

ثم بنبرة إعتراز:

– ولكن الرصاص انصب على الأعداء!

فقال الشاب بامتعاض:

– يقال إن صاحب البندقية المجهولة هتف قبل أن يختفى

«ليستقر الرصاص في قلب العدو الأكبر».

فقال الكهل في حيرة:

– حتى القتل أصبح غامضاً رغم أنه أوضح فعل في الوجود!

– ليس ثمة غموض ألبتة..

فتساءل الكهل بغيظ:

– أكان العدو الأكبر يسير فوق رعوس المارة؟

– أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم!

فقالت الفتاة بانفعال:

– واضح أو غامض، لا يهم، كم هو جميل أن يطوف إنسان

بالجبهة وبمعسكرات اللاجئين ثم يصعد إلى برج القاهرة ليطلق

النار في جميع الجهات!

فسألها الكهل:

– هل وضع لك ما غمض عليّ؟

– نعم.

- ولكن كيف ؟

- إنى أفهم بطريقتى الخاصة !

وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجة فى الخارج.
ثم تبين على وجه اليقين أن ثمة ضجة تجتاح الحديقة.

هرعا إلى ثغرات الياسمين فرأيا العشاق يتجمعون فى الممشى
وقد تولاهم الوجوم والارتباك. ثم رجال الشرطة وهم يحتلون
الأركان. قالت الفتاة بانفعال.

- أصبحنا فى قلب الحدث..

فقال الكهل :

- وقد يقع صدام دام.

والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له :

- واضح أن رجال الشرطة يعتقدون أن صاحبك المجهول فى
الحقيقة معنا !

فقال الشاب بهدوء :

- وهو فرض محتمل !

فقال الكهل:

- ولم يعد ثمة مجال للهرب..

فقال الشاب:

- إن من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن إلى الهرب
إلى ما لا نهاية.

فقال الكهل وهو يحدجه بمودة :

- وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه..

- أتظن ذلك؟

وابتسم. ثم قام بهدوء. حياهما بإحناءة من رأسه قائلاً :

- إلى اللقاء..

ومضى نحو باب الكشك فمرق منه إلى الحديقة وهما يردان وراءه..

- إلى اللقاء !

واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث في الخارج ولبثا وقتا غير قصير ثم رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنه يناجى نفسه:

- فأتنى أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيراً وخرجاً!

فقال الفتاة :

- وفاتنى أن أدعوه إلى شىء من اللهو !

فقال لها معاتباً:

- ما زلت قادرة على المزاح !

- أنسيت هيامى بالرقص والغناء والمرح ؟

فقال بامتعاض:

- آن لك أن تذهبى إلى شابك الغنى من طنطا !

فضحكت قائلة :

- دعنى أعترف لك بأنه حلم لا أساس له فى الواقع !

فهتف بغضب :

- لقد أرهقتنى إعتراقاتك المتضاربة..

- فقالت بتسليم :

- هلم بنا إلى عنبر لولو !

ونهضت قائمة. لكنه جذبها برقة من يدها فأجلسها مرة أخرى

وقال وهو يحنى رأسه :

- دعينى أعترف لك بأن عنبر لولو لم توجد بعد.

فاتسعت عيناها دهشة وتمتمت :

- ماذا قلت ؟

- كانت مجرد مشروع !

- مشروع ؟!

- أجل.

- ماذا تملك لتنفيذه ؟

- رسمنا له خطة عظيمة فى غيابات السجن !

- السجن ؟!

- كان حياتنا الحقيقية، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتقنا اسمه

من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولو» على مثال هونولولو..

- وماذا عن تمويله ؟

- فكرنا فى ذلك بطبيعة الحال، وبالإجماع اتفقنا على وسيلتين
لا ثالث لهما وهما السرقة والقتل !

فضحكت متسائلة :

- وماذا أخركم عن التنفيذ منذ تم الإفراج عنكم ؟

- الخيانة !

- الخيانة !

- إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدون فريضة الحج فى عام
واحد!، هكذا تعطل مشروع عنبر لولو !

- يا للخسارة..

- العين بصيرة واليد قصيرة !

وفرق بينهما صمت واجم ثقيل حتى قال الكهل :

- آن لنا أن نذهب ولكن لا يجوز أن نفترق !

- حقاً ؟

- ألا ترحبين بذلك ؟

- من المؤسف أنك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح..

- ولكنى صاحب مشروع قيم !

- عنبر لولو !؟

- أجل..

- لكنه لا يمكن تنفيذه بمجهود فردى ؟

- إذا اتفقنا أمكن ان نضع شيئاً ذا بال..

- وماذا فى وسعى أنا ؟

- أصغى إلى، نحن نملك مواهب لا تقدر بثمن..

- ما أريد إلا أن أرقص وأغنى وأمرح.

- لن أطلبك بأكثر من ذلك.

- ماذا تعنى؟

- عنبر لولو، جنة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح؟

فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت :

- وأنت ؟

فقال بفخار :

- أنا مولع بالقتل منذ قديم الزمان..

قام فقامت. أعطاهم ذراعها فتأبطتها. مضيا نحو باب الكشك

وهو يقول :

- سأطلق الرصاص فى جميع الجهات وسنرقص ونغنى ونمرح..

• كتب الأستاذ نجيب محفوظ هذه القصة صيف عام ١٩٦٧،

بعد هزيمة ٥ يونية، ونشرها فى جريدة الأهرام، ثم أعاد نشرها فى

مجموعة قصصه التى تحمل عنوان: «حكاية بلا بداية ولا نهاية»،

ونشرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٧١، مع ملاحظة أنه نشر قبلها

مجموعتين من القصص القصيرة، أولاهما: خمارة القط الأسود،

ونشرت عام ١٩٦٩، والأخرى: تحت المظلة، ونشرت فى العام

نفسه.

العوالم السفلى

عندما يقبل المساء، وتزدحم شوارع القاهرة الرئيسية بالعابرين وتمتلئ أرصفة شارعى سليمان وقواد بالفارغين من الناس الذين حرموا موارد الامتلاء، فراحوا يبحثون عنها فى وجوه بعضهم البعض، وفى عيون الحسان، وخلف زجاج الفترينات وألوان المرايا التى تصور لهم سرايهم البعيد ماء زلالا وجدولا عذبا تكاد تمتصه شفاههم الجافة، ويصوره لهم الجوع طعاما شهيا تلغقه عيونهم النهمة ونظراتهم الظامئة، كما تصور له لهم أحاسيسهم تصويرا لذيذا لما يجب أن يكون، فيزيدهم هذا تمسكا بما هو كائن.

ويظنون كالمقطع يروحون ويجيئون ويلفون ويدورون حول الأمريكين، والاكسلير ومامبو، كما يلف الثور المغمى فى الساقية يقطع آلاف الخطوات وهو فى مكانه، وينظر إلى الدنيا بأسرها ولكن من فوق قبة عينيه المعصوبتين.

فى هذا الوقت بالذات، وفى مغرب كل ليلة، يبدأ (أبو خطوة) عمله بعد أن يكون قد شرب قدحا كبيرا من القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، وتناول ساقه الخشبية وثبت تكأتها المبطنة باللباد تحت إبطه، ولف ذراعه عليها كما يلف الثعبان نفسه على فرع شجرة ميتة، وأمسك بأصابع هذه اليد نفسها ما يزيد على العشرين ورقة من أوراق اليانصيب القديمة التى مرت عليها شهور، بعد أن يكون

قد لوثها، قبل أن يحملها بتراب الطباشير أو الحبر، وهو يمسك بها في هذه اليد بالذات لأنه لا يملك يداً أخرى.

ذلك لأنه فقد ساقه اليسرى وذراعه اليمنى في حادث سقوطه بين عجلات الترام، حينما كان يحاول نشل تقود أحد الريفين منذ عشرين عاماً.

ويذهب أبو خطوة إلى منطقة نفوذه، وهي المنطقة التي يحددها غرباً فندق الناسيونال، وتمتد شرقاً إلى ناصية الأمريكين، وتنتهى عند نهاية مبنى محكمة القضاء العالى.. ويسقط أبو خطوة وسط هذا الزحام كما يسقط الحجر فى الخضم المتلاطم فلا تعرف له أثراً، ويروح يتفرس فى وجوه العابرين والذين يدورون فى الساقية ويقطعون آلاف الخطوات وهم فى مكانهم لا يرحونه.

وكانت له قدرة عجيبة فى معرفة الناس من مجرد النظر إليهم، فهو بنظرة واحدة يستطيع أن يعرف إن كان هذا الأفندى ريفياً أم حضارياً. وإن كان هذا موظفاً أم تاجراً، وهل هو زير نساء أم مدمن مخدرات. وهل هو ثرى يحمل تقوداً أم مفلس يتظاهر بالثراء، وكان ذكاؤه خارقاً فى سبر أغوار نفوسهم ومعرفة ألوان الطعام الذى يشتهونه، فيخاطب كلامهم برائحة الشواء الذى يحبه، فعندما يشعر أن هذا الرجل «مثلاً»، يشتهى رائحة الأثى، يقترب منه وكأنه يعرفه من زمن بعيد، ويهمس فى أذنه وهو يشير إلى رزمة أوراق اليانصيب التى فى يده ويقول:

- حاجة لوز.. ورقة.. ملبس.

فيجيبه زير النساء على الفور، مدرّكاً بأحاسيسه كل شىء:

- بس أوعى تكون (دبة).

- فشر، وشرفك (غزالة).

ثم يضحك وهو يغمز له بعينه ويتمتم:

- والسحب الليلة.

- فين ؟

- قدام الإسعاف.

- يعنى انتظر ؟

- ما تتحركش.. عيب !

ويتركه أبو خطوة. بعد أن يكون قد خط على كتفه أو ذراعه، دون أن يدرك، خطأً أو أكثر بأرواق اليانصيب الملوثة بالطباشير.. ثم يغيب بقدمه الواحدة كما يغيب الدب فى الظلام، تاركاً الرجل ينتظره. وهو مطمئن إلى أنه سينتظره حتى ولو يقضى الليل كله، ثم يروح يتفرس فى وجوه الآخرين، إلى أن يرى وجهاً تصطرع فى عينيه ثورة المراهقة، وتتقد على شفثيه قيلولة الظمأ، فيتسلل إليه يخاطب نفسه :

- آخر طبعة من باريس.

فيدرك الشاب على الفور، ويقول فرحاً ناسياً نفسه:

- ورينى..

فيهمس أبو خطوة، وكأنه يهمس بأمر خطير:

- وطى صوتك ٦ أو ١٢ أو ٢٤.

فيقول الفتى فرحاً:

- دبل..

- كله دبل- بقول لك آخر طبعة من باريس.

فينطلق الفتى وكأن أحاسيسه هي التي تنطلق:

- ٢٤ .

- حيلك.. ح تدفع ٣ جنيه.

ثم ينظر إلى الفتى، وإلى الأسي الذي ارتسم سريعاً على عينيه ويقول:

- ومع ذلك انتظر. سأرسل لك من يحملها.

ثم يتركه أبو خطوة في مكانه مسمراً، ويغيب بقدمه الواحدة في زحمة الناس. ويظل يسير حتى إذا ما اكتفى بصيد ثالث، ورأى عينيه مظلمتين محمرتين تشبهان عينيه هو تماماً، بعد أن يشرب القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، اقترب منه ودندن مغنياً وكأنه يطرب نفسه:

- أنت وبس اللي حبيبي.

فيفهم على الفور رجل المخدرات المدمن اصطلاح هذه الشفرة المتعارف عليها، ويحييه على الفور، وكأنه يحيى معه أحاسيسه المحترقة، وهو يتسم ويتلفت حوالبه هامساً في خوف:

- والعذال!؟

- نعكن عليهم.

ثم يروح أبو خطوة في ذكاء ولباقة يطمئن الرجل، حتى إذا ما اطمأن، تفاهم معه في آخر ما ورد من بضاعة. وآخر ما وصلت

إليه من جودة، وما تعرف عليه من اصطلاح، وكيف أن (ليه خليتنى أحبك) تختلف عن (دليلي احتار)، وكيف أن (والله ما أنا سالى) تزيد في الطرب عن (يا امه القمر ع الباب) ثم بعد أن يتفاهم معه أبو خطوة على ما يريد يتركه على أنه سيرسل له صبيه بالبضاعة، دون أن يعقد معه أية صفقة. وأبو خطوة لا يعقد صفقات مع أحد ولا يأخذ شيئاً من أحد، وكل الذى يقوم به هو التعرف على شخصيات الزبائن واكتشاف ميولهم، ثم يتركهم بعد ذلك لصبيانهم يفعلون بهم ما يشاءون وهم يتعرفون عليهم من خطوط الطباشير التى يرسمها على أكتافهم أو ظهورهم.

وبعد أن ينتهى من جولته هذه التى لا تستغرق ساعة أو بعض ساعة. كل ليلة، يذهب إلى ذلك المنحنى المظلم الذى يفصل بين مبنى محكمة القضاء العالى ونادى القضاة، حيث عصابته من الصبية والغلمان والفتيان والفتيات، وهى تتخذ لنفسها فى الظاهر صفة التسول أو بيع أوراق اليانصيب أو جمع أعقاب اللقائف.

وأبو خطوة يعرف أفراد عصابته معرفة جيدة. وقدرة كل منهم على امتصاص دم الفريسة. والصبي يعرف الفريسة على الفور ويدرك ميولها أيضاً من خطوط الطباشير التى خطها (المعلم). إذا كان خطأ على الكتف فهو ينتظر آخر طبعة من باريس، وإذا كان الخط على الظهر، فهو ينتظر ذات الحسن، وأما الزبون الذى يتوسم فيه أبو خطوة الذكاء، ويعرف أنه صعب المراس، وليس من السهل القضاء عليه سريعاً.. هذا الزبون يكلف به (زبدة) وهى فتاة رائعة الجمال، بدأت حياتها بجامعة أعقاب فى عصابة أبو خطوة..

كانت وظيفة (زبدة) فى أول الأمر التلصص على رجال الشرطة وقت الإيقاع بالفريسة، ثم تخصصت بعد ذلك فى النشل، وقد برعت فى ذلك براعة فائقة. وكانت لها قدرة عجيبة على تجريد راكب أو راكبة السيارة من كل شىء فى لحظات خاطفة، عندما يتعطل المرور وفى اللحظة التى تمد فيها يديها الجميلتين بعقد الفل داخل السيارة. وكان يساعدها على ذلك جمالها وفتتها وأنوثتها الصارخة التى تفجرت وراحت من خلف الثوب البالى والسروال الممزق تشع نوراً يخدر الزبون بمجرد النظر إليه.

ولما توسم فيها أبو خطوة هذه المهارة الفائقة وهذا الذكاء النادر، وخفة اليد التى لا نظير لها، ادخرها للصعب من الأمور، فإذا جاء هذا الصعب، وخرجت زبدة للقنص، خرجت مزودة بأسلحتها التى تعرف جيداً كيف تستخدمها. فهى تحكم على جسدها الثوب الممزق، وتضع ثقوبه دائماً فوق النقط التى تمزق الثوب من أجل إبرازها، فتقب على الكتف من أسفل بحيث يبرز تشية الإبط لامعة باهرة تشوق لها العين، وأخر فى مكان معين فوق الصدر، بحيث يكون متأرجحاً لا هو فوق الثدى ولا هو فى منحدر، وإنما بين بين بحيث يستمد نوره دائماً من مجرى القمتين. وآخر بجانب الخصر الأيمن، بحيث يجاور تماماً فتحة الجيب، وهذا الثقب بالذات يضيق ويتسع حسب رغبتها هى، فإن أرادت أن تلقى طعاماً كثيراً للقنص، بحيث توقعه فى الشباك سريعاً ودون عناء، وضعت يدها فى جيبيها وضغطت قليلاً فيتسع الثقب ويكشف عن تشيات الخصر النزق المرن الذى تتموج بشرته الناصعة البيضاء،

وتشنى مع همسات أنفاسها الدافئة التي تخدر بها أعصاب محدثها، ولذلك كان النجاح حليفها دائماً، لأنها كانت تستطيع مطمئنة ان تفعل كل شىء وتأخذ كل شىء، والفريسة لاهية بالنظر إلى هذا الثقب أو ذاك، وكان أبو خطوة يعرف ذلك جيداً، ولذلك كان لا يفرط فيها إلا إذا تأزمت الأمور.

و ذات يوم تأزمت الأمور، واقترح (مطوة) و (شقرة) و (دبوس) و (شلفط) وهم فتیان أبو خطوة الذين لهم الرأى.. اقترحوا ضرورة خروج (زبدة) لهذا القنص، والسفر خلفه إلى بنها للقضاء عليه هناك، لأن التجارب العديدة أثبتت أن صيده متعذر فى القاهرة. ووافق المعلم على الخطة التي وضعها شلفط ودبوس، وزود زبدة بتعاليمه، كما زود غيرها بتعاليمه أيضاً ثم تركهم كالكلاب المفترسة، كل يذهب إلى فريسته ويصنع بها ما يشاء، أما هو فإما أن يذهب إلى بعض الأحياء الأخرى كالسيدة، أو شبرا، أو العتبة، حيث يوجد بعض الزبائن والعملاء.. وإما أن يذهب إلى وكره فى حى معروف، حيث يكون (القط) وهو خادمه الخاص قد أعد له القهوة الممزوجة بالأفيون، وزجاجة الكونياك، ثم عشاءه المفضل المكون غالباً من الفطير المحشو بالدجاج، وهناك تكون فى انتظاره إحدى محظياته.

ومحظيات أبو خطوة كثيرات ومعروفات وهن لسن من أتباعه أو أفراد عصابته، فهو دائماً يفرق بين نفسه وعمله، ويعتقد أن الجمع بين الاثنين عمل لا تستقيم معه الأمور، ولذلك فمحظياته دائماً من طبقة غير طبقتة، ومن أحياء غير حيه أو منطقة نفوذه.. فهذه من السبئية وتلك من القللى، وثالثة من زينهم. وهن معروفات

لدى عصابته جميعاً، ولدى منافسيه أيضاً، ومع أنه كان يختارهن من صفوة الجميلات اللواتي تهفو إليهن العين ويتمناهن القلب، إلا أن أحداً كان لا يجرواً حتى على مجرد التطلع إليهن، لأن من يفعل ذلك مصيره الموت بطريقة لا تتغير، وهي أن يغمد أبو خطوة سكينه التي يعلقها في رقبته من عشرين عاماً في صدره ببساطة، وكأنه يغمدها في عنق دجاجة !

بيد أنه في هذه الليلة لم يأمر القط، كالعادة، أن يهيبء له إحدى محظياته، وهو أيضاً لم يذهب إلى حي آخر من تلكم الأحياء التي اعتاد أن يطوف عليها من حين إلى آخر، وإنما شعر بشيء من القلق على (زبدة) التي سافرت من الصباح إلى بنها ولم تعد، كما أحس أيضاً بشيء من القلق على (شلفط) الذي ذهب مع الزبون إلى أمبابة ليجهز عليه هناك.. لكنه أمر القط أن يعد له العشاء فقط وزجاجة الكونياك، ريثما يجيء خلفه. وبعد حين كان يدق الأرض بقدمه الواحدة كالدب الأعرج في الظلام، حتى بلغ حي معروف، ومن ثم تسلل إلى حارة درب النعناعية، وعرج منها على زقاق الزناتي، وهو زقاق ضيق مسدود من نهايته، يبدو في الليل أشبه ما يكون بمخزن للظلام الأسود الكريه فلا تستطيع أن ترى قدمك، ولا ترى حتى الطريق الذي تسير عليه من كثرة الأوحال والمياه القذرة العفنة ذات الرائحة الكريهة. وظل يدق في الظلام والليل بقدمه الواحدة حتى بلغ نهاية الزقاق، ومن ثم أسند جسده على الحائط، ومد يده الواحدة إلى الخيط المعلق في رقبته ومنه تتدلى السكين ذات النصلين، تناول من جانبها مفتاحاً حديدياً كبيراً وفتح

باباً صغيراً، ثم دلف منه إلى دهليز مهجور كان فيما مضى طاحونة وأصبح الآن مأوى ووكراً لأبى خطوة وعصابته، وبعد ذلك تسلل فى الظلام إلى سلم خشبى مرتكز على حائط الدهليز المهدم، وراح يصعده بمهارة فائقة. وما أن بلغ نهايته حتى أحس به القط ففتح له باب الوكر الذى يسكنه ويقضى فيه أسعد لياليه. وهو عبارة عن كشك من الخشب القديم الأسود، وضع به دولاب حديدى كان أبو خطوة قد سرقه فيما مضى من مخلفات الجيش الإنجليزى، وأمامه على الأرض مرتبة من القطن ملوثة ببعض حروق من أعقاب السجاير وفحم الجوزة، وعليها بطانية من الصوف الخشن الأسود، ثم حول المرتبة امتلأت الأرض بزجاجات الخمر الفارغة، وأوراق «الحسن كيف» الفارغة أيضاً.

أما على الحائط، فوق المرتبة، فقد علقت جوزة وثلاث غابات وضعت على هيئة سيوف متعانقة، ثم طبلية أمام المرتبة من الخشب تأكلت أطرافها وشوحتها جمرات الفحم التى تركت آثارها السوداء عليها، أشبه ما تكون بآثار الجدرى على الوجه.. ونزع أبو خطوة فردة حذائه الواحدة، وألقى بساقه على المرتبة، وهى جلسته المفضلة عندما يتناول عشائه الشهى الذى يعده له القط. ثم أخذ يلتهم الطعام ويحتسى الخمر. وأمامه القط يأكل معه حيناً، ويحتسى الخمر حيناً آخر، ويشغل نفسه مرة بالنار التى يعدها للجوزة. كل ذلك وهما يتحدثان أحاديث متفرقة، تارة عن أفراد العصابة والمهام التى تلقى على بعضهم، وأخرى عن قلق المعلم الزائد على زبده، وكيف أنها لو ضبطت أو فقدتها العصابة، تكون قد فقدت ركناً

هائماً يعتمد عليه، وتركت فراغاً ليس من سبيل إلى ملكه، إلا أن يخرج أبو خطوة بنفسه من جديد للقنص، لأن هناك من الأمور ما لا يمكن أن يعتمد فيها على شلفط مثلاً، أو مطوة. وانتهاز القط الحديث وشجعتة الخمر التي لعبت برأسه على أن يتحدث إلى المعلم فيما لا يستطيع أن يتحدث به إليه وهو متمالك قواه، ومن ثم راح يحدثه عن غرامه بزبدة، وحب الزائد لها، وكيف أنه لا ينام الليل من أجلها. وكان هذا الحديث كان مفاجأة كبرى للمعلم لأنه التفت في دهشة كبيرة وسأله :

- كيف.. أتضمن عليك زبدة بجسدها ؟

- أبدأ ولكنها تعطيه لى كما تعطيه لمطوة وشقرف وشلفط تماماً.

- وما الفرق بينك وبينهم ؟

- إننى خادمك.

فازدادت دهشته وقال :

- وهم، ما وظيفتهم إذن ؟

فارتبك القط ولكنه قال :

- خدم لك. ولكنى أكثر منهم صلة بك. إننى أعد لك الطعام

والشراب، وأحمل مفتاح بيتك، كما أحمل أيضاً أكثر أسرارك..

فصمت المعلم برهة ثم قال :

- وماذا قالت هى فى ذلك ؟

- فى النهار تعدنى، وفى الليل أفتح عينى على الدهليز فأراها

كالكرة، تتقاذفها أحضانهم جميعاً.

فأطبق أبو خطوة يده الواحدة على عنق الزجاجة التي أمامه ورفعها إلى ثغره وشرب منها طويلاً، ثم أعادها إلى الطبلية وهو ينظر إلى القط بعينه المحمرتين ويقول:

- والبنات الأخريات؟

- الذى يهمنى زبدة فقط.

فصمت أبو خطوة حيناً. وبعد أن التهم ورك الدجاجة مسح على شفتيه الملوثتين وقال:

- وشقرف أيضاً يتقاذف معهم الكرة؟

- أجل.

- وأنت معه؟

فنكس القط رأسه وقال فى خجل:

- لقد حاولت أن أقطع ما بينى وبينه.

فضحك أبو خطوة حتى كاد يستلقى وقال:

- وانقطعت؟

فصمت القط ولم يجب، وضحك أبو خطوة مرة أخرى وهو يتناول الزجاجة التي فرغت ويقذفها ويتناول زجاجة أخرى، ثم أراد أن يقول شيئاً وهو يبعد عن وجهه بيده الواحدة أمواج الدخان الأسود الذى لفظته الجوزة والمفحمة وتكدس فى الكشك، بيد أنه سمع باب الدهليز يفتح ويدخل منه أفراد العصابة بعد أن عادوا من جولاتهم، وراح شقرف وشلفط ومطوة ودبوس وبعض الغلمان يتسلقون السلم الخشبي فى الظلام أشبه بجردان الليل، ثم دخلوا

على المعلم وكره محيين في أدب جم، واحترام زائد، وكل يتقدم خطوة ويضع أمامه فوق الطبلية ما ظفر به من غنيمة، حتى اكتظت الطبلية أمام المعلم ببعض النقود، وعدة أكياس مختلفة الأحجام، وثلاث ساعات ذهبية، وخمس نظارات ثمينة. وعدة أقلام أمريكاني غالية.. إلا أن المعلم لم يلتفت إلى شيء من هذا كله، وإنما نظر إلى ساعة واحدة ورأى عقاربها وقال في ضيق شديد :

- وزبدة.. ألم تحضر بعد ؟

وقبل أن يتم كلمته كان الباب قد فتح فجأة ودخلت زبدة كما يدخل النور والإشراق، لكنها كانت مجهدة، لذلك ما إن دلفت إلى الكشك حتى ارتمت بجوار المعلم على المرتبة وهي تخرج من صدرها منديلا وتضعه أمامه على الطبلية، وقد جمعت أطرافه على حزمة أوراق كبيرة من النقد تزيد على الخمسين جنيهاً، ولم يكذ المعلم يرى ذلك حتى تهللت أساريره وأطبق على الزجاجاة من عنقها وأفرغ ما يقرب من نصفها في جوفه. ثم مسح شفثيه وهو يهدر كما يهدر الحيوان الضخم، ونظر إلى زبدة التي مازالت بجانبه على الفراش، وانحنى عليها ليقبلها وهو مخمور يترنح، فرأى شيئاً كأنه لم يره من قبل.. رأى ذلك الثقب الذي فوق الصدر يتأرجح ويستمد نوره القوي من القمتين معا، وكأن النور بهر عينيه فوق عنده قليلا، ولكنه فجأة وكأن شيئاً أفرعه أطبق على عنق الزجاجاة ثانية، ولم يرفعها إلى ثغره كالعادة، وإنما قدمها إليها وأمرها في عنف أن تشرب، ثم راح ينظر إليها وهي تشرب من الزجاجاة، فلما دقق النظر رأى ثانية ذلك الثقب الذي فوق الصدر،

ورآه فى هذه المرة كثقب صغير جداً فى نافذة يزدحم خلفها نور كثير، وكأنه انتهى أن يرى النور كله، لأنه فجأة رفع يده الواحدة ومد أصابعه الخشنة المتحجرة إلى الثقب ثم هبط به إلى أسفل فانشق الثوب كله. وكانت هذه مفاجأة لزبدة. ومفاجأة أيضاً للجميع، وكانت فوق ذلك أمراً إليهم بالانصراف، فانصرفوا جميعاً، ومن خلفهم (القط) الذى حرص قبل أن ينصرف أن يغلق الباب عليهما.

ونظر أبو خطوة، وهو متكور فى مكانه بساقه الواحدة، كما يتكور الكلب الأجرب على الأرض.. نظر إلى القوام الفارع الذى أمامه. ولم تخف زبدة ولم تضطرب، وإنما غمرتها فرحة كبيرة وهى واقعة أمامه على الأرض، وقد غرقت أقدامها بين الزجاجات الفارغة المكدسة حولها، تماماً كما غرق جسدها فى الدخان المتراكم فى قلب الغرفة، فعدت فيه وهى عارية، أشبه بغانية من غانيات الأساطير تسبح قبيل الفجر وراء الغمام. وقالت ضاحكة:

- ماذا تريد ؟

فقال وهو يثن أشبه ما يكون بحيوان مذبوح :

- أريدك.

- الليلة فقط ؟

- كل ليلة.

- إذن سأكون محظيتك.

- والمفضلة عليهن جميعاً.

ثم مد يده الواحدة، وهو يلهث كالثور، وأنشب أظافره الخشنة المدببة في شعرها، وأمرها أن تأتي له بزجاجه ثالثة. فنهضت متخاذلة وقدمت له الزجاجة فراح يشرب وهو ينظر إلى عينيها وصدرها فرحاً ويقول:

- حدثيني إذن. ماذا فعلت في بنها اليوم. وكيف أوقعت فريستك في الشرك.

فقالت مبتهجة وذراعها مازالت على كتفه :

- أهم شيء فعلته في بنها هو أنني زرت قبر أمي.

فقال في دهشة وهو يجاهد نفسه ليفتح عينيه اللتين بلون الدم:

- أمن بنها أنت ؟

فقالت ضاحكة :

- يقولون ذلك.

- إذن نحن من بلدة واحدة. أنا أيضا من بنها.

- كلها بلاد الله.

فقال، ولكن بعد حين، وهو ينظر إليها وسط الدخان المتكاثف.

وكأنه ينظر إلى خيالات تتراقص أمام عينيه من بعيد:

- وكانت لك أم ؟

فضحكت حتى استلقت وهي تقول :

- وهل هناك من لا أم له !؟

- هؤلاء جميعاً الذين تعيشين في وسطهم لا أم لهم ولا أب أيضاً.

ثم مسح على شفتيه واستطرد ولكن دون أن ينظر إليها:

- ولذلك يسمونهم بأبناء السبيل..

فقالت وهي تتناول الثوب المشقوق، وتضعه على جسدها العارى:

- ليتنى كنت كذلك.

- أعذبتك أمك ؟

- لم أرها...

- ماتت وأنت طفلة ؟

- ماتت وعندى عشر سنين.

- وكيف إذن لم تريها ؟

- ولدتنى وهى فى السجن، وماتت وهى فى السجن أيضاً.

فقال مفكراً فى صمت، كمن تذكر شيئاً بعيداً. وكأنه يخاطب

نفسه :

- فى السجن ؟

- أجل.

- لماذا ؟

فقالت دون اكرات، وهى تضع طرف الثوب على فخذها التى

مازالت عارية :

- يقولون إنها قتلت أبى.

فأحس فجأة كأن شيئاً مخيفاً يقترب منه، وكأنه يطبق بأنيابه على

قلبه. فاضطرب وجحظت عيناه جحوظاً مخيفاً وهو يصرخ فى وجهها:

- ما هو اسم أمك ؟

فلم تجب، لأنها صمدت في مكانها خائفة تنظر إليه. فغرس أظافر يده الواحدة المدية سريعاً في ذراعها العارية، وهو يصرخ ثانية كالمجنون:

- قولى ما اسم أمك ؟

فتمتت خائفة ترتعش، وهى تنظر إلى عينيه الجاحظتين، وشعرات رأسه التى تصلبت فوق جبهته كالحراب تماماً:

- ماذا أخافك ؟

فصرخ وهو يطبق على عنق الزجاجة ويريد أن ينهال بها على رأسها:

- قلت ما اسم أمك ؟

فقلت سريعاً وكأنها لا تدرى ما تقول:

- اسمها مازنة حسنين.

فتخاذلت ذراعه وسقطت الزجاجة من يده وهو يغمض عينيه رويداً ويرتمى فى مكانه ناشباً أظافره فى الحشية القذرة الملوثة التى دفن وجهه فيها وهو يتلوى فى ألم شديد ويتمتم بصوت مبحوح مختنق أشبه بفحيح الأفعى:

- إنها أمى.. إنها أمى.

فانفجرت شفتاها المرتعشتان عن صرخة مكتومة وهى تنظر إليه:

- أمك.. أمك.

فلم يجب وإنما فتح عينيه فانقرطت منهما الدموع غزيرة جداً وظل يبكي والدموع تنهمر. كل ذلك وهو ينظر إلى أشياء كثيرة لا يرى منها شيئاً، ويتمتم بالفاظ مضطربة متقطعة.. لا يعرف لها معنى.. شقرف.. مطوة.. ويروح ينظر إلى الجوزة ودخانها الذى تمتلىء به الغرفة.. الزجاجات الفارغة المكدسة أمامه على الأرض.. الطبلية وما عليها من أشياء غالية.. ساعات ذهبية.. ثمينة.. أقلام حبر كثيرة.. نقود متعددة القيم والأحجام. متديل جميل ضمت أطرافه على رزمة كبيرة من أوراق النقد تزيد على الخمسين جنيهاً، ثم رأى ثقباً صغيراً على صدر جميل يرسل نوراً باهراً، ثم الأصابع الخشنة التى مزقت الثقب وهبطت به إلى أسفل، ثم رن فى أذنه حديث قصير، قصير جداً. بنها.. السجن.. مازنة حسنين.. الزوج الذى قتل.. الابنة التى ضلت.. الأخت التى ذلت.. الأخ الذى..

وفجأة جحظت عيناه مرة أخرى. وراحت نظراته فى جنون غريب تعربد بكل شيء.. الجسد العارى الذى أمامه. الحشية الملوثة التى يجلس عليها.. الزجاجات الفارغة التى حوله.. ساقه الخشبية الملقاة هناك.. الدخان الذى يكتم أنفاسه.. ثم رأى مع ذلك كله شيئاً لم يكن قد رآه، مع أنه طول العمر يحمله على صدره، فطرب سريعاً لرؤيته حتى لكأنه يراه لأول مرة، وأطبق عليه أصابع يده الواحدة سريعاً، وفى عنف شديد حتى لا يفلت منه، وفجأة أيضاً وفى نفس السرعة وبنفس الضعف الشديد أغمد الخنجر فى صدره وارتمى عليه بجسده الثقيل حتى تساعده قواه جميعاً على الوصول به أيضاً إلى المكان الذى يريد، ورأت هى ذلك،

وأرعبتها رؤية الدم الذى انبثق من صدره على الحشية كالرقعة الحمراء، فانفجرت شفتاها عن صرخة مدوية قفزت على أثرها الجماعة التى تنام فى الدهليز، وتسلفت السلم سريعاً كالجرذان الهلعة، وفتحت الباب وازدحم الكشك بالجميع. شقرف.. ومطوة.. والقط.. وشلفط.. ودبوس.. وأم سنة.. وكيداهم.. وما إن رأوا ما رأوا حتى وقفوا ذاهلين، ينظرون إلى المعلم والسكين التى فى صدره، والدم الذى يتفجر منه ويسيل دافئاً تحت أرجلهم، ثم ينظرون إلى زبدة وقد وقفت عارية كتمثال من الحجر.

وفتح أبو خطوة عينيه، ونظر إليهم جميعاً، وإلى الخنجر الذى فى صدره، والدم الذى يتفجر من حوالبه، ثم إلى زبدة وتمتم وكأنه يلفظ مع بعض الكلمات أنفاسه أيضاً:

- أتعرفون.. زبدة.. زبدة التى كانت محظيتى هذه الليلة..

وأراد أن يقول شيئاً آخر، بيد أن زبدة لم تجعله يتمم، إذ انقضت عليه سريعاً مربدة السحنة كما تنقض الصاعقة تماماً، وفى سرعة خارقة سحبت الخنجر من صدره وأغمدته فى عنقه، وقالت وهى تجهز عليه قبل أن يلفظ السر الكبير:

- لقد أراد بى سوءاً فقتلته.

ثم أطبقت ذاهلة عن كل شيء إلا العنق الذى مازال فى يدها تجهز عليه، وتجتته من جذوره لتجتث معه سرها.

ومنذ تلك الليلة التى ذهبت فيها زبدة إلى السجن حتى اليوم، وشلفط.. ومطوة.. وشقرف.. ودبوس.. والقط.. يتساءلون فيما بينهم عن هذا السوء الذى كان المعلم يريد به.

طریق شجر الکافور

كانت عيادة طبيب الأسنان في هذا البندر الصغير مزدحمة بالمرضى هذا المساء. والصالة الصغيرة ملأتها رائحة العقاقير حيث جلس الرجال على مقربة من حجرة الطبيب. أما استراحة النساء فكانت عند نهاية الممر وعلى مقربة من مرافق الشقة. وتجمع فيها عدد من النساء من مختلف الأعمار والألوان، لكن طابعاً واحداً كان يجمع بينهم كلهن وهو طابع الطبقة الدنيا.

وكان اللفظ السائد في الحجرة أشبه شيء بلفظ الدجاج. ومع الأمهات صبيان لا يكفون عن المطالب. وفي زاوية الغرفة سيدة متقدمة في السن تحكى عن ظلم زوجة ابنها لها، في الوقت الذي كانت فيه إحدى الشابات في الركن المقابل تصف ظلم حماتها، والبلاء الذي تصبه على رأسها في الصباح، إذا ما أحست أن ليلتها الماضية كانت هنية !

وهناك سيدة في منتصف العمر كانت تنظر إلى الجالسات ولا تتكلم.. وكان في عينيها قلق من مرور الوقت، وعلى ملامح وجهها ألم ينتابها على موجات. وحين يبلغ الذروة كانت تضم شفيتها أو تعض السفلى بثناياها. وفي خدها الأيسر ورم خفيف، يدل على أن ضرسها يهددها بخراج. عليها ثوب من الحرير أسود اللون، عبرت سداجة خياطته عن طبقة صاحبه، فهي ريفية الأصل، انتقلت

مع زوجها إلى أحد البنادر، تفرق شعرها من الوسط ويتحدث حالها عن أن زوجها من ذوى الصناعات، أو هو على الأكثر مستخدم في مصلحة حكومية. تقف بين فخذيها طقلة بنت خمس سنوات، ذات شعر أكرت يميل إلى الصفرة، تأخذها بين الحين والحين سنة من النوم فتميل برأسها على جسم أمها، وإذا استيقظت قطمت قطعة من البسكويت في يدها، ونادت أمها برجاء وتكاسل: «ماما.. ماما.. مش خلاص؟!»

وكانت الأم تنتظر دورها، وتنظر إلى الخارجين من حجرة الطبيب عند نهاية الممر، وقد كست وجوههم جميعاً تعابير من الألم. على أنها كانت خائفة كأنها مقدمة على عملية خطيرة، لأن أمها ماتت بسبب خراج في الفم، ظل ينقلها بخداعه الناعم من مرحلة خطر إلى مرحلة أخطر حتى انتهى كل شيء.

وكانت قد ذكرت هذه القصة لزوجها قبل مجيئها إلى البندر، فأرسلها إلى الطبيب بحمية وحماسة ولولا عمله الليلي الذى لا يقبل تأجيلاً لصحبها إلى هناك. لكن سفر نصف ساعة فى إحدى السيارات العامة ليس أمراً صعباً على كل حال.

ولم يوصها بنفسها لأنه يعلم مقدار غيرتها عليها، فقد عاشرها سبع سنوات لم يربه منها شيء. وهى وإن كانت بادية الأنوثة، فإنها سريعة القلب إذا دهمها خطر، شأن كل فتاة وجدت نفسها مكلفة بالدفاع عن نفسها، بعد أن مات أبوها فى عنفوان شبابه، وتزوجت أمها فوجدت الفتاة نفسها وجهاً لوجه أمام عاديات الزمن وإغراء الرجال.

وكان الوقت يمر وهي تتململ، فهي تريد أن تسافر قبل أن يتقدم الليل. ثم تنفست الصعداء حين قطع الممرض العجوز سؤالها عن الساعة، ودعاها إلى الدخول، فهرولت تقطع الممر إلى حجرة الطيب، وقلبها يخفق إلى مدى ربع ساعة، ثم خرجت أيضاً وعلى وجهها تعابير الألم.

وفجأة تحول الألم إلى صرخة عندما فطنت إلى أن الطفلة لم تكن معها ساعة دخولها إلى الطيب. وفطنت أيضاً - كأنها تفسر حلما - إلى أن الطفلة كانت في آخر لحظاتها بعيدة عنها تلعب مع بنية تقاربها في السن، في حجرة استقبال الحرير، فلما هرولت إلى هناك لم تجد أثراً لها. وكان اللغظ لا يزال سائداً على الصورة التي تركته عليها.

وقالت بعض الجالسات في شيء من الرثاء: «لقد خرجت وراءك».. واستفسر بعض الرجال الجالسين في الصالة عن لون جلباب البنية ثم أكد لها أنه رآها تخرج من هذا الباب.. هذا الباب.. باب العيادة !

وليس في استطاعة أي أم إلا أن تفعل نفس ما يفعله الظمان الأحمق، حين يلقي بنفسه في البئر، كأنما قبل أن يفوت الأوان ويعيق الخطر. وكما نفتش بلهفة عن شيء ثمين سقط في التراب، فندفه بأيدينا، أخذت الأم تعدو في الشارع الرئيسي الذي تقع فيه العيادة وهي تنادي على «فوزية».. وكلما ابتعدت عن المكان خيل إليها أنها على وشك أن تلقى بنتها.

ومن خلال الغطاء الكثيف الذى سقط على إحساسها فجعله
كإحساس السكرى، رأت تجمع الناس حولها وسمعت إلى مشورة
كثير منهم. وكانت تشرع فى تنفيذ إحداهما، ثم تعدل بسرعة،
لتأخذ بمشورة أخرى، فى ارتباك وفوضى وجزع... وكلمات الرثاء
تثير دمعها، أما النظرة الجامدة من بعض الوجوه فكانت تشعل النار
فى قلبها.

وكانت تفحص وجه كل طفلة وتكاد تلمس كل شعر مجعد.
وخيل إليها أنها على وشك أن تلقى زوجها فى أحد الشوارع، بل
لعله لاح لأوهامها فى النور بوجهه المستطيل الأصفر، وشعره
الحالك السواد، وشاربه الرفيع المسبب وأهبت هذه الصورة
مخاوفها، واشترك الحنان والخوف فى إلقاءها فى النار، فصارت
تصرخ بأعلى صوتها: «فوزية.. فوزية».

وأحست أن يداً قوية تمسك بمعصمها، ونظرت فإذا رجل ضخم
فى ثياب بلدية، يبدو عليه أنه من التجار، يدعوها بصوت غليظ
منخفض ألا تضيع وقتها، وأنه يحب أن تذهب إلى الشرطة فتبلغ
عن ضياع بنتها.

ونظرت إليه بعينين زائغتين، ولكنها لم تجد ما تقوله. وانصرف
الرجل وظل صوته عالقاً فى أذنيها كأنه بقايا أزيز. وفطنت الأم
إلى ألم ناوشها فى فكها، وصداع يحتل رأسها كله، وجفاف فى
حلقها ومرارة. ثم فطنت إلى أنها عادت من حيث أتت، وإلى أن
اللافتة التى تحمل اسم الطبيب ظهرت فى مواجهتها معلقة على
الشرفة المستطيلة ذات الحديد المصنوع على هيئة كؤوس.

وكانما كان هذا المنظر نذير فشل، فخيّل إليها أنها فرغت من الجولان في كل الأزقة، وأنه لم يبق إلا اليأس، بدليل أنها عادت إلى نفس المكان! فصرخت بحلقها الجاف تنادى على بنتها. وعندئذ جاءها صوت خائف ملهوف: «نعم يا ماما..».

وتلفتت الأم وهي تجمع ما تشتت من حواسها، لتفرق بين الحقيقة والوهم. ولكن ذلك لم يكن وهماً بل كان حقيقة. فهذه «فوزية» في يد الممرض تنتفض من الخوف، وتقف الدموع على أهدابها، وحبّات العرق على جبينها الصغير. ولم تسأل الأم أين كانت بنتها، فقد كان المهم هو أن تراها في الوقت الذي أخذ فيه الرجل الضعيف البصر الذي جاوز الستين من عمره، يصف لها كيف أنه وجدها نائمة في دورة المياه الملاصقة لاستراحة الحريم، بعد ما انصرف المرضى وكان هو في سبيل إغلاق العيادة.

* * *

ولم تكن تدري كم مر من الوقت، فإن الحوادث قد سرقتها. واتجهت من فورها نحو الطريق الزراعي لتعود إلى بلدها، وكان الوقت صيفاً والليل بادي النداءة، خصوصاً على شجر الكافور.

وأخذت نفساً طويلاً حين صافحها النسيم، وتذكرت وجه زوجها وقلقه عليها، ثم تذكرت ثقته فيها عندما تصل بالسلامة وتحكى له حوادث الليلة وتوقعت بعض الملامة، فأخذت تجهز الإجابة والأعذار.

لكن مشكلة جديدة ما لبثت أن لاحت على الأفق، فقد طال انتظارها لسيارة الأوتوبيس، التي تعتبر المواصلّة الأولى على هذا

الطريق. ولما ضاع الوقت أخذت توازن بين القلق الصاحب، والقلق المكبوت اللذين عانتها في هذه الليلة.

وبهر عينيها على بعد ضوء أحد الكشافات، رفعت يدها تشير بالوقوف لكن حركة الاندفاع نحو الأمام كانت تدل على أن السيارة لن تقف ووقعت الأم والطفلة في نطاق النور ثم حاذت هما السيارة ثم جاوزتهما وعبرت ثم توقفت بعد ذلك !

ولم تتحرك الأم من مكانها حين رأتها إحدى سيارات النقل التي تمر أحياناً على الطريق. لكنها سمعت صوتاً يناديها: «ياست.. ياست.. تعالى ياست» !

وتقدمت آلياً بلا إرادة، كما نعائق الأخطار لفرط خوفنا منها. وكان الصوت لا يزال يناديها آمن النبرة هادئاً فيه خمول النوم. تقدمت الأم بعد ان وازنت بسرعة بين كل الأخطار. فنحن في طرفة عين نصدر أحكامنا بطريقة غريزية لا عقلية إذا هددتنا المخاوف. على أن المرأة تذكرت أن شخصاً ما سينقذها على الطريق.. حتماً.

ووصل إليها الصوت من مقعد السيارة.

- لأجل خاطر الطفلة.. تفضلي.. وإلى أين أنت ذاهبة ؟

- عند محطة (...) أنزلني.. لكن.. كم تطلب أجراً ؟

فانخرط في ضحك هادئ ولم يردّ وأخرج الثقاب ليشعل لفافة، فرأت وجهه المكتنز الأسمر، وذقنه غير المحلوق. ولم يكن صغير

السن ومن الممكن أن يطمئن القلب إليه. ونفخ أول نفس من اللفافة وقال وهو يفتح الباب.

- أجرة؟! من يأخذ أجرة على إنقاذ الغريق؟! أليس من الجائز أن تظلي واقفة حتى الصباح؟!.. اصعدى من أجل الطفلة.

وفى الدقائق الأولى كان الصمت ثقيلا. وكانت الطفلة بينها وبين السائق ورائحة البنزين وحرارة الجو وصوت المحرك وألم فى الفم وترقب الكلمة الأولى، كل هذه الأشياء كانت أشبه بإصبعين تضغطان على حلقتها.

ومرت دقيقتان، وتنهد السائق فى الوقت الذى كانت هى فيه تقدر سرعة السيارة بمرور أشباح الشجر إلى الورا، وكأنها تقدر خطورة القفز إذا اقتضى الأمر. ثم تنهد السائق مرة أخرى ثم قال للطفلة بعد أن مال نحوها قليلا: « ما اسمك يا عروسة؟ ».

وضحك بصوت عال، إذ لم ترد عليه، ثم حول الكلام نحو الأم:

- لماذا لا ترد؟ لعلها خائفة منى. سأبحث إذا عن عروسة أخرى!

ولم يجئه جواب من أحد، فقد كان يفتح باب الحديد بخبث ثم عاد يسأل الأم:

- على فكرة.. ما اسمها؟

فأجابت بصوت متهالك من الألم وصل إلى أذنه على صورة ظنها إغراء:

- اسمها فوزية.

فهتف بسرعة:

- فوزية؟! يا لها من عجيبة. تصورى أن حبيبتى الأولى كان اسمها فوزية! فوزية.. فوزية!

وسكت ولم تتكلم المرأة فعاد بعد وهلة يقول:

- آه.. فوزية.. فكرتنى بالذى مضى (ثم وجه الكلام إلى الأم) ولكن ما الذى أحرك فى البندر حتى نصف الليل ما دمت ذاهبة إلى هذه البلدة!؟

- كنت.. كنت.. فى زيارة أخى.

- هل هو فى البندر؟

- لا.. فى السجن.

- يا ساتر! ولماذا هو مسجون؟ فلم تجب. فمال على البنية وقبلها بصوت عال ثم طلب الجواب فقالت المرأة:

- اتهم فى جريمة قتل.

- قتل؟! يا ساتر!

. وسكت، وعاد أزيز المحرك إلى أذنها ولا مست قلبها فرحة الطمأنينة حين استطاعت - كما تعلمت من زوجها - أن تسارع بإلقاء الرعب إلى قلب من يريد تخويفها. ومضت فترة قال بعدها السائق:

- هل تعلمين أننى لا ألوم القاتل أحياناً لأنه قد يندفع إلى

الجريمة بلا وعى؟

- ولا أنا.

فضحك في شيء من السخرية. ثم سكت. ثم قال بعد فترة:

- ولأننى أنا شخصياً قد قتلت زوجتى وأنا شاب صغير!

فأمسكت المرأة أعصابها ونظرت إلى أشباح الشجر وهى تجرى إلى الخلف، ورأت أنواراً متتابعة لسيارات فى طريقها المضاد نحو البندر فحملت إليها شجاعة جديدة، وبما أنها كانت تلفق الأكاذيب فقد رجحت أنه هو الآخر يكذب فعادت تقول وكأنهما فى مزاد:

- لا بد أنك كنت تحب زوجتك فأنا أعرف امرأة قتلت زوجها

من حبها فيه.. من الغيرة عليه.. دنت له السم.

فهتف مسرعاً:

- امرأة وتقتل؟! إن جرائم النساء أفظع من جرائم الرجال.

يا ساتر! هل كانت جارتك مثلاً؟

- أقرب.

- صديقتك؟

- أقرب.

- قريبتك؟

- أقرب.

- أختك. أو أمك مثلاً؟!!

- أقرب.

- أقرب؟! .. ها. ها. ها. إذا فأنت التي قد قتلت زوجك؟ هل من الممكن أن يجتمع قاتلان على كرسي في سيارة نقل بمحض المصادفة أيتها الكاذبة؟!!

وانخرط في الضحك لأنه كان كاذباً في كل ما قاله، ثم استطرد:

- وما دمنا متشابهين فلماذا لا نتزوج؟! أليس هذا مناسباً؟!!

- ليس عندي مانع. تعال معي إلى بلدنا لتخطبني من أخى.

فأجاب بسرعة من رأى خطراً لم يكن على باله:

- ليس هذا مهماً الآن. المهم الآن أن تعرفي أننا سنقف بعد

دقيقتين عند (نقطة مرور) وعندما أسأل عنك، سأقول إنك زوجتي

وهذه الطفلة التي يعاكسها النوم ابنتي، لأن لوائح المرور تحرم

علينا أن نركب أحداً معنا. هل فهمت؟ ثم.. أليس هذا فألاً حسناً.

لا تنسى أنك زوجتي!

وظلل الصمت. وعاد أزيز المحرك ورائحة البنزين وألم الفم

تسيطر على مشاعر المرأة. على أنها كانت أكثر سعادة من أي

لحظة مضت فقد قرب الوقت، وسينزاح الكابوس.

ووقفت السيارة أمام النقطة. وخرج من المبنى أحد رجال الشرطة

وتقدم نحو المقعد الذي جلسوا عليه في اللحظة التي كانت البنية

فيها تقول بأعلى صوتها: «أشرب يا ماما. أشرب يا ماما».

- هل تريد أن تشربي يا فوزية؟! تعالي يا حبيبتى.

ونظرت الطفلة نحو رجل الشرطة الذي كلمها وغيرت نداءها

فوراً.

- «أشرب يا بابا.. أشرب يا بابا» !

وفي هذه اللحظة فتح باب السيارة ونزلت الأم في تهالك شديد واحتضن الأب الطفلة وقبلها ومال نحو السائق يقول له قبل أن يمشى.

- أشكرك. هذا فضل لن أنساه لك.

وتحركت السيارة وكلمات سائقها تتناثر على الطريق.

- هذا أقل واجب.. ربنا يديم المعروف.

ثم سابق الريح !

* * *

وعندما أخذ الزوج يستوضح الأمر قالت الزوجة في إعياء شديد:

- إنها حكاية طويلة.. ستعرفها في البيت.. صب على وجهي

حفنة من الماء.

أبو سيّد

الدنيا كلها سكون، والصوت الوحيد الذى يتسرب إلى الحجرة كان ينبعث من «وابور الجاز» وهو يون من بعيد فى ضعف مستمر واهن وكأنه نواح طفل عنيد مسلول، ولا يقطع الون الشاحب البعيد إلا زحف «الكوز» على أرض الحمام، ثم صوته وهو يتلع الماء ويصبه بعد ذلك فى ضوضاء مكتومة...

واستمر الوابور يزن، والكوز يحف ويتلغ وينصب ماؤه، وشفحة الماء تقرقع. استمرت الأصوات كلها تتضارب وتحلق كالوطاويط فى سماء الحجرة، حتى جاد الوابور بأخر أنفاسه وانطفأ، وأعاد المكان إلى سكون الدنيا الثقيل.

ومضى وقت طويل قبل أن يفتح باب الحمام، ويسمع رمضان نقيق «القبقاب» على البلاط وهو يقترب، ويعلو وهو يقترب، حتى دلفت امرأته إلى الحجرة، وأحس بنفسها الذى ليس غريباً عليه يملأ الجور.

وظل «القبقاب» رائحاً غادياً، وضوء الصباح ينتقل من مكان إلى مكان، وهممة حزينة خافتة تنحدر وتعلو من فم امرأته مع اقتراب الضوء وابتعاده.... ظل هذا يدور ورمضان مغلق عينيه، ومصر على إغلاقهما. ولم ينتفض ويفتحهما إلا فى قطرات من الماء البارد تلسع وجهه.

وجمّده قليلا مشهد امرأته وقد وقفت منكوشة الرأس، والمشط
الخشبي في يدها تدكه بين غزارة شعرها الأكرت، ثم تشده بكل
ما تستطيع ليحترث طريقة بين الجذور والسيقان، وقد زمت وجهها
السمين الخمرى اللامع، وارتسمت دقائق التجاعيد حول أنفها
السهل الفاطس، وبان النور من عينيها اللتين ضيقتهما في فروع
بال بينما رذاذ الماء تدفعه جذبة المشط فيتساقط هنا وهناك، وعلى
ثوبها الشيت النظيف ذى الورود الكبيرة الباهتة.

وانتهى جمود رمضان، ثم عاد إلى نومته وقال فى شىء من
التحدى وهو يغلق عينه:

- مش تحاسبى يا وليه... قزاة اللمنة حطق من الميه...

وردت المرأة بكلام مضغوم لم يفسره، ولم يهتم به، فقد عاد
يتنفس بعمق، ولكن رجله لم يفردھا، ويشخر بمطلق إرادته، ثم
قرر أن ينام.

وحين كان يجذب اللحاف فوق أكتافه، وارب عينيه، وألقى
نظرة أخيرة على زوجته التي كانت يدها تمتد إلى المصباح تمسيه،
وشعرها قد تم نظامه، وازدادت لمعته، ووجهها قد ابيض حتى
كادت تختفى تجاعيده فى تلك الابتسامة الكبيرة الرائعة التي احتلت
وسطه..

وارتعث رمضان، وأسرع يصفق عينيه فى عنف، فقد كان
يعرف من زمان سر هذه الابتسامة... فاليوم يوم الخميس... والليلة
ليلة الجمعة...

وأحس الرجل بالسرير ذى الأعمدة الرفيعة يهتز، ويزيق، ثم بامرأته تستوى على السرير، وتدخل تحت الغطاء، وعبقت فى الدنيا التى يصنع اللحاف سماءها رائحة المرأة مختلطة برائحة ثوبها الشيت، ورائحة الصابون الرخيص الذى دعكت به جسدها.

وكح رمضان وكان لابد أن يكح، وطال سعاله، وقالت امرأته ووجهها إلى الناحية الأخرى فى صوت حنون ذليل:

- مالك ياسى رمضان...

ثم سكتت قليلا قبل أن تقول فى همس خافت ملئء بالإثم:

- اوعى سيد يكون صاحى...

ولما لم يرد، تنهدت فى حرقة تصاعدت من كبدة قلبها، واهتزت أعمدة السرير وهى تستدير لتكمل آهتها، حتى أصبح وجهها يتدفأ بكثير من الحرارة والخشونة المنبعثة من رمضان.

وكان الرجل ساعتها يلهث، ولفح أنفاسه يحملها بعيداً... إلى حيث لا يراها أحد، ثم يلوكها فى نشوة ويدغدغ ضلوعها فى حنان ومدت يدها وملست أصابعها على جبهته اللزجة بالعرق ثم أرسلت تتحسس رقبتة الغليظة النافرة العروق، وقالت فى صوت خنفته وأطالت فيه حتى غدا كمواء قطة جائعة:

- اسم الله عليك يا خويا... اسم النبي حارسك يا ضنايا...

وكح رمضان، وكان لا يريد أن يكح، وزام من خلال فمه المطبق، ثم اهتز السرير وهو يستدير ليعطيها ظهره...

وما كانت هذه أول ليلة يستدير فيها، ولا كانت هذه أول مرة يكح فيها ويزوم ويعبس.. وهو لا يذكر كم شهراً مضى، وهل بدأت المسألة عقب أيام العيد الصغير أم قبله، وهناك ضباب كثيف بينه وبين البداية، فما فكر في الأمر أبداً ولا اعتبر ما حدث - يوم حدث - بداية لأية نهاية... تماماً كما لم يتبين جاره سي أحمد الكمسارى فى شركة الأوتوبيس أن السخونة التى أصابت ابنته ممكن أن تكون البداية لنهاية يعزيه فيها الناس على البنت.

والناس على هذه الحال، وكذلك رد ما أصابه فى تلك الليلة إلى نوبة البرد التى ألمت به، ومرت أيام، وراح البرد من جسده، وحين استيقظ ذات صباح ووجد العافية قد ردت إليه، قرر أن يفعلها فى نفس المساء.

وانشرح خاطره لقراره ومضى إلى الميدان يردد فى انتعاش مطلع الموال الوحيد الذى يعرفه. وتسلم صرة الميدان كما تركها، ووقفت العربات لإشارته كما اعتادت أن تقف، ويده قوية فى قفازها الأبيض القديم كما كانت طول عمرها، وبدلته بزرائرها الصفراء اللامعة محبوكة عليه، تبرز أكتافه وتضييق فوق كرشه فتكوره وتجعله كالبطيخة أمامه، وقبعته يلمع فوقها الدهان الذى لا يفلح فى إخفاء كل ما فيها من قذارة وبلى، وقلمه الثابت الثقيل فى يده يلتقط نمرة العربة فى سرعة الواثق من يومه وأمسه وغده ويدونها بخطه الواضح الذى كان يفخر بجماله... كانت الدنيا هى الدنيا... الدنيا التى هنا والتى هو ملكها، كانت لا تزال بخير، ولا يزال يتربع على عرشها، ويحكمها بصفارتها، ويعز من يشاء، ويدل من يشاء فقط متى لوح بقفازه.

وحين كان يكتب أول مخالفة كان عقله سارحاً في الليلة التي سينفض فيها عن نفسه خمول المرض الذي لازمه أسبوعاً، ولكن أمور اليوم شغلته، وعيونه الزائغة هنا وهناك تنقر المخالف من تحت القبة، هذه العيون ألته عن الخاطر. ولم يتبه له إلا هناك.. حين كان يجاهد في خلع حذائه الميرى الثقيل وقد ألقى بجسده المنهوك على «الكنبة» وامرأته تلقى إليه بتحيتها الوادعة، ثم تبرع على الأرض وتقول في حماس أطفأت العادة جدته:

— عنك أنت.

وطوقت يدها اللينة قليلاً سمانة رجله بينما مقدمة حذائه أصبحت مدفونة بين أقدامها. وحينئذ نقر الخاطر فوق رأسه... ولم يعتبر ما جاء في باله عملاً صيائناً، فراح يزغزغ المرأة بحذائه الثقيل العريض وهي تضحك، وتشدد من قبضتها على عضلات رجله، وترخي القبضة في بطنه، وهو قد استمرراً اللعبة، وانتشى وهو يعب من صوت امرأته التي كانت تمطه، وترفعه ثم تحيله همساً، ونصفها يضحك، ونصفها يتدلل، وكلها تريد وترغب.

* * *

في ضباب البداية يذكر رمضان هذه الليلة ولا ينساها، فقد حاول في كل دقيقة منها وسالت عليه بحور العرق، وقد أصم شعوره عن العالم، وأصبح هو وامرأته والفراش كل دنياه وتفكيره. فآزاحت المرأة مرات ومرات، ولعن أباه آلاف المرات، والمعركة تدور وتدور لا تهبط إلا حين يتململ الصبي حتى يكاد يستيقظ، وتبدأ حين يعود إلى غطيظه ويعود للعب يسيل من جانب فمه...

وهجعت المحاولات قرب الفجر، ونامت المرأة، ولم ينم رمضان.
وليلتها مضت، وليلة أخرى جاءت، وصراع جديد نشب، وثقة
رمضان في نفسه ورجولته تستमित وهي تدافع عن نفسها، والواقع
وما يحدث يسلب هذه الثقة كل ما تملك.

وأخيراً سلم رمضان بعد ليال، وقال لنفسه في صباح يوم بصوت
لا يدرى أكان مسموعاً أم غير مسموع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله... واللاضعت يا رمضان واللى كان
كان.

ولم تكن أول مرة يتحاشى فيها امرأته وهي تقدم له الفطار،
وإنما كان يود أن يزيحها في هذا اليوم من أمامه، ثم يسرح ويخبط
رأسه في الحائط عله ينفلق، كان شيء غريب يدور فيه، فبالقوة
والعافية والعرق والليالي الطويلة كان عليه أن يصدق أنه لم يعد
رجلا وكان هو يابئ أن يصدق، ويكابر هذه الحقيقة وهو مكسوف
نخجل كما لو كانوا يزفونه في البلد فوق الحمارة وهو عارى
الجسد وعلى رأسه كومة طين.

ويعود من جديد يقول وكأنه يتلو آية الكرسي ليطرد جنية من
الجان:

- واللاضعت يا رمضان، واللى كان كان.

ويصمت ثم يقطع لقمة كبيرة من الرغيف ولا يأكلها، ويقوم،
وينظر من النافذة ثم يكح ويصق بصقة كبيرة على العشش التي
فوق السطوح أمامه ويعود إلى جلسته أمام الطبلية. ويسرح في

صمت طويل آخر وهو يحدق فى الطعام ويمضغ صمته حتى يشبع
فيرتدى البدلة وكأنه يخلع كل ملابسه ثم يتسلل من البيت كحرامى
النحاس وجسده هارب منه وأطرافه لا يعثر عليها....

وحين يقف وسط الميدان، والعربات تزدهم حوله، والأرض
والسمااء تتحرك، وهو وحده الواقف الهامد الضائع.. حينئذ يشعر
بتفاهة هذه المملكة التى له، ويضايقه القفاز الأبيض، ويحس بالقبعة
وكأنها حجر الطاحونة يكتم أنفاسه.. ويومها لا يقيد محضراً
واحداً، وما له هو والمحاضر والمخالفات، فليدع من يخطيء
يخطيء، ومن يتحطم يتحطم، ومن يقتل يقتل.. وهل هو الذى
ينظم الكون... لعن الله العربات وأصحاب العربات والمرور وكل
ما يمت إلى خلية النحل التى يلسعه دويها وصرخاتها.

ولأول مرة فى حياته كره بيته، ووجه امرأته النحاس، ولم يعد
توا إليهما..

وفى خطوات لا يهمه وقعها، ولا أين تقع، راح يدق الشارع
بحذائه الثقيل، وقد كفاً القبعة فوق جبهته، وامتلات أخايد وجهه
بالاشمئزاز واليأس، وفك حزامه العريض، وتمنى أن ترجمه عربة
نقل وتأكله، ووصل أخيراً إلى باب الإنسان الذى لا يصادق فى
المدينة إنساناً سواه. وطرق الباب - ونادراً ما كان يطرقه - ولم
يفاجأ طنطاوى وإنما رحب به وسأله عن الصحة وكالمعتاد عن
البلد والقرايب والنسايب والذى مات والذى عاش ومن تزوج.
ولكنه فوجيء فعلا حين قطع رمضان أسئلته وقال فى جد:

- اسمع يا واد يا طنطاوى.. عايزين تعميره..

ولم يكن رمضان يشرب الحشيش كثيراً ولكنه شرب هذه المرة حتى أن طنطاوى لم يَأْتَمَن الطريق عليه فأصر على مرافقته، ولم يرفض رمضان، ولم يقبل، ولم يرد على أسئلة صاحبه عن السر الذى يكمن وراء سكوته.

وفى الطريق سرح رمضان بعيداً، وأوغل فى الزمان والمكان، حتى وصل سكينه جارتهم فى بيتهم على الترععة، ثم السنوات القليلة التى أعقبت بلوغه... وكان رمضان يتوقف عن السير، ولا يدرى لماذا، ثم تجذبه ذراع طنطاوى فيمشى ويسرح ثم يتوقف، حتى خطر له خاطر قاله فى انبهار:

- يكونشى يا ولاد الحشيش ينفع؟!

وانفجر ضاحكاً وقد كف عن المشى وغمغم طنطاوى وهو يهز رأسه فى رثاء:

- الجدع انسطل والنبي.

وهم رمضان أن ينطق، وكادت الكلمة تغادر فمه، ولكنه لحق نفسه، وابتلع الكلمة، وابتلع معها ريقه الجاف. وحين جره طنطاوى من يده عاد حذاؤه يقرع الطريق مرة أخرى..

ولم ينفع الحشيش.... أبداً.

وعاش رمضان يعد ليلاتها صامتاً.. ولا يتحدث إلا حين يمد إنسان يده فيستخرج من جوفه كلاماً كالعصارة الفاسدة لا نكهة لها ولا معنى، وإنما هو مزيج من الضجر والتبرّم يعكسه سخط

غامق بليد، وامراته تتكلم، وتكثر من الكلام، وهو لا يتحرك وعمله في الميدان أصبح علقماً يشربه في بطن الساعات التي يقضيها نصف واقف وتحيته التي طالما انتفض بها لرؤسائه في مرورهم تضاءلت ووهنت وأصبح يتزعجها من جسده كما يتزعج الناب الفاسد، وأصبح يتخبط في جبل طويل من الأكاذيب التي يقصها على الطبيب فيمنحه اليوم أو اليومين إجازة يقضيها حيث لا يقضيها. وعمره ما عاد لبيته إلا ويده مشغولة بشيء. ولو بربطة فجل فصار يعود ويده خاوية تتأرجح بجانبه وكأنها ليست من جسده. وفي ذات عودة، سلم على حماته وكانت قد حضرت لتوها، وتندى جبين امرأته لبروده وعدم مبالاته، وأكلت النيران قلبها وحديثه لأمها لا يخرج عن: ازيك.. سلامات، ثم صمت طويل من صمته البارد. تعقبه سلامات أخرى حتى ضاقت الضيفة فلم تكذ تلهف صلاة العشاء حتى تمددت على السرير وهي تنز بأهاتها وتشكو من مفاصلها.

ولم تمض ساعة حتى كان ممدداً بجانب ابنه وامراته على الحصيرة تحت أقدام الفراش. وأيقظته حماته حين عثرت به لما قامت تتوضأ قبل الفجر، وحين كانت تخطيء كعادتها وهي تقرأ الفاتحة بصوتها الخشن، كان يسأل نفسه بعدم اكتراث، ترى ما الذي جاء بها؟... وكان الجواب ينتظره في المساء حين تنحنحت الحاجة بعد العشاء وقد تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط وانتهت من إحاطة نفسها ورقبتها وصدرها بالمحرمة الكبيرة البيضاء، وبدأت تقول بصوتها المبحوح:

- بقى يا بنى ما خبيش عليك....

والحق أنها أخفت عنه الخطاب الذى أرسلته لها ابنتها من ورائه، وإنما راحت تسوق له القصة فى حنكة العجائز، وكان صمته هو الذى شجعها على أخذها دور أمه وأخته ثم ناصحته حين قالت:

- وكل عقدة وليها يابنى حلال.... ألف حلال....

عقدة ماذا؟ وحلال إيه؟! وماذا جاء بك؟! وما لك أنت وما أضناك يا بنت المركوب؟! وبدأت اللعنات التى تنهال من داخله إلى داخله تصنع بصايص النار التى ألهمت ثورته. فحتى هذه اللحظة لم يكن قد أدخل امرأته فى المسألة، ولم يعترض وجودها وشعورها ورأيها طريقه وهو يترنح فى الخرابة وحده، إنه ليس وحده.... ومن يدري كم معه الآن؟

وشبت الثورة فى حريق هائل قلب الطبلية وأطفأ المصباح وسمع الجيران طقطقة حطبها حين علا صوته فى زئير مرتفع:

- على الطلاق ما انتى نايمة فى بيتى.

وباتت الحاجة وابنتها عند الجيران وقبل الشروق كان القطار يحمل الأم وحدها إلى البلد ولو كان للبننت مكان فى دار أخيها لحملها هى الأخرى...

كان رمضان فى نفس الوقت يتسرب من الحارة وهى يتلفت حوله حتى لا يراه أحد. وقابله أبو سلطان وصبح عليه، غمغم بتحية قصيرة، ورأسه منكس، فأقدمه تسعى فى عجلة حتى يتوارى عن الأنظار. وكذلك فعل مع عبد الرازق بائع الجرائد والحجاج محمد

الفرق، وكل الوجوه التي يعرفها والتي لا يعرفها، وكانت أقل حركة فيها سره، والكلمة الواحدة فيها إشارة واضحة، والضحكة فيها سخرية منسوبة عليه... كل الناس يعرفون حتى الواقف بجانبه، المتعلق معه في عامود الترام، حين زغده بعينه والترام يميل، كان يعرف هو الآخر.

ومضى إلى صرة الميدان كالريخ وهو يتمنى أن يشف حتى لا يراه أحد.

وبدأ العمل...

ومن لحظتها بدأ يحس أنه واقف في الوسط كالواجهة الزجاجية يتطفل عليه كل غاد ورائح. ويحاول كل محقق وناظر أن ينكش سره الباطن، وخيل إليه وهو يحاول ضم ضفتي نفسه ليحكم إغلاقها أن الناس يضعون عيونهم وأنوفهم بين ضفتيها حتى تبقى مكشوفة مفتوحة. ودعاه فشله إلى صب جام غضبه على الناس. وقضى اليوم بطوله يدون المخالفات ويهدر بأوقح الألفاظ ويزور مركز البوليس جانبا ومجنياً عليه وكان يومه حافلاً....

وتلقف الميدان من ساعتها رجلاً كثيراً غريباً لا يفك وجهه الأسمر الجاف إلا ليعقده، ولا ينكسر صمته بكلمة تائهة عابرة إلا ليعود إليه الصمت بلون سمرته، ويرتعش له شاربه الذي نماه وشوشه حتى غدا كحزمة متنافرة من عشب شيطاني.

وميدانه تحول ميدان رعب. وهو أصبح «بعبع» السائقين... تخفق قلوبهم وهم يمرون أمامه - وما أقل ما يمرون - ويتندرون بينهم وبين أنفسهم على الجاويش الأسمر أبي شوارب، وخشونته وسلطة

لسانه، وحقده المرير على كل امرأة سولت لها نفسها أن تقود
عربة أو حتى تعبر الميدان.

واعتاد التأخر في العودة بعد أن أدمن على باب طنطاوى، وعاد مرة
في شيخوخة الليل وارتدى جلبابه الأبيض وأحكم طاقيته الصوف فوق
رأسه وفرش جسده المنهك المخدر فوق السرير، وأصوات اليوم تطن
في أذنه، وحديث طنطاوى ينبثق في مخيلته ثم يختفى...

وتبين بعد أن خف الطنين وغاب طنطاوى أن امرأته لا زالت
مستيقظة.... ليس هذا فقط بل إنها تنهنه بنحيب مبتل، وكان
رمضان ليلتها قد بلغ به الأمر منتهاه. ووصل إلى حافة مقاومته،
فظل بكاء المرأة يتساقط على الحاجز الجامد الذى وضعه بينهما
فيلعقه. الحاجز يرق، حتى لم يعد يفصله عنها إلا اللحاف. وظل
ينصت لبكائها، وهو لا يملك إلا الصمت حتى انهار، وقال وكل
جزء من جسده ينشج بغير دموع :

- بس قوليلى يا نعيمة... أعمل إيه...

ولم ترد وإنما كانت تحملها شهقة وتضعها شهقة وقد انخرطت
في بكاء عال.

وهزها رمضان في حنان ذليل وعاد يسألها، وما كان ينتظر منها
شيئاً وإنما ألحف في سؤالها ليغلب عجزه ويشرك إنساناً على الأقل
في حل لغزه.

وبداً البحث عما يفعله الناس، وبدأ السؤال. وفتح رمضان
الكتاب، والتمس حل عقاله عند أصحاب الحل والربط، أسياد البلد

كلهم، وأطعمته نعيمة الحمام والمنجة من توفيرها. ومص زعازيع القصب، وترنح على دقة الطار في الزار، واستيقظ مع الفجر مرات ليرمي العمل في البحر، وسوت له امرأته القطير مختلطاً بدمائها، وتجرع من العطار كل ما عند العطار...

وفي كل مرة كان يعود وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا...

ثم عرف رمضان الطريق إلى المستشفى السرى، وتعرف في طابور المرضى على رفاقه، وأنسته الصحبة بقدر ما امتلأ الكيس الذى خيطته له نعيمة بزجاجات الدواء، وفرغ الكيس وامتلاً، وانغرزت الإبر فى عروقه وفى عضلاته ودخل المستشفى وخرج... وجاءت حماته ومعها بعض النقود، وراحت النقود كما راحت غيرها، ولم يفرغ من مشورات الحماية ونصائحها ولا آراء الأهل وأطراف الأهل...

واستمر رمضان يفتش عن رجولته فى كثير من اليأس، سائلاً كل من يلقاه، جارياً وراء كل مثير، متبعاً كل أصبع، وحديثه أثناء ذلك لا يدور إلا عن البحث الذى وهب له نفسه... والحديث يدور فى صلاة الجمعة، وعلى القهوة وفى سوق السمك، وعلى محطة الترام، ومع تومرجى المستشفى، وحتى مع حضرة الضابط، كل هذا... والحال مثل الحال...

* * *

كان الحديث يدور بين رمضان ونعيمة فوق السطح والشمس تدفئها فى ذلك اليوم من الشتاء، وكأحاديث الضحى الدافئ كان الكلام يشرق ويفرب فى كسل هادئ، والوقت يمضى، ورمضان

فى يوم راحته لا يسأل ولا يُسأل، ونعيمة قد اشترت «سردين»
الغداء من الصباح وتمددت فى استسلام فاتر. ودار الحديث ودار.
كانت لهجة رمضان أرق ما يكون، فلعله فكر كثيراً فى امرأته،
وأنب نفسه كثيراً حين فكر، فاختار هذا اليوم بالذات، وهذه الساعة
نفسها ليقول كل ما يثقل ضميره...

واقترب مما يريد، وطأطا كلامه وكأن حديث الضحى لا زال
يدور وهو يقول:

- اسمعى يا نعيمة...

- خير....

وتردد رمضان ثم أسلمه تردده إلى سكون راح يخلص نفسه
من حرجه ويتملص منه ليقول:

- مش... مش أحسن أخلص ذمتى من الله و...

وحين نظرت إليه فى كسل وبشائر ضحكة تكاد تهب منه
لحديثه المتعثر... استمر هو يتهته:

- أحسن.. أحسن.. أطلقك يا نعيمة..

واعتدلت المرأة حتى واجهته ودبت على صدرها وقد اربدت
ملامحها، وبان فيها عتب كثير:

- يا عيب الشوم يا رمضان.. إيه الكلام ده.. دانت أبويا وخويا
وتاج راسى.. دانت فى عينى من جوه.. هو أنا أسوى الأرض اللى
بتمشى عليها.. دانا خدامتك يا حبيبى.. بقى ده كلام.. مقصوبى
شاب.. وشعرك ابيض ونعمل زى العيال.. دا.. دا.. يصح. يا بوسيد..

ولم يسكتها إلا موجة البكاء التي أوقفت لسانها، وسحبت المنديل من فوق رأسها وضمدت به دموعها حين قامت هالعة تهبط السلم وهي تتعثر على درجاته.

وتركت وراءها رمضان يتحسس تجاعيد وجهه، ويمس على رأسه التي كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور، ويشد شعر رجليه الكث الذي ابيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد. وتأمل الصبي وكأنه يراه لأول مرة منذ سنوات!

كان الصبي يرقد أمامه وقد غطى رأسه بكراسة الحساب. وظل الرجل يلثم الولد بعينيه ويتوه، ثم يعود إليه غير مصدق... لا حول ولا قوة.. أيكون قد نسي سيد في زحمة البحث عن رجولته؟. أيكون قد نسي حتى أن له ابناً؟. أبو سيد ينسى سيد ولا يذكر من الدنيا إلا نفسه!

كيف حدث هذا؟! كيف!؟

- سيد.. يا سيد.. اقعد هنا جنبي.. أيوه كده.. يا بني يا حبيبي.. باسم الله ما شاء الله.. وكبرت يا سيد.. بقيت طولى.. خلىنى أبوسك يا سيد.. هه. وكم ان مرة.. يا نبي.. أنت كنت فين.. وأنا فين وكبرت يا سيد.. وحتبقى راجل.. وأجوزك يا سيد.. سيد.. حجوزك واحدة حلوة.. لا.. أربعة حلوين عشان خاطرك.. وتبقى راجلهم فاهم.. فاهم يعنى إيه راجلهم يا سيد... معلش.. بكرة حتفهم. وتخلف.. سامع يا سيد حتخلف.. واشيل خلفتك بايدي يا سيد.. بايدي دى.. فاهم يا سيد.

ذراعان

تباعا كانت الأضواء الهادئة تختفي في حديقة سينما الكرنك، وهبت نسيمات رقيقة اهتزت لها الأشجار التي تصنع سوراً أخضر حول الصالة يخفي وراءه السور الحجري الحقيقي، واهتزت خلالها تلك المصاييح الملونة التي كانت ترسل ضوءاً لا يتجاوز الممشى المجاور لها، قبل أن يسود الظلام صالة العرض.

خف قليلاً إحساس بحرارة الجو، الجريدة المصورة تطوف حولنا خلجان العالم وتصف كيف يصيدون الأسماك بينما تحجب قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صورة السفينة الضخمة التي يركبها الصيادون، المقاعد حولي لا تزال خالية ولن يمر وقت طويل حتى تمتلئ، وأحرم من تلك الجلسة التي أمد فيها قدمي وذراعي بحثاً عن نسمة عابرة، قائد السفينة يشبه كثيراً أستاذ التاريخ الذي دفعتني محاضراته إلى هذا المكان، بعد أن ظلت أستاذتها طوال النهار، أستاذ التاريخ يخفي، والرحلة حول العالم تمتد، والمقاعد تمتلئ، وبجوارى تجلس فتاة كانت تتقدم الأسرة الصغيرة التي أحلت المقاعد الأربعة عن يميني، كان من الضروري أن أعتدل في جلستي، خاصة وأني أرتدى قميصاً بنصف كم، وجارتي تلبس فستاناً بلا أكمام، والمقاعد من النوع الذي يفصل بين كل مقعدين فيه مسند واحد، لا يتسع إلا لذراع واحدة أو ذراعين صديقين!!

كانت مجرد فتاة مجهولة، وكان وجودها بجوارى.. مجرد وجودها يعتبر مصادفة طيبة، لا ينبغي أن أغامر بفقدتها، ولهذا تعمدت ألا أتصرف بطريقة تجعل جارتى تفكر فى تغيير مقعدها، وأسعدنى أن اللحظات قد مضت دون أن تصدر الجهات المسؤولة والموجودة بجوار الفتاة أى تعديل فى الأوضاع!

ومع أننى لم أحاول أن ألتفت ناحية الفتاة خلال هذه اللحظات فقد كنت أحس بها تتسلل إلى وجودى المتحفظ الرزين، كأن النسيم يخمل إلى عطرها الهادئ، وصوتها الذى يشى بعمرها فى هذا الظلام بأكبر مما تستطيع ملامحها، كان واضحاً أنها تحب مغامرات «توم وجيرى» التى بدأ عرضها، كانت تضحك من قلبها وتضرب الأرض بقدميها، فأبصر برغم تحفظى شعرها وساقيها، وأحس بهذا التحفظ وهو يهتز مع كل حركة مرحة تصدر عنها، من المؤكد أنها فتاة بسيطة وطبيعية، وأننى لم أكن أخشى سوى مخاوفى، ومن الطبيعى أن أتصرف ببساطة.. على الأقل مثلها وبدأت أمارس واحداً من حقوقى.. أبسط هذه الحقوق.. أشرت إلى (الجرسون) الذى كان يمر قريباً منى وطلبت زجاجة «كوكاكولا» كانت فرصة مشروعة ليتحرك ذراعى من المكان الذى حددت فيه إقامته ليأخذ الزجاجة ويرتفع بها إلى فمى فى مرات عديدة بطيئة وفى إحدى المرات اصطدمت ذراعى بذراعها، فاكتشفت لحظتها فقط أن جارتى قد اعتبرت المسند الوحيد المشترك حقاً خالصاً لها فأسندت ذراعها إليه، كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟، لم أكن قد مارست حق الالتفات إليها بشكل كامل، وحين وقع ذلك

الصدام الذى لم يستغرق سوى لحظة عابرة تركزت حواسي كلها حول مكان الحادث فى انتظار قلق لرد الفعل، ومع اللحظات الحاسمة التى تلت ذلك الصدام، تحول الانتظار القلق إلى شعور عميق بالراحة حين لم تستجب جارتى بما يعبر عن ضيقها بما حدث، كانت الذراع الرقيقة الناعمة لا تزال تحتل مكانها على المسند المشترك، لا شك أنها فهمته كحادث عرضي لا يعنى شيئاً، لم أعد أشك فى أنها فتاة عاقلة، وأن ذراعها - وبالتحديد الجزء الذى لمستته منه - أرق وأنعم شيء لمستته فى حياتي، وبدأت أحس بذلك الجزء الآخر من ذراعى الذى تلقى هذا الإحساس، كشيء مغاير لى تماماً. شيء ينتمى إلى ذلك الكيان الرقيق الناعم الذى يجلس بجوارى ويشيع من حوله جواً من البهجة والسعادة لا يستطيع كائن بشرى أن يقاومه، ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى الالتفات إليها التفاعلاً كاملاً هذه المرة، يستطلع هذا العالم الذى غمرنى سحره، لا شك أن هذا واحد من حقوقى أيضاً.

وفوجئت بها مشدودة إلى الشاشة، لا تكاد تحس بى، مما ضايقتنى لأول وهلة، ولكنه أتاح لى أن أكتشف شيئاً هاماً جداً، كانت ذراعها لا تحتل من المسند المشترك سوى نصفه الخلفى، فقد كانت تستند إليه بكوعها فقط، بينما بقى النصف الأمامى خالياً، ومن الممكن لو تقدمت، قليلاً فى مقعدى أن أستند إليه دون أن يلتصق ذراعانا وحتى لو حدث ذلك فسيكون محض صدفة.. ربما لم تعرفها أدنى اهتمام كسابققتها، لماذا تبدو اللعينة كأنها لا تحس بى؟ بينما يعذبني الخوف من إزعاجها، سأمارس كل حقوقى حتى

لو أغضبتها، فهذا أفضل ألف مرة من أن تبقى هكذا غير شاعرة بي!

واستندت بمرفقي على الجزء الأمامي من المسند مطمئناً إلى أن ثمة حاجزاً من الفراغ يفصل بين ذراعينا..!

«توم وجيرى» يواصلان مغامراتهما على الشاشة فيثيران في الصلاة عاصفة من المرح، تنساب مع نسمات الصيف التي تخرج بين العطور والضحكات والأصوات التي تفقد ملامحها في هذا الظلام الرقيق!!

وفي لحظة أحسست أن حاجز الفراغ الذي كنت أستند إليه قد تلاشى تماماً، وربما كانت عاصفة الضحك هي المسئولة عن ذلك، كانت الذراع الناعمة قد مست ذراعي في رفق، وأشاعت في كياني كله يقظة مفاجئة، ولم يلبث حاجز الفراغ أن عاد يفصل بين ذراعينا، ولكنه هذه المرة كان رقيقاً جداً يتلاشى مع كل عاصفة مرحة يهتز لها جسد جارتى الذي أحسست به قريباً مني! حتى هذه اللحظة لم أحاول أن أختلس من جارتى أية نظرة، كنت أجلس في مقدمة مقعدي، وكانت تجلس في مؤخرة مقعدها، وكانت أية نظرة تحتاج إلى أن أدير رأسي إلى الوراء بشكل يلفت نظر الجهات المسئولة، والواقع أنني شعرت أن علاقتنا قد انحصرت في هذا الحاجز من الفراغ الذي أصبح يربط بين ذراعينا أكثر مما يفصل بينهما!

كيف فكرت أن جارتى يمكن أن تضيق بشيء كهذا؟ صحيح أنها حريصة على ألا تستمر لحظة اللقاء تلك، وألا تخرج عن

كونها شيئاً يقع دون قصد، وأنها دائماً تسحب ذراعها إلى الورا
 قليلاً في كل مرة تحدث ولكن من المؤكد أنها ليست حريصة
 على ألا تحدث.. فبمقدورها أن تسحب ذراعها من على المسند
 لو أن ذلك كان يضايقها !!

مغامرات «توم وجيرى» توشك أن تنتهى، وعواصف المرح تهدأ
 ولحظات اللقاء بين الذراعين تتباعد، وحاجز الفراغ يستعيد صلابته
 ولكن.. اللحظة الأخيرة من هذا اللقاء تبطئ، وتفقد معناها كلحظة..
 وتيار عميق وهادئ من النشوة يتسلل إلى كياني كله عبر ذلك
 الجزء من ذراعى التي تلتصق بعضها، وأصبحنا فى تلك اللحظة
 الممتدة صديقين !!

لست أشك فى أنها كانت تحس بى فى تلك اللحظة أكثر
 مما كانت تحس بأمها التي لا تكف عن الثرثرة معها !

لا، لم أكن فى حاجة إلى أن أنظر إليها، ولا حتى أبادلها
 الحديث، فهناك تفاهم عميق يوشك أن يتم بين ذراعينا، وحتى
 حين بدأت تسحب ذراعها من على المسند المشترك، مع أول
 ضوء لمع فى الصالة، كان هذا السلوك جزءاً رائعاً من الحوار
 الصامت الذى بدأ، بل كان أكثر الأجزاء روعة، وكان ردى عليها
 أننى سحبت ذراعى أنا الآخر حتى لا ترى الأم بين مقعدينا سوى
 الفراغ، ولم يكن لهذا كله من معنى سوى أننا قد اهتدينا إلى
 الكلمات الأولى فى لغة بسيطة وعميقة لن يفهمها أحد سوانا فى
 هذا المكان !

مع أنني كنت أنتظر بصبر نافذ لحظة الضوء هذه لأرى كيف تبدو جارتى، فإننى لم أتعجل النظر إليها، كنت مستريحاً لهذا التفاهم الذى تم بين ذراعينا دون كلمة أو حتى نظرة، وكنت أحس أن الضوء قد يزيدنا تفاهماً، وأيضاً يلغى ما وصلنا إليه، كما كنت أخشى أية نزوة قد تؤدي إلى تغيير الأماكن فى فترة الاستراحة. ولكن جارتى أعفتنى من محاولة التعقل هذه، حين وقفت، ودارت برأسها فى جميع الجهات تبحث عن بائع الثلجات ثم تشير إليه، وتنحنى على أمها، وتضحك، وتعابث أخاها الصغير وهى تناوله زجاجة الليمون، وخلال ذلك كله لم أكن أشك فى أنها تفحصنى، وبطريقة عجزت أنا نفسى عن ضبطها مرة واحدة !

وفى الحقيقة أنها بدت فى الضوء رائعة جداً، حتى لقد حسدت نفسى لأننى كنت منذ لحظات صديقاً لهذه الفتاة الرائعة، وأن ذراعها كانت تلتصق بذراعى، لا أظنها أتمت العشرين ربيعاً، عيناها سوداوان تظللها أهداب ثقيلة دون أية زينة، شعرها قصير ناعم تحركه أقل اهتزازة من رأسها الذى لا يكف عن الحركة، فتبدو فى كل لحظة فى صورة جديدة وجميلة معاً، فستانها غامق الزرقة يفضح بشكل حاد بشرتها الناصعة، ويتم من خلال فتحاته عن جسد بديع، يعبر فى كل حركة عن ضيقه بما يحيط به من قيود حريرية ناعمة !

لم أشعر بالراحة إلا بعد أن عادت إلى الجلوس فى نفس المكان وبدأ العرض !

كنت أعتبر مجرد بقائها فى نفس المكان نوعاً من النجاح، ورحت أتابع العرض فى هدوء لم يقلقه اكتشافى ان المسند المشترك

بيننا لا يزال خالياً، كنت أعتقد أن هذا نوع من المناورة ليس غير،
وأنه لا يجب بحال أن يسبق ذراعى ذراعها إلى المسند!

- تبدين خائفة كأن الرجال نوع غريب من المخلوقات!

- هذه أول مرة أجد نفسي مع شخص مثلك، كنت مع أبوى
فى منطقة صحراوية لاستخراج البترول، وهذه أول مرة أركب فيها
سفينة وأتحدث إلى شاب غريب.

- إذن فأنا أول شاب يسعده الحظ بروية هذا الجمال ؟

- لست أدرى كيف ينبغي أن أتصرف، ولا ماذا أقول ؟

- أجمل شيء ألا يعرف الإنسان ماذا ينبغي أن يفعل ؟ بل أن
يفعل فقط ما يجب !

- أحب أن أراك.. وأن.

- هنا كل ليلة سأنتظرك على ظهر السفينة !

- دون أن أخبر أبوى ؟

- لا.. سأتى معك الآن لنخبرهما معاً !

المسند بيننا لا يزال خالياً.. ربما شغفها الحوار بين البطل والبطلة
فنسيت وجودى، وربما لم تكن هناك مناورة، لم يكن الحوار بين
ذراعينا سوى حديث نفس واهمة.. بينما جارتى لا تحس بى !

«جون ومارى» يلتقيان كل ليلة على ظهر السفينة ويكتشفان
روعة البحر والليل والحب والحياة، بينما يتحول المسند بيننا إلى
مجرد حاجز خشبى وموجة سخط هائلة تحمل ذراعى إلى المسند
الخالى، وإذا كانت جارتى لا تحس بى فلماذا لا أستعمل حقى

فى هذا المسند؟ ولتضايق، ولتغير مكانها فهذا أفضل من هذه اللامبالاة التى لم أعد أحتملها..!

- ومتى ستتزوج يا جون؟

- حين أعود من تلك الرحلة التى أتسلق فيها قمة «الأنديز».

- لبتك لا تذهب يا حبيبى!

- سأعود بطل العالم فى تسلق الجبال!

- أحبك هكذا، أما أنت فتحب أن تكون بطلا!

- لا أرضى أن تكونى زوجة لأقل من بطل!

* * *

آه يا عزيزتى.. لا أدرى كيف أعتذر لك عن ظنوني القاسية. صحيح أنك لا تعرفينها، ولكن كيف أغفر لنفسى أننى ظننتك لا تحسين بى؟ كانت لحظة رائعة تلك التى أحس فيها ذراعى بذراعها يعود إلى المسند المشترك... يعود هذه المرة فى ثقة.. عارفاً مكانه.. كطائر لا يضلله الظلام عن عشه.. مستريحاً خلف الذراع الذى ظل ينتظر..! كانت لحظة لقاء حقيقى بين صديقين لا أحد يعرف تاريخ صداقتهما وكأنه لم يعد ثمة مجال للتردد أو حتى انتظار الأسباب..!

والغريب أن لحظة اللقاء بين ذراعينا تأتى مع اللحظة التى يفترق

فيها «جون ومارى» فى الميناء!

وفى إحدى مزارع كاليفورنيا حيث استقرت أسرة «مارى» نحس

بوجود «جون» فى كل مكان، فعلى المائدة لا تتحدث «مارى» مع

أبويها إلا عنه، وفي الصحف لا تقرأ إلا أنباء المسابقة المنتظرة في تسلق الجبال، والأزهار التي يعشقها تربي في أحواض خاصة - تعهدتها هي - ليجدها حين يعود قد نمت، والمهاري الصغيرة التي يهوى ركوبها تدرب في انتظاره، وحتى «كلارك» الذي يشرف على تربية الخيول في المزرعة، والذي يكتب حبه «لماري» كما يكتب حلمه بأن يصبح كاتباً مشهوراً، يجد نفسه في النهاية ولا عمل له سوى الاستماع إلى أحاديث ماري عنه، أما الرسائل التي تصل منه، فقد سمعتها الطيور والأشجار والخيول في المزرعة كما سمعتها مع جارتى، وأحسست أن دائرة سحرية تنبعث من كلماتها الحارة لتخترق جسدنا معاً، وتتصل الدائرة عبر ذراعين تشدهما خيوط غير منظورة، وأحس في لحظة أن ما بينى وبين جارتى ليس مجرد مصادفة أو وهم، ما الذي ينبغي أن يحدث لكى يحدث الحب، لا شيء أكثر من أن يلتقى شاب وفتاة، ثم تخلق المبررات خلقاً، ولا أعتقد أننا في حاجة إلى كلمات، كل شيء يقع من تلقاء نفسه، وأروع ما وصلنا إليه أننا اكتشفنا معاً لغتنا تلك التي لا يحسها أحد سوانا !

ربما كان هذا هو ما تفكرين فيه..! ها نحن معاً، وبين ذراعينا مكان لا يستطيع الهواء أن ينفذ منه.. وأروع الألحان يعزفها لنا أمهر العازفين، وكاتب لا نعرفه... يعرف ما في قلوبنا، ويكشفه لى ولك ولأبويك وللناس الذين نخافهم، ومزارع كاليفورنيا الشاسعة الجميلة تستدرج أحلامنا خارج حدود المكان، والخطوة القادمة يجب أن أبدأها أنا... منذ البداية كنت رائعة وبسيطة، ولا أظنك سعيدة بي وأنا أكلم نفسي طوال الوقت، يجب أن يحدث شيء

يتمى إلى هذا العالم الرائع الذى أصبحنا جزءاً منه، فالحقيقة الباردة أننا لا نزال نحتفى بالظلام، وبالمسند المشترك وبالمصادفة! وامتدت يدي هذه المرة لتلمس يدها فى رفق وحنان، لم أتصور لحظة أن يدها ستختلج فى يدي للحظات خاطفة وكأنها ترددت خلالها قبل أن تسحب يدها من على المسند كله...؟!!

لقد مرت لحظات كنت خلالها عاجزاً عن تقدير الموقف!

أى جنون قادنى إلى هذا السلوك؟ كان كل شيء رائعاً..! دون حاجة إلى هذه الحماسة التى دمرت كل شيء، كنت أحس تردد أنفاسها! وشعرها يكاد يلمس وجهي، وذراعها ملتصقة بذراعي..! ولكن كان كل شيء يبدو وكأننا غير مسئولين عنه!! أما الآن؟

مستحيل أن يكون وهماً كل ما يحدث! لقد أحسست أنها ترددت، أجل ترددت قبل أن تسحب يدها من يدي، لست واهماً هذه المرة كأنها لم تفاجأ بيدي! كأنها كانت تنتظرها. وربما خشيت أن ترى أمها يدينا مشتبكتين! يكفى أنها سحبت يدها فى هدوء دون أن يشعر أحد، ويكفى أنها لا تزال بجوارى، كانت دائماً فتاة عاقلة ولكن سهول كاليفورنيا أفقدتني صوابي، وحتى فى هذه السهول تقع أحداث جديدة...!

- مستحيل يا ابنتي أن تبقى هكذا لا تأكلين ولا تنامين لأن جون لم يعد يكتب لك... ربما لم يكن جاداً فى علاقته بك!

من السهل أن تنسيه لو أردت ذلك!

- نعم يا ماما... ولكنى لا أريد ذلك!

- أنت صغيرة يا عزيزتى لا تعرفين الناس والحياة!
- وأنت يا ماما لا تعرفين جون، أنا واثقة من أنه سيعود.
- لماذا لا يكون لك بعض هذه الثقة فى نفسك وفى أهلك وفى!

وتصرخ «مارى» وهى تخرج وقبل أن تصفق خلفها الباب :

- أحبه أكثر من نفسى ومنك ومن أبى !

وبلا شعور وجدتنى ألفت إلى جارتى، لأضبطها هذه المرة ملتفتة إلى ولأول مرة أحس أن الدائرة السحرية تتصل من جديد.. وبرغم الظلام أبصرت فى عينيها الرائعتين نظرة نفذت إلى قلبى.. لا.. لست واهماً هذه المرة، ولست آسفاً لأن الذراع لم تعد إلى مكانها، كانت النظرة السريعة الخاطفة النافذة أكثر رقة وصلابة فى نفس الوقت من ملمس ذراعها الناعمة..!

وحتى حين عدنا نستمع إلى الحوار كنت أحس أننا نسمعه معاً.

- مكالمة خارجية لك يا ماري !

وتهرع ماري فى جنون، لا بد أنه جون فليس فى العالم الخارجى أحد سواه.

- من... جون ؟

- لا، أنا والده، من أنت ؟

- ماري، أين جون ؟

- يا ابنتى..! لدى أخبار لك عنه !

– ماذا؟ قل.

– لقد فقد كلانا جون يا ابنتى... سقط من فوق الجبل...
كان، يعتزم الحضور لو أنه عاد!

.....

.....

. . جون لن يعود إذن؟! لم يعد ذلك فى مقدوره فما الذى يمنعها من أن تذهب هى إليه؟ أجل يجب أن تذهب إليه! يجب..!
ولا ينقذها من الموت غير «كلارك» الذى لا يزال يكتنح حبه لها!
– يا ابنتى، يا روحى.. لازلت صغيرة.. والزمن سيمحو جراحك
وستجدين فى الحياة مسرات كثيرة.

– الحياة بدونها لا تساوى شيئاً يا ماما!

– لماذا لا تفكرين لحظة فى حياة أبويك بدونك؟ إنك تريدان
قتلنا يا ماري دون أن يعيد لك هذا جون!

– كنت يا ماما تظنينه وغداً! يجب أن تأسفى لذلك! الموت
هو الذى منعه من المجيء..! لا شىء غير الموت كان يؤخره!

وتلتقى نظراتنا من جديد، كأنها على موعد... لا لست آسفاً
على هذه الحماسة، قبلها لم يكن من حقى أن أجد فى هذه النظرات
أى معنى! أما الآن و«مارى» تمنح الحب كل هذه القداسة، وملامح
جارتى ترق وترتعش... وشىء ما يسقط من يدها تحت قدمى،
فتحنى للبحث عنه، وأنحنى معها لأعيد لها المنديل، فتلتقى يدانا
وعينانا فى لحظة ذاهلة، أحس خلالها أنها غفرت كل شىء دون

كلمة! لا لن أحلم بما هو أكثر..! يكفي أننا عدنا صديقين حقيقيين هذه المرة... لن أترك شيئاً ما يفسد الأمور بيننا..!
 لست مستعداً لأن أخسر هذا الشعور الرائع بأن هذه الفتاة التي لا أعرف لها اسماً قد عادت صديقتي!..

كنت أتابع مبهوراً قدرة الحياة وقدرة «كلارك» على أن يأسو جراح «مارى» حين أحسست بذراع جارتى تعود إلى المسند..!
 تعود هذه المرة لتمدد بجوار ذراعى تماماً وتلتصق بها! ودون أن ألتفت إليها، وعيناي مشدودتان إلى الشاشة، كانت أصابعى تمر في رفق على يدها الوادعة المستسلمة، وكانت ذراعانا قد تراجعتا معاً - كأنما تحركهما إرادة واحدة - عن مقدمة المسند بحيث أصبحتا بيننا تماماً كسر نخفيه حتى عن عيوننا، منذ تلك اللحظة لم تبادل نظرة واحدة!

كانت كل مشاعرنا مع السر الرقيق الذى تخفيه يدانا المرتعشتان كطائر نخشى أن يموت أو ينفلت!

- ليس ما يدهشنى يا «كلارك» أنك أخفيت حبك لى منذ عرفتنى، بل إنك ظللت تحببى برغم أنك تعرف كل شىء!

- ما أعرفه عنك جعلنى أحبك أكثر!

- لا أدرى يا كلارك كيف كانت ستصبح حياتى لو لم تكن هنا؟ إنك لم تكتف بأن تنقذنى من الموت بل أنقذت منه «جون» أيضاً بعد أن كتبت عنه روايتك الرائعة..!

وفي اللحظة التي يضم فيها كلارك ماري إلى صدره، ترتعش يدانا وينفلت الطائر الذي كنا نخفيه بينهما!

ومع أول شعاع من الضوء لمع في الصالة، عاد المسند المشترك مجرد حاجز خشبي، وبرز الناس فجأة وكأنهم أتوا مع الضوء، وبدونا وسطهم، صغيرين عاجزين، بدت المسافة الضيقة التي تفصل بيننا، وكأنها وجدت لتبقى...! كانت جارتي تقف خلف أمها، وتسوى ملابسها، وتتبادل معها كلمات متقطعة، وتتحاشى النظر إلى...! وكانت المسافة التي تفصل بيني وبين جارتي تفصل بين جميع الخارجين الذين كانت تبطئ خطواتهم فجأة حتى لا يخدشوها..! مرة واحدة التفتت جارتي خلفها قبل أن تغلق خلفها باب التاكسي الذي ركبته الأسرة أمام «السينما». كنت واقفاً على الرصيف في انتظار تلك النظرة التي كانت آخر عهدي بتلك الفتاة! وحتى بعد أن اختفى التاكسي في نهاية الطريق، وبعد أن أصبحت المسافة بيننا كبيرة جداً إلى درجة لا تصدق...! كنت أحس أنه لا فرق أبداً بينها وبين تلك المسافة الضيقة التي كانت تفصل بيننا حين برز الناس فجأة!

ليلي والذئب

إني خائفة.

كل ما حولي يرتعد خوفاً.

السطور في مجلد الطب الكبير المفتوح أمامي ترتجف. عبثاً أثبت نظراتي على الحروف، التي يختبئ بعضها خلف الآخر.

النور المسلط على مكثبي يصاب بإغماء أصفر، أصفر، كأنياب سوف تثبت فجأة، وتنقض عليّ من مكان ما، لسبب أجهله كما تجهله هي أيضاً.. إني خائفة (يا فراس.. لو تدري).

خائفة.

حتى الجمجمة الحسنة صديقتي الوحيدة فقدت مرحها، بريق السخرية في فجوتي عينيها خبا.. مغارتان للرعب الداكن أراهما أمامي، وفكها الأسفل يرتجف. ربما في عنقها المقطوع صرخة ميتة.. الصرخة في حنجرتي تنطفئ في كوم رماد صديء.

والريح.

توقفت عن العويل. ربما اختبأت في أحد المخابر. حتى المطر كف عن الهطول.

كل شيء يحبس أنفاسه في ترقب متوتر هلع. خائفة.. (يا فراس.. تراك كنت تدري!).

حتى موسيقى (البارتى) فى قبر مسكننا الجامعى (البستانى هول) صار فيها إيقاعاً مشحوناً بالانتظار. صار فى تسارعها، وقرع طبولها، تشنج يد معقوفة الأظافر، تتحرك فى الظلام، وتطبق على عنق ما.

خائفة (يا فراس، أين يدك؟).. خائفة، رائحة باردة الزرقة تملأ عيني بأبخرتها.. تتدفق من أشباح شجر الصنوبر خلف النافذة.. ربما كانت تتدفق من حديقة الجامعة، ربما كانت أنفاس المخلوقات السجينة فى البناء الرابض فى العتمة، المقابل لغرفتي فى التل.. خائفة (يا فراس، أين يدك؟).. ربما لم تحمى من الخوف، ربما كانت تشاركنى خوفى، لكنى أحببتها).

خائفة.. قرع الطبول يتسارع. الضحكات التى تعلق من القبور تتحول إلى ما يشبه الصراخ.. إلى ما يشبه النباح.. الزرقة تتكاثف.. أسنان الجمجمة تصطك بتواتر متسارع. برغم عويل الموسيقى عادت الأصوات الرهية تتسرب من ذلك البناء الغامض المخيف، عاد النحيب الممطوط الحزين... (الليلة، بعد أن ينمن جميعاً سأظل وحيدة أنصت دون أن أجروء على غرس سيخ فى أذنى ليتوقف كل شيء، ما دام همسك منذ الليلة لم يعد لى.. ربما يتوقف حينئذ كل شيء آخر إلا تلك الشكوى المريرة الدامية.. ربما يسكن كل شيء إلا سيل الليالى الحزينة الباردة التى عادت تتدفق خائفة.. (يا فراس.. أين يدك، فالليل بارد وحزين؟).. خائفة.. (كان الليل حزيناً وبارداً، ونحن فى طريقنا إلى «البستانى هول»). مررنا بمبنى كلية الطب حيث أقضى أكثر ساعات النهار. كان من الصعب أن أصدق أن خلف تلك الجدران المعتمة مقاعد خشبية بريئة نلتصق

بها بهدوء، ونوافذ تنسكب منها أشعة شمس مضيئة.. فى الليل يتغير وجه العالم، وربما يستعيد وجهه الحقيقى. أحسست بأشياء مرعبة تغلى داخل البناء. الهياكل العظيمة تتحرك وتتجه نحو النوافذ المغلقة. عبثاً تحاول الهرب.. ربما يجلس بعضها فى الزوايا، لينتحب بصمت وبراءة، من أجل أشياء لا يدرى إذا كان قد ارتكبها حقاً.

بحثت عن يدك فى الظلمة. كانت كبيرة ودافئة كسقف دار، كأيدى الآباء جميعاً.. أردت أن أقول شيئاً، برغم حفنة الرماد الصدئة فى حلقى.. ربما كنت أرتعد كطفلة يتيمة خائفة لأنك سألتنى: متى تلقيت آخر رسالة من البيت؟..

- تلقيت آخر «حوالة» منذ أيام فى موعدها المحدد، فسكرتير أمى، فى منتهى الدقة والحرص فى كل شيء!... على أية حال، لا أتوقع منها رسالة قبل انقضاء فترة الأعياد: الميلاد، ورأس السنة.. ورأيت بيتنا الكبير فى المدينة المجاورة يغلى... أمى مشغولة، مشغولة دائماً... لا أدرى كيف وجدت الوقت ذات يوم لولادتى، وربما أبقتنى فى جوفها شهراً إضافياً ريثما وجدت لى فى زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً، ولهذا فأنا مصابة أبداً بضيق خائف من الجدران.. ربما أكره المدارس الداخلية لهذا السبب...

أراها الآن بقامتها، تقف بين دوامة من الخدم الذين يزينون المكان.. وجهها على صينية لها مفرش من الدانتيل والتتناء، وتحتها ثوب من الحرير.. من وقت إلى آخر ترسل من سيجارتها المغروزة فى «بز» من العاج الثمين الحفر، دخاناً شفافاً... إنها أبداً هكذا،

أنيقة وجميلة، كما هي في صورها في الصحف... أنيقة وجميلة كالصقيع النائي.. لا تتعب، ولا تذبذب، كالزهور الاصطناعية.. كأهدابها الاصطناعية.. كالتماثيل الجميلة القديسة، لا تسمن ولا تنحف ولا تتهدل أهدابها.. وكلما جاءت الخادمة التي أَرْضَعْتَنِي لتزورني متحبة، كنت أتمنى أن أتقياً نفسي. وبعد أن تذهب، أتجسس على أمي في غرفة نومها، لأنني أشك في أن لها جسداً كبقية (المرضعات) وفي أنها التوأم الآخر للتمثال المرمرى الجميل في الصالة الكبيرة.

- ليلي.. أين أنت ؟

أيقظني صوتك. أعادني من غابة إلى غابة.. وتلفت. كنا ما نزال نهبط الدرج الذي يمتد على طول التلة الكبيرة، وعلى جانبه تقع أبنية الجامعة المختلفة، وفي أسفله (البستانى هول).. أذكر أنني أردت أن أقول شيئاً، حينما بدأ نحيب ممطوط حزين متقطع، ينطلق من بين القضبان الحديدية والشبك على نوافذ البناء الذي نمر به.. ثم تلاحق النحيب وتكاثرت، وتعالى، صار شبيهاً بعواء مئات من الرجال، المنهكين تعذيباً، والذين تسيل الدماء من ألسنتهم المقطعة.. أحسست بك تشد على يدي، ويدك تكبر وتكبر، وأنا صغيرة ووحيدة أتكوم في ركنها، وأطمر رأسي تحت أحد أظافرها، هرباً من الأصوات الفظيعة..

- ليلي.. ما هذه الأصوات؟.. ما هذا المبنى المواجه لبنائكم

الداخلي؟..

- إنه المبنى الداخلي الآخر!..

- وفيه فتيات غريبات؟.. ما هذا العويل الحيوانى؟

- إنهن أكثر وعياً وحساسية لذا فهن عاجزات عن النوم، ويعبرن بصدق عن مشاعرهن..

- ليلى...

قالها عاتباً،

- لم أكن أمزح ولكن يبدو أنك تريد تقريراً باللغة العلمية عن هذا المكان.

- هذا أقل ما ينتظر من تلميذة طب..

- هذا هو المخبر.. فيه مجموعة من الأرانب والقطط والفئران والحيوانات الأخرى...

- لم أسمع فى حياتى صوتاً كهذا..

- فى النهار أشارك فى تخديرها وصنع التجاويف والشقوق فى أجسادها المتشنجة. تظل صامته لا تشكو. وأحياناً ألمح فى عيونها الصامته دهشة خائفة لأنها لا تستطيع أن تفهم، لماذا يحدث هذا كله.. وفى الليل، ربما ينحسر التخدير، ولا تبقى إلا مرارة السجن، والجراح المسمومة، والخوف، الخوف الوحش..

- هذا فظيع..

- أبداً، أحسدها. فهى على الأقل ما تزال قادرة على الأنين والعواء والعويل. ما زالت تفترض أن هنالك من يمكن أن يسمع، أو يفهم، أو يمد يده..

- هذا فظيع.. تتحدثين عنها كأنك واحدة منها.. كأنك لست من الفريق، الذى يشارك فى زرع الجراثيم والعذاب فى حناجرها وفقراتها..

وازددت تكوماً فى كفك الكبيرة، ولم أقل لك أنك ربما ستفعل بى الشئ نفسه دون أن تدري.. مددت يدي أتحمس حنجرتي وفقراتي. قفز شئ بين الأشجار فكادت أصرخ. اكتشفت أنه (مدجج). إنحنيت أحمله بينما استسلم مرتعداً لقبلاتي. إنه خائف. لم يخطر لى أن أتساءل من قبل أين ينام؟ قدرتك على أن لا تفقد مرحك أدهشتنى دائماً. سألتنى مازحاً: من الغريم الجديد؟..

- إنه مدجج، القط الذى أتولى إطعامه.. إنه يعيش فى الجامعة مثلنا، لكنه أكثر حظاً لأنه غير مجبر على النوم فى (البستاني هول).. إنه وحيد دائماً. لا ريب فى أن أمه سيدة مجتمع خالدة الجمال..

- مدجج؟.. هذا اسم غريب. لماذا اخترته؟..

- سئمت الحديث بالإنكليزية طوال الوقت لأن أكثر الزميلات أجنبيات. إن لفظ اسمه يتطلب منهن جهداً لم نبذله فى تعلم لغتهن بأكملها.. اسمه انتقامى منهن. أمام الباب رميت (بمدجج) إلى عتمة الغابة وأنا أحسده.

- سأتصل بك هاتفياً بعد نصف ساعة لأقول لك مرحباً...

مرحباً..

مرحباً... أهلاً... فراس... فراس... أى شىء... كان المهم أن أسمع صوتك فى الليل بعد أن تغلق الأبواب، كان جرعتى المخدرة، كان وحده يحمينى، يعيدنى فتاة سوية قادرة على النوم كأية فتاة فى شارعنا الحزين الذى يمتد على جانبيه شريط من الغرف، ولكل باب رقم، واسمى فى بيتى هذا: الرقم ٢٠٢!.. كان وحده، الصوت العميق، الدافئ، كلبن أم امتص للتو، المفعم بالحنان، كان وحده، يطغى على أصوات جيراننا فى البناء الداخلى الآخر المرعب، وكان وحده يحولنى من الرقم ٢٠٢ فى شارع اللواتى أمهاتهن سيدات مجتمع، إلى ليلى التى تفرد لها ضفيرتها قبل أن تنام وتمشط شعرها بأصابعك وترسل الغطاء عليها ثم تقبلها فى جبينها وتغلق الباب بهدوء...

- فراس.. تصبح على خير...

- ليلى.. حبيبتى.. اذهبي ونامى...

وعلى رؤوس أصابعى العارية أتسلل على الدرج عائدة إلى غرفتى. ولا أشعر بأى حقد حينما أصل إلى الممشى، شارع الغرف المتشابهة، وأرى أضواءها كلها مطفأة، وأنفاس النوم الكسولة، تنسكب من شقوق الأبواب بتكاسل أبخرة ثقيلة. وأنام..

ولا أحلم بذلك الحلم الرهيب الذى لاحقنى طيلة حياتى.. حلم الخوف.. الخوف.. خوف اليقظة.. الخوف.. إنى خائفة..).

خائفة.. الحفارة تعمل فى صدرى. النحيب يتعالى. الجمجمة لم تعد صديقة.. الرعب يتدفق من عينها... فى القبو وليمة وحشية

للصراخ... يجب أن أمسك يداً ما (يا فراس.. أين يدك؟).. بحجر كبير أهشمها وأبكي لأغسل دمها)..

التفت إلى شريكتي الباكستانية في الغرفة، إنها ليست موجودة إلا حينما تزعجنى.. إنها نائمة.. شيء لا يصدق إنها تستطيع أن تنام هكذا... أن تفتح فمها بهذه البلاهة، أن يعلو صدرها ويهبط بهذا الانتظام... شيء لا يصدق أنها تسجن نفسها هكذا، تسجن نفسها وتسخر من (البارتى) والشبان، وتصلى من أجلى لأنها تجدنى طفلة ضالة، ثم تأوى إلى فراشها تقرأ أحد الكتب الجنسية البذيئة، التى جلدتها بغلاف كتب عليه «الأخلاق فى الحياة الدنيا والآخرة»... إنها نائمة، والعالم كله ينزف رعباً... ربما كانت ميتة.. ربما كانت ميتة... ربما ماتت خوفاً دون أن أدرى... ربما ماتت لذة وهى تقرأ وتقرأ فى كتبها.. ربما ماتت تُقى أثناء صلاتها قبل النوم..

أريد أن أنهض وأهزها، لا أستطيع أن أتحرك. أنا يابسة، يابسة. زهرة جففت بين دفتى مجلد الطب الكبير أمامى.. أنا ضائعة.. أريد أن أصرخ (زيدة.. هل أنت ميتة) لا أستطيع، لا أستطيع شيئاً.. كما فى الكوايس الفظيعة.. الحفارة فى صدرى.. يد مجهولة معقوفة الأظافر تدفع بها.. الدم والحصى يتناثر على وجهى.. لولا الرماد فى حلقي لصرخت.. (يا فراس.. هل كنت تفهم معنى أن نفترق) خائفة.. يبطء.. يبطء مخيف يرتجف مقبض الباب. يتحرك.. تعلو الصرخات.. يفتح الباب.. تندفق موسيقى الوليمة فى القبو.. مَنْ.. من.. من يمكن أن يأتى الآن؟.. مَنْ صاحب اليد ذات الأظافر المعقوفة؟ تدخل فتاة أظافرها ليست معقوفة.

- ليلي.. كفاك دراسة.. كلهم يسأل عنك، تعالى قليلاً، فالحفنة قد شارفت على النهاية على أية حال...

كان من الصعب أن أجيبها بالإنكليزية، وحتى بالعربية. أحسست باللغة شيء مضحك وسخيف، والحديث الوحيد الحقيقي هو انتحاب سجناء البناء الداخلى الآخر.. حديث من طرف واحد. الحوار أكذوبة.. الالتصاق وحده هو الحوار الحقيقي.. الانسكاب.. أن أنسكب من أمي.. أن ينسكب لبنها فى جوفى.. أن ينسكب فراس فى ارتشافى..

ولكنى خائفة.. فلا هبط قليلاً.

الطرب ما يزال يهزها.. تقف وتحرك قدميها مع الألحان المتوترة من القبو.

بينما أغلق أزرار ثوب بسيط ينفذ صبرها.. ربما ما يزال صديقها واقفاً فى الحلبة وفتحاً ذراعيه بانتظارها كما تركته، قالت: «الحقى بى بسرعة».. تخرج.. ألحق بها بعد دقائق.

أهبط الدرج إلى القبو. أمرّ بالهاتف. أمسك بسماعته وأدير أرقامك كالمخدرة.. وأسمع صوتك مشحوناً بالنعاس والتأفف.. آلو.

(يا فراس كيف تستطيع أن تنام الليلة.. الليلة وقد عدت ذئباً وحيداً، وخلفتنى ليلي بلا جزار)..

بكلتا يدي أقبض على السماعه، وبثقلى كله أشدها وأقطع الشريط الأسود.. الجسر الأكذوبة للالتصاق الأكذوبة.. غداً سأكون المتهمه

الوحيدة.. فأنا كما يعرف الجميع شريرة.. الشريرة الوحيدة.. كيف يمكن لامرأة رقيقة وراقية أن تنجب فتاة شرسة هكذا..

على باب القبو أقف.. عبثاً أتمنى إلى عالمهم.. الأضواء لفننها بالورق الملون وامتزج الأحمر القاني بالأزرق الخافت بأخضر الغابات المسود.. وعلى الجدران الأوراق المقصوصة.. وعلى الرؤوس الطرايطير، والفتات الملونة لم تُنفذ كلها عن الوجوه، فالتصقت بالعرق، والضجيج، وزملاء الدراسة يلعبون أدوارهم الحقيقية، والضحك، وقرع الطبول، والرقص والشعر المتطاير، والريح في الخارج خائفة، واليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة تتخبط في الفضاء بحثاً عن صدر تزج بالحفارة فيه، والحفارة في صدري، والمخلوقات السجينة في البناء الآخر برغم كل شيء أسمعها تلهث في أذني (يا فراس... كان من الصعب أن تفهم، وإلا لما استطعت أن تنام)، والثياب تتطاير، وأنا أزداد التصاقاً بالباب، بحاجة إلى أن التصق بشيء ما.. الوجوه تدور أمامي، تدور، تقفز، تصرخ، تهذي، الموسيقى تعول، الطبل الطبل، فجأة أرى الأقدام عارية، الثياب مخيفة الألوان، الطبل وحده ضرباته وحشية متلاحقة، القبو المزين غابة في الليل، والنار، ووليمة وعلى الوجوه أصباغ مخيفة، والعويل، والبناء ان صاراً بناء واحداً، وجوقة النحيب هناك، هنا، والسماء لوحة فولاذية ليس عليها حرف واحد، ثم كرة صغيرة ثم شحنات مجهولة تتدفق منها، ويسرى وعي مبهم بخطر فظيع، الكل يتلفت حوله، والخوف، والرقص الوحشي، وعلينا أن نرفع ضحية ما بطريقة ما لنهرب من مصير ندفع إليه،

لنهرب من تعذيب أحدنا للآخر. فقدنا القدرة على المراوغة وفي الأعلى اليد الكبيرة ذات الأظافر المعقوفة تهيمن، نطيع وتتوقف عن انتحال الأسباب وتسخير المنطق، والقرع الفظيع، والرعب، والهستيريا من الضربات العارية على الأرض، أين دبائيسى. ليخرج كل دُماه.. أين الدبائيس خائفة.. خائفة..

وأركض.. أركض.. أنا في الغابة خائفة، أنا في الغابة.. يجب أن أهرب.. أن أهرب.. أن أهرب، يجب أن يتوقف كل شيء بطريقة ما، أهرب مما لا أدريه إلى ما لا يوجد.. ماذا؟ ماذا؟ لا!..

ربما بعنف أغلقت باب غرفتي ورائي. زبيدة شريكتي (بالقرعة) في الغرفة تقفز بهلع من نومها.. النور الباهت على مكتبتى ما يزال مضاء.. تصرخ رعباً وهي تنظر في وجهي، ثم في مشهد الدمى المشنوقة المتدلّية من الجدار خلف المكتبة..

- هل عدت إلى هذه الأعمال الفظيعة.. سأقدم شكوى غداً ضدك وسأطلب نقلى من هذا الجحيم الوثنى. لا أستطيع أن أعيش في غرفة واحدة مع شريرة. انظري إلى وجهك في المرآة...

ونظرت إلى المرآة ولم أر فيها شيئاً! على الجدار يتأرجح شريط الدمى المشنوقة في الريح.. دمية لامرأة جميلة وجهها على صينية من الدانتيل والتتناء وثوبها الطويل من الحرير، وفي فمها (بز) عاجى صغير، وعود يشبه سيجارة.. وعلى صدرها علقت ورقة بيضاء، صغيرة، برقية، بعشرات الدبائيس غرزتها وثبتها.. برقية تلقيتها بعد الأعياد..

... انفجرت ضاحكة أمام الموظف المشدود.. برقية؟.. برقية من والدتي مع الحوالة النقدية؟.. قلت ربما كانت برقية تهنئة بعيد ميلادي. بعيد خلاص رشاقتها منذ عشرين عاماً من التشويه الذي أحدثته لأشهر...

وقرأت: «تم الطلاق بيني وبين والدك... اختارى أحدنا»..

وانفجرت أضحك.. نكتة حلوة سأرويها لصديقتي الجمجمة ونحن نفرس الدبابيس ونضحك..

أعطيت البرقية للموظف المشدود وطلبت منه قراءتها.. كنت بحاجة لأن يشاركني إنسان ما ضحكى. يشاركني.. يبدو أنه لم يفهم النكتة.. سألتني بلطف مشفق إذا كنت بخير..

في طريقى إلى الجانب الآخر من التل لم أتمالك نفسى من الضحك.. برغم نظرات زبائن (فيصل) و (أنكل سام) المدهوشة.. أن أختار أحدهما!!.. كيف أختار إذا كنت لا أعرف عنهما إلا أخبارهما في الصحف؟.. ربما كانت الآن تجرى حصر الأمتعة استعداداً ليقاسمها فيما بينهما، وحصر الفواتير لتقسيم الثروة، وتذكرانى لما وجدا فواتير المرضعة والمدارس الداخلية..

تطلب منى أن أختار أحدهما!..

خمسة عشر عاماً وأنا وحيدة، أتسول يداً كبيرة دافئة كسقف دار. خمسة عشر عاماً من جحيم إلى جحيم، وأنا دوماً النعجة السوداء الشاردة.. خمسة عشر عاماً وليلى فى الغابة بحثاً عن

الذئب كى يؤنس وحدتها.. خمسة عشر عاماً وأنا أينما حللت
الشريرة الشرسة.

أن أختار أحدهما!.. كأن كان لى أحدهما كى أختار.. وطويت
البرقية.. وفتحت مفكرتى وأنا أغادر باب الجامعة وأسير فى الجانب
الثانى من التل..

واتجهت إلى مخزن «معتوق». اخترته لا لمنظر الحلويات فى
واجهته ولكن لأن اسمه «معتوق».. اسم عربى كاسم «مدجج»
فقد سئمت الحديث الدائم باللغة الأخرى.. خلف الموظف كان
وجهى فى مرآة.

- أريد كعكة لعيد ميلاد الجمجمة.

- ماذا؟..

- قلت لك لعيد ميلادى.. أريدها كهذه الكعكة..

- حاضر. عنوان البيت؟

البيت! كلمة مرعبة...

- بيتى شارع طويل على جانبه شريط من الغرف المتشابهة و...

- عفواً.. لم أفهم اسم الشارع..

- المصيطية.. رقم...

أعطيته عنوان دارك يا فراس..

- والاسم؟

- رقم ٢٠٢ ..

- عفواً لمقاطعتك، ولكن لا حاجة لرقم الهاتف. الاسم فقط..

- بالضبط... ٢٠٢

- لم أسمع...

- فراس!.. المهندس فراس هاشم..

وخرجت هاربة. كان من الصعب أن أفسر له أن بنات سيدات المجتمع صاحبات الجمال الخالد (بلا أسماء وبلا عناوين)...

زيدة لا تزال تصرخ. في عينيها خوف تافه لئيم. الخوف، لو تعرف ما الخوف (يا فراس.. أحقاً أنك نائم؟.. هل استطعت أن تنام مثلها؟)..

- انزلى هذه الدمى.. الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة.

تشاءب من جديد.

- لم أنم ثانية واحدة منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة. تمد يدها إلى المنضدة..

- سأقرأ بعض الأدعية لأنام.

تلتقط كتابها الجنسي ذا الغلاف «أعمدة الحكمة السبعة» وتسوى غطاء فراشها مع سجادة الصلاة التي تحب أن تمدها فوق الأغطية!.. تشعل النور الصغير فوق رأسها.. فك الجمجمة يتوقف لحظة عن الارتعاد.. تصوب إلى زيدة من مغارتى عينيها أشعة سوداء قاسية.. ثم يعاود وجهها ذلك التعبير الساخر الحلو..

بحنان أتحسس عظامها..

- يا جمجمتى الحسناء.. لو كنت دافئة فقط..

تصرخ زبيدة: كفى عن مخاطبة الجمجمة، هذه وسيلة إيضاح
لدراستك وليست صديقة تالفة فى الغرفة.. ولملمى هذه الدمى..
الدمية الثانية.. لرجل بلا وجه، أشيب الشعر منتفخ الجيب..
كانت جيوب أبى منتفخة دائماً، ولم يكن فيها قط حلوى لى. فى
درجى الخاص أدفنهما من جديد

وفى الدامية الثالثة، دميتك، أدفن دبوساً جديداً..

أعض على شفتى لأمص من شفتى دمك..

قد أبكى إذا آلمتك، فأستريح..

افترقنا..

لم يحدث شىء.. أبداً كنت خائفة، أبداً كانت الغابة موحشة
والليل طويلاً، وأنا سجيننة أنتمى إلى قافلة الاحتجاج الدامى فى
البناء الداخلى الآخر.. (يا فراس.. لا ريب فى أنك لا تدرى.. لا
ريب فى ذلك فقد كنت أبداً كبيراً وكريماً.. وفى لحظات الغروب
كنت أحب أن أراك، لأن ظلك على الرمل كان طويلاً طويلاً
أركض وأركض لأدرك الرأس فيه.. وتغيب الشمس ويختفى قبل
أن أصل إلى نهايته العملاقة.. إنك متعب، ولا تدرى، ولهذا أنت
نائم.. آسفة لأننى أيقظتك)..

تعود الحفارة إلى صدرى.. لا.. لست آسفة لست بأسفة، كان
عليك أن تدرى.. لقد سمعت الأضواء ذات ليلة.. خذ، هذا
دبوس آخر فى دميتك...

ربما أبكى إذا استطعت أن أولمك، فأستريح!..

(تصرخ الراهبة فى وجهى: ابكى.. كوني طفلة طيبة تصلى وتكتب الرسائل لأمها.. ابكى فالفتيات الشريرات فقط لا يكيين ولا يستغفرن..)

و كنت أبكى بمرارة بلا صوت ولا دموع.. كان من الصعب أن أتعرى أمامها.. كنت أحس أنها بلا قلب، وأنى بحاجة للبكاء لأنى خائفة، لا لأنى طامعة فى قطعة الحلوى كبقية الفتيات.

سأعاقبك ولن أسامحك حتى تبكيين.. أديرى وجهك للحائط وقفى على ساق واحدة.

وتحجرت.. كسرة خبز جافة للعشاء وكأس ماء.. لم آكل قطعة الخبز لكننى وأنا أشرب الماء تذكرت حلماً فظيلاً رأيته ولا أدري كيف أطبقت بأسناني على الكأس.

وعرفت طعم الزجاج المسحوق بالأسنان، الممزوج بدم مالح وحرار).

كفت الموسيقى. ربما تعبوا. أسمع وقع خطى كثيرة على الدرج. مارسن تخديرهن وودعن الفرسان. وعدن إلى جحورهن.. وسوف ينمن بسلام كما فى كل ليلة، ولن يسمعن الأصوات المخيفة.. زبيدة تطفىء النور الصغير فوق رأسها. وترمى بالكتاب من يدها لتنام من جديد وهى تتمتم: لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة..

أنا من جديد مسمرة خلف منضدتى.

خائفة، برغم أصوات الأبواب التي تفتح وتغلق وانسكاب المياه
 وصوت بقايا النشوة الضاحكة.. الضحك.. يضحكن برغم انتحاب
 مخلوقات البناء الآخر المقابل، ويخلمن.. رغم كابوس ليلى فى
 الغرفة المجاورة.. الجوع وحده هو الذى يجمعنا إلى مائدة واحدة..
 لا جسر لا خيط لا حوار.. (يا فراس لا جسر لا خيط لا حوار؟..
 ويدك؟ سقف سحابة؟ يا فراس.. لا يهمنى كيف ولماذا، كل ما
 أعرفه هو أننى لن أتكوم فى صدرك يا ذئبى الحنون وأننى أحببتك
 حقاً ذات يوم.. ولكنك لن تدري ولم تدر برغم كل ما قلته وما
 كنت أود أن أقوله.. فالحوار ميت ما دامت الكلمات فى عالمك
 تعنى شيئاً آخر عما تعينه فى عالمى.. وكل ما قيل كان للرياح
 لأن خط الهاتف كان مقطوعاً دائماً.. اليد المجهولة ذات الأظافر
 المعقوفة قطعت.. كان مقطوعاً منذ البداية، لم أقطعه الليلة أنا..
 غداً كيف أفسر لهم أننى لست شريرة وأن شريط الهاتف كان
 مقطوعاً دائماً دائماً..

ومع ذلك، كان يكفى أن أحس أنك فى الطرف الآخر من
 الجهاز الأكذوبة وأنك على الأقل تحاول أن تكون معى، وأنفاسك
 اللاهثة جسر نور مرتجف).

بدأ ضجيجهن يخفت. زبيدة غارقة فى النوم من جديد، الجمجمة
 صامتة وحزينة. الأصوات هدأت برهة لكننى أعرف أنها ستعود.
 عدت وحدى معك.. عن الجدار أتناول دميتك. أنتزع الدبايس
 منها واحداً بعد الآخر.. كم أحببتك.. (يا فراس.. أعرف أنك
 أحببتنى كما لم تحب امرأة فى حياتك.. أعرف أنك أيضاً وحيد

وكئيب، وأن شفتيك ما تزالان تجوسان عنقى بحنانهما العجيب، لكنهما تقولان كما أقول: افرقنا.. لم يحدث شيء).

بلى.. حدث شيء فظيع، وهو أن ما حدث لن يتكرر ربما طيلة العمر.. وأنا افرقنا بلا مبرر، ولم يكن هنالك أى مهرب من ذلك.. والحفارة لم تختبر صدرى بنفسها. هنالك طرف ثالث فى كل ما كان.. نتصرف كأننا وحدنا كل شيء، وننسى اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة. ربما لأننا لا ندرى عنها شيئاً، لكننا نعرف أنها مادام ذلك كله يحدث، ولا يتبقى لنا إلا الخوف، وعناقنا احتماء خائف بخائف.. (يا فراس.. أين أنت أخفيك فى صدرى من خوفى). لن أقبل دميتك، أخشى أن لا أبكى فأنفجر.. يجب أن أبكى مرة ما..

- ابك. قولى أى شيء..

ظللت صامته. كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث. كنت أعرف أن لا مفر من أن يحدث. ظللت جامدة. تمنيت شيئاً واحداً: أن أروى لك ذلك الحلم الذى يلازمنى منذ طفولتى، منذ عرفت طعم الزجاج المسحوق بالدم.

أنا طفلة أركض باكية فى غابة مخيفة الأصوات. جائعة. جائعة لأننى خائفة. لأننى هربت من كوخ جدتى التى تتمدد دائماً فى فراش لا تنهض منه ولا يبدو منها سوى رأسها عائماً فوق الدانتيل والتنتاه، ويدها التى تمسك (بز) سيجارة من العاج المنقوش وتدخن، أو تمدها للرجال الداخلين والخارجين باستمرار فينحنون لتقبيلها..

فقد حدث أن أحسست بالجوع لأننى أحسست بالخوف..
ولما دببت على فراشها بحثاً عن صدرها لأرضع بنفسى بعد أن
شاهدت إحدى الخاديمات ترضع طفلها دفعتنى بقسوة لأنها مشغولة
ولا وقت لديها.

هجمت عليها بأنيابى الصغيرة، مزقت ثوبها لأننى جائعة لأننى
خائفة، لأننى سأموت رعباً إذا لم أرضع.. ولما طردتنى من الغرفة
هربت إلى الغابة بحثاً عن الذئب لأرضع.. كنت أعرف أنه هناك،
ولم أكن خائفة منه كبقية الأطفال.. كنت أعرف أنه يحبهم بطريقته
الخاصة، وكنت أعرف أنه ليس شريراً، وأنه ربما سيروى لى
قصته.. وينتهى الحلم دائماً وأنا فى الغابة أبحث بلهفة عن الذئب..
تمنيت أن أقول إننى لست آسفة على شىء ولست نادمة وإننى
أفرض امتناناً ومحبة.. وإننى إذا رويت قصة ليلى والذئب لأولادى
فسأخبرهم بأنه كان شاباً رقيقاً شفاف العينين. فى احتضانه الشرس
لليلى تخدير يشبه الحنان، يشبه اغتصاب موت عنيف كاليقظة
وكالفرح.. وأنه لم يعذب ليلى، وأنه أراد أن يقبلها، لكن أسنانه
رُكَّبتْ بطريقة جعلت من قلبه عضة مميتة.. وأنه حاول فى البداية
أن ينسبها خوفها بعناقه الدافىء المنعش، فلما ابتسمت بنشوة طفل
فرغ للتو من امتصاص ثدى أمه، تمنى أن يمنحها كل ما يملك..

لما سرى سمه فى جسدها لم يستطع أن يصدق.. كان يظن
أنه يمنحها عسلاً ورحيقاً.. من شوهه هكذا دون أن يدري؟..
فصار حينما يظن أنه يتسم، يستحيل مرعباً مخيفاً كأصوات
الغابة؟؟.. كأنه صورة حسية للأصوات البائسة..

وحيثما قتل الخوف ليلي لم يدرك أحد أن ليلي كانت هي الذئب لأنها أتعبته بحبه لها، وجعلته يدرك كم هو عاجز وضعيف ووحيد.

ومن يومها انطلق الذئب في الغابة بحثاً عن يد مجهولة لها أظافر معقوفة..

أردت أن أقول لك هذا كله.. لتعرف لماذا لم أبك ولم أناقش، ولماذا كنت أعرف أن شيئاً ما سوف يحدث.

عدت تهمس بقسوة تقسرها عن الانسكاب في ارتجاف صوتك الحزين: ليلي.. قولى شيئاً.. ما رأيك؟.. وكان يقف خلفك أحد عمالك ويده الحفارة الكهربائية.. ألصق نابها الذي يدور بوحشية على صدر الصخر وبدأ يأكلها والغبار الصخري يتطاير.. كنت تقول.. ليلي.. يجب أن تفهمي أنني.. وضاع صوتك في ضجيج ناب الحفارة الذي يدور بوحشية وينفوس شيئاً فشيئاً في الصخر.. ربما لم يضع تماماً فقد ظللت تحرك شفطيك وتشير بيديك، لكنني لم أعد أسمع شيئاً.. لمحت لسانك يتحرك في فمك، ثم لم أعد أرى سوى لسانك، ثم أحسستني عارية ممدودة على الصخر في الغابة ولسانك حفارة تعمل في صدري.. فولاذ لا حد لوحشية دورانه وتمزيقه.. الحفارة في صدري. عاجزة عن الفهم. عن المناقشة.. الأشياء أقسى من أن تكون موضوع بحث منطقي.. أردت أن أهرب لم أستطع. على وجهي يتطاير الحصى من صدري.. كفى.. صممت الحفارة.. اقترب العامل منك ليسألك عن شيء ما.. سمعته يخاطبك: سيد فراس. فذكرت اسمك.. فراس. المهندس

فراس.. ذئبي الغالي.. التفت إليه تناقشه باهتمام كبير. لم أسمع صوتك.. لم أعد أسمع شيئاً.. أغمى على الأصوات.. ربما سرت طويلاً في شوارع المدينة التي تصادف أنني أعيش فيها.. لم أكن حزيناً ولا فرحاً ولا متعباً ولا مدهوشاً.

افترقنا..

لم يحدث شيء.

كنت خائفة فقط كما كنت أبدأ.. الخوف القديم التوأم نفسه... توقفت عند أول بائع عصير فقد كان فمي مرّاً كما لم يكن أبداً.

كان كل ما أعرفه هو أنني رضعت في الغابة نباتاً مر السوم.
ولا أذكر كيف ومتى.

كنت أتأمل وجه بائع العصير وأحاول أن أذكر أين ومتى رأيته...
كان مألوفاً لدى إلى حد لا يصدق.. ومحبيلاً

مرة قلت لي: لا أطمئن إليك يا ليلي.. تتصرفين كالأطفال...
ردود فعلك كالأطفال.. تحبين بسرعة وتنسين بسرعة، ولا تعرفين
في بعض اللحظات معنى ما تحسّين به..

وظللت أتأمل وجه بائع العصير وشاربيه.. أين؟ أين؟.. ثم تذكرت
أنه يشبه وجه قطي مدجج. لو ألصق وجهه على جسد رجل لكانت
الحصيلة هكذا.. لذا تناولت كأس العصير منه وقلت: شكراً يا
مدجج.. ضحك بدهشة القطط واهتز شارباه. وهنا كدت أتأكد
من أنه مدجج نفسه وأردت أن أسأله إن كان سيخلع هذا الجسد

المضحك ويعود إلى الحديقة مساء وقت العشاء، وإذا كان يريد منى اليوم أن أسرق له فخذ دجاج من (الكافيتيريا) أم أن لديه فثراً كافياً.. لكن رجلاً مر بنا في تلك اللحظة، وقد حمل بين يديه بعناية لفافة صغيرة.. تتمم بائع العصير الذى لم يعد يشبه مدجج: إنا لله وإنا إليه راجعون.. جف حليب زوجته من التعب والفقر، ومات طفلها جوعاً!..

وهنا فقط لاحظت أن ثيابه رثة وقذرة، وأنه يحمل جثة طفل ملفوف بشرشف ممزق.. وفي رأسه المنكس انكسار لا حد له.. ذل غريب فى خطواته المتثاقلة، ذل إنسان مقسور على أداء دور لا يدري كيف ولماذا زج به.. شىء ما فى المشهد أعادنى أمامك.. عدت أسمع صوتك: ابكى... ناقشى... قولى شيئاً... عدت أسمع حديثك الضائع فى أزيز الحفارة. عادت الحفارة. لسانك. الحفارة على صدرى من جديد كلماتك لا أسمعها لكننى أشم الكارثة بالحاسة نفسها التى يدرك بها الأطفال أن عزيزاً ما فى الدار مات دون أن يفهموا معنى ما يدور. الحفارة بوحشية تدور، بوحشية تنغرس فى صدرى. أختنق. أعجز عن الصراخ، تزداد أكلاً لأعصابى. هذه المرة أحسها تقسر على الانغراس فى صدرى. اليد المجهولة ذات الأظافر تدفع بها. تقسرها.. هذه المرة أحس بانكسار لا حد له فى رأسها الفولاذى.. بذل عجيب فى قسوتها، ذل آلة مجبرة على أداء دور لا تدري كيف ولماذا زج بها فيه.. أحسست برغبة فى أن أتحدى اليد المجهولة.. فى أن أشد الحفارة إلى صدرى، أزداد التصاقاً بها.. أحسست أننى أحبك.. أنك أيضاً خائف مثلى،

ربما كنت أكثر خوفاً، لكنك كالكبار جميعاً، وكالذئاب، ترفض أن تعترف بذلك كله. أحسست أن وجهي بدا يتجدد، وظهرى ينحني، وأسنانى تتساقط فى فمى، وأنفاسى تضيق، والرماد الصدىء فى حلقى يتكاثر، وأنى عجوز عجوز، وسيرتاع بائع العصير لو نظر إلى، فرميت بالكأس أمه، وتلمظت بطعم الزجاج المسحوق فى فمى المهترىء، وغمرنى حزن كبير كبير.. حزن أشد قسوة من الخوف ومن الغربة..

حزنت حزناً طفاً عجوزاً ليس فيه من رياء حزن الكبار والذئاب ومكابرتهم.. دون أن أدرى لماذا وكيف سرت خلف الرجل فى جنازة الطفل الذى لم يرضع..

سرت طويلاً، ويداي مشدودتان أمامى، مثقلتان بشبح جثة لا أدرى كيف أدفنها.

نظرات المارة لا تهمنى.. لو سمعوا نحيب المبني الآخر لساروا جميعاً خلفى.. سرت طويلاً.. لا أدرى كيف أدفنها).

والآن.. لا أدرى كيف أبكيها.. لا شىء يبكيها. صمت عجيب. كل شىء صامت وجامد. الخوف متصلب خوفاً.. زيدة نائمة.. إنى خائفة. ربما كانت ميتة.

الجمجمة عادت مجموعة جامدة من العظام المتقرزة، لأن الديدان ساحت عليها زمناً طويلاً قبل أن تدرك أنها فرغت تماماً ولم يبق فيها ما يؤكل..

عبثاً أحاول أن أقرأ فى كتابى المفتوح. ماتت الحروف واستحالت جثثاً ولم تعد تعبر عن أى شىء..

الأشجار ماتت خلف النافذة. لا حركة. لا صوت سقوط ثمرة على الأرض.

سكان المبنى المقابل توقفوا تماماً عن الأنين. استحال المبنى قلعة تعذيب مات هلهما منذ زمن بعيد.. حتى الأعشاب السامة التي تنمو بغزارة على جدرانها توقفت في هذه اللحظة.

مات كل شيء.. والجثث الثقيلة كلها تطفو فوق صدرى.. والخوف مات خوفاً.

جثث الرياح ممددة تحت الأشجار.. وجثث الأصوات.. والليل الوباء توقف عن الانتشار في عروق الوجود الميتة.. والعتمة المهيمنة ليست إلا خيال اليد المجهولة المعقوفة الأظافر التي ربما تهوم في هذه اللحظة بالذات فوق المكان. والخوف مات فيه الترقب والنبض والتشنج.. أحسه غازاً فولاذياً كثيفاً ينسكب ببطء من جثث الأشياء كلها ويتجمع في الأرض ويعلو ببطء طوفان غادر الصمت ليغرق العالم.. أصرخ: زبيدة..

لا تتحرك. أخرج من الغرفة مسعورة. الممشى الطويل ميت. لا حس. لا حركة، لا ضوء من شقوق الأبواب. أنا وحيدة في ساحة معركة انتهت منذ ساعات وكف الجرحى عن الأنين وماتوا جميعاً.. خائفة. (يا فراس يا فراس أين نبض عروقتك؟.. أريد أن أتحمسها.. أن أفرح بملمس الحياة وتوثبها).. على الدرج أركض مجنونة.. إلى الهاتف. أمسك بالسماعة وأدير أرقامك. الهاتف أيضاً ميت. الجسور كلها مقطعة.. أقفز مجنونة إلى لوحة الأزرار المائة، كل زر فيها موصول بإحدى الغرف المائة.. سأضغط عليها كلها

دفعة واحدة لتدق الأجراس فى الغرف كلها ويستيقظ الجميع..
طوفان الخوف الفولاذى يعلو ويعلو. يصل حتى ذقنى. بعد قليل
أختنق، وأعجز عن ابتلاع الهواء الميت الثقيل..

ألتصق بجسدى باللوحه.. ألتصق بها بشراسة.. ألتصق بالأزرار
وأضغط وأتمنى لو تمتصنى الأزرار وتحملنى الأسلاك المائة لتوزعنى
على الغرف كلها ولأكون فى وقت واحد مع مئتين من المخلوقات
الحية التى تنام فى الليل.. الأجراس لم تمت. تنطلق مسعورة. مائة
جرس فى لحظة واحدة. ضجيج رائع.. ستستيقظ الجثث بقية الليل
ولن أبقى وحيدة مع الموت الميت.. بفرح أسمع جلبتهن.. بشماتة
أنصت إلى وقع أقدامهن على الدرج.. أتسلل إلى القبو لأختبئ
وأصواتهن الهلعة الهابطة نحو اللوحه تطربنى.. جوارهن الفزع
يريحنى.. الآن، كلهن مثلى، خائفات وحائرات وغير نائمات يبحثن
عن الشبح المزعج دائماً.. القبو بشع.. بقايا الوليمة فى الظلمة لا
حد لبشاعتها.. بقايا الأكل، بقايا الروائح.. أعقاب اللقافات المستهلكة،
أعقاب النكات وعبارات الحب المستهلكة.. بقايا الزهور.. الكراسى
الفارغة المشوشة الترتيب. الزينات الممزقة.. القبو وجه مومس
عجوز ساح ماكياجها.. لماذا لم يغادروا المكان وكل شىء فى
أوجه؟.. لماذا نشوه الأشياء بإصرارنا على استهلاكها حتى النهاية؟..
(ربما انتصرنا على البشاعة ولو لمرة يا فراس.. وليمتنا ما تزال فى
أولها.. نكاتنا لم نقلها بعد.. أسما كنا ما زالت حارة ومكسوة
باللحم، لم نعر عظامها بعد، ولن تفوح منها قط رائحة زنخة..
وزهورنا لم نقطفها، وموسيقانا لم نرقص على ألحانها، ولم نبدأ

استمتعنا بها.. ربما لم تكن جريمة أن نفرق، ربما كانت الجريمة هي أن لا نجروا على ارتكابها في الوقت المناسب.. الآن، سيظل اسمك أبداً يأكلني حباً وشوقاً وحنيناً وجوعاً كلما ذكرته.. وسأظل أحلم بالساعات التي لن تصدأ لأنها لن تكون، وسأظل أستمتع بقبلاتك التي لن أسامها لأنني لن أنالها، وستظل شفطاك حارتيين بين شفتي، لن تبردا لأنني لو أطبقت عليهما لما وجدتهما).

حزن لا حد لمرارته كان سيعم في القبو لو لم يتم الحفل.. ولو لم تفح رائحة النهاية المقرفة.. لا مفر. حزن أو قرف.. لماذا لا يسمح لنا بأن نصنع مصيراً ثالثاً؟

كيف وأنا سجينة.. وصوت السجنان الذي أحببته انطفأ.. أتسلل على الدرج. شيء لا يصدق. هدوء عجيب. عدن إلى النوم، ببساطة. كلهن راضيات بالحزن أو القرف. كأن سكان البناء الآخر من الذين لا يطمعون في مصير ثالث.. ربما عوقبوا لطمعهم بمصير ثالث.. (يا فراس. ربما دون أن أدري كنت أطمع بمصير ثالث لنا) لست خائفة.. لم يبق ما يمكن أن يخيفني.. يجب أن أهرب.. الجدران تقترب مني، يجب أن أهرب.. يجب أن أطيّر من هنا.. (المكان بلا أفيونك لا يطاق يا فراس) أرفع رأسي إلى السقف.. لقد هربت الملائكة التي كانت ملصقة هناك.. ترى هل نبتت أجنحتي الآن بعد هذه الأعوام الطويلة.

(- لم تحاول طفلة الهرب من هذا المكان قبل اليوم.. لو لم يجده الحارس لأكلتك ذئاب برمانا.. وبرغم غطاء الراهبة على

رأسها، رأيت شعرها ينتصب، ورأسها يستحيل إلى قنفذ شرس.
فظللت أتأملها بدهشة، ورأسي يكاد لا يصل إلى خصرها.

- انظري إلى الأرض يا طفلة الشيطان.

ونظرت إلى السقف.

وفي السقف كانت هنالك صور ملائكة لها أجنحة، رأيتها للمرة
الأولى يوم جاءت بي أمي إلى هذا المكان..

أدهشني أنها ما زالت في السقف، ولم تغادر هذا المكان الفظيع
برغم أن لها أجنحة..

وقررت.. غداً حينما أكبر وتطول أجنحتي سأهرب وأطير بعيداً
بعيداً.

وكنت في كل صباح أتحمس كتفى بحثاً عن أجنحتي التي
ستطول)..

يجب أن أخرج الآن من هذا المكان. سأهرب إلى الغابة..
سأتلسل من النافذة الضيقة الوحيدة التي لا تغطيها القضبان.. ربما
استطعت التسلل.. غرفة الألعاب ضيقة ومظلمة.. سوف أهرب،
سوف أهرب.. ضربات قلبي مرتفعة. ربما أيقظت المديرية التي لم
يوقظها قرع الأجراس المائة.. (أين همسك يخدرني، يعيدني إلى
فراشي مهدئاً) أحمل كرسيًا وترتجف يداي وأنا أحاول أن أضعه
تحت النافذة بلا صوت. أصعد عليه. أفتحها، نحيب طويل حزين
ممطوط من البناء المقابل. أرفع ركبتي إلى النافذة وأنا أمسك
بأحجارها من الخارج أتمدد بطرف جسدي عليها.. نحيب آخر،

ثم عشرات الصرخات من نباح حاد غريب.. ربما كانوا فى البناء
الآخر فرحين من أجلى لأن أجنحتى طالت وها أنا أهرب.. بجسدى
النحيل ورأسى المحنى أنزلق على النافذة إلى طرفها الآخر ويصبح
رأسى ونصفى فى الخارج.. أستوى جالسة بصعوبة، نصف مثنية
إلى الداخل لأحفظ توازنى.

أقفز إلى الأرض، أحسنى أطيّر من النافذة..

أقفز فى الغابة.. حرة..

حزينة لأننى أعرف أن لا ذئب فيها (فراس، يا ذئبى الطيب.
كيف.. استطعنا أن نفترق؟)..

أنا فى الغابة.. وحررة..

وماذا بعد؟..

لذة عجيبة فى أن أتحرك طليقة لمجرد أننى أريد أن أتحرك، أن
أطيّر من النافذة وأعود ليلى حينما يكون على أن أتمدد فى فراش
أمامه باب كتب عليه رقم ٢٠٢.. أقفز طليقة.. أركض طليقة وأفتح
ذراعى لأضم الرياح والليل والصمت المريب..

إحساس يشبه فرحاً عجوزاً يغمرنى..

يكبر يكبر. فيصبح فرحاً طفلاً.

توق غامض إلى ما لا أدريه ينبض فى أجنحتى وأنا أطيّر وأطيّر..
الغابة.. أنا طليقة فى الغابة..

كلهن نائمات، يتلقين من النوم أحلامهن صدقة.. أنا وحدى
أطيّر من بين القضبان لأكتشف أحلامى، لأصنعها..

برد برد.. تعبت من الركض.. برد على جيني تتجمد حبات
العرق.. أجنحتي تضرر.. بصعوبة أنتزع خطواتي.. بصعوبة أدب
على التراب الموحل..

صمت مريب في المجهول الذي أبحث عنه.. صمت مريب يفوح
من رائحة الأغصان العملاقة والظلمة المشبوهة وظلالها اللثيمة.

الجدوع خشنة تجرح خدي.. همسات وأنين وأصوات غامضة
لمؤامرات مجهولة تحاك في الأجسام ضدي.. علي شجرة ما
سوف تمتد اليد المجهولة ذات الأظافر لتشنقني.. وحينما تهز
الريح جثتي ويتعالى قرع الطبول سوف تنهال على الدبابيس والرماح،
تغرس في صدري. وإذا بكيت فسيخيفني صوتي لأنني سأنبع نباحاً
طويلاً مسعوراً يضيع مع أصوات قافلة العذاب في البناء المرعب.

الغابة قاسية، كالمدينة، (كالبستاني هول)، كالجانب الآخر من
التل ونظرات أهله خلف زجاج مقاهيهم.

عبثاً أصرخ.. في حلقي انتحرت الأصوات رعباً، وشيء رخو
سقط على رقبتى. أحس بما يشبه الملاقط الدقيقة يتمسك بلحمي،
أتقزز هلعاً..

بلا وعى أنتزعه وأرمى به.. ربما كان دودة كبيرة.. صرصاراً..
أو ربما..

آلاف الصور لمختلف الحشرات التي طالما درستها ورأيت
صورها في كتيبي أحسها تتحرك الآن في موكب مخيف.. تزحف
في القمة هابطة إحدى الأشجار وتتحرك نحوي.. آلاف الديدان

والعلق والسرطانات والهوام التي طالما شرحتها في المخابر وثبتت
الدبائيس في جسدها على قرص شمعي في حوض، وغمرتها
بمختلف المحاليل ومزقتها بمشرطي، كلها تزحف نحوي حاقدة
نهمة، تتسلق جسدي وتنفذ إلى لحمي خلال فتحات ثوب نومي
الهزيل.. أسمع صوت انسحاق بعضها تحت خفي الرقيق وأكاد
أسمع انسحاق أسناني المتشنجة.

الغابة كبيرة.. في الليل، في النهار، في الشوارع، في العيون،
الغابة القاسية والهمسات المريبة والدبائيس والمؤامرات في الزوايا
وأنا وحيدة وحيدة وحيدة.. (يا فراس أين أفيوني؟)
أنا حرة في الغابة..

ما الفرق؟.. بعد دقائق أصل أسوارها، وأمام الأسوار حراس،
وخلف الأسوار غابة، وفي الصباح غابة.. لا شيء يتبدل سوى
الأصوات والألوان ويظل المضمون واحداً، والهلع والبرد.

على الدرج الحجري أصعد بصعوبة.. في الليل يقطن العالم
سكان آخرون، وعلى الدرج الذي يغلي بالطالبات في النهار تتحرك
الآن عشرات الديدان والحشرات الأخرى الفظيعة -.. ما الفرق
ما دمت أبداً خائفة ومتقززة ووحيدة.. (إلا أيام كنا نهبط معاً،
معك وحدك يا فراس كان الغاب ينحسر).

صرت قرب البناء الآخر..

الأصوات عادت تنطلق. قافلة العذاب بأكملها تعوي والدم يسيل
من أسنتها المقطعة على حديد أقفاصها.. والليل بارد وخزين

(يا فراس.. أين يدك؟ دافئة وكبيرة كسقف دار.. أتكوم في قبضتها
وأخفى رأسى تحت إحدى أظافرها)..

يمزقنى أن أذكر.. ربما لن أبكى ضياعى فى صدرك، دفء
عناقك، نشوة انسحاقى، همجية انطفائى قطعة من الحديد المحمى
تتشى فى الماء المثلج.. يمزقنى أن أذكر يدك (يدك يا فراس دافئة
وكبيرة كسقف دار.. أتكوم فى قبضتها وأخفى رأسى تحت إحدى
أظافرها).

أجنحتى تتكسر..

أنها على الدرج الحجري. فى فمى دم وزجاج مسحوق.. بين
يدى أدفن وجهى.

أفقد كل قدرة على الخوف أو التفكير أو الحركة أو الموت..
أحس بالهزيمة.. بهزيمة كبيرة فى محاولة التصاقى بشيء ما..
بيد.. بئدى.. بغيمة.. بجذع شجرة.. بدانتيل وجه أمى.. بالغبابة.
بالليل.. بقافلة الغرباء.. بقبيلة «البستاني هول».. بفراس..

مهزومة.. مهزومة.. راية منكسة على حافة جسر مهدوم..
شئ ما يدب ويتحرك ملتصقاً بساقى.. أحسه يروح ويجىء..
بلا خوف. ببطء. بلا مبالاة الجثث أرفع رأسى.. بعينى اللتين
اعتادتتا الظلمة أراه..

يروح ويجىء متمسحاً بساقى.. يهمهم، لعله عاجز عن أن يبلغنى
رسالة ما..

أتحسسه يدي.. يزداد تمسحاً ووداً غامضاً.. أحمله إلى صدري..
يستسلم بود عجيب.. يدفن رأسه في عنقي.. أحمله وأنهض به
عن الدرج.. يسترخي يتعب من لم ينم عصوراً.. وأنا أيضاً متعبة
ياكلني النعاس..

يلتصق بي دافئاً ودوداً عجيب الألفة.. أهمس: مدجج هل أنت
أيضاً خائف؟..

يزداد التصاقاً بعنقي وأنا أهبط الدرج وأنحرف في الغابة لأتجنب
حارس «البستاني هول»..

- مدجج.. هل أمك أنت أيضاً سيدة مجتمع؟

تحت النافذة المفتوحة التي هربت منها أقف..

- مدجج.. هل أنت أيضاً عاجز عن النوم؟

هل أنت خائف ومهزوم؟

يزداد تكوماً في صدري.. يخفي رأسه تماماً في عنقي، وأحس
بلفح أنفاسه الحارة برغم الصقيع..

- مدجج.. تعال معي.. كن شريراً مثلي..

أرفعه إلى النافذة وأضعه على حافتها..

يربض هادئاً لا يموء ولا يتحرك.. أتلفت حولي.. لا شيء يمكن
الصعود عليه كي أتسلق النافذة.. في الظلمة عيناه تلتمعان بما يشبه
الترقب.. صرصور كبير يتحرك قرب قدمي، أضع يدي على طرف
النافذة وأستميت لأرفع جسدي.. على الحجر الخشن أسمع جلدی
يتمزق عند الركبتين.. أظل أكافح مسعورة لأصعد.. شيء حار

يسيل على ساقى.. أنجح فى وضع إحدى ركبتي على النافذة..
مدجج يزيج لى مكاناً بصمت. أدخل رأسى ونصف جسدى من
الحديقة إلى الغرفة. يقفز مدجج إلى أرضها ويقف منتظراً. بهدوء
أدلى بساقى إلى الكرسي وأقف عليه. أغلق النافذة. أهبط عنه وأبعده
من تحتها. أحمله فيعود إلى استرخائه المحبب على صدرى. أضع
الدرج إلى غرفتى. أمر بغرفة المديرية وأسمعها تصرخ بى كما
ستصرخ غداً: ستكون عقوبتك كبيرة..

● عدت إلى صنع الدمى وغرس الدبابيس.. مثل هذه الطقوس
ممنوعة فى مكان مكرّس للعلم.

● قطع شريط الهاتف: أنت حتماً المتهم، فقد سبق لك إفساد
اللوحات الفنية فى غرفة الاستقبال برسم شوارب لوجوهها، وأذان
قطط وأذنان لها.. وسبق لك سكب الحبر على الثياب المنشورة
فى غرف الغسيل.. وإخافة الفتيات بالجماجم.. وقرع الأجراس
وإيقاظ الجميع.. لولا أمك السيدة الراقية لما تركتك لحظة هنا..

● ممنوع إدخال الحيوانات إلى الغرف.. وهذا القط قضى ليلته
فى غرفتك حاملاً معه الأمراض والقذازة.

أزداد ضمناً له، أحبه حب شريكين فى جريمة. أظل أتسلل على
الدرج.

أمام الغرفة ٢٠٢ أحبس أنفاسى وأفتح الباب بهدوء. زبيدة نائمة
طبعاً. أكاد أنفجر ضاحكة بأعلى صوتى وأنا أذكر عبارتها التقليدية
(لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المسكونة)..

بين الأغطية نندس بصمت..

- سجتنا فظيع، لكنه دافىء على الأقل، وحسراته لا تغادر فراشها وغرفها..

يموء بصوت خافت كهمسى.. جو محبب من الحوار الغامض، ثم رأسه مدفون فى عنقى، وجسده الحار يعلو ويهبط تحت يدي طفلا يفيض أنسا وألفة..

- مدجج هل تسمعنى؟.. فراس مضى.. افترقنا اليوم..

يمدّ يده الصغيرة يربت بها على وجهى بما يشبه الحنان.. يصمت تماماً كأنما يحبس أنفاسه بانتظار بقية الحكاية.

متعبة.. أكثر تعباً من أن أستعيد التفاصيل.. عصابى اهترأت، حتى الحفارة فقدت مفعولها.. أعصابى تسترخى.. العناد والشراسة والمقاومة والتحدى.. كل شىء يسترخى.. (يا فراس.. أين يداك تحلان ضفيرتى، وأصابعك تتخلل شعرى ثم تغطينى بعناية، وتقبلنى على جبينى لأنام.. مدجج يزداد التصاقاً بى.. أصابعى تتخلل شعره. أغطيه معى بعناية، أقبه على جبينه لينام.. ربما فى المرآة المقابلة لفراشى الآن لوحة لطفلتين فى الغاب التصق أحدهما بالآخر)..

- مدجج؟؟ هل رأيت اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة؟

أحسه يرتعد؟ ربما كان هو أيضاً يجهل صاحبها؟

- مدجج؟؟ هل أمك أيضاً سيدة مجتمع كبيرة؟؟

برغم الظلام بخيل إلى أنه ييكى؟ على خدى دمعة انحدرت من إحدى عيوننا الأربع؟

- مدجج.. هل تستطيع الصلاة؟.. كلما فكرت بفراس تمنيت
لو أصلي بطريقة ما..

شلل مريح يستولى على أعصابي.. خدر، شيء مبهم يثقل على
جسدي ويربض على الصور المتلاحقة في أعماقي..

- قل لي: هل يمكن أن يستمر هذا العذاب طويلا قبل أن ألتقي
بخدر ما؟.. «أحبته» كلمة سخيقة تقولها البنات الطيبات لأمهاتهن..
هل وجدت كلمة أخرى..

وأنا أفقد القدرة على التركيز، أحس بلسانه الخشن يلعق خدي
بحنان، وبدموع كثيرة تغسل وجهي، وبالسكينة الدامعة لجزيرة
انحسر الماء عنها بعد أن جرف كل شيء..

ويظل بلسانه الخشن يلعق خدي بحنان.. يده الصغيرة على
خدي.. تكبر وتكبر.. دافئة وكبيرة كسقف الدار..

أحس بيدي ذات الأظافر المعقوفة تسترخي!..

[من مجموعة ليل الغرباء ١٩٦٦]

قصة قصيرة

١

لا تقنطى أبداً من رحمة المطر . .
فقد أحبك في الخمسين من عمري
وقد أحبك والأشجارُ يابسةً
والثلجُ يسقط في قلبي وفي شعري
وقد أحبك حين الصيفُ غادرنا
فالأرضُ من بعده تبكى على الثمرِ
وقد أحبك - يا عصفورتى - وأنا
محاصرٌ بجبال الحزن والضجر
قد تحمل الريح أخباراً مطمئنةً
لناهدئك ، قبيل الفجر ، فانتظري .
لن تخرجي من رهان الحب خاسرةً
عندي ترائي ، وعندى حكمةُ الشجرِ
فاستمتعي بالحضارات التي بقيتُ
على شفاهي . . فإني آخرُ الحضرة

٢

قرأتُ شعري عليها . . وهي نائمةُ
 فما أحسستُ بتجريدي ولا صوري
 ولا تحمّس نهداها لقافية . .
 ولا استجبابا لقيشارٍ ولا وترٍ
 هزّزتها من ذراعيتها . . فما انتبهتُ
 ناديتُ : يا قطني البيضاء . . يا عمري
 قومي . . سأهديك تيجاناً مرصعةً
 وأشتري لك ما في البحر من دُررٍ
 وأشتري لك بلداناً بكاملها . .
 وأشتري لك ضوء الشمس والقمر . .

٣

ناديتُ . . ناديتُ .. لكن لم يجب أحدٌ
 في مخدع الحب . . غير الريح والمطر . .
 أزحتُ أثوابها عنها . . فما اكرثتُ
 كأنها يئست مني . . ومن خطري . .

٤

وكان ليلى طويلاً مثل عادته . .
 وكنت أبكي على قبرين من حجرٍ !

الرجل القبرصي

نيقوسيا في شهر يوليو كما لو أن الخرطوم قامت مقام دمشق. الشوارع كما خططها الإنجليز، والصحراء صحراء الخرطوم. ولكن ذلك الصراع بين ريح الصبا وريح الدبور كما أذكره في دمشق، وهي إنجليزية من رأسها حتى أحمص قدميها. بالرغم من كل تلك الدماء صدمت لأنني توقعت بلداً ذا طابع هليني لكن الرجل لم يهملني ريثما أوصل الفكرة إلى نهايتها. جاء وجلس جانبي على حافة حوض السباحة التفت لفتة خفيفة فأحضروا له فنجان قهوة. فوراً اتجه نحوي كأننا كنا على موعد وقال:

سائح؟

قلت : نعم.

أحدث صوتاً لم أفهم مغزاه، كأنه يقول أن مثلي لا يستحق أن يكون سائحاً في نيقوسيا، أو أن نيقوسيا لا تستحق أن يكون مثلي سائحاً فيها.

انصرفت عنه بالتمعن في امرأة وجهها مثل ملائكة روفائيل، وجسدها مثل نساء قوقان. هل هي الزوجة أم المرأة الأخرى؟ وقررت بسرعة أن الزوجة هي المرأة الأخرى لأن الرجل منصرف بكليته إلى المرأة السماوية الوجه، الأرضية الجسد. مرة أخرى قطع على صاحبي القبرصي حبل تفكيرى:

- من أين ؟

- من السودان ؟

- ماذا تعمل ؟

- فى الحكومة ؟

أيضاً ذلك الصوت الغريب، لكن مغزاه كان واضحاً لا مرأى فيه هذه المرة يعنى، أننى، والسودان، والحكومة، ماذا أقول؟ ابتسمت لأن الحكومات صدرها واسع على أى حال، وأنا فى الواقع لا أعمل فى الحكومة.

قال بلا مناسبة بإنجليزية حسنة:

- عندى مصنع.

- صحيح ؟

- لصنع أزياء النساء

- شىء جميل

- كونت ثروة كبيرة. اشتغلت مثل العبد، عملت ثروة. الآن

لا أعمل. أقضى وقتى كله فى الفراش.

- تنام ؟

- أنام ؟ أنت تمزح. ماذا يفعل الرجل فى الفراش؟ يلهو. طالع

نازل. واحدة تلو الأخرى. طول اليوم.

- ألا تتعب ؟

- أنت تمزح. انظر إلى، كم تظن سنى ؟

أحياناً خمسون، وسبعون أحياناً، لكنى لم أشأ أن أساعده، قلت له:

- سبعون.

لم يؤلمه ذلك كما قدرت، ولكنه ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

- خمسة وسبعون فى الواقع، ولكن ما من أحد يعطينى أكثر من خمسين، قل الحق.

- خمسون إذا شئت.

- لماذا؟

- تريض.

- نعم، فى الفراش، أطلع وأنزل. بيض وسود وحمرة وصفرة.

كل الألوان. أوروبيات وزنجيات وهنود وعرب ويهود. مسلمون ونصارى وبوذيون. جميع الأديان.

- أنت رجل متحرر.

- نعم فى الفراش..

- وفى الخارج؟

- أكره اليهود.

- لماذا تكره اليهود؟

- هكذا، لوجه الله. ثم إنهم يلعبون بحذق.

- ماذا؟

- لعبة الموت. مارسوها منذ قرون.

- لماذا يغضبك هذا ؟

- لأننى... لأننى... لا يهم.

- ألا يغلبون ؟

- كلهم يستسلمون فى نهاية الأمر، «بكت»، فى انتظار قودو.

- ونساؤهم ؟

- ليس أحسن منهن فى الفراش. كلما ازدادت كراهيتك لهم

ازدادت متعتك مع نسائهم. إنهم شعبى المختار.

- وزنوج أمريكا ؟

- لم تصل علاقتى بهم إلى درجة الكراهية. يجب أن أنتبه لهم

أكثر.

- والعرب ؟

- يثيرون الضحك أو الرثاء، ويستسلمون بسهولة، فى هذه الأيام

على الأقل. اللعب معهم ليس ممتعاً، لأنه من طرف واحد..

فكرت، لو أنهم قبلوا بقبرص، لو أن بلفور وعدهم إياها.

ضحك الرجل القبرصى ضحكته المجلجلة وقال:

«المرأة تطيل العمر، يجب أن يبدو الرجل أصغر من سنه بعشرين

سنة على الأقل، هذه هى الشطارة».

- هل تخذع الموت ؟

- ما هو الموت ؟ شخص يلقاك صدفة، يجلس معك، كما

نجلس الآن، ويتبسط معك فى الحديث، ربما عن الطقس أو النساء

أو أسعار الأسهم في سوق المال، ثم يوصلك بأدب إلى الباب. يفتح الباب ويشير إليك أن تخرج. بعد ذلك لا تعلم.

كأن غيمة رمادية ظللت برهة فوق المكان، لكنني في تلك اللحظة لم أكن أعلم أن القداح تضرب وأن الرجل القبرصي يلعب معي لعبة خطيرة.

اتسعت موجة الضحك فشمّلني. كانت عائلة عذبة أنست لها منذ جلست، الأب طيب الوجه، والأم صوتها الإنجليزى مثل لحن إليزابيثى من أوتار قيثاره عريقة. أربع بنات أكبرهن لا تزيد عن الثانية عشرة. كن يدخلن حوض السباحة ويخرجن، ويضحكن، ويعابثن أبويهن، ويضحكن. وكانوا يتسمون لى، ويوسعون دائرة سعادتهم حتى شملتني. وجاءت لحظة رأيت على وجه الأب أنه يوشك أن يدعوني أن أنضم إلى مجلسهم، في تلك اللحظة دهمني الرجل القبرصي. قامت البنت الكبرى وخطت برشاقة نحو حوض السباحة. قال الرجل القبرصي، والبنت توقفت فجأة كأن قوة غامضة أوقفتها، قال :

– هذه أدفع فيها مائة جنيه إسترليني.

قلت، له مذعوراً :

– «لماذا» ؟

أشار الرجل القبرصي بذراعه إشارة بشعة.

في تلك اللحظة انكبت البنت على وجهها، سقطت على الحجر، سال الدم من جبهتها. هبت العائلة الطيبة مثل طيور مذعورة وأحاطوا

بالبنت. فوراً قمت من جنب الرجل، وأنا أشعر نحوه بكرامية طاغية، وجلست على مائدة بعيداً عنه. تذكرت بناتي وأمهن في بيروت وغضبت، ورأيت أفراد العائلة الجميلة ينصرفون مبشرين، البنات يتشبهن بالأم، والأم تتحامل على الأب، فغضبت أكثر. ثم سكت، وسكتت الأشياء حولي. انحسرت الضوضاء، وجاء صديقي الطاهر «ود الرواسي» وجلس إلى جانبي، على الكنب، أمام متجر سعيد. كان متهلل الوجه نشطاً ممتكناً عافية. قلت له :

«صحيح ليش ما كبرت أو عجزت مع أنك أكبر منهم كلهم؟»

قال :

«من وعيت على الدنيا وأنا متحرك. ما أذكر أنى وقفت من الحركة. أشتغل مثل الحصان وإذا كان ما فى شغل، أخلق أى حاجة أشغل نفسى بيها. أنوم وقت ما أنوم، بدري أو وخرى، شرط أصحى على المؤذن أول ما يقول «الله أكبر الله أكبر» لصلاة الفجر».

- لكنك لا تصلى ؟

- أتشهد وأستغفر بعد ما المؤذن يخلص الأذان، وقلبي يتطمئن أن الدنيا ماشية زى ما كانت. آخذ غفوة مثل نص ساعة، العجيب غفوة ما بعد الأذان تسوى عندى نوم الليل كله، بعدها أصحى كأنه صحانى منبه. أعمل الشاي وأصحى فاطمة. هى تصلى صلاة الصبح.. نشرب الشاي. أنا أنزل أقابل الشمس فوق صفحة النيل وأقول لصباح الله حبابك ومرحبا بك. أغيب زى ما أغيب أرجع

ألقى الفطور حاضر. نقعد أنا وفاطمة وأى إنسان من عباد الله تجيء به لنا القسمة، أكثر من خمسين سنة على هذه الحالة».

يوماً ما سأسل الطاهر ود الرواسى، عن قصة زواجه بفاطمة بنت جبر الدار، إحدى أخوات محبوب الأربعة، هل أسأله الآن؟ لم يكن ولاؤه لنفسه، بل كان لمحبوب، وكان يضحك على نفسه وعلى الدنيا. هل يصبح بطلاً؟ واضح أنه إذا جد الجد فسوف يفدى محبوب بنفسه. هل أسأله الآن؟ لكنه قال، وحده، جملة صغيرة مصنوعة من نسيج حياته كلها :

«فاطمة بنت جبر الدار هالله. الله».

- ومحبوب ؟

ضحك الطاهر ود الرواسى ضحكة لها طعم تلك الأيام، وذلك مدى حبه لمحبوب، حتى ذكر اسمه يملؤه سعادة، كأن وجود محبوب على وجه الأرض يجعلها أقل عدواناً، وأكثر خيراً، فى نظر الطاهر ود الرواسى، ضحك وقال، وهو يضحك :

«محبوب حاجة تانية. محبوب معمول من طينة غير»

ثم سكت وكان واضحاً لى أنه لا يريد وقتها لأن يقول أكثر فى ذلك الموضوع بالذات. بعد مدة سأله:

«عبد الحفيظ قال إنك ما دخلت الجامع فى حياتك أبداً. صحيح؟

- مرة واحدة بس دخلت الجامع.

- ليش ؟ وعلشان إيش ؟

- مرة واحدة فقط. كان شتاء من الشتوات. طوبه أو أمشير،
والله أعلم.

قلت له:

- كان في أمشير، بعد ما دفنتم مريم بالليل.

- صحيح. عرفت كيف؟

- كنت معاكم موجود.

- وين؟ ما شفتك ذاك الصباح، مع أن البلد اجتمعت كلها
يومذاك في الجامع؟

- كنت عند الشباك أظهر وأبين لحد ما قلتهم ولا الضالين آمين.

- سبحان الله. الرجل الغريب. محيميد المسكين كان يصرخ
ويقول «الرجل الكان هنا راح وين؟».

- وبعدين؟

فجأة طائر الأحلام طار. اختفى ود الرواسي، واختفت «ود
حامد» بكل تلك الاحتمالات. وحيث كان يجلس رأيت الرجل
القبرصي، سمعت صوته فانقبض قلبي. سمعت الصراخ والضوضاء
وارتطام الماء بجوانب المسبح، وتشكلت الأشباح على هيئة نساء
عاريات ورجال عراة وأطفال يتقافزون ويتصايحون. وكان الصوت
يقول:

« أدفع في هذه خمسين جنيهاً استرلينياً فقط.»

ضغطت عيني لأصحو أكثر ونظرت إلى السلعة المعروضة في
السوق. كانت تلك المرأة. كانت تشرب عصير برتقال، في اللحظة

التي قال فيها الرجل القبرصي ما قال، شرقت، واختفت، وهب إليها الرجل وهبت المرأة، وجاء الخدم والسعاة، واجتمع الناس، وحملوها مغشياً عليها، وكأنما ساحر أشار بعصاه السحرية، فإذا بالناس، كما خيل لي، قد إختفوا فجأة، والظلام أيضاً كأنه كان على مقربة ينتظر إشارة من أحد، نزل دفعة واحدة. أنا والرجل القبرصي، وحدنا، والضوء يلعب الأعيه على صفحة الماء. قال لي، بين النور والظلام:

«بتتان أمريكيتان وصلتا هذا الصباح من نيويورك. جميلتان جداً، وثريتان جداً. واحدة في الثامنة عشرة وهي لي، والثانية في الخامسة والعشرين وهي لك. أختان، تملكان فيلا في كابرينيا. عندي سيارة. لن تكلفك المغامرة شيئاً. اسمع كلامي. لونك سيعجبهن جداً».

كانت الظلمة والضوء يتصارعان حول المسبح وعلى سطح الماء، وكان صوت الرجل القبرصي كأنما يزود جيوش الظلام بالسلاح، لذلك أردت أن أقول له فليكن، ولكن صوتاً آخر يخرج من حلقي، دون إرادتي، قلت له، وأنا أتابع الحرب الدائرة على صفحة الماء:

« لا، أشكرك. لم أحضر إلى نيقوسيا بحثاً عن هذا. جئت لأتحدث إلى صديقي الطاهر ود الرواسي في هدوء، لأنه رفض أن يزورني في لندن، وأعياني لقائه في بيروت».

ثم إلتفت إليه، ويا هول ما رأيت. أنا واهم أم حالم أم مجنون؟ جريت، جريت لائداً بالجمع في مشرب الفندق. طلبت شراباً ماء، وشربته، لا أذكر مذاقه، وشربته لا أعلم ماذا كان. هدأ روعي

قليلاً. ولكن الرجل القبرصي جاء وجلس معي. كان يقفز على عكازين. طلب كأساً من الوسكى، دبل. قال إنه فقد ساقه اليمنى في الحرب. أية حرب؟ حرب من الحروب، ماذا يهم أية حرب؟ تهشمت ساقه الخشبية هذا الصباح. صعد جبلاً. ينتظر ساقاً جديدة من لندن. صوته إنجليزي أحياناً، وتشوبه لكنة ألمانية أحياناً، ويبدو لي فرنسياً أحياناً، ويستعمل كلمات أمريكية:

- هل أنت....؟

- لا لست أنا. بعض الناس يحسبونني إيطالياً وبعضهم يحسبونني روسياً، وبعضهم ألمانياً... إسبانياً... ومرة سألني سائح أمريكي هل أنا من بسوتولاند. تصور. ماذا يهم من أين أنا؟ وأنت يا صاحب السعادة؟

- لماذا تقول لي يا صاحب السعادة؟

- لأنك أنسان مهم جداً.

- ما هي أهميتي؟

- إنك موجود اليوم ولن تكون موجوداً غداً... ولن تتكرر.

- هذا يحدث لكل إنسان، ما أهمية ذلك؟

- ليس كل إنسان مدركاً. أنت صاحب السعادة تدرك موضعك في الزمان والمكان.

- لا أعتقد ذلك.

شرب الكأس دفعة واحدة، ووقف على ساقين سليمتين، إلا إذا كنت واهماً أو حالماً أو مجنوناً، وكان كأنه الرجل القبرصي.

انحنى بأدب متصنع جداً، وكان وجهه كما رأيته على حافة البركة يجعلك تحس أن الحياة لا قيمة لها، وقال :

« لا أقول وداعاً، ولكن إلى اللقاء يا صاحب السعادة».

كانت الساعة العاشرة حين دخلت فراشي. تحايلت على النوم بوسائل شتى، وكنت متعباً سبحت طول اليوم. حاولت التحدث إلى الطاهر ود الرواسي.. سألته عن قصة زواجه من فاطمة بنت جبر الدار. سألته عن حضوره صلاة الفجر في ذلك اليوم المشهود. سألته عن ذلك الغناء الذي كان يعقد ما بين الضفتين بخيوط من حرير، بينما كان محميد المسكين يضرب في اليم ملاحقاً طيف مريم. لكنه لم يجب. لم تسعفني الموسيقى، ولم تسعفني القراءة. وكان يمكن أن أخرج، أذهب إلى ملهى، أو أتمشى، أو أجلس في مشرب الفندق. لا حيلة لي. ثم بدأ الألم. خدر خفيف في أطراف أصابع القدمين، أخذ يزحف تدريجياً إلى أعلى حتى كأن مخالب رهية تنهش البطن والصدر والظهر والرأس، وكأن نيران الجحيم اشتعلت مرة واحدة. كنت أغيب عن الوعي ثم أفيق. ثم أدخل في دوامة رهية من الآلام والنيران، والوجه المرعب يترأى لي بين الغيبوبة وشبه الوعي، ينط من مقعد إلى مقعد، يختفي ويبين في أنحاء الغرفة. أصوات لا أفهمها تجيء من المجهول، ووجوه لا أعرفها، مكشرة، قاتمة. ولم تكن لي حيلة. كنت واعياً بطريقة ما، ولكن لم تكن لي حيلة أن أرفع سماعة التليفون أطلب طبيباً، أو أنزل إلى الاستقبال في الفندق أو أصرخ مستغيثاً. كانت حرباً شرسة صامتة بيني وبين أقدار مجهولة. ولا بد أنني إنتصرت

نوعاً من الانتصار، لأننى صحت على دقائق الساعة الرابعة صباحاً. والفندق والمدينة صامتين. إختفت الآلام إلا من إحساس بالإعياء وإحساس بيأس شامل، كأن الدنيا بخيرها وشرها لا تساوى جناح بعوضة. بعد ذلك نمت، فى التاسعة صباحاً، حلقت الطائرة الذهبية بى إلى بيروت فوق نيقوسيا، فبدت لى مثل مقبرة قديمة.

فى مساء اليوم التالى فى بيروت دق جرس الباب، وإذا امرأة متشحة بالسواد تحمل طفلاً. كانت تبكى وأول جملة قالتها:

«أنا فلسطينية. ابنتى ماتت».

وقفت برهة أنظر إليها، لا أدرى ماذا أقول، ولكنها دخلت وجلست وقالت:

«هل تتركنى أرتاح وأرضع الطفل؟».

بينما هى تحكى لى قصتها دق جرس الباب. أخذت البرقية وفتحتها، وكانت المرأة الفلسطينية تحكى لى أنباء الفاجعة الكبرى، وأنا مشغول عنها بفجيعتى. قطعت البحار والقفار، وكنت أريد أن أعلم قبل أى شىء، متى مات وكيف مات. أخبرونى أنه عمل فى الحديقة فى حقله كعادته فى الصباح، وعمل الأشياء التى يعملها عادة فى يومه. لم يكن يشكو من شىء. دخل دور أقربائه، وجلس مع أصدقائه هنا وهنا. أحضر بعض التمر فى نصف نضجه وشرب به القهوة. ورد اسمى فى حديثه عدة مرات، وكان ينتظر قدومى بفارغ الصبر لأننى كتبت له أننى قادم. تعشى خفيفاً كعادته، وصلى صلاة العشاء، ثم جاءته نذر الموت نحو الساعة العاشرة قبيل صلاة

الفجر فاضت روحه، وحين كانت الطائرة من نيقوسيا إلى بيروت، كانوا فرغوا لتوهم من دفنه.

وقفت على قبره وقت الضحى، وكان الرجل القبرصى جالساً على طرف القبر، فى زيه الرسمى، يستمع إلى وأنا أدعو وأبتهل، قال لى بصوت كأنه ينبع من الأرض والسماء، ويحيط بى من النواحي كافة:

«لن ترانى على هذه الهيئة إلا فى آخر لحظة، حين أفتح لك الباب، وأنحنى لك بأدب، وأقول لك «تفضل يا صاحب السعادة». سوف ترانى فى أزياء أخرى مختلفة. قد تلقانى على هيئة فتاة جميلة، تجيئك، وتقول لك إنها معجبة بأفكارك وآرائك، وتحب أن تعمل معك مقابلة لصحيفة أو مجلة. أو على هيئة رئيس أو حاكم يعرض عليك وظيفة يخفق لها قلبك. أو على هيئة لعبة من الألعاب الحياة تعطيك مالاً كثيراً لم تبذل فيه جهداً. وربما على هيئة بنت تصغرك بعشرين عاماً، لسبب لا تعرفه. وربما ترانى على هيئة بنت تصغرك بعشرين عاماً، تتشهاها، تقول لك نذهب إلى كوخ منعزل فى الجبل. احترس. لن يكون أبوك موجوداً فى المرة القادمة ليفدك بروحه. احترس. الأجل مسمى، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار المهرة فى اللعب. احترس فإنك الآن تصعد نحو قمة الجبل».

ولما تيقنت أنه كان ذلك اليوم فى نيقوسيا يفاضل بينى وبين أبى، وأنه اختار أفضلنا بكيت الدموع التى ظلت حبيسة طول ذلك العهد، بكيت حتى نسيت الموت والحياة، والرجل القبرصى.

الباب الآخر

اختارت قطار الساعة الثامنة صباحا الذى لا يقف على المحطات التى فى الطريق، ويتحرك إلى «الإسكندرية» مباشرة. كما اختارت مقعدا مفردا فى القطار، حتى لا يجلس بجانبها رجل ولا امرأة. كانت تود أن تذهب إلى مدينة الإسكندرية وتعود فى صباح اليوم التالى، دون أن يشعر بغيابها عن القاهرة إنسان، كما اعتادت أن تفعل ذلك فى المرات السابقة..

وفى صالة المحطة الخارجية، وقفت فى زحمة الركاب، تتطلع إلى اللوحة المضئية التى تعين رصيف القطار المسافر.

وكانت ترتدى معطفا كحليا على ثوب من الصوف الغامق محكم النسج. ومن أحدث طراز. وتدير على رأسها وعنقها وشاحا أزرق. تتقى به برد الصباح فى القاهرة، ومن احتمال سقوط المطر فى الإسكندرية.

ومن خارج الوشاح. بدت خصلات من الشعر الأسود الناعم تتدلى على الجبين المتألق.. وأخذت العينان الواسعتان تتطلعان إلى اللوحة فى بريق يتوهج لحظات ثم ينطفئ فى أسى، تبعا للجو المحيط كله.

وكانت الأنفاس رغم البرد الشديد هادئة، والوجه جميل التقاطيع، أبيض مستديرا والشفة ممتلئة وشهية.

ووضعت على العينين نظارة شمس أنيقة، رفعتها وطوتها وهي تفكر.. ثم عادت وردتها إلى أنفها، بعد أن أدركت أنها لا مكان لها في حقيبة اليد الصغيرة، ولم تكن تحمل أية حقيبة سواها. تعمدت أن تكون خفيفة في رحلتها وفي تحركها.

وعندما دخل القطار يتهادى إلى الرصيف.. وجلست على مقعدها المفرد، شعرت ببعض الإرتياح. كان المقعد في وسط العربنة، والمسافرون من رجال الأعمال الذين فاتهم قطار السابعة صباحا، وقد جلسوا في سكون يقرأون صحف الصباح، أو يقلبون أوراقهم الخاصة.

وأحست بدفء العربنة المكيفة، فأزاحت الوشاح عن رأسها وطوته.. وأخذت تنظر من النافذة عن يمينها، ثم خشيت أن يبصرها من الرصيف إنسان تعرفه وهي داخل العربنة. فأسدلت ستار النافذة بحيث ترى هي من يتحرك بالخارج ولا يراها.

ولما تحرك القطار تنفست الصعداء، فإن أحدا ممن تعرفهم لم يلتق بها في الطريق، وستكون في الإسكندرية بعد ساعتين وثلث الساعة، وستعود للقاهرة في أول قطار يتحرك في الصباح، في الساعة السادسة صباحا ستأخذ أول قطار. وستكون في بيتها في الساعة التاسعة والنصف، تشرب الشاي على مائدتها كما اعتادت أن تشرب.. وفي الساعة العاشرة ستفتح الباب للشغالة العائدة بعد إجازة يوم قضته عند أهلها.

وخرج القطار من مساكن «شبرا» إلى مزارع البرسيم والخضرة على الجانبين، وشعرت براحة أكثر، ولاحظت أن معظم الرجال

الجالسين معها فى العربة فى سن مقاربة، ويرتدون البدل الصوفية، ومعهم حقائب خفيفة وضعوها على الرف، ولم يكن بالعربة على طولها أكثر من أربع سيدات غيرها هي..

وكانت غالبية الركاب تدخن، فضايقها هذا بعض الشيء، وضايقها أكثر أن الرجل الجالس إلى اليسار، فى الصف الذى أمامها، أخذ يدير رأسه إلى الخلف وينظر إليها، فتجاهلت نظراته، وأرخت رأسها على مسند المقعد، وأغمضت عينيها، كأنها تستكمل حاجتها من النوم.

وعنما مر عامل «البوفيه» طلبت فنجانا من القهوة وشربته فى تمهل، وأعطته ورقة بعشرة قروش فلم يرجع إليها الباقى وخجلت أن تطالبه.

وجاوز القطار طنطا، وكفر الزيات، ودمنهور، والمنظر على الجانبين لا يتغير، والمزارع هي هي.. العشب الأخضر، والبيوت، والمداخن، والمساكن الشعبية فى خارج المدن، وقد اسود بياضها وتشقق، وانتشر على شرفاتها الغسيل..

وبعد أن تحرك القطار من محطة «سيدى جابر» شعرت «عفاف» بالخوف.. خافت ألا تجده.. خافت أن يكون مريضا.. خافت أن يكون قد سافر إلى بلده لسبب طارئ.. خافت من أشياء كثيرة تحدث فى الحياة، وتمنع من اللقاء.

كانت تفضل لو جاء إلى القاهرة الواسعة كالمحيط، ولكنه كان عنيدا.. ولهذا خضعت لرغباته وسافرت، وسافرت...

كانت تسافر إليه في الشهر مرة، وأحياناً مرتين كلماً واتتها الفرصة، وسنحت الأحوال في أثناء غياب زوجها بالخارج.

وفي محطة «مصر» ارتعدت وهي تسير وحدها على الرصيف.. أحست بأن العيون كلها تلاحقها، وتحقق فيها، وتعرف وجهتها. وركبت «تاكسي» سريعاً.. وعلى باب العمارة نزلت وهي نصف شاردة.

وكانت العمارة على الكورنيش، والجو بارداً، والشمس وراء السحاب، ولم تجد البواب في المدخل، وركبت المصعد إلى الدور الثامن.

وفتحت باب الشقة بمفتاح في حقيبتها. ودخلت الشقة الصغيرة... شقة العازب التي رتبها له، واختارت أثاثها، وزينت جدرانها بالصور.. ولكنها كلما فارقتها وبعدت عنها، عادت الفوضى إلى الشقة.. إلا أنه في هذا اليوم الذي يعرف فيه أنها قادمة حاول قدر المستطاع تنظيفها، وترتيب ما بها من أشياء...

وفتحت «عفاف» النافذة، ونظرت إلى البحر، وتطلعت إلى السماء.. سحب رمادية كثيفة تحجب الشمس مرة أخرى...

الجو بارد وغير مشمس، ولكنه جميل، وعندما دخلت الشقة، وأغلقت عليها الباب شعرت بالراحة... شعرت بالأمان. الخوف الذي انتابها في الطريق ذهب عنها الآن..

وكان جو البيت كله يوحى بأن أنفاس «رأفت» حبيبها لا تزال تتردد فيه.

وأخذت فى حيوية ونشاط تنظيف البيت، وترتبه على مزاجها..
إنها لم تفعل ذلك فى بيتها فى القاهرة..

هنا تحس بأن كل خلجات جسمها تتحرك وتدفعها إلى العمل
فى بهجة... وهناك تشعر بالضجر والسامة والملل والفراغ... وكل
هذه الأشياء قاتلة ومخربة للنفس.

وبعد أن نظفت الشقة كلها ونسقتها، أشعلت السخان، وأخذت
حماما.. وأحست بعده بالنشاط والبهجة..

واستلقت على السرير، وأحست «برأفت» وهو يفتح الباب
الخارجى ويدخل.. وظلت متناومة حتى شعرت بأنفاسه على وجهها،
وشفتيه على شفتيها...

كانت تشعر بالحاجة إلى هذا الحب، وكانت تسعى إليه بجسمها
وروحها.. كانت تقتل السامة التى تخرب روحها، كانت تقتل
الفراغ...

كانت تسافر إليه، وهى تشعر بالفرحة، لأنها أسعدته، وهو فى
حاجة إليها.

وفى الليل استيقظت، وخرجت إلى المطبخ لتعد طعام العشاء...
ظلا معا ما بقى من النهار وبعد الغروب ناما. وأيقظها الجوع.

أشعلت الموقد وفتحت نافذة المطبخ الوحيدة، فرأت النافذة
المقابلة مفتوحة وهناك شخص يتحرك مثلها فى المطبخ... كانت
هذه النافذة مغلقة كلما جاءت إلى الإسكندرية، وكانت تجد الباب
المقابل لباب «رأفت» دائما مغلقا.. وقال لها «رأفت» فى المرات

السابقة إنها شقة أسرة أجرتها لتصيف فيها ولكن منذ سنتين لا يراها تأتي في صيف ولا شتاء.

ولكن في هذه المرة وجدت «عفاف» النافذة المقابلة في المطبخ مضاعة ومفتوحة... ورأت شابا يتحرك ثم يطل من النافذة ويحدق في وجهها... إنها تعرفه ويعرفها.. وظل ينظر إليها، وظلت هي واقفة في مكانها مسمرة، تنظر إليه في جمود، رغم هبوب الريح. ظلت واقفة صامتة، وهي تعرف معنى نظراته الساحرة التي تعريها من قميص نومها..

كانت الريح تأتي من البحر عاصفة، وتسمع هياج البحر ودوى الريح.. وكانت تستطيع بإرادتها أن تغلق النافذة ولكنها تركتها مفتوحة.. كانت تستطيع بإرادتها أن تخرس نظراته، ولكنها وجدت إرادتها مشلولة.

لأول مرة في حياتها تشاهد عينيّن تنظران إليها بوقاحة وقوة.. وهي في بيت غير بيتها، وفي فراش غير فراش الزوجية. نظرت إلى السماء وهي ترتد عن النافذة فوجدتها ساقطة النجوم حالكة...

وأعدت المائدة وهي أشبه بالمنومة مغناطيسيا... كانت تتحرك من غير إحساس بكل ما حولها.

ونفض «رأفت» عن المائدة. ورفعت ما عليها.

وجلسا يتحدثان، ولم يلاحظ شرودها.. وعاد إلى الفراش... وكان جسمها في برودة الثلج وروحها ضالة...

وتناومت حتى استغرق «رأفت» في النوم.. وظلت «عفاف» وحدها ساهرة تسمع البحر والريح.

* * *

تمددت بجواره على السرير وهي تشعر بالخوف. فارقتها حرارة وجوده بجوارها، وفارقتها أنفاسه. وشعرت بالخوف والرغب. أحست بأنها باردة جامدة متصلبة... نهضت في حذر... كانت الشقة غارقة في الظلام فأشعلت نور الحمام لكيلا توقظ «رأفت» وإذا استيقظ يتصورها في الحمام.

وتحركت بلين وخفة وهي عارية القدمين بقميص نومها. وفتحت الباب بحذر بعد أن وضعت في يدها المفتاح، وأغلقتة ورائها بحذر شديد كذلك.

وقبل أن تضغط على جرس الباب الآخر كان الشاب قد فتح الباب.. وكان يعرف أنها قادمة ولا بد أن تلبى النداء... كان خيالها المريض يصور لها أنها ستخرسه وتعمى عينيه.. ولكنها كانت تسقط، وتسقط...

واحتواها بذراعه في صمت. وأغلق الباب.

[من: الباب الآخر وقصص أخرى ١٩٧٧]

المغتربُ

- اركب !
- لكن يا سيدى هذا المطعم لى وأنا صاحبه...
- قلت لك اركب ولا تتكلم !
- لكن... لم أعمل شيئاً مخالفا للقانون، لم أقترف ذنبا.
- كفى كلاما، عندما تصل الى المركز اشرح للمحافظ حقيقتك.
- أرجوك لحظة، أوصى فيها على المحل أحد مواطنى.
- إنك أكثر الترجى... اركب وإلا اضطرت لاستعمال العنف.

ركب «مولود» سيارة الشرطة مع غيره من العمال الجزائريين وسيقوا الى مركز الشرطة دون أن يعرفوا السبب، وفى الواقع لم يكن أحد من أولئك العمال يستغرب هذه الحادثة، فهم قد تعودوا ذلك، منذ وطئت أقدامهم فرنسا.

أما «مولود» فقد كان فى أشد الحيرة والاضطراب، فهو يعتبر نفسه ليس كبقية العمال، إنه تاجر، صاحب مطعم رقم ١١٨ شارع قابريال بيرى فى سانت وان من ضواحي باريس. فلو كان عاملا كغيره من العمال لهان الأمر، ولكنه ليس كالأخرين، ثم ترى ماذا سيقع لمحلّه أثناء تغيّبه هذا؟ إنه لم يستطيع حتى توصية من يخلفه

فى تسيره. بل لم تمنح له الفرصة حتى لغلقه! وهذا غير معقول..
غير معقول!

وخاطب رفاقه فى السيارة :

- غير معقول، أن أساق هكذا! أنا تاجر، صاحب مطعم، غير معقول أن أعامل هكذا.. غير معقول! غير معقول! لو وقع حادث فى المحل أثناء غيابى، ترى من المسئول؟ أنا المسئول طبعاً، صاحب المحل هو المسئول دائماً.

نظر إليه أحد العمال ملياً وبسمة ساخرة تعلو شفتيه، ولكنه لم يجبه بكلمة ولا هو ولا غيره، ولم يكن «مولود» ينتظر من أحد جواباً فهو لم يكن مثلهم مجرد عامل بسيط، إنه تاجر، صاحب مطعم ١١٨ شارع قابريال ببرى. من ذا الذى - من عمال الناحية - لا يعرف «١١٨»؟ من ذا لم يأكل كسكسيه^(١) اللذيذ؟ بل من ذا لم يغازل يوماً، ولو فى خياله، الفتاة العاملة «كوليت»؟

كان هذا المطعم مشهوراً بثلاثة: «كوليت» العاملة الفرنسية اللطيفة، و«مولود»^(٢) صاحب المطعم ذو القبعة البوهيمية والمنديل الحريرى الأحمر الذى لا يفارق عنقه، والكسكسى اللذيذ، وكانت تجارته رابحة وقصاده كثيرون، ليس من العمال الجزائريين فقط بل حتى من الأجانب هواة الكسكسى.

(١) إحدى الأكلات الشعبية فى أقطار المغرب العربى.

(٢) اسم من الأسماء الدارجة.

واصلت السيارة السوداء طريقها الى المركز تشقه بصفارتها شقا، وواصل مولود احتجاجه وتذمره من هذه المعاملة السيئة التي سوَّى فيها بين تاجر مشهور وعمال تكرات!

- «أقاد هكذا الى مركز الشرطة بدون سبب؟ غير منطقي، غير معقول! جمع الناس بهذه الصورة وحشرهم في سيارة سوداء عرفناه أيام الثورة، أما الآن فما السبب؟ غير معقول، البارحة فقط تناول الطعام عندي المفتش «راوول» البارحة فقط، آه لم يسمحوا لي حتى بأن أوصي على المحل، قال لي: «اركب ولا تتكلم» شرطي بسيط! قال لي! أرايتم أيها الأخوة! شرطي بسيط يأمر صاحب محل بهذا الأسلوب! مع أني لم أعمل شيئا، ولم يقع في محلي ما يستحق هذه المعاملة. لم يعلم أحد بسبب لمجيء الشرطة ولا بوقت مجيئها، وقفت السيارة أمام الباب، ونزلت الشرطة شاهرة في وجوهنا أسلحتها وقالت: «الجميع الى السيارة»!

كان من حقهم أن يسألوا عن هويات الناس، أن يطلبوا أوراق التعريف ويأخذوا المشتبه في أمره.

أما أن يحشروا الناس هكذا، حشرا في سيارتهم فغير معقول وغير منطقي.. الثورة انتهت منذ سنوات، والجزائر مستقلة، كل الناس يعرفون هذا، فلماذا جمع الناس بهذه الطريقة المتغطرسة؟ إن لم يريدوا رؤية الجزائريين في أرضهم كان عليهم أن يتفاهموا مع حكومتنا، لا أن يجمعونا هكذا كالأغنام، كالمجرمين، غير معقول! أن يستمر حقدهم علينا إلى هذا الحد، والثورة المسلحة قد انتهت منذ سنوات».

وصلت السيارة إلى المركز، وأنزل العمال منها بأعقاب البندقيات. وحشروا في أحد الممرات حشرا. حيث لم يكونوا فيه وحدهم. فقد كانت هناك مجموعات أخرى من العمال جيء بهم من مختلف الضواحي، وكانت ظروف إيقافهم ونقلهم إلى المركز مماثلة: تقف السيارة أمام المقهى وتحاصر الشرطة من فيه، ثم تأمرهم بالركوب وتقودهم إلى المركز حيث تفرغهم في ذلك الممر الطويل الذي يشبه الدهليز، وهناك ينتظرون الساعات الطويلة قبل أن يشرع في التحقيق معهم، وكانوا أحيانا يقضون الليلة والليلتين ثم يطلق سراحهم، دون أن يتعرضوا لأي تحقيق. وغاية هذه العملية هي غالبا إشعار الجزائريين بأنهم غير مرغوب فيهم، على الأقل من طرف الشرطة.

كان مولود واقفا إلى جانب شخص جيء به إلى هناك قبله، تظهر عليه علائم الترف، فخاطبه قائلا:

- أرايت؟ إنهم لا يفرقون بين عامل وعاطل وتاجر! لم يسمحو لي حتى بغلق المحل. حاولت عبثا أن أفهمهم أنه لا يمكنني أن أدع المحل وحده، إنهم يسلكون معنا سلوكهم إزاء المجرمين، بيد أن الجزائر مستقلة منذ سنوات، والحرب بيننا وبينهم قد انتهت، ومع ذلك فالجزائري هو الجزائري في نظرهم.

ومضى يروي قصته من جديد: وصلوا عند الساعة الثامنة في الوقت الذي كان فيه المحل مكتظا بالناس، أغلبهم لم يتناول طعام العشاء، وساقونا إلى هنا كالبقر تماما. في الواقع لو كنت عاملا كسائر العمال أو عاطلا لهان الأمر، ولكني تاجر يا أخي، مسئول

عن محل يشتمل على مقهى ومطعم وغرف للنوم. وأنا وحدي. هل تستطيع «كوليت» أن تقوم بكل شيء في غيابي؟ كلا. ثم إنها ليست زوجتي، وهي معي، عرفتھا وأنا عامل بمعامل «سيطروين»، ولكنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً في غيابي. امرأة عاملة لا تستطيع تولى مسؤولية تسيير محل، لم ينس الرجل بكلمة فسكت مولود قليلاً ثم استأنف قائلاً :

- «أعرف أنهم سيطلقون سراحى بعد أن يطلعوا على هويتي. ولكن... ولكن الطريقة التي ساقوني بها منافية لكل القوانين! أنا تاجر يا أخي، ومحلى يعرفه العام والخاص، حتى الشرطة تعرفه. من بين زبائني مفتش شرطة اسمه راؤول، يأتي دائماً للمطعم لتناول طعام العشاء أو الغداء هو ورفاقه، ومع ذلك ساقوني هكذا كبقية الناس، أليس هذا مثيراً؟ لم يروا أوراقى ولا أى شيء، أقضى الليل هنا أو في مكان آخر لا يهم، ولكن المحل تركته وحده. ماذا تستطيع أن تفعل «كوليت» في غيابي؟ ثم ما هو أهم: المسؤولية! لو وقع في غيابي حادث في المحل، ترى من المسؤول عن ذلك؟ هو أنا طبعاً، أنا المسؤول، لأنى أنا صاحب المحل. «كوليت» عاملة ليست مسؤولة.. ليست زوجتي على كل حال.. كثير من الزبائن يظنونها شريكتي لأنها تتولى الصندوق المالى ولكنها في الواقع عاملة فقط.. وليتها المسائل المالية لأنها تتقن الحساب، ولأنها ثقة، عرفتھا منذ سنوات. مسألة هي ثقة لا شك في ذلك. صدقني يا أخي، إننى أعرف من أثق فيه ومن لا أثق».

- «سيدى المحافظ أوكد لك...»

- أوراقلك.

- «قلت لك يا سيدى تركتها فى درج المكتب بالمحل»

- ماذا تعمل ؟

- «أنا سيدى المحافظ، صاحب مقهى، مطعم، فندق ... أنا
علالى مولود صاحب محل ١١٨ شارع قابريل بيرى، سانت بوان،
المفتش راوول وزملاؤه يعرفوننى جيد المعرفة، يأتون لتناول
الكسكى عندى، تستطيع أنت أيضا أن تأتى سيدى المحافظ
لتناول الكسكى، تستطيع أن تأتى متى شئت ستجد لدينا كل
حفاوة، يجب أن تأتى الى ١١٨ سيدى المحافظ.

- «متى دخلت إلى فرنسا؟»

- «متى دخلت إلى فرنسا.. منذ إحدى عشرة سنة، دخلت فى

سنة ١٩٥٩.»

- «أين كنت تشتغل؟»

- «فى معامل «سيطروين» سيدى المحافظ»

- «أعندك كشوف الأجرة.»

- «لست أدري أين احتفظت بها، لاشك أن هناك كشوف باقية

فى أوراقي بالبيت.»

- «منذ متى وأنت عاطل عن العمل.»

- «لكن يا سيدى المحافظ، لست بطالا، أنا أعمل، أنا صاحب

محل، كما قلت لك.»

- «متى توقفت عن العمل فى معامل «سيطروين؟»

- منذ سنة تقريبا.

- «ومن أين جئت بالأموال التي اشتريت بها مقهى ومطعما وفندقا؟»

- «لم أشر هذا المحل، اكترته فقط.»

- «من أين جاءتك الأموال لاكتراء محل مثل هذا؟»

- من العمل سيدى المحافظ، من عرق الجبين، اقتصدت طوال السنوات الماضية لأستطيع اكتراء محل.»

- أنا لى عشرون سنة فى الشرطة، ولم أستطع توفير ما أكرى به شقة فى فندق، فكيف استطعت أنت توفير كل هذه الأموال؟»
- «لكن سيدى المحافظ، أنت لا تستطيع أكل الخبز والبطاطس سنوات.»

- «لست أضحك معك. لاشك أنك سرقت هذه الأموال وإلا فأجرتك كلها لا تمكثك من اكتراء محل كالذى تتحدث عنه!».

- «كيف أسرق أنا؟ أوكد لك سيدى المحافظ أننى عامل نظيف!»

- «هل لديك ما يثبت أقوالك.»

- «اسأل عنى رئيس قسم الدهن فى معامل «سيطروين» سوف يجيبك بأنى كنت من العمال المتفانين فى عملهم.»

- «هذا كلام لا معنى له. فإن لم يكن عندك ما يثبت اكتساب الأموال التي اكترت بها المحل فإنك سارق.»

- «أوكد لك سيدى المحافظ، لم اسرق أحدا فى حياتى. وإذا أعطيتى فرصة فسوف آتيك بكل الحجج التي تثبت صحة كلامى.»

- «طيب، عندما تصل إلى الجزائر، هبىء حججك للمطالبة بحقك».

- «الجزائر سيدى المحافظ؟... ولك... محلى... أوراقي، حساباتي، أموالى...»

- «ها أغرب عن وجهى... شرطى! الذى بعده...».

واصل المحافظ استنطاق العمال الآخرين بنفس الطريقة ونفس التهكم أما مولود فقد نزلت عليه كلمة الرجوع إلى الجزائر نزول الصاعقة. إن كل السنوات التى قضاها بفرنسا كان وراءها هذا الحلم المتمثل فى اكتراء محل وامتهان التجارة. ولما تحقق الحلم وصار تاجرا وجد نفسه أمام هاوية!

كم عد أيامه وساعات تلك الأيام. وهو مغمور بدهن السيارات وبغازاته السامة! كم بات على الطوى، وكم حمل نفسه مالا تطيق وألزمها من ظروف قاسية ليوفر من أجرة يومه ما يريحه فى غده! فرح رفاقه من العمال بعطلهم الأسبوعية ولهاوا ما وجدوا إلى اللهو سبيلا، وكبح هو نفسه عن كل جنوح إلى اللهو وتبذير المال. أكل رفاقه وشربوا ما حلا لهم وألزم نفسه بأن تقنع بالضرورى من العيش، والساتر من الملابس. وكان راضيا بحياته تلك، مغتبطا بها، حتى جاء اليوم الذى تيسر له فيه اكتراء هذا المحل، وأصبح تاجرا حرا، وأصبحت حياته ذات محتوى وقد حقق ما كان يصبو إليه، ولكنه نسى شيئا واحداً، وهو أنه جزائرى يحيا فى أرض ليست أرضه، وتحت حكيم سلطة لا تعرف معنى لقانون أو مبدأ إذا كان الأمر يتعلق بالجزائريين.

نخاطب مولود شخصا كان إلى جانبه قائلاً فى تدمير يائس:

- «أعود إلى الجزائر هكذا... بدون أن أضبط شؤوني وأبيع المحل، وبدون أن آخذ حتى ملابسى ودراهمى؟ أليس هذا هو الظلم الأحمر؟ إننى تاجر، لست لصا ولا عاطلا عن العمل ومع ذلك أطرده بهذه الصورة، أعود إلى الجزائر ولا أملك حتى ثمن خبزة؟ أصبح متسولا فى الطرقات، وأموالى أتركها للضباع! خمسة عشر عاما من الأعمال المرهقة والتقتير لأصبح متسولا! أليس هذا هو المنكر بعينه؟ يا حسرتاه لو ظننت أنى سوف أطرده بهذه الصورة لما فكرت فى عمل ولا فى تجارة، بل لكنت قمت بكل الأفعال الشنيعة، ما الفرق بينى وبين أى مجرم، ما الفرق؟ قل لى بالله! جمعت الثمن الذى اكرتت به المحل فرنكا فرنكا طوال خمسة عشر عاما، والنتيجة ماذا؟ ذهب نهر السين بما قترته على نفسى! يا إلهى! كيف أفعل بنفسى عندما أنزل بالجزائر؟ ماذا أقول للناس؟ من يصدق قصتى؟ يا إلهى!»

واستمر مولود فى أحاديثه وتحسراته المحمومة، متنقلا من شخص إلى آخر حاكيا قصته، قصة السنوات الطويلة التى أخذت منه جهده وشبابه مقابل أثمان لم يستطع فى النهاية أن ينال منها إلا الحرمان، ولم يكن يصدق أنه سيغادر فرنسا حقا، وبذلك الصورة الى أن أركب القطار المتجه الى مزسيليا من الغد، وعندئذ أدرك أن مأساته لم تكن كابوسا عابرا وإنما هى حقيقة مرة عليه أن يجابها أحب أم كره، وفتش فى أعماق عينيه عن قطرات دموع ليسيلها حزنا على هذه النهاية، ولكن عينيه كانتا يابستين منذ زمان بعيد، منذ أن قطع كل رسائله وأخباره عن أهله بالجزائر، منذ أن راود خياله حلم التجارة والاستقرار فى باريس.

وقال لنفسه:

«حتى البكاء لا أستطيع أن أبكى، فقدت في لحظة كل شيء
فقدت السرور وفقدت الحزن. أتألم تألماً يائساً لاندم ولا حزن
فيه، يا إلهي! كيف أقابل معارفي وأهلي؟ أعود إلى وطني عودة
المجرم المطرود، لماذا كل هذا يا إلهي؟ لماذا؟»

وتحرك القطار المتجه إلى مرسيليا يحمل عشرات الجزائريين
المطرودين من فرنسا، وكل منهم كانت تتراءى له من خلال المناظر
المتلاحقة التي تقدمها لهم نوافذ القطار ذكرياته وشبابه الذي تركه
وراءه تحت مداخن المعامل السوداء في مكان ما، بفرنسا!

[مجلة العربي - يونيو ١٩٨٠]

رجل في الطابور

انتهى عوض الله من أداء صلاة الجمعة مع المصلين بمسجد السيدة زينب... كان يسير في الميدان وقت الصلاة... وجد الناس يتوافدون على المسجد بأعداد كبيرة... كل منهم يخلع حذاءه وينفضه ثم يدخل إلى صحن المسجد بعد أن ترك الحذاء لبواب المسجد حارس الأحذية... وقف لحظات يتأمل المنظر... استهواه الموقف.. فتقدم مع الناس وخلع حذاءه وسلمه للرجل إياه ودخل إلى صحن المسجد وأخذ مكانه بين المصلين وجلس في خشوع يستمع إلى خطيب الجمعة... تذكر أنه لم يتوضأ... هز رأسه بينه وبين نفسه واستمر في مكانه حتى قامت الصلاة وصلى مع المصلين ثم لما انقضت الصلاة خرج مع الناس إلى الميدان بعد أن أخذ حذاءه ودفع للرجل قطعة من الفضة جعلت الرجل يلهج له بالدعاء والتحية.. فقد كان المبلغ غير معتاد بالنسبة للرجل لأن المصلين لا يدفعون له إلا قطعا من النيكل أو البرونز...

سار عوض الله في ميدان السيدة زينب متمشيا وأخذ يتجول في شوارعها دون هدف.. وأفاق على منظر الطابور... وجد طابورا طويلا أمام إحدى الجمعيات التعاونية.. شعر بسعادة واندفع نحو الطابور ودون ان يسأل أخذ مكانه بين الواقفين... الطابور يطول ويطول.. ومع ذلك فأبواب الجمعية كانت مغلقة... لم يحاول أن يسأل...

كان سعيدا منتشيا... رغم أن الوقفة طالت.. وحرارة الزحام بدأت تدب عندما فتحت أبواب الجمعية ووقف مديرها على الباب يدعو الواقفين أن ينظموا أنفسهم حتى يبدأ في توزيع البونات... وحاول أحد الأشخاص أن يزاحمه ويأخذ مكانه فدفعه بشدة بعيدا عنه وتشبث بمكانه وكادت تنشب بينهما معركة لولا تدخل الناس وحضور أمين الشرطة... وعندما تلاشى الطابور أمامه وجاء دوره سأله المدير:

- نعم..

- نعم الله عليك...

صرخ فيه المدير... «عاوز كام؟!». فسأل: «مش عارف.. انتو بتبيعوا ايه؟...» صرخ فيه المدير: واقف فى الطابور من غير ما تعرف أنت عاوز ايه... فقال بهدوء: «عاوز من اللى بتبيعوه.. أى حاجة..» فكتب له المدير ورقة وأعطها له... كانت تعليقات الجمهور قد بدأت تنهال عليه بالسخرية... لم يأبه بالتعليقات واندفع مع المندفعين نحو الخزانة... أخرج خمسة جنيهات وقدمها لعاملة الخزانة فأخذت جنيهين وأربعة قروش وردت اليه الباقي وأخذ البون وأسرع مع المسرعين إلى حيث اتجهوا وجد نفسه أمام الجزار... والخراف المجمدة معلقة.. أشبه بجثث الموتى فى أكفانها... لكنها أكفان من الشحم والدهن.. والجزار يضرب فيها بالساطور ويزن ويلف فى الورقة بسرعة ديناميكية. حتى جاء دوره.. دفع البون إلى الجزار وتناول الجزار فخذة وهوى عليها بالساطور فقطع نصفها ثم لملم له من لحم البطن والشحم باقى الكمية ولفها فى ورق الجريدة ودفعها إلى صدره ليحتضنها وينصرف...

- نظر إلى اللحم الملفوف الذي يحتضنه وابتسم لنفسه ثم عاود السير في الطريق وهو يختزن اللحم بعناية.. ظل يسير حتى وجد نفسه في ساحة واسعة تحيطها المدافن.. جلس على قطعة حجر كبيرة ليستريح... كانت لفافة اللحم لاتزال في يده... وجد كلبا يجزئ وراء كلبة... أخذ يتفرج على المنظر... وضع ورقة اللحم أمامه على الأرض ثم تناول قطعة كبيرة منها ودفع بها إلى الكلب.. ترك الكلب كلبته وجرى نحو اللحم... وجاءت الكلبة مسرعة وراءه... ثم توافدت الكلاب من كل ناحية وصاحبنا سعيد بالمنظر... تأكد أن اللحم صالح للأكل لأن الكلاب أقبلت عليه بشهية.. فظل يلقي إليها بقطع اللحم قطعة قطعة حتى أفرغ الورقة وأخذ ينظر إليها وهي تنهش اللحم وتتشاجر وتتقاتل حتى انتهت المعركة بانتهاء اللحم...

- في المساء ارتدى عوض الله أفخر ثيابه ووضع العطر والوردة الحمراء في جيب الجاكتة وخرج بعد أن قال لوالدته: لو سألت عنى وزير المالية أخبريه أنني سأمر عليه باكر فى الثامنة صباحا... هزت أمه رأسها بهدوء وقالت: حاضر...

- فى قاعة صلاح الدين بفندق الشيراتون كان السفير اليابانى وحرمة وعدد من رجال السفارة يستقبلون المدعوين لحفل الاستقبال الكبير الذى تقيمه السفارة بمناسبة عيدها القومى... تقدم عوض الله بكل الكبرياء والهيبة والعظمة وصافح السفير وحرمة وباقى المستقبلين الذين استقبلوه بترحاب شديد ثم مالوا على بعض، كل منهم يسأل الآخر... أتعرفه..؟ من هذا؟.. لكن عوض الله لم ينتظر

حتى يسأله أحد... كان يوزع ابتسامته على الموجودين.. ويتقدم إلى البعض مصافحا بحرارة... وشرب عددا من كئوس الويسكى وتناول المزة وخاصة من الجمبرى حتى دار رأسه فترك المكان وعاد إلى بيته سيرا على الأقدام.. وجد والدته جالسة تفرج على التلفزيون مع شقيقته الصغرى.. ألقى عليهما التحية ثم سأل والدته.. ألم يتصل به مكتب رئيس الوزراء.. قالت الأم.. لا.. قال لا يهم.. ثم دخل إلى غرفته حيث خلع ملابسه ونام...

في مقهى ريش بشارع طلعت حرب جلس عوض الله يشرب القهوة.. اضطجع على المقعد وأخذ يدخن سيجارته بتلذذ واستمتاع.. تراءت إليه أصوات مجموعة من الشبان كانوا يجلسون في المنضدة المجاورة.. كانوا يتناقشون في السينما... أخذ يتصنت إلى حديثهم ثم سحب كرسيه واستأذنهم في أن ينضم إليهم.. تبادلوا نظرات الدهشة.. لكنهم رحبوا به.. ابتسم لهم وسألهم عن مشاكلهم.. قال لهم: إنه صديق شخصى لوزير الثقافة وأنه على استعداد لمساعدتهم.. التف حوله الشبان بفرح وبدأوا يتحدثون عن الفرصة التي يحلمون بها.. قدموا إليه أنفسهم.. اثنان منهم من خريجي معهد السينما قسم الاخراج.. واثنان من خريجي معهد الفنون المسرحية.. واثنان من طلبة الجامعة.. والكل يجمعهم حب المسرح والسينما وأحلام الوصول والنجومية.. أخذوا يحكون له عن أنفسهم ومواهبهم وأفكارهم الجديدة.. وعرض عليه أحدهم فكرة فيلم جديد عن أزمة الشباب المصرى من خلال أزمة الاسكان والبحث عن شقة بدون خلو.. وضحك زملاؤه وقال أحدهم.. بدون خلو إذن سيظل صاحبنا يبحث

إلى يوم القيامة.. وتحدث خريجو معهد المسرح عن أزمته هم وشعورهم بالاحباط بعد التخرج وكيف أن الفرص كلها متاحة للوجوه المعروفة فقط بينما الجميع يتجاهلون الشباب والمواهب الجديدة... استمر الشبان يتحدثون ويحاولون كسب صاحبنا إلى قضيتهم وكانوا يتحدثون بحرارة وأمل.. وقبل أن ينتهى الشبان من حديثهم ابتسم لهم عوض الله ثم وقف واستأذن فى الانصراف دون أن يقول شيئاً.. وظلوا مشدوهين ذاهلين وهم يتابعونه وهم يتعد عنهم بخطوات واثقة متعالية حتى اختفى.. وفى ميدان التحرير شاهد جنازة أمام مسجد عمر مكرم فاندمج وسط المشيعين ثم أخذ مكانه فى طابور المعزين وصافح أهل الميت بحرارة...

وفى أحد الأيام وجد طابورا صغيرا أمام أحد المستشفيات.. جذبه الطابور.. أخذ مكانه بين الواقفين.. كانوا خليطا من الرجال والنساء.. سأله أحدهم هل حلت فصيلة الدم.. لم يفهم.. أعاد عليه السؤال.. ابتسم له عوض الله بكبرياء وشموخ وقال نعم.. لم يفهم ماذا يريد هؤلاء الناس وماذا يشترون.. لم تكن هناك جمعية ولا بضاعة.. لاحظ أن كل من يأتى عليه الدور يفتح له باب حجرة يقف عليها تمورجى.. يدخل.. ثم ينغلق الباب وبعد لحظة يفتح الباب ليدخل شخص آخر دون أن يعرف مصير الذى دخل قبله.. وظل عوض الله واقفا فى الطابور.. حتى جاء دوره فدخل.. وجد طبيبا وممرضات وأجهزة ورجلا يمد ذراعه وحقنة طويلة تنغرس فيها لتسحب منها دمه.. شعر برجفة لكنه لم يتراجع سأله الممرضة عن فصيلة الدم فهز رأسه دون أن يجيب أحالته على

ممرضة أخرى سحبت كف يده، وغرست أبرة في أصبعه حتى برزت نقطة دم أخذتها على لوح صغير من الزجاج وطلبت إليه أن ينتظر قليلاً. بعد لحظات اعطته ورقة بفصيلة الدم ودفعت به إلى الدكتور. الذى تناول ذراعه وغرس فيها الأبرة الطويلة وبدأ فى سحب الدم من شرايينه ببطء واثناء ذلك سألته الممرضة كنم لترا تريدنا نأخذ فابتسم لها ولم يرد. قال الدكتور يكفى لتر واحد يبدو أنه مضطرب سحبت الممرضة اللتر ثم اعطته ورقة ودفعت به إلى موظف يجلس قريبا منها أخذ منه الورقة ونظر فيها ثم قدم إليه خمسة جنيهاً أخذها دون أن يسأل وخرج من باب خلفي، أدرك فى هذه اللحظة أنه باع دمه بخمسة جنيهاً.. وأن هؤلاء الواقفين فى الطابور لم يكونوا يشترون هذه المرة وإنما كانوا يبيعون.. شعر ببرودة تجتاح اعصابه لم يأبه بشيء وظل يسير.. وجد نفسه أمام يافطة كبيرة مكتوب عليها وزارة التموين.. اقتحم المبنى دون أن يسأل أحداً ودون أن يسأله أحد، وبكل الشموخ والكبرياء سأل أحد السعاة عن مكتب الوزير اشار له الساعى إلى المكتب.. اتجه مباشرة إليه.. فتح الباب.. وجد نفسه وسط حجرة كبيرة بها عدد من كبار الموظفين.. وبعض الرجال المنتظرين.. تقدم إلى أحد كبار الموظفين وسأله إذا كان الوزير موجوداً.

- أيوه موجود..

- إذن - لو سمحت - أريد مقابله..

- هل هناك موعد سابق..

- لا..

ما هو موضوع المقابلة.

- موضوع شخصي، قل له عوض الله.. نظر له الموظف متفحصا.. كانت ملامحه توحى بالثقة والكبرياء قال له الموظف انتظر سيادتك دقيقة واحدة.

- دخل الموظف إلى مكتب الوزير. كان الوزير منهمكا في المناقشة مع وكيل الوزارة حول رسالة الخراف المجمدة الجديدة فجأة نظر الوزير لوكيل الوزارة وسأله:

- هل ذقت هذه الخراف..

- أعوذ بالله..

- إننى لم أذقتها..

- إذن لماذا تقول أعوذ بالله..

- على أى حال نحن لسنا فى حاجة لتذوقها المهم أن الجمهور يقبل عليها بشراة. هز الوزير رأسه وقال: فعلا، هذا هو المهم الجمهور هو الذى يهمنا.. وقال الموظف الكبير للوزير هناك من يريد مقابلة سيادتك دون موعد سابق..

- من..

- رجل محترم اسمه عوض الله..

- عوض الله..

حاول الوزير ان يتذكر قال الموظف يبدو أنه صديق شخصي لسيادتك لأنه يقول أنه يريدك فى موضوع شخصي.. فقال له الوزير دعه يدخل..

- ودخل عوض الله.. تقدم نحو الوزير بخطوات ثابتة وابتسامة رقيقة.. أخذ الوزير يتفحص وجهه وهو فى غاية الدهشة.. حينما وصل اليه عوض الله مد يده نحو الوزير مصافحا.. حاول الوزير أن يتذكر لكن عوض الله لم يترك له فرصة أخذ يصافحه بحرارة ويشد على يده.. ثم قال له الواقع اننى كنت أمر أمام باب الوزارة فقلت لنفسي لا بد أن أقابل الوزير.

- خيرا.. ما هى مشكلتك..

- لا أبدا لست هناك مشاكل كل ما فى الأمر اننى أردت أن أراك واصافحك..

- لكن.. من أنت..

- أنا عوض الله..

- عوض الله؟ لكننى لا أذكر أننا كنا أصدقاء..

- ومن قال إننا أصدقاء..

- طلبت مقابلتى لموضوع شخصى..

- فعلا لم يكن لى هدف آخر من المقابلة غير شخصك.. كنت أريد رؤيتك ومصافحتك.. ظل الوزير مشدوها لحظة.. وقام عوض الله.. واستأذن فى الانصراف حتى لا يعطله عن مشاغله ودون أن يرد الوزير أو يأذن له خرج عوض الله وترك المكان والوزير يشيعه بنظرات حيرة وذهول..

- أمام مكتب الوزير وقف له الساعى محييا فابتسم عوض الله واخرج الجنيهات الخمسة التى قبضها ثمنا لدمه ودسها فى يد

الساعى عندما نظر اليها الساعى كاد يسجد امامه من الامتنان والفرحة وظل يسير خلفه ويدعو له حتى خرج..

- آخر المطاف كان فى المدبح.. وجد نفسه اخيرا فى ساحة واسعة يختلط فيها الدم باللحم بالطين.. ومرة أخرى يجتذبه الزحام.. لم يكن طابورا هذه المرة.. لكنه كان تجمعا كبيرا من الناس وثمة صيحات وصرخات، بنت صغيرة ينبعث صوتها من بين الجموع متحشرجا مخنوقا واندفع كالسهم.. أخذ يشق طريقه بين الجموع بيده الحديدية حتى وجد نفسه فى قلب المشكلة.. دكان صغير للجزارة وصاحب الدكان يمسك بفتاة صغيرة يهددها بالساطور إن هى لم تعترف أين ذهبت بالفلوس والفتاة تبكى وتقسم أن الفلوس ضاعت منها ولا تدرى كيف وأين وتقدم عوض الله بهدوء وثقة نحو الجزار.. ومد يده فأخذ الفتاة من بين يديه..

واضطرب الجزار لحظة فترك الفتاة وشعرت الفتاة بالأمان فاندفعت إلى صدر عوض الله وأخذت تبكى وتستنجد به وتطلب اليه أن يخلصها منه وأن يعيدها إلى أمها فى الفيوم فهى لا تريد العمل بعد الآن فى بيت المعلم وابتسم لها عوض الله وطمأنها أنه سيعيدها لأمها.. وأفاق الجزار بعد لحظة المفاجأة الأولى وتقدم من عوض الله يسأله.. ومن سيادتلك.. فهز عوض الله رأسه ولم يجب.. ثم أخذ الفتاة من يدها وهم بأن يخرج بها من وسط الجموع.. لكن الجزار أعترض طريقه وقال له لقد أضاعت عشرة جنيهاً وأنه لن يتركها حتى ترد اليه المبلغ أو يشرحها بالساطور. حاول عوض الله أن يزرجه بعيدا عن الفتاة.. أقسم الجزار أن يقتلها ويقتله ويقتل

أى شخص يتعرض لحمايتها منه ما لم يسترد الجنيهاات العشرة، دفعه عوض الله بشدة ثارالدم فى رأس الجزار وتناول الساطور ثم رفعه فى وجه عوض الله وقال له إن لم تتركها فسوف اشركك به.. لكن عوض الله لم يهتز.. ظلت الفتاة متشبثة به.. مد المعلم يده ليأخذ الفتاة تحت تهديد الساطور دفعه عوض الله بشدة فهوى الجزار بالساطور على رأس عوض الله فى لحظة مفاجئة خاطفة.. لم ينطق عوض الله.. انفجر الدم من رأسه.. صرخ الناس بجنون وصرخت الفتاة بهستيريا.. ألقى الجزار الساطور على الأرض واندفع يجرى كالمجنون.. سقط عوض الله جثة هامدة وسط بركة من الدم..

- فى نفس اللحظة من اليوم التالى كان هناك عدد كبير من علية القوم يتجمعون فى سرادق بجوار مسجد عمر مكرم.. ولم يستطع عوض الله هذه المرة ان يمشى فى الجنازة.. لأنه كان محمولا على الأعناق.

[جريدة الأهرام ١٠ ديسمبر ١٩٨٠]

الذى انتصر فى الحرب

اللوريات ما زالت تتقدم فى إصرار وتهالك شديدين داخل الطابور، من داخلها وقد بدا الفجر ينبلع، بدأنا نتبين حولنا أشجارا وحشائش على الجانبين.

بغثة ارتطمت بعنف بالغ بالقابع خلفى ثم بالذى أمامى، وفى لحظة كنا «متكومين» فوق بعضنا البعض. تطلعت بصعوبة وفى ذهول.

رأيت أن سائقنا قد اندفع بالعربة خارج الطريق وأن كل من حولى يقفزون مذعورين من صندوق اللورى ويجرون ثم ينبطحون. بإحساس متبلد فعلت مثلهم فارتطمت بالأرض بشدة.

تناهى إلى أزيز الطائرة، أحسست جسدى كأنه يضمر، فجأة دوى إنفجار هائل جززت على أسناني بشدة وانتظرت.

كنت قد أزحت خودتى على قفاى لأنى توقعت أن الاصابة فى هذا الجزء ستكون مؤلمة جدا.

مضى وقت. لم أعد أسمع غير أصوات مكتومة لانفجارات تأتينا من بعيد بعد أن ذهبت الطائرات.

سمعت صوت «الأومباشى» يصرخ فىنا غاضبا فهرويلنا فى اتجاه اللوريات.

عند مؤخرتها تراحمنا وأخذنا ندفع بعضنا البعض.

كان منا من يتضحكون في جزل وأخرون يستميتون من أجل ارتقاء صندوق اللورى للفوز بمكان مناسب.

صرخ الأومباشى: إنه سيجعلنا نكمل الطريق إلى الميدان سيراً على الأقدام إذا لم نكف عن هذا. عاد إلينا الوجوم ورحنا نصعد فى صمت.

جاء صوت الأومباشى مذعوراً من مكانه جوار السائق.

كان يأمرنا أن نقسح مكانا لرفاق دمرت عربتهم.

رأيناهم قادمين مترجلين، علا صوته فى غضب يستحثهم أن يسرعوا.

لم يستجب أحد منهم وظلوا يمشون ببطء حتى وصلوا. ومد بعضنا أيديهم يساعدونهم على الركوب حيث بدا لنا أن بينهم مصابا.

بعد أن ركبوا جميعا أصبحنا نجلس بعضنا فوق البعض.

استأنفت عربتنا طريقها تسمعنا صريرا عجيبا لاحتكاك أجزائها، صرخ أحدنا:

نظرنا كلنا بسرعة حيث يشير.. إنها جثة جندي ملقاة على الطريق. صرخنا ننبه السائق.

كانت ذراعا الجثة ممدوتين وشعرنا بعظامها تكسر تحت العجلات، جمدنا من الرعب، أخرج السائق رأسه من الكابينة ولواها خلفه وهو يصيح فى غضب.

- إنه ميت.. لماذا صرختم؟

تبهت أن السائق أكبر من أي منا في السن، وتذكرت ما قيل لي من أنه متطوع وليس مجنناً مثلنا.

لم نعد ننظر إلى الطريق حولنا. كنا نتطلع في بلاهة وذهول إلى ساق أحد رفاقنا الجدد.

أنها تبدو غير مركبة في جسده، وكنا نفصح له بصعوبة مكانا وسط العربة حتى يصبح جسده في مكان مناسب لساقه.

كان الدم يغمر كل سرواله وهو ينظر إلينا في هلع شديد.

سألت أحد رفاقه الذين ركبوا معنا

- هل تعرفه؟

أجابني باضطراب شديد وبصوت خافت.

- لا.

سمعنا صوته :

-ساقى تؤلمنى

نظرنا إلى بعضنا البعض. همس أحدهم فى أذنى :

- كيف لا يعرف أن ساقه اليمنى مقطوعة.

لكزته بسرعة كى يصمت أدار الجريح رأسه فى ذهول ثم سأل:

- أين بمخلتى ؟

طمأناه أن أشياءه موجودة.

تطلع إلى أحدنا وقال :

- أريدها إلى جنبى.

لم نعرف ماذا نقول له. إن شيئاً مما يتكلم عنه ليس موجوداً
بالمرة، مال أحدنا وأسر له:

- سنضع كل شيء إلى جانبك عندما نصل إلى أقرب مكان
لنضمد جراحك.

صمت المصاب. أغمض عينيه، نظرنا إلى بعضنا البعض، فتح
عينيه وعاد يتكلم:

- أقول لكم.. إعطوا حاجتي إلى أمي..

وأغمض عينيه. رأينا وجهه شاحبا في لون الشمع، أطل أحدنا
وكان قريبا من كابينة السائق وصاح وهو يدق بشدة على سقفها:

- معنا فتى ينزف بغزارة. لم يكذ يكمل صياحه حتى شعرنا بعربتنا
تزيد من سرعتها وفي لحظات كانت قد تخطت عربات القبول الذي
أمامنا واستمرت تنطلق بأقصى سرعتها على الطريق الوعر.

كنا نحاول أن نتماسك حتى لا يرتطم بعضنا ببعض ومع ذلك
كنا نتدافع في كل اتجاه، صرخ أحدنا:

- هذه نقطة إسعاف.

رأيناه يشير في إنفعال إلى خيمة بعيدة على جانب الطريق مرسوم
عليها صليب أبيض كبير كبعض خيام مررنا بها، بغتة انحرفت
عربتنا في اتجاهها وتوقفت أمام النقطة الطبية مباشرة. صاح فينا
السائق غاضباً:

- احملوه بسرعة.

كنا جميعا ننظر بلهفة من صندوق اللورى إلى زميلنا الجريح
يحملة ثلاثة من الرفاق، وبينما يدلفون به إلى داخل النقطة برز
يعترضهم عند بابها شخص يرتدى «أوفرول» ملطخاً كله بالدماء.
سألهم:

- إلى أين؟

صحنا فيه كلنا من مكاننا:

- أفسح لهم.. إنه ينزف.

تصايح بعضنا بتوتر وفروع صبر:

- أين الطبيب؟

رأينا لم يتحرك من طريق زملائنا حتى كدنا نجس فرفع رأسه
إلينا، كنا نقف متحفزين داخل صندوق اللورى.

قال بلا مبالاة:

- أنا الطبيب.

قبل أن ينطق أحدنا أضاف بصوت متبلد وربما بعطف :

- ألا ترون أنه فى حاجة إلى قبر أكثر من حاجته إلى..

تحركت العربة بنا بعد أن فهمنا أننا كنا نحمله إلى النقطة الطبية
ميتا. ولا عجب أن العربة ما زالت ضيقة ونجلس فيها «مكومين»
بالرغم من أن واحداً قد نزل.

استوت العربة فى سرعتها المعتادة داخل القبول وكنا نجلس صامتين..

كان الهواء عليلاً فتسلل شيء إلى نفسي مما جعلني أفكر في أمي. واستعيد ما رددته قبل أن نفرقا فاجتاحني حلم يقظة رأيت فيه يديها تمتد تصافحني ثم تضمنني فأردد علي صدرها ساكون موسيقياً مشهوراً كما وعدتك فأسمع أخي الصغير يسألني إلى أين أقول إلى هذه الحرب. قال: قبل أن تحل لي مسألة الحساب. احتضنته، قال سآتي معك، ابتسمت، تغيم ملامح أمي كلما ابتعدت، أرى شبحها يرفع يده. أحس ملمسها. يقشعر بدني. ارتجت العربة.

تنبهت أن الجالس المتكئ علي يبكي، سألته، قال إنه من أجل الذي تركناه منذ قليل، رحت أخفف عنه، تذكرت منظر النجثة مطروحة على الأرض جانب النقطة الطبية ونحن نبتعد عنها، سألت نفسي هل أيضاً له من ينتظره، هيهات أن يراه بعد ذلك.

لم استمر في التفكير فقد زادت اشجائي كان بعض الرفاق يثرثرون والآخرون واجمين وكان الشعور السائد بين هذه المجموعة هو الاطمئنان إلى حد ما غير أنني لم أكن أعرف أحدا منهم، أمس قاموا بتوزيع من بقي من أفراد فرقنا على سائر الوحدات وكان من نصيبي أن ضمنت إلى الفرقة ٢٠٢٦ اعتبرت حظي هذا عاثراً فمن زملائي من ألحقوا بأعمال إدارية خلف الصفوف بينما أنا الآن أجد نفسي في طريقى إلى الميدان بين جنود جدد لا أعرف أحدا منهم، تذكرت رفيقا.

كنا زميلين بالمدرسة وطلبنا للجنديّة في وقت واحد، تعاهدنا ألا يترك أحدنا الآخر، أجدني من دونه الآن لا أعرف أين ذهب.

عرفت أنه من الخطأ أن تعاهد إنسانا في الميدان. فلا يمكن لمن لا يعرف مصيره أن يفى بشيء.

انبعثت فجأة من بيننا ضحكة جزلة. قبل أن انتبه ماتت الضحكة وخيم صمت. بدأنا نسمع أصوات قنابل تنفجر.

بعيدا. انكشيت أكثر بمكاني، عاود الذي يحاورني التصاقه الشديد بي، سمعت أسنانه تصطق.

أحسب أيضا أنه بسبب ما جنح إليه خياله ونحن في لحظات اقترابنا من الميدان. رفعت رأسي، ظهر جليا ما توقعته، لقد كان مذعورا.

أطرق كلانا بسرعة، نحن لا نجهر بالخوف بالرغم من أننا كلنا نحس به.

مضى وقت وكانت تعلو أصوات الانفجارات ونحن ننظر في ذهول إلى الأشجار المحترقة والعربات المدمرة. أشار أحدنا، كانت ساقا آدمية، ازداد اقترابنا، أصبحت أميز أصوات طلقات الأسلحة الصغيرة وسط هدير القنابل.

خفضت عربتنا من سرعتها، صرخ الأومباشي، غادروا العربة. في ذهول بدأنا نتدافع، نهبط منها كسيل عارم لا سبيل إلى وقفه. كنا نخفي رعبنا بما نحدثه من ضوضاء.

وقفنا على الأرض نلهث شبه مخدرين تصم آذاننا أصوات الانفجارات، كنا نبذو وكأننا عبرنا لحظة للجنون تحركنا في صف طويل بفواصل واسعة وسط دمار يطوقنا، كنت اسمع في وضوح قلبي يدق بعنف شديد.

شعرت بشيء يدفعني في ذراعي فنظرت.

رأيت أنه جندي يسير إلى جوارى بوجه شاحب، إنه لم يجاوز السابعة عشرة من عمره ويرقل مثلي داخل ملابس ميدان فضفاضة، لم أشأ أن أخيب ظنه فابتلعت ريقى وتجرعت ابتسامته تطمئنه، وجدت نفسي أهوى إلى الأرض وكنت قد طرت في الهواء.

رفعت رأسي ثم بدأت أنظر إلى جسدي. لم يعد غير دخان القبلة نهضت استأنف سيرى، تعثرت نظرت رأيت أنه الفتى الذى كان يسير إلى جوارى، الآن يغوص في دمايه وملقى على ظهره فاتحاً ذراعيه يحركهما في بطاء.

تطلعت إلى وجهه، رأيت أنه حالما ينظر إلى فى عطف، ضمنت ذراعيه ورفعت يدي أمسح بها دموعى.

دفعني الذى خلفى، هبطت إلى الخندق اتبع الذى أمامى.

تقدمنا بداخله وكان ضيقاً متعرجاً تعثرت فيه أكثر من مرة ودخان القنابل المنهمرة يكاد يحجب الرؤية، وطأت شيئاً لينا، جمدت بمكانى، سرت فى جسدي رعشة مقبته قطعها صرخة.

كانت الصرخة أننا انبعث من بين قدمي حيث أقف، تخيلت حدائي الآن مستقراً يضغط على جزء مبتور فى جسد يحتضر.

كدت أتلاشى والتوى قلبى وأنا انظر فى تردد وذهول، حمدت الله أن ما وطأته بحيدائى جرد كبير ما لبث أن فر بمجرد أن حركت قدمي. انحرفت إلى اليسار فزكمتنى رائحة نثنة للخندق الأمامى، بدأنا ونحن نتعثر داخله نتفحص وجوه جنودنا الذين جئنا

لنحل محلهم كدت أحس بما أصابهم من ويل، أخذنا نحتل
أماكنهم، أرتطم أحدهم بي، عبس ثم خيل إلى أنه ابتسم، ابتسمت
في قلق سألني ساخرًا:

- هل أنتم الذين ستهجمون ؟

انفجر في ضحكة كتمها بسرعة كأنه اختنق، لم أفهم وسار
كل منا في اتجاه.

بدأت على الفور في تطهير موقعي ورحت أحفر لأعمقه، أرهفت
السمع، إن ما اسمعه من صوت خافت يأتي من الأمام وليس أمامنا
إلا العدو وأنها الحقيقة بالرغم من أني لا أستطيع تصورها، فكرت
فيما قيل لي من أن جنودهم ضخام الأجسام رفعت رأسي إلى
السماء أسألها في مرارة:

- لماذا دائما أكون مع الجانب الضعيف.

كنت مازلت أنظر إلى السماء عندما رأيت أضواء حمراء وصفراء
كأننا في ليلة عيد، كان جسدي قد عبر عن رد الفعل منذ هذه
اللحظة والقنابل تنهمر كالمطر وأنا منبطح بأرض الخندق.

كانت القذائف تأتي من الأمام وتمر علينا وتسقط بعيدا خلفنا،
أدركت أنهم على ما يبدو يريدون تدمير مواقع مدفعيتنا الثقيلة في
الخلف، توقعت أن الأمر سيستمر كذلك، خاب أملى بعد أن
اقتربت منا أصوات الانفجارات.

وبدأت الأرض ترتج في عنف بالغ وتتهائل الأتربة بغزارة.

إن ما أشعر به الآن ليس الخوف ولكنه الاستسلام للقضاء
والانتظار المقيت لمعرفة أى جزء من جسدى ستمزقه شظية مشتعلة،
غارت الأرض فقد سقطت فوقنا قبلة مباشرة أزالنا على ما يبدو
كل القطاع الأيمن من خندقنا.

سمعت صوتاً يصرخ :

- يا للمصيبة.. إنها قنابلنا.

أدركت على الفور أن مدفعيتنا فى الخلف بدأت فى الرد وقد
اخطأوا تقدير المسافة حتى صارت قنابلنا تنزل على أم رأسنا.
شهقت، كدت أبكى من العجز وقلة الحيلة. وأنا أتشبث بالأرض
وأحتضنها. استجابت تغطيني بمزيد من ترابها.

مضت لحظات ثم شعرت ان القصف بدأ يتعد فى اتجاه خطوط
الأعداء، تنفست بارتياح، أدركت أنهم صححوا الخطأ.

خفت حدة القصف من الجانبين، ابتسمت وضغطت أكثر
بجسدى على الأرض ألتمس مزيداً من الراحة والحنان.

ألقيت نفسى أصرخ مدعوراً ككل الذين حولى :

- إهجم للأمام.. إهجم للأمام.

وجدت نفسى أهجم للأمام، ان ما يحدث يختلف عن كل ما
عرفته من قبل، لقد كنت أسرع وأبحث وأنهض وأخطر وأهت
وأقدم، كل ذلك فى آن واحد.

أصبحت وزملائي نسير متباعدين فى تشكيل مفتوح، تقاربنا فى
سرعة وشكلنا قطاراً ثم عدونا خلف بعضنا نعبث ثغرة فى حقل

الغام، أتممنا ذلك في لحظات وبنفس التشكيل اندفعنا واخرقنا
مرا ضيقا بين الأسلاك الشائكة.

نجحنا في ذلك.

في هذا الوقت بالذات انهالت علينا الطلقات تحصدنا، رأيت
أمامي زملاء بمجموعتي يخرون صرعى، انتابتنى حالة هستيرية،
دفعتنى بكل سرعة إلى الإمام، وجدتهم أمامي رحى أطلق نيران
بندقيتى بجنون.

رأيتهم يتساقطون قتلى، فرغت الطلقات، انقضضت أعمد السونكى
استقر فى رقبة، سمعت صرخة، انتزعته، جريت أعمده فى ظهر
واحد منهم يريد الفرار، انحرفت يدي، ارتطم السونكى بالأرض
وانكسر، عدوت خلفه، ألقيت بنفسى عليه، عضضته فى رقبته
أحسست بقطعة لحم كبيرة دافئة بين أسناني، صرخت، شظايا،
دم، ضوء مبهر، طنين، إظلام دامس.

حركت رأسى أرفعه فى بطاء شديد، الشمس بدأت تميل إلى
الغروب، عرفت انى هنا منذ ساعات.

عدت أوسد خدى الأرض كما كان، اجتاحنى صداد شديد،
قبل أن أغمض عيني وقع بصرى على ما جعلنى أفتحها مرة أخرى
وأحدق، على بعد رأيت رفيقا يطل من خندق صحت:

— هيه.

كانت ذراعا ممدودتين أمام رأسه على الأرض، وخيل لى أنى
أسمعه يسألنى، صحت:

- هل قلت شيئاً ؟

لم يرد رأيتَه يحرك رأسه ناحيتي حتى صار ينظر إليّ، شهقت في جزع، حاولت أن أهرب، إنه ليس من جنودنا، شعرت بألم بالغ بدأ ينقض عليّ، نظرت في سرعة أخبره أنني جريح، إقشعر بدني لما رأيتَه مازال بمكانه.

كان يحرك رأسه في بطاء جهة اليمين ثم يعاود ويحركه جهة اليسار، بدا لي كأنه يختنق، صحت رغماً عني:

- هل انت مصاب ؟

لم يرد، صرخت أردد :

- هل تفهم لغتي ؟

وخزني ألم شديد، صمت. عدت بيأس أسأله :

- هل تفهم ما أقول؟

حرك رأسه، هتفت يا الهى، لقد سمعنى، رأيت رأسه يختلج إلى الخلف ثم إلى الأمام فتردد على وجهه آخر شعاع للشمس قبل ان تختفى، تبينت ملامحه، أخطئ إن قلت انه ليس أصغر منى في السن، حولت رأسي إلى السماء، ثم ملت مرة أخرى أنظر إليه، كان يبدو مذعوراً يحس ألماً، صحت :

- انتظر.. ساتى إليك.. ساتى إليك.

تأوهت، نظرت ناحيته، أطرقت وغمغمت، لا تخذلنى يارب، ناضلت برهة، لم أبرح مكاني، نظرت إليه، رأيت ذراعيه الممدودتين نحوى تتسعان صرخت من العجز.

بدأت أحس ما جرى لى، صرخت من الألم، بكيت بشدة، رفعت رأسى، الظلام زحف عليه، لم أعد أتبين ملامحه.

رأيت شبحا يعبث الهواء بشعرات فى رأسه، ناديت، قلت:
- لا أستطيع أن آتى إليك..

حاولت أن أطمئنه فصحت بأعلى صوتى:

- عندما يأتى جنودنا سيحملونك معى إلى المستشفى.

استدركت فى ذعر، ماذا يحدث لو أن جنوده الذين انتصروا حضروا ليأخذوه، اجتاحتنى رهبة بالغة، قد يقتلوننى، حاولت أن أتأكد، صحت بأعلى صوتى:

- هل يعرف أحد منكم من انتصر فى الحرب؟

تردد صوتى فى جميع الأرجاء.

لا جشنا ولا جشهم تردد.

فى يوم تسطع فيه الشمس وفى داخل ملف مترب على الرف أوراق بين سطورها عبارة (وقد أيدت الفرقة ٢٠٢٦).

امراة لكل العصور

لم أدرك أن أيامى سرقت منى إلا فى السنة الثالثة بعد الأربعين..
أبو الأولاد كان يكبرنى بأكثر من سنوات عمرى. تزوجته فى السن
التي تبهر فيها المراهقة بالرجولة الكاملة.. ذهب إلى مولاه بعد أن
أنجبت له ثلاثى أصبحوا أطول منى.. كريماً فى مصروف البيت
والفاكهة والدكاترة لأنه من عيلة مرتاحة.. الحق يقال، لكنه كان
يرى فى أحمر الخدود بهرجة، وفى كثرة خروج الزوجة من الدار
ما يقلل من قدرها، وحكمه على دردشة التليفون سخافة، وارتداء
المايوه والبنطلون وسوسة أبالسة، وأعياد الميلاد بدع مستوردة،
وقراءة المجلات تفاهة. والسرحان غباء، وتلبية رغبات الأولاد
إفساد، والاختلاط بالجيران انتهاك لحرمة البيت، والصدىقات
مندوبات خراب، والسهر فيه قضاء مبرم على الصحة، وقميص
النوم خارج غرفة النوم امتهان لشرعية التقاليد، والكوافير حرام،
والمناقشة رعونة، والضحكة العالية قلة أدب، والنادى مرفوض
مرفوض.. وعندما سقط كفه على ذهول وجهى فى أول زواجنا
لعلمه أنى استقبلت ابن خالتى فى غيبته ظللت لا أفتح إلا شراعة
الباب لأقول للزائر إن الأستاذ غير موجود. ولم أكن أعلم ماذا
سأكل على الغداء إلا بعد أن يصدر توجيهاته فى الصباح، وهو
الذى يحاسب صبى المكوجى ويأخذ الزجاجة من بائع اللبن ويعرف
مستوى تفهم الأولاد من أستاذ الدرس الخصوصى.

المفاتيح التي كانت جميعها في قبضته تركها لي ورحل..
 قمم الرهبة.. مرحلة إنعدام الوزن. مثل طائر يفتح له باب القفص
 فيظل منكشاً بالداخل لا يدري أهمية مساحة الفضاء التي أمامه
 بلا قضبان. بحذر تتعثر خطواته إلى الخارج يداعب النسيم أجنحته.
 لا حاجز يصدمه. تنتشى تجربته، يخلق إلى أقرب غصن.. ثم
 إلى الحرية !

لم أكن أصدق أنه لا محظورات. لي كامل إرادتي. أستطيع أن
 أعبر الباب بلا إذن والعودة متى أشاء. أكس حقيتي بالجنهات
 وأنتقى اللون الصارخ والحذاء المفتوح. أرفع صوت غناء لوعة
 الحب ونار الفراق وحلاوة الشوق ووصل الوداد. أتابع أخبار
 الفنانات وتطربني المرأة. يهزني الغرور. أرقص لها كأمر من تهز
 محيط الوسط. أراجع حبال الضحكة وأتحيز لفريق. أدور بالعربة.
 في كل شارع وأضع لها كلاكس يصدر صوصوة، وتحملني رحلة
 بطائرة وأصبح قيادة في شلة.. ومائة حجة وحجة لإقامة حفل..

ما كانت الأرض العطشى قد ارتوت تماماً عندما وجدته في
 طريقى. شاب جاء ميلاده بعدى. يعشق النضج وأوج الأنوثة والمرأة
 الأم. أتكلم فيصغى. أطلب يلبي. صوته حب. حنانه رجولة. بجانبه
 الحياة انطلاق.. الأولاد لم يعتادوا ممارسة الرفض. لم يقل أحدهم
 لا.. وافقت على الزواج.. جاء بيتنا يعيش.. الحياة حلوة..

ضغبت عمري. جاريت سرعة حركته. نفذت حيوية برامجه.
 أدمنت أن أعود شابة. أن أظل امرأة لكل العصور. أردت أن أمنحه
 المعجزة. أحتويه بالتكامل. أعطيه الطفل. لكن الكيان الذي أعطى

ببلاهة لمن لا يعنيه فيما مضى رفض رعاية غرس الحب، والخلايا
التي تشيخ أحاول تجديدها من خلف الستار.. أصبحت زبونة لوهم
معاهد التجميل. أشد جلوداً ترهل. يستأصل المشرط جانباً من
شحم. أذوب فى لهيب أجهزة كهربائية. تسليخ وجهى أقنعة
مستحضرات. ألث فوق عجلة تخسيس. أقطع النفس فى بخار
حمام الساونا. ينهد حيلى تحت قبضات التدليك. أخرس الجوع.
أبتلع الأقراص ويصبح مؤشر الميزان سيفاً مسلطاً على أعصابى..
تعبت..

البرنامج الذى وضعه لرحلة اليوم كان حافلاً.. سيارات وخيام
وسباحة وغطس ورقص وسهر. الأولاد كل فى طريق، وهو قلت
له أذهب وحدك فأنا اليوم متعبة. أصر على البقاء بجوارى. تشبثت
بإصرار وجدتنى أعجب له.. ومضى.. ياه. أحمال كجبال أزيحها
عن أكتافى لساعات. استراحة. البطلة يداعبها الاعتزال. أتحرر من
المشيدات. من الشباب. أرحم وجهى من الأصباغ.. أرفع سماعة
التليفون. أخرس ضجيج الموسيقى. أغلق تيارات الهواء. ألقى
بمضرب للتنس فوق ظهر دولاب. أفك دبائيس الشعر. أنزع كعباً
يقلص أوردة الساق. أسبح فى اتساع جلاب. يشد المنديل جنبهتى.
أثناء بملء حنجرتى. أقرأ الفاتحة للمرحوم.. أروح فى نوم
كالموت لا يقلقنى فيه شخير قد يطرده صدرى !

موقف فى حياة صعلوك

انتصف ليل القاهرة أو كاد، لكن حركة الحياة لم تتوقف، رغم برودة «يناير» اللاذعة. قادتة قدماء إلى ركنه المنعزل فى قهوة «الفيشاوى». لا يدري كيف وصل.. ولا أى طريق سلك، غير أنه أحس راحة شديدة، حينما جلس متهاكاً على الكرسي الخشبي. لم يجد صعوبة - رغم الزحام - فى أن يصل إلى حجرة، فيها مجلسه المفضل. هنا مارس كل الأنشطة التى يبيح القانون ممارستها فى مكان عام..!! يحلو له - أحياناً - أن يقضى الليل فى هذه الحجرة، ليس مهماً أن ينام، المهم هو أن يقتل إحساسه بالوحدة والوحشة، وهو يعيش فى مدينة تعدادها اثنا عشر مليوناً من البشر. آه يا قاهرة..!!

أيقظه الجرسون دون أن يلتفت إليه

- شاي يا أستاذ أحمد؟

أوماً له بإشارة بطيئة. فى اللحظة التى غاب فيها الجرسون، ظهر ماسح أحذية، أخذ يضرب بفرشاة خشبية على صندوق صغير، فتغافل عنه، موقناً أن حذاءه قد صار أرخص من القروش، التى يمكن أن يمسح بها، كما أنه - أى الحذاء - صار أجرب لا ينفع معه أى لون، وأهم من هذا وذاك هو أنه لا يحتكم على أى نقود..!!

جاء الجرسون، ووضع أمامه الصينية وبرد الشاي، وكوباً بها بعض السكر، وورقة نعناع أخضر، وكوباً أخرى بها ماء. احتسى الماء بسرعة أملاً في أن يسكت معدته الخاوية. بينما كان يذيب السكر في الشاي برتابة وهدوء، أخذ يتأمل زبائن المقهى، وهم يلعبون الدومنيو أو الطاولة، ويدخنون الشيشة أو الجوزة، ويشربون القرفة أو الزنجبيل أو الشاي - مثله - أو الحلبة المطحونة أو القهوة. ثمة عالم غريب عجيب. يحاولون قتل ليل لشتاء البارد بصبر وعناد. البرد جعل الناس يقتربون من بعضهم البعض، ويتعاملون كأنهم أصدقاء حقيقيون، مع أنهم اجتمعوا صدفة.. وسوف يفرقون صدفة. أرهف السمع - دون قصد - لأحاديثهم الساخرة حول قسوة البرد وغلاء الأسعار واختفاء الحشيش. تأمل ملابسهم المتواضعة وعيونهم المرهقة، فرأى فيهم صورة منعكسة لحياته الضائعة.. غير أن هؤلاء الضائعين - فيما بدا له - كانوا أسعد حالاً منه، لأنهم يعيشون الفقر، ولا يشعرون به مثله على الأقل، زاد من إيمانه بهذه الفكرة أن وجدهم يتحلقون حول واحد منهم، بدأ يغنى بصوت مجروح :

إن كان يدك تريح القلب وتهدي
 اترك هوى الدنيا، لا تأخذ منها ولا تدي
 حسك تقول عمي ولا خالي ولا جدتي
 دا اللي معاه مال مالك دي ومالك دي
 واللي بلا مال تارك دي وتارك دي

صاح واحد من المستمعين متشياً:

- شاي على حسابي يا معلم لشلة الأوس!!

تمنى أن يكون قريباً من الشلة، حتى تشمله موجة الكرم المفاجيء، ويشرب شاياً على الحساب. لا فائدة، إنه - كما تخيل نفسه - هكذا دائماً.. لا هو مع الناس، ولا هو بعيد عنهم..!! لقد حاول.. وحاول، لكنه دائماً يفرّ ويهرب. شكّل الفقر بالنسبة له حداً مثل سور الصين العظيم، يجول بينه وبين البشر. لم يكن أمياً بحيث يتجه إلى حرفة، ويكون على الأقل مثل جاره الأسطى دسوقى الحلاق. كما أنه لم يكمل تعليمه، بحيث يستطيع أن يشغل وظيفة محترمة. إنه مجرد حاصل على الثانوية، ويعمل - منذ خمس عشرة سنة - معاوناً لمدرسة ابتدائية. لكن الذي أفسد حياته ودمّر كيانه، توهمه منذ وقت مبكر، أنه يمكن أن يكون كاتباً صحفياً، فأخذ يشتري الجرائد والمجلات، ويكتب ويرسل إلى كل الصحف والمجلات.. لكن اسمه لم يظهر حتى الآن سوى مرتين في بريد القراء. بين الحلم والواقع ضاعت جنيته وقروشه، واغتربت نفسه وروحه. أمسى يؤمن أنه غريب.. مضت المسافة تتسع بينه وبين الناس في العمل.. وفي الحارة.. وحتى في المقهى..!!

لعن - في النهاية - في السر والعلن الصحف والصحافة، وقرر أن يكون ممثلاً.. فناناً، والفن - في تقديره - موهبة لا يحتاج المرء معها إلا إلى النوايا الطيبة. بدأ يتابع مجلات السينما، ويتعاطى مشاهدة الأفلام المحلية والأجنبية.. وأخذ ينتظر الفرصة السانحة. توهم ذات مرة أن الممثل الذي يقوم بدور الرجل الطيب على

الشاشة، هو كذلك بالفعل في الواقع. راح ينتظر الممثل الطيب - كما تصوّر - في أقرب مسجد إلى بيته كل يوم جمعة، غير أنه اكتشف بعد نصف سنة أن الرجل لا يزور المسجد ألبتة. بعد ذلك اتهم نفسه بقصور الرؤية وقلّة الوعي، وقال: لم لا أطلب المساعدة من ممثلي أدوار الشر؟! لكنه اكتشف - بعد فوات الأوان - أن كل الطرق إلى الشاشة الكبيرة أو الصغيرة مسدودة.. مسدودة، وأن لا أمل.. لا أمل. رأى في نفسه صورة مجسدة للفقر. لولا الفقر لما مات أبوه دون علاج.. ولا توقف مسار تعليمه.. ولا ما تزوج حتى الآن. الفقر لعنة.. والفقراء مبعدون.. مستبعدون..!!

ترك المقهى.. وطاف حول مسجد الحسين مثنى وثلاث ورباع. تعب من كثرة الطواف فجلس أمام المسجد. أدرك حين رأى الحركة الصاخبة في الميدان أن الفجر مازال بعيداً.. وربما بعيداً جداً. لكن التعب والضياع كانا أكبر من أي إحساس آخر. أيقظه من غفوته شرطى فى ملابس سوداء كأنه عفريت. أبرز له بطاقة تحقيق الشخصية طالباً عفوه، ثم مضى لا يدرى إلى أين يمكن أن يذهب؟! أحس قشعريرة أشد برودة من ليالى الشتاء. حين توهم أن عيني الشرطى لاتزالان تتعقبانه، أسرع فى الحوارى والأزقة.. حتى وصل إلى شارع المعز. الشارع متعرج مثل أفعى رقطاء. الهدوء الموحش يظلل المكان. لا صوت.. لا حركة.. لا أحد يمشى فى هذا الليل البارد سواه. سوّلت له نفسه أن يعود إلى المقهى.. لكن ماذا يفعل هناك ولم يعد معه قرش

واحد. أفضل شيء هو أن يذهب إلى البيت لينام، حتى يذهب إلى المدرسة في الموعد، ولو مرة واحدة. الناظر استخدم معه كل أساليب الزجر والعقاب بلا جدوى. أخيراً كتب عنه في ملف الخدمة «لا يُنقل ولا يُرقى ولا يُفصل ولا يأخذ علاوة».. يعنى موظف مع إيقاف التنفيذ. تحسر على ما آل إليه حاله، وقرر أن يبدأ من جديد بداية صحيحة. يجب أن يرضى بالقضاء والقدر، وأن يؤدي واجبه كما ينبغي.. وأن ينسى كل الأحلام أو الأوهام التي أفسدت حياته!!

وصل أخيراً إلى البيت. تلمس طريقه بحذر على السلم المظلم والسور الحديدى المتآكل. أخذ يصعد درجة درجة، وأصداء صخب المقهى ومطاردة الشرطى وبرودة الليل تزيد من آلامه ومخاوفه. حاول أن يفتح الباب - باب غرفته - بهدوء، حتى لا يوقظ النائمين، لأنه يشغل غرفة فى شقة مشتركة، توجد بها ثلاث غرف أخرى، فيها ثلاث عائلات. شعر بقدر من الراحة، حين سمع فى الظلام حركة المفتاح تؤذن بفتح الباب المغلق. ظلام الحجرة أشد من ظلام السلم. صاحب البيت قطع عنه النور، لأنه غير مواظب على دفع الأجرة. لعن الظلام.. وصاحب البيت.. وناظر المدرسة.. وجرسون المقهى.. وشرطى البوليس، وارتمى متهاكاً على الحصيرة. لدغه البرد بشدة. رغم برد الحصيرة وظلام الحجرة.. استلقى على ظهره، وتناول بملابسه وخذائه البالى الأجرى، جذب البطانية المتآكلة وغطى جسده المتعب من القدم إلى الرأس. أحس أنه لم يسترح لحظة فى حياته. حاول أن يطرد أشباح الخوف والبرد.

قليلاً قليلاً بدأ يحس بعض الدفء. أخذ النوم يداعب جفونه.
فيما هو بين اليقظة والمنام رأى طيف أبيه يقول له :
« كن شجاعاً يا أحمد.. حاول أن تبدأ منذ الآن بداية جادة..
بلا خوف ولا وهم!! »

[من مجموعة «دائرة اللهب»]

مختارات من القصة العالمية

شقاء !

الشفق يؤذن بإقتراب الليل، وندف كبيرة من الثلج تتساقط حول مصابيح الطريق، وقد أضاءت لتوها، وتكسو السطوح والقبعات وظهور الخيل وأكتاف الرجال بطبقة ناعمة رقيقة، والحوذى «إيونا بوقاف»، قد لفه الثلج، فتجمد في مكانه في العربة، أبيض كالشبح، وانكمش كأقصى ما يستطيع الجسم الإنساني أن ينكمش، لا يفكر في إزاحة الثلج عن جسده، حتى لو تساقط عليه منه تيار منتظم. وحصانه كذلك: أبيض وساكن، يبدو في سكونه، وحدة خطوط جسمه، وقوائمه الرفيعة المشدودة تشبه العصا في استقامتها، أشبه بعلبة الأطفال. وأغلب الظن أنه كان يتأمل ما حوله، وقد انتزع من الحرث، وألقى به وسط هذا الإعصار من الأنوار المخيفة، والضجيج المتواصل، وناس يتدافعون.

مضى وقت طويل دون أن يتحرك، خرجا إلى الشارع وقت العشاء، لكنه لم يربح شيئاً، ولم يدعه أحد من الزبائن، لم يجيء أحد بعد، بينما ظلام الليل يلف المدينة، ويتوهج ضوء المصابيح، وتشتد حركة الشارع. وفجأة سمع إيونا من يناديه:
- حوذى.... أوصلنى إلى فيير جسكاييا.

انتبه إيونا، ورأى من خلال عينين غطتهما ندف الثلج ضابطاً يرتدى معطفاً عسكرياً واقياً من المطر.

- إلى فيبر جسكاييا... هل أنت نائم؟... إلى فيبر جسكاييا.

شد إيونا الشكيمة موافقاً، فتطير الثلج من على ظهر الحصان وكتفه، وأخذ الضابط مكانه من العربة، بينما أخذ الحوذي بعض لسانه، ويمد عنقه، كما لو كان أوزة، وارتج قليلاً في مقعده، وراح يلوح بسوطه، عادة لا ضرورة، فاشتد الحصان، ومد عنقه، وبدأت سيقانه الخشبية تتلوى. ومن بين كتل الظلام تتراقص أمام عينيه، سمع صوتاً يصيح به:

- إلى أين تتجه.... إلى أين أنت ذاهب بحق الشيطان... إلى أين تدفعك العفاريت؟... الزم يمينك يا رجل.

وغضب الضابط:

- أنت لا تعرف القيادة... الزم يمينك !

ويلعنه سائق عربة أخرى، وينظر إليه أحد المشاة في غضب، ويزيح الثلج عن كفه، وقد اصطدم ذراعه برأس الحصان وهو يعبر الطريق، وبدأ إيونا في مقعد السائق كما لو كان يجلس على حصيرة من الشوك، يرفع كتفيه، ويدير عينيه في نظرات بلهاء، كما لو كان غائباً عن الوعي، لا يعرف أين هو، ولماذا وجد في هذا المكان.

وقال الضابط متهكماً: أى ناس أشرار هم، إنهم يتعمدون ما وسعهم أن يصطدموا بعربتك، أو يقعوا تحت حوافر حصانك، يفعلون ذلك عمداً، كما لو كانوا على اتفاق.

ونظر إيونا إلى الراكب، وحرك شفتيه، كان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن همهمة غامضة هي التي كانت تخرج من فيه فحسب.

وسأله الضابط: ماذا تقول؟

والتوى فم إيونا بابتسامة كئيبة، وشد عنقه، وبجهد راح يقول في صوت خفيض:

- ابني... ابني مات هذا الأسبوع يا سيدى !

- أوه... مات بماذا ؟

واستدار إيونا بكل جسمه إلى الراكب، وقال:

- لا أحد يدري... من حمى على التأكيد، رقد ثلاثة أيام في المستشفى وهناك مات، إنها إرادة الله.

وارتفع صوت في الظلام: ابعده أيها الشيطان... لم جعلت العينان أيها الكلب العجوز، إلى أين أنت متجه! وقال الضابط:

- أسرع... أسرع، لأننا على هذا النحو لن نصل هناك إلا صباح

الغد.

عاد الحوذى يمد رقبتة، ويرتج خفيفاً في مقعده، ويقرقع سوطه بعنف، واستدار مرات ورائه ليرى الزبون، ولكن هذا أغمض عينيه، وبدأ كأنه لا يرغب في الاستماع إليه. وبعد أن أوصل إيونا راكبه إلى فيبر جسكاييا توقف أمام حان، وانكمش في مقعده من جديد، وتجمد ثانية، وبدأ الثلج يتساقط على كتفيه، وعلى الحصان، ومرت ساعة، وبعدها ساعة... ثم ظهر على الطوار ثلاثة شبان يتمايلون،

يرسلون ضجيجاً عالياً، بأحذيتهم الثقيلة، ونقاشهم الحاد، اثنان منهم طوال القامة، والثالث قصير أحدب، وصاح الأحدب: إلى كوبرى البوليس أيها السائق، سندفع لك نحن الثلاثة عشرين كوبيك.

وشد إيونا الشكيمة، وعض شفته، عشرون كوبيك ليست أجرة طيبة، ولكن سيان لديه روييل أو خمسة كوبيك ما دام هناك زبائن، واقترب الشبان من العربة، وبين التدافع والشتائم وثبوا إليها وحاولوا أن يجلسوا جميعاً فى نفس الوقت، ولم يكن المقعد يتسع لغير اثنين، فبقى الأحدب واقفاً، وقال:

- هياً... ألهب الحصان. اندفع بقوة، أية عربة هذه التى لك يا صديقى، محال أن يوجد فى بطرسبرج أسوأ منها. وضحك إيونا: ها.. ها.. من ليست عنده غيرها!

- طيب.... أسرع، هل تريد أن نسير على هذا النحو كل الوقت?... إذن تود أن أضربك على قفاك!. قال واحد من الثلاثة:

- إن الصداع يؤلمنى، شربت بالأمس أنا وفاسكا أربع زجاجات من الكونياك، فى منزل دو كما سوف.

رد الآخر بغضب:

- لا أرى ثمة ضرورة للكذب.... إنك تكذب بطريقة مخجلة!

- فليعافنى الله إذا لم يكن ذلك صحيحاً.

- إذا كانت القملة تعطس فما تقوله صحيح، وفتح إيونا فمه

فى شبه ابتسامة وقال:

- ها... ها... أى مزاج رائع لدى السادة! وصاح الأحذب فى غضب:

- معك إلى جهنم... ألا تريد أن تسرع أيها العجوز القذر؟
ألهب ظهر حصانك... اضربه بالسوط... اضربه بقوة..

كان أيونا يحس بهياج الأحذب خلف ظهره، ويسمع السباب الذى يوجهه إليه، ثم رأى الناس، وأحس بالوحدة تتعد عنه شيئاً فشيئاً، على حين واصل الأحذب شتائمهم، وصمت عنه ليضحك على فكاهة ألقاها أحد زملائه، واستمر يضحك حتى ذهب السعال، وأخذ زميلاه الطويلان يتحدثان عن فتاة اسمها ناديا بتروفنا، وينظر أيونا إليهم، ويتنظر حتى تسود فترة صمت، ويلتفت إليهم من جديد، ويقول:

- هذا الأسبوع... فى هذا الأسبوع مات ابنى! وقال الأحذب وهو يجفف شفثيه من السعال:

- كلنا سنموت... طيب، طيب، أسرع... لم أعد أحتمل أنا وأصدقائى هذا الزحف البطيء، متى ستصل؟

- شجعه.. اصفعه على قفاه! أسمعت أيها العجوز القذر؟ سأصفعك، سأجعلك شيطاناً، لو احترم الإنسان مثلك فخير له أن يمشى على قدميه، أسمعنى؟... أم لا تهتم بما يقال لك!

وسمع أيونا، أكثر مما أحس، بصفعة قوية على قفاه، ويضحك: ها. ها... أى شبان مرحون أنتم، ليمنحكم الله الصحة.

ويسأله أحد الشابين الطويلين :

- حوذى... هل أنت متزوج؟

- من؟.... أنا؟.. ها.. ها.. أى مزاج رائع أنتم عليه.. الأرض الرطبة هى زوجتى الوحيدة الآن.. ها.. ها.. لقد مات ابنى، وما زلت أنا بعده حياً.. يا للغرابة! لقد أخطأه الموت، أخذه وتركنى.

واستدار إيونا ليخبرهم كيف مات ابنه، ولكن الأحذب تنهد، وتنفس الصعداء، وأعلن: أخيراً وصلنا والحمد لله.

وبعد أن قبض إيونا أجرته ظل يحدّق طويلاً فى الشبان الثلاثة، وهم يختفون فى ممر مظلم، وعاد من جديد لا يملك غير الصمت. داعب النوم جفونه خلال لحظات قصيرة، ثم عاد يمزق قلبه على نحو أقسى مما كان من قبل، وبعينين مقروحتين أخذ يتأمل الجماهير غادية ورائحة على جانبي الطريق، ألا يجد بين هذه الألوف من البشر من يغيره سمعاً، ولكن الناس يمرون حوله ولا يشعرون بشقائه، شقاء عميق بلا نهاية، لو انفجر قلبه لأغرق الدنيا!

ويرى إيونا بواباً يحمل لفة، ويقرب منه شيئاً، ويتهاى للحديث معه:

- كم الساعة الآن يا صديقى؟

- الساعة قاربت العاشرة... لماذا توقفت هنا؟.. ابتعد عن هذا المكان.

وابتعد إيونا بضع خطوات ثم انكمش جسمه، واستسلم للشقاء، بدا له من العبث أن يتجه إلى الناس، وقبل أن تنقضى خمس دقائق اعتدل فى جلسته، وهز رقبته، كما لو كان يشعر بألم حاد، وشد الشكيمة وهمس فى نفسه: إلى الإسطبل... إلى الإسطبل.

وانطلق حصانه مسرعاً كما لو كان يعرف أفكاره، وبعد ساعة ونصف جلس إيونا إلى جانب موقد قديم قذر، وعلى الأرض، وعلى مقاعد خشبية قديمة أناس يغطون في النوم، والهواء خائق، وملئ بالروائح العفنة، ونظر إيونا إلى النائمين، وهرش في جلده، وتحسر لأنه عاد إلى البيت مبكراً.

وقال في نفسه: لم أكسب حتى ما يكفي للقرطم، وهذا على التأكيد مصدر حزني، فعندما يؤدي المرء واجبه يأكل ما فيه الكفاية، ويأكل حصانه حاجته، ويشعر بالراحة. ونهض حوذي آخر في ركن من الأركان، يغلب عليه النوم ويتجه إلى مكان المياه، وسأله إيونا:

— أعطشان أنت؟

— نعم... أريد أن أشرب.

— بالهناء والشفاء.. ولكن ابني مات يا زميلي... كان لي ولد ومات.. أتسمعي؟ مات هذا الأسبوع... في المستشفى، إنه أمر غريب.

وأخذ إيونا يرقب الأثر الذي تركته كلماته، فلم يلحظ شيئاً، كان الشاب قد غطى رأسه واستغرق في النوم.

وتنهذ الرجل العجوز، وهرش في جسمه، كان ظمناً إلى الكلام، كعطش الشاب إلى الماء. أو شك أسبوع أن ينصرم منذ مات ابنه، وهو لم يتحدث إلى أحد بعد حديثاً حقيقياً، يريد أن يتحدث عنه حديثاً جدياً وفي هدوء. أن يحكي كيف مرض ابنه وكيف تعذب، وماذا قال قبل أن يموت وكيف مات، وأن يصف جنازته، وكيف

ذهب إلى المستشفى لاستلام ملابسه. وما زالت لديه ابنته أنيسيا في الريف، وهو يريد أن يتحدث عن أنيسيا بدورها، نعم لديه الكثير مما يريد أن يقوله، وينبغي أن يتهدد، وأن يجد من يستمع إليه، وأن يعجب من الزمن وأن يأسى له، وسيكون من الخير أن يتحدث إلى النساء لأنهن ينهمرن بكاء مع الكلمة الأولى، برغم أنهن مخلوقات حمقاوات.

وقال إيونا لنفسه:

دعنا نخرج ونلقى نظرة على الحصان، وفي الوقت متسع دائماً للنوم، لا تخف ستنام بما فيه الكفاية.

ولبس إيونا معطفه وتوجه إلى الإسطبل، حيث حصانه، وبدأ يفكر في القرطم وفي الدريس، وفي الجوز، وفي ابنه... عندما يكون وحده لا يستطيع أن يفكر فيه. من الممكن أن يتحدث عنه إلى شخص ما، ولكن التفكير فيه وهو وحده، وتصوره، ألم مرعب لا يمكن لإنسان أن يتحمله.

وسأل الحصان، وهو يتأمل عينيه اللامعتين: ماذا تعمل؟.. هل تأكل؟... كل، كل... إن لم تربح ما يكفي لشراء القرطم فلتقنع بالدريس، نعم لقد أصبحت عجوزاً على قيادة العربات... كان ينبغي أن يكون ابني الوحيد هو الذي يقود لا أنا... كان قائداً بمعنى الكلمة... كان يجب أن يعيش، وسكت إيونا برهة، ثم تابع حديثه:

- هذه هي القضية يا حصاني العزيز... لقد ذهب ولدي، لم يعد هناك من يسمى «كوزما أيونتش»، قال لي وداعاً، ومات دون

سبب ما، والآن تصور أن لك مهرة صغيرة، وأنتك والدها، فجأة ذهبت هذه المهرة وماتت، ألا تتأسف لموتها... أليس كذلك.

كان الحصان يعلك ويجتر وينخر فوق يدي سيده، وأخذت الحمية إيونا، فبدأ يحكى له القصة كاملة.

الحبل

أقبل الفلاحون فى «يوم السوق» مع زوجاتهم على الطرق الكثيرة المنتشرة حول بلدة «جودرفيل» قاصدين المدينة. وقد احتشد الجميع واختلطت القبعات العالية التى يلبسها الأغنياء منهم بقرون الماشية، وبما تحمله القرويات فوق رؤوسهن. وكانت الأصوات المنبعثة من هنا وهناك تثير ضجة متواصلة، كان يعلو فوقها بين حين آخر حوار بقرة أو قهقهة مدوية من ريفى قوى الصدر.

وكان السيد «هوشكورن» - وهو من أهالى بلدة «بروتيه» - فى طريقه إلى الميدان عندما لمح على الأرض قطعة حبل صغيرة. وكان الرجل على جانب كبير من الحرص ككل نورماندى صميم، يرى أن كل ما يفيد يجب أن يلتقط فقد ينتفع به، فأحنى قامته فى جهد ظاهر، على الرغم مما كان يشكوه من آلام الروماتيزم، وأخذ يلف قطعة الحبل فى تودة وعناية. ثم وقعت عيناه فى تلك اللحظة على السيد «مالاندان» صانع السروج واقفاً بباب حانوته وهو يحدجه بنظراته.

كان بين «مالاندان» و «هوشكورن» خلاف قديم، إذ كان الرجلان قد تنازعا ذات مرة من أجل رسن، ولأنهما كانا حقودين فقد استحكمت العداوة بينهما منذ ذلك الحين. وأحس السيد «هوشكورن» بشيء من الخجل حين رآه عدوه يأخذ قطعة من الحبل

من الأرض الملوثة بالأقذار، فأسرع بإخفائها تحت سترته، ثم دسها في جيب «بنطلونه»، وأخذ يتظاهر بأنه لا يزال يبحث في الأرض عن شيء لم يعثر عليه بعد. ومضت لحظة قصد بعدها إلى السوق، ورأسه إلى الأمام وظهره مقوس من الألم، وسرعان ما غاب في الجمع الصاحب المحتشد، وشغلته مناقشات ومساومات لا تكاد تنتهى!

وكان الفلاحون يفحصون الأبقار، وينصرفون عنها، ثم يرتدون إليها وقد استولت عليهم الحيرة، وامتلأت نفوسهم بالخوف من أن يصيبهم الغبن، فكانوا نهياً للتردد لا يجسرون على البت في الأمر، يرقبون الباعة، ويحاولون جهدهم أن يهتدوا إلى حيلهم أو إلى عيب فيما يريدون شراءه من الدواب. وكانت النساء قد وضعن ما يحملن من السلال الكبيرة عند أقدامهن، وأخرجن الدجاج وألقينه على الأرض، موثوق الأرجل، قرمزي الأعراف، يطل الفرع من عيونه.

وكان طلاب الدجاج يعرضون على الفلاحات أثماناً بخسة فيأين إلا ما ذكرن لهم من أثمان، وقد شاعت في ملامحهن الصلابة، وبدت وجوههن خالية من كل انفعال. وقد يحدث فجأة أن تقبل إحداهن الخفض المقترح، فتصيح بطالب الشراء، الذي يكون قد هم بالانصراف على مهل: «حسنا يا سيد أنتيم».. سأعطيك إياه بما ذكرت.

ثم أخذ الميدان يخلو شيئاً فشيئاً، ودق ناقوس الظهر، فذهب الذين قدموا منهم من أماكن بعيدة إلى حانات البلدة ومطاعمها.

وكانت صالة الطعام الكبيرة في مطعم «جوردان» غاصة بالناس، كما كان الفناء الرحب يزخر بالمركبات من كل نوع، وقد استقر لونها من تلوثها بالأقذار، وبدا بعضها و«عريشه» مرفوع إلى السماء كالذراعين، وبعضها الآخر قد استقر عريشه على الأرض. وكان بالمطعم موقد كبير، قد استعرت ناره وانبعث منها الدفء في ظهور الجالسين حوله. وكانت هناك ثلاثة سفايد تدور على الحاضرين مثقلة بالدجاج والحمام وأفخاذ الضأن، بينما كانت الرائحة الشهية المنبعثة من المرق والشواء فوق الموقد تداعب الأنوف، فتضاعف المرح وسال اللعاب، وقد جلس رواد المطعم ينتظرون الأطباق الشهية التي كانت لا تنفك تقبل عليهم مملوءة وترتد عنهم فارغة، وهم يتبادلون الحديث بصوت مرتفع، أو يتحدث الواحد منهم إلى رفيقه أو جاره عن شئونه وعما اشترى وباع.

وفجأة، سُمعت دقات طبل صادرة من الفناء، فأسرع من في المطعم إلى النوافذ والأبواب، وأفواههم ممتلئة، والقوط ما زالت بأيديهم، ولم يبق في مكانه إلا قليل منهم لم يعنوا بالأمر. وبعد أن انتهى منادى البلدة من دق طبلته، أخذ يتلو ما يلي بصوت خشن التبرات:

«على الجميع أن يعلموا أنه فقدت صباح اليوم على طريق «بوزفيل» فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، محفظة جيب من الجلد، سوداء اللون، بها خمسمائة فرنك وبعض الأوراق. فعلى من يجدها أن يسارع إلى ردها دون إبطاء إلى مكتب العمدة، أو إلى السيد «هولبريك» من أهالي مانفيل، ولمن يفعل ذلك جائزة قدرها عشرون فرنكاً».

وما كاد المنادى يفرغ من تلاوة هذا البلاغ حتى انصرف من الفناء، ثم سمع دق الطبل مرة أخرى صادراً من بعيد، وكان صوت المنادى أقل قوة ووضوحاً في هذه المرة.

وما إن تلاشى الصوت حتى شرع الناس يتكلمون عن الحادث، ويتساءلون هل يرجى أو لا يرجى أن يسترد السيد «هو لبريك» محفظته المفقودة، وكادوا يفرغون من تناول القهوة، عندما ظهر البوليس بباب المطعم وقال يسألهم: «هل السيد «هوشكورن» من أهالي «برتيه» هنا؟».

وكان «هوشكورن» في تلك اللحظة جالساً عند الطرف الآخر من المائدة، فقال ردّاً على سؤال الضابط: «نعم... أنا هنا» فعاد الضابط يقول: «هل لك أن تتفضل يا سيدي «هوشكورن» فترافقني إلى مكتب العمدة؟ إنه يريد أن يتحدث إليك». فاستولى على الرجل مزيج من الدهشة والقلق، وشرب ما في كأسه الصغيرة من الخمر دفعة واحدة، ثم نهض واتجه نحو الباب، وهو أشد انحناء مما كان في الصباح، إذ كانت الخطوات الأولى التي تعقب كل راحة شاقة بالنسبة إليه بوجه خاص، وكان يردد قائلاً وهو يمشي: «هأنذا.. هأنذا!».

* * *

وكان العمدة هو مسجل العقود أيضاً في هذه الناحية، وهو رجل ضخم الجسم يدل مظهره على الجد، وتنطق عباراته بالمهابة، وقد جلس في مقعده الوثير في انتظار قدوم السيد «هوشكورن»، فلما دخل عليه هذا الأخير ابتدره قائلاً:

- إنك شوهدت فى هذا الصباح يا سيد «هوشكورن» وأنت تلتقط - على طريق «بوزفيل» - المحفظة التى فقدتها السيد «هولبريك» من أهالى بلدة مانفيل...

فذهل الرجل، وشخص يبصره إلى العمدة، وقد أفزعته الشبهة التى اتجهت إليه فجأة وعلى غير انتظار، دون أن يعرف سبباً لذلك. ومرت لحظة من الصمت الرهيب قبل أن يقول بصوت مبحوح:
- أنا؟! .. أنا التقطت محفظة؟!!

- نعم. أنت نفسك.

- أقسم لك بشرفى أنى لا أعلم شيئاً عن ذلك!

- ولكنك شوهدت!

- أنا شوهدت يا سيدى العمدة؟ أنا؟ من ذا الذى يقول إنه رآنى؟

- السيد «مالاندان» صانع السروج.

وما كاد الرجل يسمع هذا من العمدة حتى تذكر حادث الصباح، وأدرك كل شىء، فصاح قائلاً وقد احمر وجهه من الغضب:

- آه!. رآنى ألتقط هذا الحبل. انظر، هذا هو يا سيدى العمدة!

ودس الرجل يده فى جيبيه، وبحث فيها لحظة، ثم أخرج منها قطعة الحبل. غير أن العمدة لم يصدق كلامه وإنما هز رأسه وهو يقول:

- إنك لن تجعلنى أصدق يا سيد «هوشكورن» أن السيد

«مالاندان» وهو رجل جدير بالثقة، قد حسب أن هذا الحبل محفظة!

فرفع الرجل يده وهو يكاد يتمزق من الغيظ، وقال في صوت متهدج النبرات:

- هذه هي الحقيقة، علم الله، يا سيدي العمدة. وأنا أكررها، والله على ما أقول شهيد!

فاستأنف العمدة كلامه قائلاً :

- وبعد أن التقطت ما وجدت، لبثت لحظة طويلة تبحث في الوحل، لترى ما إذا كانت أية قطعة من النقود قد سقطت من المحفظة!

وما إن وصل العمدة في حديثه إلى هذا الحد، حتى كاد الرجل يختنق من الغيظ والخوف، وقال في اضطراب بالغ:

- كيف يستطيع امرؤ أن يقول... مثل هذه الأكاذيب لتسيء إلى سمعة رجل شريف؟

كيف يستطيع امرؤ أن يقول...

غير أن احتجاجات السيد «هوشكورن» قد ذهبت كلها هباء، ولم يصدق كلامه أحد. وواجهه العمدة بالسيد «مالاندان» فأعاد ما سبق أن قاله من قبل، وتبادل الرجلان الشتائم بعض الوقت، ثم طلب السيد «هوشكورن» أن يفتشوه فلم يجدوا معه شيئاً.

واستبدت الحيرة بالعمدة أخيراً، فصرف الرجل من عنده بعد أن أنذره بأنه سوف يستشير وكيل النيابة فيما يجب إتخاذه من إجراءات.

وذاع الخبر في أرجاء المدينة، فلم يكد الرجل يغادر مكتب العمدة حتى أقبل الناس عليه وأحاطوا به من كل جانب، ثم أخذوا يلحون عليه بسيل من أسئلتهم المستطلعة، جادين أو ساخرين، فأنشأ يقص عليهم قصة الجبل، فما صدقه أحد منهم، وإنما ضحك منه الجميع مستهزئين!

ومضى السيد «هوشكورن» في طريقه، وجعل يستوقف كل من يصادفه من أصدقائه ومعارفه، ويقص عليهم القصة في حديث طويل لا نهاية له، ويروى على أسماعهم ما ساقه من الاحتجاجات، وهو يقلب جيوبه أمامهم بطناً لظهر، كي يبرهن لهم على أنها خالية تماماً، فكانوا لا يصدقونه، ويقولون له: «اذهب أيها الماكر!» فأغضبه ذلك، واشتد غيظه وتضاعف حزنه. وأحس بأن قلبه يوشك أن ينفجر! ولم يدر ماذا يفعل.

وأقبل الليل، وكان على «هوشكورن» أن يعود إلى «برتييه»، فسار في طريقه إليها مع ثلاثة من جيرانه، فأراهم المكان الذي كان قد التقط فيه قطعة الجبل، ولم يتحدث بغير ذلك طول الطريق. وفي اليوم التالي، قام بجولة في أرجاء بلدة «برتييه» ليقص على أهلها قصته، ولكن ما من أحد صدق روايته، فما إن جن عليه الليل حتى كان المرض قد ألم به.

وفي نحو الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي، أعاد المحفظة بما فيها «ماريوس بوميل» - وهو أجير عند السيد «بريتون» المزارع ببلدة «إيموفيل» - إلى السيد «هولبريك» زاعماً أنه وجدها في الطريق. ولما كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، فقد حملها معه إلى البيت وأعطها لسيدة.

وذاع الخبر فى الناحية حتى بلغ السيد «هوشكورن»، فبدأ الطواف من فوره، وأخذ يعيد سرد قصته التى كتب له فيها النصر. وكان يقول: «إن ما ساءنى وآلمنى لم يكن اتهامى زوراً بالسرقة، وإنما كان الكذب، فليس ثمة ما هو أسوأ من أن يتهم المرء كذباً!».

وهكذا ظل «هوشكورن» يلهج بالحادث طول يومه، فكان يقصه على المارة فى الطريق، وعلى رواد الحانة، والخارجين من الكنيسة فى يوم الأحد التالى، بل لقد كان يستوقف الغرباء ليحدثهم به. وهدأت نفسه أخيراً، لكن شيئاً ما ظل مع ذلك يشغل باله ويضايقه، شيئاً غامضاً كان يحسه، ولكنه لا يدرى ما هو على التحديد!

فقد كان يبدو له أن الناس كأنهم يمزحون وهم ينصتون إليه، ولم يكن فى مظهرهم ما يدل على أنهم مقتنعون بما يقول، بل لقد كان يخيل إليه أنهم كانوا يتهامون بشيء فيما بينهم إذا ما أدار لهم ظهره!

وفى يوم الثلاثاء من الأسبوع التالى، توجه «هوشكورن» إلى السوق فى «جودرفيل»، يدفعه شعوره بضرورة سرد موضوعه، وكان «مالاندان» واقفاً ببابه عندما مر به «هوشكورن»، فما إن وقع بصره على هذا الأخير حتى أخذ يضحك!... واقترب من فلاح من قرية «كريكتو»، فلم يدعه هذا يتم حديثه، وإنما غمزه بإبهامه فى بطنه وهو يقول له فى وجهه: «اذهب، اذهب أيها الماكر الكبير!» ثم استدار على عقبيه ومضى فى سبيله!

واستبدت الحيرة بالسيد «هوشكورن»، واستولى عليه مزيد من القلق وهو يفكر فى الأمر. فلماذا يقولون له أنه ماكر كبير!..

ولم يكد المسكين يجلس إلى المائدة بمطعم «جوردان» حتى
 شرع يشرح الأمر لمن حوله، فقال له أحد تجار الخيل:

- مهلا، مهلا أيها النشال القديم! هذه حيلة عتيقة، وأنا أعرف
 كل شيء عن قطعة الحبل هذه!!

- ولكن المحفظة قد وجدت وأعيدت إلى صاحبها؟!.

فعاد التاجر يقول في صوت لنبراته مغزى خاص:

- صمتاً، صمتاً يا والدي. إن هناك واحداً يجد الشيء، وهناك
 آخر يبلغ، فهذا شيء من السهل تدبيره. أليس كذلك؟

فانتفض «هوشكورن» واقفاً وهو يوشك أن يختنق من الغيظ،
 وقد أدرك من فوره كل شيء، إذ فهم أنهم يتهمونه بأنه دفع
 بالمحفظة إلى شريك له ليردها إلى صاحبها! فحاول أن يتنصل من
 هذه التهمة الباطلة، ولكن الناس من حوله بدءوا يضحكون!

ولم يستطيع المسكين أن يتم طعامه فبادر بالأنصراف من المطعم،
 مشياً بإيماءات الهزء وضحكات السخرية، وعاد إلى بيته وقد استبد
 به الحزن والغضب وعصفت بفؤاده الحيرة. وزاده أسفاً وكآبة علمه
 بأنه كان، بفضل دهائه النورماندى الأصيل، قادراً على ما اتهموه به،
 بل على أكثر منه!... وبدا له أنه قد أصبح من المحال الآن بالنسبة
 له أن يثبت براءته، نظراً لأن دهائه معروف للجميع، فأخذته رجفة
 قاسية، واعتصر قلبه ما فى التهمة من ظلم غاشم!

وهكذا أخذ «هوشكورن» يروى الحادث مرة بعد مرة، ويزيد
 فى كل يوم إسهاباً فيه ويصطنع أسباباً جديدة يضيفها إلى حججه

السابقة، ويقسم إيماناً أخرى غليظة. واستغرقت قصة الحبل كل تفكيره واهتمامه، غير أن تكذيب الناس له يشتد كلما أفاض في الدفاع عن نفسه!

وأحس المسكين بهذا كله، واشتدت وطأته عليه، وأخذ الغيظ والغم ينهشان قلبه، ومع هذا فقد استمر في إضناء نفسه على غير طائل، حتى هزل وذوى تحت سمع الناس وبصرهم. وأخذ العابثون والماجنون يدعونه إلى أن يقص عليهم قصة الحبل، لا لشيء إلا ليلهوا بها ويسلوا أنفسهم، حتى إذا ما فعل عادوا يطلبون إليه أن يعيد عليهم القصص، تماماً كما يطلبون إلى الجندي أن يحدثهم عن المعارك التي خاض غمارها، فضعف عقله من فرط تأثره، وما إن أشرف شهر ديسمبر على نهايته حتى اختلط عقله واشتد به المرض فلزم الفراش.

مات «هوشكورن» في أوائل شهر يناير، وسُمع، وهو في سكرة الموت وساعة الاحتضار، يهذى ببراءته ويكرر قائلاً بصوت كأنه آت من عالم آخر: «قطعة جبل!.. قطعة جبل!.. أنظر، هذه هي يا سيدى العمدة!».

ملك برجوازي

السماء مكفهرة والهواء نائر، والنهار حزين، فتعال معي يا صاحبي
نستروح طرائف هذه القصة علّها تنسينا بواعث تلك الكآبة القلقة..

* * *

كان في مدينة عظيمة شهيرة ملك قوى قادر يملك ثياباً غالية
عجيبة، وجواري عاريات، بيضاوات وسوداوات، وأسلحة براقية،
وكلاباً سلوقية سريعة العدو، وقناصين ذوى أبواق نحاسية تملأ
الفضاء بدويها.

أكان هذا الملك شاعراً؟

لا يا صديقي: كان ملكاً برجوازيّاً!

* * *

كان العاهل مغرماً بالفنون، يغدق على أهل الطرب، والمداحين
والرسامين والنحاتين والصيادلة، والحجامين ومعلمي السيف.

وعندما يذهب إلى الغابة يأمر الفحول من بلغائه أن يرتجلوا القصائد
في تمجيده وهو إلى جانب ظبي دام، أو خنزير جبلي جريح، بينما
يسكب السقاة في الأقداح نبيذاً ذهبياً فواراً وتصفق القيان راقصات..
وإذا ضجر من المدينة الهادرة فذهب إلى الصيد، ضاقت الغابة بالعجيج

والضجيج من مواكبه، وخرجت الطيور مذعورة من أعشاشها، وتردد
صدى الجلبة في أعماق الكهوف، وحطمت الكلاب في عدوها
العوسج بأرجلها المرنة وانحنى القناصون على رقاب الخيل، وجوههم
ملتهبة، وشعرهم مرسل للريح.

وكان للملك قصر فاخر، ادخر فيه أموالاً طائلة، وتحفاً عجيبة،
يصل إليه خلال أحواض من الزئبق، وبرك واسعة وخدم وحاشية
قد طأطأت أعناقهم تأديباً..

* * *

وكان يصعد إليه في سلالم تحفها أعمدة رخامية ناصعة البياض،
وأخرى مرصعة بالزمرد على جانبيها أسود من مرمر. وتحيط بالقصر
حديقة غناء، يذهب إليها ليشرح صدره، متصفحاً قصة جميلة أو
يقرأ في كتاب عن النحو أو النقد الخفيف أو يتحدث إلى من
حوله مدافعاً بكل قواه عن المجمع اللغوي وآرائه عن صحة الألفاظ
وسلامة اللغة ونقاء الأسلوب في الفن الأدبي. إن له نفساً رفيعة
تحب الصفاء والتزام قواعد الإملاء.

* * *

وثمة تحف صينية ويابانية للزينة فحسب وحيوانات نحاسية
متخيلة، فواغر الأفواه، ملتوية الأذنان، في مجموعات هائلة عجيبة،
وأشجار مبتدعة من خشب اللك، تزينها أوراق وأغصان وأزهار
وحيوانات من فضائل مجهولة، وفراشات على الجدر غريبة الأجنحة،
وأسمك وديوك ملونة، ومساخر جهنمية التعبير، ذات عيون حية،
وسيوف نصالها عتاق، وقوائمها حيوانات خيالية تأكل نوار اللوتس

وأصونة دقيقة فيها حلل من سندس رقيق كأنها نسجت من خيوط
العنكبوت، وأباريق من قيشاني شرقي عريق، عليها رسوم لجنود
من تار يرتدون جلوداً سابغة، وفي أيديهم قسي متحفزة، وعلى
ظهورهم جعاب مليئة بالسهام.

وثمة قاعة إغريقية حافلة بتمائيل المزمر من الآلهة وربات الفنون
وعرائس البحر والرعاة، وأخرى من العصر الرومانسي فيها لوحات
لفاتو العظيم وشردين، وثانية وثالثة ورابعة، فكم من القاعات يملك!
وكان العاهل يطوف بكل ذلك، ووجهه يفيض بشراً، وكرشه
يهتز في سعادة وعلى رأسه كما لو كان واحداً من ملوك «الورق»
الأربعة !

وذات يوم جيء له في قاعة العرش بصنف غريب من الناس،
والحاشية تحف به، وأساتذة البلاغة والسيافة والرقص من حوله.
وسأل الملك:

- ترى ما هذا ؟

- إنه شاعر يا سيدي.

كان الملك يملك أسراباً من الإوز يسبح في البرك، وأخرى من
الكناري والكروان تغرد في الحديقة، أما الشاعر فكان شيئاً جديداً
غريباً.

- دعوه هنا..

وقال الشاعر:

- سيدي أنا لم آكل بعد.

ورد الملك:

- تكلم، وستأكل.

وابتدأ الشاعر:

- سيدى من زمن وأنا أغنى أناشيد المستقبل، ولدت فى السحر
ونشرت جناحى فى العاصفة، وأبحث عن الإنسان المختار، الذى
يجب أن ينتظر بزوغ الشمس العظمى، الأناشيد فى فمه والمعزف
بين يديه، هجرت إلهام المدينة الوخيمة والمخدع الناضح بالعطور،
وربات الشعر من البشر تملأ النفس ضآلة والوجوه غباراً، خطمت
قيثارتى المناققة ذات الأوتار الخانعة، على أكواب بوهيميا وأباريق
يفيض فيها نبيذ مسكر، ورميت الحلة التى جعلتنى شبيهاً بالمهرج..
ولبست أردية وحشية خشنة، وذهبت إلى الغابة، وعشت هناك،
فتقويت من الحليب المغذى، ومن نبيذ الحياة الجديدة، ورحلت
إلى سواحل البحر الصخرية، وهزرت رأسى فى العاصفة القوية
السوداء كأننى ملاك أو إله أوليمبى.

حنوت على الطبيعة العظيمة، وفتشت عن حرارة المثل العليا،
وعن شعر يوجد فى كوكب فى أعماق السماء وفى لؤلؤة فى قاع
المحيط، أردت أن أكون قوياً فلقد أذفت ساعة الثورات العظيمة
كأنها المسيح كله نور، وكله حركة وقوة، فلنستقبل روحها بقصيدة
تكون لها قوس نصر، أبياتها من فولاذ ومن ذهب ومن حب!

سيدى!. الفن لا يوجد فى تمثال بارد من مرمر ولا فى اللوحات
الزاهية، كلاهما فى السيد أونيت العظيم، الفن يا سيدى لا يلبس
«بنطلوناً» وليس كلامه برجوازيًا، ولا يضع النقط على كل الحروف،

إنه جليل، قد يرتدى حلاً من ذهب أو لهب أو يمشى عارياً،
يعجن ألوانه بالعرق، ويرسم موضوعاته بالنور، وهو عريض الشراء،
يضرب بأجنحته كالنسر، أو يرائنه كالأسد.

ياضيعة الشعر!

كيف تبذل القوافي فتغنى بخال امرأة، ويسف الشعر فيصبح نفاقاً
أجوف، وينقد الإسكافي قصائدي، ويجرو أستاذ الصيدلة فيضع نقطاً
وفواصل لإلهامي، وتسمح لهم أنت بكل ذلك يا سيدي!

المثل الأعلى.. المثل الأعلى!

وقاطعه الملك:

- سمعت، فما العمل؟

أجاب وتلفسف: إذا سمحت له يا سيدي يمكن أن يربح شيئاً
يسد رمقه، نعطيه صندوقاً موسيقياً ونضعه في الحديقة إلى جانب
الإوز، فتنعم برويته في سويعات نزهتك.

والتفت الملك إلى الشاعر: نعم، ستأخذ هذا الصندوق، وتغلق
فاك، وتدير يده، فيعزف أنواعاً مختلفة من الموسيقى الراقصة، هذا
إن لم تفضل أن تموت جوعاً، كل فاصل موسيقى بقطعة خبز،
لا شيء من الكلام الفارغ أو من المثل العليا، تعال..

ومن ذلك اليوم، كان الشاعر الجوعان يرى على حافة بركة
الإوز، يحرك يد الصندوق خجلاً من التفاتات الشمس الكبيرة،
وكلما مر به الملك، أو أحب أن يملأ معدته، ازداد صوت الآلة
رنيناً، يصنع ذلك أمام سخرية العصافير الحرة جاءت تمتص الندى

من الزنابق المزدهرة، ومن حوله يئز النحل، فيلسع وجهه، وتمتلىء
عيناه دموعاً.. دموعاً مرة.. تتدحرج على خديه، ثم تستلقى على
الأرض السمراء !

* * *

وأتى الشتاء، فأحس المسكين برودة فى جسده وفى روحه، تجمد
فكره، وتوسيت أناشيده العظيمة، ولم يعد شاعر الجبل المتوج
بالنسور.. لم يعد غير منسكين فقير، يحرك يد صندوق الموسيقى..

وعندما تساقط الثلج نسيه الملك ورعاياه وتركه للزمهرير يعض
لحمه ويجلد وجهه بينما ألقى على العصافير أردية تقيها.

وذات ليلة، تساقط ثلج متبلور، وفى القصر وليمة، وأنوار الثريات
تضحك مبتهجة فوق المرمر والذهب وحلل القادة الصينيين المرسومة
على القيشانى العتيق وصفق الندامى فى طرب مجنون: «فى صحة
السيد أستاذ البلاغة!..» وتعالق قهقهات ثملة هاذية بأوزان الشعرينما
الشمبانيا تفور فى الأقداح البلورية، وتزيد فى رغبة مضيئة عجلة.
يا لها من ليلة شتاء.. ليلة أعياد.

وكان ذلك البائس المغطى بالثلج إلى جانب بركة الإوز، يرتعد
متجمداً من البرد، صريع الزمهير، يحرك يد الصندوق ليستدفىء
فى الليلة المظلمة، فيتردد صدى تلك الموسيقى المجنونة بين
الأشجار العارية، ومات وهو يفكر: إن الشمس ستشرق غداً، ومعها
المثل الأعلى، وإن الفن لا يلبس «بنطلوناً» بل جلة من لهيب
مذهب!

وفي اليوم التالي جاء الملك وصحبه فوجدوا الشاعر المسكين
 كعصفور قتله الثلج، على شفته ابتسامة مرة، ويده لما تزل متشبثة
 بمحرك الصندوق..!

* * *

آه يا صديقي !

السماء مكفهرة، والهواء نائر، والنهار حزين، وكآبة باهتة تطوف
 بالأفق.

ولكن، كم يدفء أرواحنا - في هذا الوجود الكئيب - جملة
 طيبة، مع مصافحة حارة من يد صديق :

إلى اللقاء !

[قصة إسبانية - من أمريكا اللاتينية]

رجل يعرف كل شيء

لست أدري كيف حدث هذا على وجه التحديد، ولكنه كان مقدرًا لي أن أمقت هذا الذي يدعى «ماكس كلادا» قبل أن أعرفه! وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، وقد اضطربت حركة السفر بالسفن عابرات المحيط اضطراباً شديداً، حتى أنه لم يكن يسع المسافرين إلا أن يقبل أي مكان يخصص له، ولو كان مكاناً ضيقاً على ظهر الباخرة!

لهذا شكرت الظروف التي مكنتني من الوصول إلى «كابين» ذي سريرين ولما قيل لي إن اسم زميلي في «الكابين» هو «ماكس كلادا» أخذ قلبي يدق بسرعة إذ قضيت أربعة عشر يوماً في البحر بين «سان فرنسيسكو» و «يوكوهاما» وأنا في صحبة زميل واحد طوال الوقت، خاصة وأنه يدعى «ماكس كلادا»؟! لا شك أنني كنت أكون أقل امتعاضاً وتبرماً لو كان لرفيقي هذا اسم طريف «كسميث أو براين» مثلاً!

* * *

وما كدت أصل إلى السفينة حتى تبين لي أن أمتعة «مستر كلادا» قد سبقتني إلى «الكابين»، وقد كرهت لأول وهلة شكل أمتعته، وتلك الحقائق الضخمة التي كانت تعلوها بطاقات كثيرة تحمل أسماء أكبر فنادق العالم، وكان الرجل قد أخرج منها كل أدوات

الزينة، ورصها منسقة على الرف الزجاجى الذى يعلو حوض الغسيل، فتركت حقائبي بالكابين، ثم قصدت إلى غرفة التدخين بالباخرة، وطلبت إلى الغلام أن يحضر لى بعض أوراق اللعب، فلما جاءنى بها أخذت أقتل الوقت بلعبة «الصبر». ولم تكذ تنقضى لحظة حتى اقترب منى رجل نادانى باسمى، ثم خاطبنى قائلاً وعلى شففيه ابتسامة لا تحمل أى معنى:

- أنا أدعى «كلادا».. «ماكس كلادا».

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، كان قد استقر فى المقعد المقابل! فقلت له فى غير اهتمام :

- أظن أننا شريكان فى «كابين» واحد ؟

- هو ذاك. الواقع أن المرء لا يستطيع أن يعرف فى هذه الأيام من ذا الذى سيكون رفيقه فى السفر، غير أننى سررت كثيراً عندما عرفت أنك إنجليزى، فمن الخير لنا نحن الإنجليز أن نعيش متلازمين، حينما نكون على سفر خارج بلادنا.

- وهل أنت إنجليزى ؟

- أحسب أنك تظننى أمريكياً. أليس كذلك؟ أوكد لك أننى إنجليزى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى!

ولكى يثبت لى «مستر كلادا» شخصيته الإنجليزية، أخرج جواز سفره من جيبه بحركة سريعة، وقربه كثيراً من عينى حتى كاد يلامس طرف أنفى. وكان الرجل قصير القامة، أسود الشعر، تعلق وجهه سمرة خفيفة. وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبأسلوب سليم،

ولباقة جمّة متكلفة.. كان كل هذا يؤكد لى أنى لو فحصت هذا الجواز الذى كان يقدمه إلى بعناية لأدركت أنه قد ولد بأرض سماؤها صافية، تبعد كثيراً عن إنجلترا ذاتها. ومررت لحظة من الصمت بددها الرجل بقوله:

- ماذا تشرب ؟

ف نظرت إليه وقد تملكتنى دهشة بالغة، فقد كانت الأوامر بمنع تقديم الخمر فى السفن الأمريكية لا تزال قائمة، وكانت كل الدلائل تدل على ان السفينة لا تحمل أى نوع من الخمور.. غير أن مستر «كلادا» لم ينتظر حتى أجيب، وإنما أضاف قائلاً على الفور:

- «ويسكى» بالصدودا؟.. أم مارتينى؟ ما عليك إلا أن تذكر الاسم فحسب.

وأخرج زجاجة صغيرة من كل جيب من جيوبه، ثم نادى الساقى، وطلب إليه أن يحضر كأسين وبعض الثلج، ثم قال لى بلهجة الواثق المطمئن:

- لا تهتم بالشراب، فلدى منه الكثير، وإن كان لك أصدقاء فى هذه السفينة فأبلغهم أن رفيقك فى السفر لديه كافة أنواع الخمور المعروفة فى العالم.

* * *

والحق أن زميلى كان ثرثاراً، فقد تحدث عن «نيويورك» و «سان فرانسيسكو»، كما تحدث عن أفلام السينما ونقد المسرحيات، ثم أقاض فى كلامه عن السياسة وعن الحرب. وكنت قد أزعجت ورق اللعب جانباً عندما جلس الرجل أمامى، غير أنه لما بدا حديثه الذى

لا يكاد ينتهى، وجدت نفسى أعود بحركة آليّة إلى أوراقى أنسقتها من جديد. ومرت لحظات وأنا على هذه الحال، وفجأة، سمعت مستر «كلادا» يقول:

- كلا، كلا. الأفضل أن تضع الثلاثة فوق الأربعة !

والواقع أنه ليس ثمة ما هو أكثر إزعاجاً للمرء من أن يحدثه إنسان بما يجب عليه أن يفعل وهو يلعب لعبة «الصبر». ولهذا، فقد نحتت أوراق اللعب مرة أخرى، وفى عزمى ألا أعود إليها إلا بعد انصراف هذا الزميل الفضولى الثرثار. ولكن، لشد ما أدهشنى أنه أمسك بالورق وهو يقول:

- أتحب أن ترى بعض ألعاب الورق السحرية ؟

فأجبتة قائلاً وقد تملكنى الغيظ:

- كلا، فأنا أكرهها !

- بل سأريك واحدة منها، ولا شك فى أنها ستعجبك.

وسرعان ما قرن القول بالعمل، فأرانى ثلاثاً منها فى سرعة البرق! ولما قلت له إنى ذاهب إلى غرفة الطعام لأنتقى مقعداً مناسباً لى، صاح قائلاً فى حماس ظاهر:

- لا داعى لأن تتعب نفسك فقد اخترت لك بنفسى مقعداً، وبما أننا نقيم فى «كابين» واحد، فمن الطبيعى إذن أن نجلس معاً إلى مائدة واحدة.

وكرهت مستر «كلادا» أكثر من ذى قبل. ذلك أنى لم أكن أشاركه «كابيناً» واحداً أو أتناول طعامى إلى جانبه ثلاث مرات

فحسب بل الواقع أنني كنت لا أستطيع أن أجول على ظهر الباخرة دون أن يكون ملازماً لي، إلى حد أنني اقتنعت أخيراً بأن الإفلات منه أمر محال، وكان أكثر من ذلك استحالة أن تقنعه بأنه شخص غير مرغوب فيه.. فقد كان يثق أتم الوثوق من أنك تسر لرويته، تماماً كما يسر هو لرويتك، ولو أنه زارك في بيتك فأغلقت الباب من دونه وقذفت به إلى أسفل السلم لما خطر بباله قط مع ذلك أنه زائر ثقيل غير مرغوب فيه!

وكان «ماكس كلادا» يتعرف إلى الناس في سهولة بالغة، فلم تكد تنقضي ثلاثة أيام على رحيل السفينة، حتى كان قد عرف كل من فيها، وكان يشرف على سباق الخيل الخشبية، ويسحب أوراق «اليانصيب»، ويجمع النقود للجوائز المالية، وينظم حفلات الرقص التكرية، وينسق البرامج لفرقة موسيقا السفينة. كان في كل مكان، وكان يقوم بكل عمل، وكان إلى جانب هذا أول المكروهين في هذا العالم الصغير الذي تعتبر السفينة حدوده.

وقد أطلقنا نحن المسافرين على مستر كلادا اسم «الرجل الذي يعرف كل شيء» وصرنا نناديه بهذا الاسم، فلم يكن يغضب لذلك، بل إنه كان يجد فيه نوعاً من الإطراء لشخصه، والثناء عليه! وكان الرجل أثقل ما يكون ظلاً في أوقات تناول الطعام، إذ كنا جميعاً تحت رحمته في هذا الوقت بالذات، فهو يناقش كل إنسان، ويتحدث في كل موضوع، ويعرف ما لا يعرفه سواه، ولا يدع شيئاً مهماً كان تافهاً صغيراً إلا وجادل فيه، ثم لا يكف عن الجدل بعد ذلك إلا بعد أن ترى نفسك مضطراً إلى التسليم بما يقول!

كان يجلس معنا إلى المائدة، التي كان يتصدرها طيب السفينة بصفة دائمة، رجل شبيه بمستر «كلادا» في كثرة الجدل اسمه «رمزاي»، وهو أمريكي ضخيم الجسم، يعمل في السلك السياسي، قنصلاً لبلاده في «كوبا». وقد عرفنا أنه كان عائداً إلى مقر عمله، بعد عطلة قصيرة قضاها في نيويورك، ليحضر زوجته التي كانت قد قضت بها أكثر من عام في زيارة لأسرتها.

وكانت زوجة مستر «رمزاي» سيدة جميلة صغيرة الجسم، على قدر كبير من روح المرح والدعابة، وتلبس دائماً ثياباً بسيطة، فالخدمة في السلك القنصلي لا توفر للقائم بها عادة أجراً كبيراً، ومع ذلك فقد كانت لهذه السيدة على بساطة ملابسها صورة تستوقف النظر، لا أعرف كيف أعبر عنها بالكلمات، فهي لا تتميز عن أية امرأة أخرى متوسطة الجمال، وقد تمر بعشرات مثلها في كل وقت في طريقك، غير أنها كانت مع ذلك تشع بهاء وفتنة، كوردة ساحرة في معطفها القاتم اللون.

* * *

وذات يوم، وكنا جلوساً إلى مائدة الغداء كالعادة، تطرق الحديث مصادفة إلى موضوع الحلوى والجواهر وكانت الصحف قد نشرت مقالا طويلا عن صناعة الجواهر الزائفة في اليابان وعن إتقان اليابانيين لهذه الصناعة. وقد عقب طيب السفينة على هذا الحديث بقوله إن صناعة الجواهر الزائفة قد أصابت من النجاح ما هو خليق بأن يقلل من قيمة الجواهر الحقيقية. فاندفع مستر «كلادا» عندئذ يجادل ويناقش على عادته، وما كنت أظن

أن مستر «رمزاي» القنصل يمكن أن يكون هو الآخر خبيراً بشئون الجواهر الصحيحة والزائفة، غير أنه لم يستطع أن يقاوم عاداته فتدخل بدوره في المناقشة بحماس ظاهر. وهكذا احتدمت بين الرجلين معركة كلامية حامية الوطيس. ولعل القنصل قد قال شيئاً ضاق به صدر مستر «كلادا» لأن هذا الأخير ضرب المائدة بقبضة يده ليؤكد كلامه، وهو يقول بصوت عال :

- إنى أعرف ما أقول، وأنا فى طريقى إلى اليابان خصيصاً لبحث صناعة الجواهر الزائفة، ولا يوجد فى العالم كله من يعرف هذا الموضوع مثلى، أو يقول لكم إن «ماكس كلادا» ليس حجة فيه. إنى أعرف أيها الأصدقاء تاريخ كل جوهرة ثمينة فى العالم.

وكان هذا الحديث جديداً بالنسبة إلينا عن حقيقة عمل «الرجل الذى يعرف كل شىء»، إذ لم يسبق له أن ذكر لنا أى شىء عن عمله، وإن كنا قد عرفنا أنه ذاهب إلى اليابان فى مهمة تجارية.

ودار «كلادا» بعينه يتفحص وجوه الحاضرين، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة ظافرة، ومضت لحظة صمت ثم أضاف يقول:

- يتحدث السيد «الدكتور» عن أن صناعة الجواهر الزائفة سوف تؤثر فى قيمة الجواهر الحقيقية، ولكنى أستطيع أن أوكد لكم العكس..

وصمت لحظة قصيرة كأنما يريد أن يتبين وقع كلامه فى نفوس الحاضرين، ثم استطرد يقول :

- وأؤكد لك يا مسز «رمزاي» أن هذه الجواهر التي في عنقك لن تفقد مليماً واحداً من الثمن الذي دفعته فيها.

وما إن سمعت «مسز رمزاي» عبارته الأخيرة حتى انتفضت انتفاضة مفاجئة، وسرعان ما تمالكت نفسها وأمسكت بالسلسلة في بساطة ووضعتها في صدرها تحت الثوب في أمان، وكأنها تشعر بقلق شديد من ناحيتها!!

ومال مستر «رمزاي» قليلاً إلى الأمام بعد أن أغمض إحدى عينيه، وغمز لنا بطريقة ذات مغزى خاص:

- إن هذه السلسلة التي تلبسها زوجتي جميلة ولا شك يا مستر «كلادا».

- نعم، وقد عرفتها من أول نظرة، فهي من أحسن أنواع الماس.

فهز مستر «رمزاي» كتفيه العريضتين وهو يقول:

- الواقع أنني لم أدفع فيها شيئاً ويهمني أن أعرف ثمنها!

فظهرت إمارات الاهتمام على وجه مستر «كلادا»، وقال بلهجة من يدلي نبأ بالغ الخطر:

- أؤكد لك أن ثمنها لا يقل بحال من الأحوال عن خمسة عشرة ألف دولار، وإن كان من اشتراها قد ابتاعها من «الشارع الخامس»، فلا يدهشني أن يكون الثمن قد ارتفع إلى ثلاثين ألفاً!

وارتسمت على شفתי القنصل ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- قد تكون مفاجأة لك يا عزيزى مستر «كلادا» أن تعلم أن زوجتى قد ابتاعت هذه الحلية من أحد المحال التجارية بثمانية عشر دولاراً فقط يوم أن غادرنا «نيويورك»!

فانتفض مستر «كلادا» فى مقعده كمن لدغه عقرب، وصرخ قائلاً بصوت تفيض نبراته بالمعارضة والاحتجاج:

- كلا، أبداً. هذا غير ممكن. إنك تسخر منى يا مستر «رمزاي»!

- أتراهنتى؟ أتراهن بمائة دولار على أنها جواهر زائفة؟

- نعم، أراهنك!

وهنا تدخلت «مسز رمزاي» فى المناقشة التى قامت بين الرجلين، فقالت تخاطب زوجها فى صوت هادىء النبرات:

- ولكنك لن تراهن يا عزيزى على شىء تعرف أنت حقيقته من قبل، وإلا... فإن مستر «كلادا» يكون مغبوناً فى هذا الرهان!!

- كيف تتاح لى فرصة سانحة للحصول على مائة دولار من أسهل طريق ثم أتركها تمر دون أن أعتنمها؟ لا شك فى أننى لو فعلت ذلك لكنت غيباً أحمق!

- ولكن، كيف يمكنك أن تثبت ما تقول، وليس معى ما يدل على الثمن الذى دفعته؟ أن المسألة كلها لا تعدو أن تكون مسألة أقوال فحسب!

- لست أريد إثباتاً من أى نوع، وكل ما أطلبه هو أن أفحص هذه الماسات، وسوف أخبركم بسرعة عن حقيقة أمرها، حتى لو خسرت الرهان، فإنى رجل شريف.

فأسرع مستر «رمزاي» يقول لزوجته:

– انزعياها إذن من صدرك يا عزيزتي، واتركيها لمستر «كلادا» ليفحصها كما يشاء.

فترددت الزوجة لحظة قصيرة، ثم أمسكت القفل الخلفي للسلسلة بأناملها الدقيقة. ومضت لحظة قصيرة، ثم أسقطت يديها إلى جانبيها وهي تقول:

– لست مستطبعة أن أفتح هذا القفل، وآمل أن يكون مستر «كلادا» على ثقة مما أقول.

وخطر لي في تلك اللحظة ان مأساة توشك أن تقع، وأخذت أدعو الله في سرى أن تتوقف المناقشة عند هذا الحد، غير أن القنصل قفز من مقعده فجأة وهو يقول:

– لا بأس. أستطيع أنا أن أفتحه بنفسى.

وقرن القول بالعمل، فمد يديه إلى عنق زوجته وسرعان ما انتزع السلسلة الماسية التي تزينه، وقدمها إلى مستر «كلادا» الذي أخذ منظراً مكبراً، وأخذ يفحص الماسات في صمت، وفجأة، بدت على وجهه علامات الانتصار، وأعاد الحلية إلى «مسز رمزاي»، وقد بدا عليه أنه يهيم بأن يقول شيئاً... ولكن نظره وقع على وجه الزوجة مصادفة في تلك اللحظة، فلاحظ أنه قد صار أبيض كالثلج، وبدا له كأنها توشك أن تفقد الوعي!.. كانت تنظر إلى وجهه بعينين يطل منهما الفرع وتنطقان بالتوسل والرجاء، وكأنها تتوسل

إليه ألا يتكلم. والحق أنى دهشت شخصياً لأن زوجها نفسه لم يلاحظ شيئاً من هذا كله مع أنه كان ظاهراً للعيان!

وأطبق مستر «كلادا» فمه ولزم الصمت، وبدأ لي لحظتها أنه يبذل جهداً كبيراً ليسيّط على أعصابه. وران الصمت على الحاضرين لحظة، وأخيراً قال مستر «كلادا»:

- إننى آسف فقد أخطأت! إذ الواقع أنها ماسات زيفت بمهارة فائقة، وأعتقد أن ثمانية عشر دولاراً تعتبر ثمناً مناسباً لا غبن فيه. ثم أخرج مستر «كلادا» من حافظة نقوده ورقة من فئة المائة دولار، وقدمها إلى المستر «رمزاي» معتذراً عن الجدل الذي أثاره. ومضت لحظة صمت قصيرة قال بعدها القنصل وهو يدس ورقة النقد في حافظة نقوده:

- أعتقد يا صديقى العزيز أن هذه الدرس يكفى، فلا تجادل مرة أخرى فيما ليس لك به علم.

وشعرت فى تلك اللحظة بأن مستر «كلادا» كان يعانى موقفاً لا يحسد عليه، إذ لاحظت أن يديه كانتا ترتعدان. غير أنه جاهد كى يتمالك زمام نفسه ولم يعقب بكلمة واحدة.

وانتشرت القصة بسرعة البرق فى كل أنحاء السفينة. وكانت أضحوكة طريفة حقاً أن الرجل الذى يعرف كل شىء قد أخطأه التوفيق فى أمر يزعم أنه حجة فيه. ومن الغريب أن «مسز رمزاي» قد لزمت «كابينها» عقب هذا الحادث فلم تبرحها طوال المساء،

بل إنها لم تشاهد وقت العشاء في غرفة الطعام ولم تحضر المسهرة التي أعقبته بحجة أنها مصابة بصداع شديد !!

* * *

واستيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، ووقفت أحلق لحيتي أمام المرآة، وكان مستر «كلادا» لا يزال مستلقياً في فراشه يدخن سجائره، وفجأة، رأيت خطاباً صغير الحجم يدفع من تحت الباب، فقرأت على غلافه هذه الكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة: «إلى مستر ماكس كلادا». وفتحت الباب بسرعة لأعرف من يكون مرسل الخطاب، أو حامله على الأقل، غير أنني وجدت أن الممر الضيق كان خالياً تماماً !

وناولت الخطاب إلى «مستر كلادا»، وكان لا يزال مستلقياً في الفراش. ومرت لحظة قصيرة أحسست بعدها بأنه يمزق قطعة من الورق، وعندما أدت وجهي نحوه، مد يده إلى بقطع صغيرة ممزقة من الورق وهو يقول:

- هلا قذفت بهذه القصاصات من الكوة إلى البحر الواسع؟

ولما أجبته إلى طلبه واستدرت نحوه ثانية، طالعني ابتسامة ساخرة كانت قد ارتسمت على شفثيه، ومرت لحظة صمت قصيرة قبل أن يقول:

- ليس من السهل على المرء أن يدعى الجهل !

فقلت له في لهجة شاع في نبراتها مزيد من اللهفة والفضول:

- وهل كانت الماسات حقيقية ؟

ولم يجب الرجل الذى يعرف كل شىء عن سؤالى مباشرة،
وإنما نظر فى عينى طويلاً ثم قال:

- لو كانت لى زوجة صغيرة جميلة لما تركتها تقضى فى
«نيويورك» عاماً بأكمله بينما أكون أن فى «كوبا»! إذ لا شك فى
أنها ستكون عندئذ معرّضة لإغراء الهدايا الغالية الثمن!

وشعرت فى تلك اللحظة شعوراً واضحاً بأننى أصبحت لا أكره
مستر «كلادا»، الذى كان مشغولاً بإعادة ورقة نقد من فئة المائة
دولار إلى حافظة نقوده!!

الخان

عندما تسافر في قطار خلال مقاطعات الشمال من إسبانيا ترى بعض البيوتات المظلمة، في مفترق طريق ضخم موحش، إلى جانب قرية معتمة.

وربما لاحظت أن أمام البيت تقف عربة ركاب تجرها خيول، وأن بابه مفتوح مضاء، وأن السقيفة عريضة، لها طابع حانوت أو خان.

وربما توهمت، على حق، أن هذا البيت هو خان القرية، فانبثق في أعماق روحك أشفاق ما، على أولئكم الغلابا من الناس ممن يعيشون هناك في ذلك المكان المنعزل.

ويخرج أصحاب الخان إلى الطريق يرقبون القطار، ويرونه وهم حزاني يمرق، فيلوحون له بمناديلهم.

وبين الذين ظلوا والذين رحلوا، يبدو أن الآخرين هم أكثر حظاً، الذين مروا سراعاً، وربما كان الذين تخلوا هم الأكثر سعادة.

هؤلاء الذين يجرون هاربين لينوبوا سريعاً في إعصار المدينة لا يعرفون خانات مقاطعات البشكنس، الخانات الأكثر قرى، الألف معاملة في الدنيا.

أنتم الذين طفتم العالم على أقدامكم، أنتم أيها المتسولون الباعة الجوالون، السريحة، المشعبذون أنتم أيها المطرودون، ممن لا وطن

لكم سوى ما تطئون، أنتم الأذلاء، ليس لكم من مال سوى ما تحملون فوق ظهوركم، أنتم المتشردون الرحل ليس لديكم ما تحبون إلا جمال الحقل والبحرية، أجيبوني: أليس حقاً ما أكدته؟. قولوا لي في صراحة: أليس صدقاً أن خانات مقاطعتي هي الأكثر حلاوة، الأنقى صفاء في هذا العالم، وأنها خير ما في الدنيا؟

نعم. يوجد بينها ما هو حزين كئيب، وسط حقول خربة قاحلة، ومناظر ككابوس تعس، لكن الأغلبية بهجة مبتسمة، تبدو نوافذها كما لو كانت تنظر إليكم في حنان!!

هؤلاء التعساء الذين يعبرون مهرولين في هذا القطار الأسود، عبر الطريق دون أن يعرفوه، الذاهبون لكي يذوبوا في أعصار المدن الكبرى، لا يشعرون بذلك الإحساس الأكثر فتنة، الأعمق لذة في الحياة، الوصول إلى خان، بعد رحلة طويلة، في عربة تجرها خيول. أوه!

لذة؟!.. إنها الكلمة الوحيدة التي تتسع لهذه اللحظة، لقد أمضيت ساعات في العربة، الدنيا تمطر، والجو الأشهب يلق أرض الشتاء العارية، الطريق مليء بالبرك ذات المياه المصفرة تمتد وسط الضباب على طول تقدم العربة، خلال صفوف من الشجر عارية من الورق، وعلى ضفاف النهر المعكر من الفيضان، إلى جانب سفح الجبل المملوء بالأحراش والشوك الجاف.

ويخيم عليكم ثبات عميق من البرد، ولقد فكرتم في عدة مواقف غريبة لكي تناموا قليلاً، لكنكم لم تبلغوه، بينما زنين أجراس الخيل الرتيب يزن في آذانكم متتابعاً، وما هناك من وسيلة أبداً، لكي تغفلوا عن البرد والجوع والتبلد!

وإن المرء ليتصور أن الرحلة لن تنتهى أبداً، وأن الجبال والعزب والشلالات وبعض البيوتات المنعزلة فى مفترق الطرق، والتي ترى من خلال زجاج النوافذ المضمخ بالبخار، تبدو لنا، قد تركناها وراءنا، كأنها ترافق العربة فى سيرها.

وتصل إلى قرية، فتبدأ عجلات العربة تنتطط فى ثقل، على قارعة طريق حافل بالمطبات، ويسأل واحد مظل من النافذة: أترانا وصلنا؟.. ولكن الحوذى لا ينزل، وإنما يلقي حزمة من الرسائل لرجل، ثم يسلم سلة لامرأة ويعود سوطه يفرقع من جديد، ومرة أخرى تبدأ العجلة تتعثر فى حصى الطريق، إلى أن تصل إلى آخر غاص بالبرك فتبدهرج فى سلاسة.

وبعد كثير من الضجر، عندما يبدأ النوم يداعب أجفانكم، وتبدعون فى التفكير جدياً: أن هذه الرحلة قد لا تنتهى أبداً، إذا بالعربة تتوقف، وإذا بالحوذى يثب من مقعده إلى قارعة الطريق. لقد وصلنا..

وينزل المرء من العربة مطحوناً منحنيماً، لا يكاد يستطيع أن يمسك بالحقيبة بين أصابعه.

ويدخل إلى الخان..

- تفضل، من هنا.. من هنا، سوف نرسل ذلك كله إلى غرفتك، يأخذون منك المعطف ويحملون لك الرحال، ويسألونك عما إذا كنت تريد ان تستدفىء فى المطبخ، وتدخل فيه فيبدأ الدخان يقرص عينيك منذ اللحظة الأولى.

ويقولون لك: إنها المدخنة، هي تالفة غير صالحة، كما أن الريح شديدة. ولكن، من يهتم بذلك !

وعندما ترى العجوز أنك تتكلم البشكنسية تفسح لك في لطف عظيم مكاناً إلى جانب النار، وبينما يعدون لك العشاء، تشوى قدميك، وتحكى لك هذه العجوز ذات الأنف الأقنى، ومنديل يلف رأسها، قصة تافهة من أيام شبابها، عندما كنت تخدم راهب القرية، منذ أكثر من خمسين عاماً خلت وتضحك من ذكرياتها، فتبدو لثتها عارية من الأسنان، كما لو كانت لثة أطفال.

وخلال ذلك كله تنتقل سيدة البيت من مكان إلى آخر، ويلعب صاحبه عشرة ورق مع ثلاثة آخرين، وقد جلسوا إلى منضدة تعادل في ارتفاعها نفس المقاعد التي يجلسون عليها. ويمسك الأربعة بالورق في جد وصرامة، وقد اتسخ بعضه، وتحرفت البعض الآخر، وتتابع أصوات: «ارم...» «كمان..» في رنين رتيب، ويزداد عدد حبات الفاضوليا البيضاء والحمراء لدى الفريقين المتنافسين.

وعند النار تجد مضحك القرية، مهنته الكسل وشاعر الكنيسة ومغنيها، يكاد يعيش على الصدقات التي يتلقاها في الخان، يتحدث مع قناص سمك، قناص غير صياد، كما تعود هو أن يؤكد، لأنه يقتل السمك بطلقات نارية من بندقيته، ثم يخوضان معاً حديثاً طويلاً غريباً عن عادات السلمون وكلب البحر والخنزير البري والقنفذ.

وتسأل صاحبة البيت، وقد فهمت أنك شخصية هامة، سمساراً تجارياً على الأقل، سيدى... ستعشى هنا أو في صالة الطعام؟

– هنا... هنا.

ويضعون مائدة صغيرة، ذات فراش أبيض، ويأتى العشاء، تخدمكم بنت اسمها «مارثيلينيا» وينادونها «إيناسى»، فتاة لعوب فتية.
وتأكلون الطعام، تغمسون الخبز فى الصلصة، من غير أناقة دوق من سان جرمان على الإطلاق، وتأكلون فى نفس القدر، أمر ربما لا يجرى فى البيوت الأرستقراطية.

تأكلون كل شىء، وتشربون أكثر مما يجب قليلا، وبينما تسقيكم «مارثيلينيا» من النبيذ الطيب تداعبونها: أنت جميلة، وأنت.. وتضحك هى فى ابتسامة بهجة بيضاء، حين ترى عيونكم الملتهبة، وأنوفكم المحمرة.

ثم تصعد بعد العشاء إلى الطابق الرئيسى، لتنام فى غرفة صغيرة، يكاد يشغلها كلها سرير هائل من الخشب، عليه أربع حشيات أو خمس، وعدد آخر من البطاطين، وعندما تتسلق هذا البرج، وتلتف داخل الملايات التى تعبق برائحة العشب، تسمع ضجيج المطر على السطح، والريح التى تصر، فيلين قلبك، وتكاد عيناك تمتلئان بالدموع، وتؤمن أكثر من أى وقت مضى بأنه يوجد هناك، فى أعلى، أب طيب، ليس له من شاغل غير أن يضع أسرة رغيدة فى خانات الطرق، وأن يقدم عشاء لذيذاً للمسافرين الغلابا.

[قصة إسبانية]

الرسالة المزيفة

(قصة بوليسية)

رفع المحامى نظارته إلى عينيه واعتدل فى جلسته وسعل سعالاً خفيفاً. ثم قال فى صوت هو مزيج من الجفاء ومن العطف معاً :
- أجد لزاماً على أن أبين فى وضوح أنك فى أخرج المواقف وأدقها وأنك فى خطر يكاد يكون محققاً. لهذا فإنى أرجو منك رجاء ملحاً أن تفضى إلى فى صراحة بقصتك مع تلك السيدة التى أنت اليوم متهم بقتلها، فقد أستطيع من خلال القصة أن أجد لك مخرجاً من هذا المأزق الحرج.

وعاد مستر ما يهيرن فسعل مرة أخرى، وهو يرشق موكله بنظرات حداد نفاذة عسى أن يستشف الحقيقة من بعض حركاته، ولم يتردد ليونارد فول فقال:

- إنى أعرف هذا فقد ظلت تردده على مسمى، ولكنى فى الواقع لا أزال غير مصدق أننى متهم بالقتل؟ يا للسماء! إنك تحسب أننى مذنب ولكنى أقسم لك أنى لست مذنباً، وإنى لأعرف أن الظلام محيط بى، وأنى غارق فى ليل مدلهم، ليس فيه بصيص. إننى أشبه بإنسان وقع فى فخ أحكم نصبه وأطبق عليه فلا يجد لنفسه مخرجاً.. ولنبدأ فى القصة التى تريدها منى: كنت ذات يوم فى شارع أكسفورد، ووقعت أنظارى على سيدة عجوز تعبر الطريق

وهي تحمل بعض اللقائف، وسقطت منها هذه اللقائف وهي في منتصف الشارع، وحاولت أن تستردها، ولكن سيارة أوتوييس أقبلت فهرعت السيدة إلى الإفريز خوفاً على حياتها فبادرت أنا من مكاني إلى حيث سقطت اللقائف، وجمعتها ونظفتها مما علق بها من التراب، وسلمتها إليها، وشكرتني على ما فعلته. وكان هذا أول لقاء، ولم أكن أتوقع أن أراها مرة أخرى، ولكنني التقيت بها في حفلة عند أحد الأصدقاء، فعرفتني على الفور، وطلبت من صاحب الحفلة أن يقدمني إليها، ومكثنا فترة طويلة نتبادل الحديث، ولما همت بمغادرة المكان ألحت علي أن أزورها، فوعدتها بالزيارة، ولم يكن في نيتي أن أزورها حقاً، ولكنها طلبت مني تحديد يوم الزيارة، فلم يسعني إلا أن أفعل، وبعد أن خرجت علمت من بعض الحاضرين أنها سيدة غنية شاذة الطباع، وأنها تعيش وحدها في دارها، وليس معها أحد غير خادمة.

- ولكن خبرني. لقد استمرت الصداقة بينكما إلى يوم مماتها، وكنت تتردد عليها كثيراً، وأنت شاب في الثالثة والثلاثين من عمرك، جميل المنظر مغرم بالرياضة، ومحجوب بين أصدقائك ومعارفك، وهي سيدة عجوز، فما الذي ربطك بها مثل هذا الرباط الوثيق؟

- أنا مدرك ما تقول، ولكنني في الواقع لا أدري لذلك سبباً. لقد أظهرت لي هذه السيدة عطفها وحنانها وأنا رجل من الطراز الذي لا يستطيع أن يقول، «لا». وصدقني أولاً إذا قلت لك أنني بعد زيارتي الثالثة أو الرابعة وجدت نفسي منساقاً معها، مدفوعاً

إلى إعزازها. لقد ماتت أمي وأنا صغير وماتت عمتي التي كفلتني وأنا في الخامسة عشر من عمري، ومن المحتمل أن يكون هذا الذي بدا منها هو الذي جذبني إليها بعد أن حرمت منه فترة طويلة من الزمن.

- أنا مدرك ما تقول، ولكن متى عهدت مس فرنش إليك بتدبير أعمالها؟

- بعد الزيارة الرابعة، فقد قالت لي إنها لا تفهم كثيراً في المسائل المالية وتحب أن أتولاها.

- آه، لا تنس أن خادمتها جانيت ماكنزي تقول إن سيدتها كانت قديرة في هذه الناحية، وقد أكد مدير البنك ذلك عنها.

- هذا ما قالته لي، إن صدقاً وإن كذباً، ولم يكن يسعني إلا أن أصدقها.

ونظر إليه المحامي نظرة حادة ثم قال له بعد صمت:

- وتوليت إدارة أعمالها وأموالها، ولا تنس أنك في موقف مالي سيء، وأن أزماتك المالية قد تضطرك إلى استغلال أموالها لفائدتك دون أن تشعر، وفي هذه الحالة قد تنتفى عنك تهمة القتل، لأنك بقتلها، تهدم موردك المالي.

- أنا لا أفهم ما يمكن أن ينفي التهمة أو يثبتها، ولكن الذي أعرفه أنني قمت بعملى في شرف وذمة وأمانة.

- حسناً، ولكن... ألسيت تدرك أن مس فرنش قد أوصت بكل أموالها لك.

فهب ليونارد فول من مكانه، وقد بدا عليه الاضطراب وقال:

- يا إلهي! ما هذا الذي تقوله؟ أتركت لي أموالها؟

- أتدعي أنك لا تعرف أمر هذه الوصية، في حين أن الخادمة جانيت قالت إن سيدتها أنبأتها أنها شاورتك في هذا الموضوع، وأنها أبلغتك عزمها؟

- إن جانيت كاذبة بلا ريب. إنها تحب سيدتها وكانت دائماً حولها كالكلب الحارس. ولا ريب أنها كانت تمقتني لأنها كانت تغار مني. سيقولون إنني حملتها على كتابة هذه الوصية، ثم ذهبت في تلك الليلة المشؤومة في وقت خلا المنزل من كل إنسان و... يا إلهي! إنه أمر رهيب!

- إنك مخطئ في ذلك فلم يكن المنزل خالياً، فقد كانت جانيت كما تذكر قد خرجت لتقضي الليلة عند بعض أقاربها، ولكنها عادت في التاسعة والنصف لتأخذ شيئاً نسيته، فسمعت صوت سيدتها في غرفة الاستقبال، وصوت رجل يحادثها، ولم تستطع أن تتبين صوت الرجل...

- أتقول في التاسعة والنصف، إذن فقد نجوت! أتدرك ماذا وراء ذلك؟ في ذلك نجاتي، فقد عدت إلى منزلي في تلك الليلة في التاسعة والثلاث، وزوجتي تستطيع أن تشهد على صحة ذلك. لقد تركت مس فرنش بعد التاسعة بخمس دقائق، ووصلت إلى منزلي في التاسعة والثلاث، وكانت زوجتي هناك تنتظرنى. شكراً لله! وليبارك في جانيت التي حددت هذا الوقت.

- هل رآك أحد وأنت تغادر منزل مس فرنش، أو حين وصلت إلى منزلك؟

- أظن.. كلا، لا أتذكر أنى التقيت بأحد. وأظن أنك ستسأل رومين، زوجتى؟

- طبعاً، هل أنت تحب زوجتك وهى تحبك؟

- إنى أهيم بحبها، وهى مخلصه إلى وتحبنى كل الحب.

- وهل كانت مس فرنش تعلم أنك متزوج؟

- نعم.

- ومع ذلك فإنك لم تقدم زوجتك إليها؟ أليس هذا غريباً؟

- هذا.. صحيح. والواقع أن مس فرنش فهمت - من حيث

لا أدرى - أن علاقتى مع زوجتى ليست طيبة، فتركها على هذا

الظن. لم تكن مس فرنش تفكر فى الزواج منى، فهناك أربعون

عاماً بين عمرينا، ولكنها تفكر فى أن تتخذنى ولدها. وهذا هو

كل شىء فى قصتى معها.

وفتح باب مسكن ليونارد فول، وأرشدته خادمة إلى غرفة الصالون،

وما كاد المحامى يدير أنظاره فى أنحاء الغرفة حتى شعر بوقع

أقدام وراءه، فدار على عقبه ورأى قبالة امرأة تقول له:

- مستر ما يهيران؟ أنت محامى زوجى؟ تفضل بالجلوس.

وأدرك من لهجتها أنها أجنبية وليست إنجليزية، فقال وهو يتوجس

خيفة من هذه السيدة لسبب لا يدريه:

- والآن يا سيدتى، يجب ألا تنزعجى..

ولكنه توقف عن إتمام جملته، فقد كانت بادية الهدوء، ولا أثر هناك للانزعاج. وقالت له رومين:

- يحسن بك أولاً يا سيدى أن تقص على كل شيء، إنى أريد أن أقف على كل شيء.. حتى أسوأ ما يمكن أن ينتظر. وقص عليها مستر ما يهين حديثه مع زوجها حتى إذا أتم الحديث قالت:

- فهمت. إنه يريد أن أقول إنه حضر إلى المنزل فى التاسعة والثلاث، وهل شهادتى تلك تكون سبباً فى إطلاق سراحه؟ وهل هناك من يؤيد شهادتى؟

- ليس هناك من يؤيد شهادتك، وأحسب أن شهادتك تكفى، ومن المرجح أنهم يأخذون بها. إنى أقدر موقفك، وخاصة وأنت تحبين زوجك، وتخلصين له فى حبك..

- أقال لك إنى أحبه، وإنى مخلصه له فى حبى؟ يا لغباء الرجال! يا لسخافتهم! أحب أن تعلم يا سيدى أنى أمقته، أمقته من صميم قلبى، أتمنى أن أراه مشنوقاً. لنفرض أنى قلت لك إنه لم يحضر فى التاسعة والثلاث بل حضر فى العاشرة والثلاث، ولنفرض أنى قلت لك إنه كان منذ بعرف أن هذه السيدة موسرة. أعد العدة لقتلها، وأنه قتلها فعلاً، وأنه جاء إلى واعترف بجرمه، وكانت آثار الدماء على ثيابه؟ لنفرض أنى قلت هذا فماذا يكون الحال؟ إن هذا ما سأقوله فى المحكمة يا سيدى.

- لن يسمح لك بإعطاء شهادة ضد زوجك.

- إنه ليس زوجي. كنت ممثلة في فيينا، وزوجي حي ولكنه في مستشفى الأمراض العقلية، ولهذا لم نستطع أن نتزوج، وإني لسعيدة بذلك، بل إني سعيدة أن حياته أصبحت معلقة بخيط أمسك أنا به. ولا تسألني عن سبب كراهيتي له، ومقتي إياه، فلن أخبرك بشيء ألبتة.

فوقف المحامي وقال:

- أحسب أن لا فائدة من الإطالة في الحديث معك.

- خبرني أولاً. هل كنت عند حضورك تعتقد في براءته؟

- ولا أزال إلى الآن أعتقد في براءته.

* * *

وتحدد موعد محاكمة المتهم ليونارد فول، وكاد مستر ما يهين يجن، لأن الأدلة كلها أطبقت حول عنق موكله حتى أصبحت إدانته أمراً مؤكداً لا مفر منه. لقد كان عظيم الأمل في شهادة رومين، ولكنها لأسباب لا يعرفها وجدها تحمل للمتهم غلاً كامناً رهيباً.

: وفي اليوم السابق للمحاكمة وردت إليه رسالة مكتوبة بلغة ركيكة من سيدة تقول له إنها تملك الدليل على كذب تلك الأجنبية الملعونة في شهادتها التي أدلت بها إلى البوليس والتي ستكررها في المحكمة، وأنها تستطيع أن تقدم له هذا الدليل

مقابل مائتي جنيه إذا أراد إنقاذ هذا الفتى المسكين. وذكرت له
عنوانها.

ولم يتردد المحامى فى الذهاب إلى العنوان المذكور فى الرسالة،
وكان مسكناً ينم عن الفاقة، ووجد فيه مقعداً جلس عليه. بينما
جلست المرأة قبالة تساومه. وكان فى وجهها تشويه مخيف تخفيه
بنوع من المناديل الكبيرة، وقالت له إن لديها رسالة كتبتها رومين،
وهى كافية للدلالة على أن كل أقوالها أكاذيب وافتراءات. وتم
الاتفاق على أن تأخذ عشرين جنيهاً فقدمت إليه الرسالة وهى
مكتوبة بخط رومين، وقد ذكرت له هذه المرأة المشوهة الوجه
أنها كانت على علاقة غرامية برجل، فجاءت هذه الأجنبية الملعونة
واختطفته منها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذا الرجل
صب على وجهها ماء النار فأحدث فيه هذا التشويه الذى يراه، وإنها
منذ ذلك اليوم تتبع أخبارها يوماً بعد يوم، إنه الرجل الذى تحبه
رومين، والذى من أجله أصبحت تمقت ليونارد فول المتهم
المسكين.

وعاد مستر ما يهيرن إلى داره، وهو يرى بصيصاً من الأمل
وسط هذه الظلمة الحالكة.

وانعقدت المحكمة فى اليوم التالى وتقدمت رومين بشهادتها،
حتى إذا أتمت حديثها، وبدا للعيان أن المتهم مقضى عليه بالموت،
وقف الدفاع وقال إن هذه الشاهدة كاذبة فى أقوالها، وأنها فى
العاشرة والثلاث، وهو الوقت الذى ذكرت أن المتهم عاد فيه إلى
المنزل، لم تكن بالمنزل بل كانت مع عشيقها فى ملهى معين

وأنها ترمى من وراء هذه الشهادة الكاذبة أن تقضى عامدة على المتهم. وهمت الشاهدة بالاعتراض على هذه الأقوال، فأخرج محامى الدفاع رسالة من جيبه وقال إنه سيقروها على المحكمة:

«حبيبي ماكس، لقد أسلمه القدر إلى يدي. لقد قبض عليه بتهمة القتل. نعم قتل امرأة عجوزاً. ويا للسخرية! ليونارد الذى لا يستطيع أن يقتل ذبابة!! وشاء القدر أخيراً أن أنتقم لنفسى منه. سأقول فى المحكمة إنه عاد وعلى ثيابه بقع من الدماء، وأنه اعترف لى بقتل هذه السيدة. وسأذكر كل الأكاذيب التى ستذهب به إلى المشنقة، وسيعلم أن رومين هى التى أرسلته إلى حتفه، وبعد ذلك.. السعادة أيها الحبيب.. السعادة أخيراً».

وانهارت أعصاب الشاهدة، واعترفت أن شهادتها كاذبة، وأنه فعلا عاد فى التاسعة والثلاث، ومن ثم انهارت القضية كلها، وأصدر المحلفون حكمهم بعدم إدانة المتهم، وأصدر القاضى حكمه بالبراءة.

بيد أن أنظار المحامى ما يهين كانت قد التفتت إلى حركة يد الشاهدة رومين وهى تلقى بشهادتها وأيقن فى غموض أنه رأى هذه الحركة العجيبة من امرأة أخرى غيرها. فمن تكون تلك المرأة؟ وظل يفكر فى هذا الأمر وهو يعجب. وما كاد يحل المساء حتى أيقن أن هذه الحركة (اللازمة) قد رآها تصدر من يد المرأة المشوهة الوجه التى سلمته الرسالة.

وهرع إلى رومين، وانفرد بها، وذكر لها ما هجس فى ضميره، فابتسمت وقالت:

- إذن فقد خمنت. نعم أنا كنت تلك المرأة. أما تشويه الوجه فلا تنس أنى ممثلة أجيد التنكر، وكان الضوء فى تلك الغرفة ضعيفاً لا يمكنك من الفحص.

- ولكن لماذا فعلت كل ذلك؟ ألم تكن شهادتك تكفى منذ البداية !

- كلا يا صاحبى. كان المحلفون سيقولون إنى ألقيت شهادتى بدافع الحب، وإنى ربما أكون قد كذبت من أجل إنقاذ من أحب. إنى أعرف سيكولوجية الجمهور ولهذا أردت أن تتزع الشهادة منى انتزاعاً، وأن أرغم إرغاماً على الأدلاء بالشهادة التى تنقذه.

- والرسالة ؟

- كان من السهل أن أكتبها وأعدّها.

- وماكس ؟

- لا وجود له يا صاحبى.

- لا أزال أعتقد أنه كان فى الإمكان إنقاذه بالطريقة العادية.

- لم يكن فى استطاعتى أن أجازف هذه المجازفة. إنك كنت موقناً من براءته..

- وأنت ؟ إنك كنت مثلى مؤمنة ببراءته.

- يا عزيزى المحامى. إنك لا ترى شيئاً أبداً... إننى كنت أعرف طوال الوقت أنه القاتل !!

الغريق

خبط وصاح، ثم تحرك وذرع يديه، شعر بنفسه يغوص ثلاث مرات، ويطفو ثلاث مرات أخرى، وراخ يضرب بساعديه في فوضى، ثم ترك نفسه مدفوعاً حتى أمكنه أن يمسك أخيراً بلوح عائم فتشبث به، تارة يركب عليه وأخرى يضطجع، والأمواج المقتربة تهزه، ترفعه برهة، ثم تتقهقر لكي تخلى مكانها للأمواج أخرى تجيء بعدها، تدفعها أمواج تالية، وتتكرر اللعبة نفسها، وحوله بحر، بحر فحسب، وكرس الغريق كل وجوده ليمسك باللوح في شراسة، وليبتلع جرعات من ماء مالخ، وليتأمل...

كان يفكر، لا شيء مما يمكن أن يتذكره وجد في العالم يوماً، منازل.. وخمور.. وترام.. وفتيات.. وأرض، إنما كانت كلها وليدة خياله، فليس العالم غير غمر يطفو فوقه، وليست السماء كما تبدو له غير انعكاس لمعبر أمواج تعود لتضع نفسها من حيث جاءت، كمثلي الكومبارس على المسرح، يتظاهرون في عرض طويل خلف الكواليس، لكي يظهروا مرة، ومرة أخرى في نفس الفصل! كان الماء يضربه بغير انقطاع، وكان يحاول أن يحسب، كم من الزمن تتأخر كل موجة حين تتعد وترتد بسرعة لتعود ومعها حفنة ماء، فتقذف في معدته قليلاً من الملح. لكن كان من المستحيل عليه أن يتبين الأمواج الماكرة!

واستمر على هذا المنوال يوماً، فيومين، فثلاثة، ومع الزمن أصبح أقل تفكيراً، وقد تمدد على اللوح تاركاً ساقيه وذراعيه يقعان خارجه، كأنه مصلوب على صليب يوناني الطراز، وكانت معدته تلم جوانبه، ورأسه دائخ ملفوف في بخار الجوع، لا شيء... لا شيء كان موجوداً في العالم غيره، وفكر في كويرة من ورق، قذف بها ذات مرة في بركة، فكانت تعلق وتهبط وتسير في حركة دائمة على الأمواج الصغيرة الخضراء والزرقاء، ومع ذلك. كانت في نفس مكانها، ألا يمكن أن عقله هو الذي يخونه؟ أحقاً رمى كويرة الورق وتأملها؟ ربما لم تكن هناك أبداً كويرة ولا برك في أى مكان، وربما كان هو من يرى نفسه صاعداً هابطاً دون أن يتحرك من موضعه !

كان يغفو، في البدء لثوان قصيرة، وأخيراً لساعات طويلة، وفي مرة وقع من اللوح، فكان عليه أن يستنفذ قوى هائلة لا يعرف من أين انتزعتها لكي يصل إليه ثانية، وقد وعى جيداً أن ذلك لو حدث مرة أخرى فسيصبح صريع الماء، دون استئناف، ودون إمكانيات التفكير في الكويرة، ودارت تحت جمجمته دوخة زرقاء مالحة، وأخذته غفوة، ثم انتبه فبدل وضعه بكل عناية، ونظر إلى الأفق الكليل...

كيف ذلك؟ أكان ممكناً؟... نعم.. نعم!، كان في العالم خشب وقمصان ورجال ونساء. وفجأة استرد وعيه من الكون سريعاً، وبعيداً كان يبدو له رمث صغير، ذو رقعة من قماش ترفرف على سارية، فأعطته البهجة شجاعة، وبدلت ضعفه قوة، فوجه إليه مركبه الساذج

بكلتا يديه وذراعيه. لم يكن الطريق سهلاً، وأعتقد أنه إن ضعف فلن يتمكن من إدراكه، أو يصل إليه ميتاً، وكان في الرمث من يومئذ إليه مشجعاً، ويجتهد أيضاً ليختصر الشقة التي تفصل بينهما، حتى تلاقت الخشبتان في صدمة صماء، فكلتاها كانت رطبة !

نعم، ليس ثمة أدنى شك، كان الإنسان موجوداً، وكان هناك الحنان والأخوة، واكتشف في كل الوجوه التي ركزت اهتمامها فيه، على الرغم من أنها عرضت له غامضة ذات ضباب، فرحة فائضة، غامرة، ساحرة، لا يمكن تفسيرها.

تركهم ينزعونه بقوة من تحت إبطيه، عن الجذع الذي كان ملتصقاً به، وتمدد على الألواح الجديدة العريضة، الأقل رطوبة، مستريحاً في تراخ كامل، دون أن يضيق بمحاولة الحفاظ على توازنه، وألقى غير واع نظرة إلى الرجال، وتبسم في ضعف وتغافى، ولكنه استطاع أن يسمع بين الضباب صوتاً مهتزازاً مرحاً، مجللاً بالتأثر، يقول:

- بعثه لنا القدر!، لم يرد أن أكون أنا الضحية، عندما خرج في قرعتي الأقصر المشثوم، وطلبت منكم معروفاً، أن تنتظروا عشر دقائق، تذكرت أن الله بعث كبشاً إلى إبراهيم، ولم يترك أمته الخاطئة تهلك في الصحراء، فشعرت بأنه لن يتخلى عني في هذه المرة! (١).

(١) يشير إلى تقليد كان متبعاً بين البحارة في القديم: إذ نفذ زادهم في عرض البحر اقترعوا على من يأكلونه من بينهم.

وبعد أن بدل لهجته بأخرى أكثر حزناً أضاف «ساندرس» بائع التوراة السمين، في نبرة آسفة:

- تباركت العناية الإلهية، وقد جاءتنا بالفريق الذي نحتاج إليه...
كان سيموت على أى حال !

[قصة إسبانية]

الآلة Automata

فى زيه الكامل نظر «جيدو» إلى المرأة وكالعادة غمره شعور من التعاسة، كان يرتدى ملابس جديدة فحسب، ومن أحسن الأنواع، صديرياً رياضى الشكل، بنطلوناً من الصوف الأشهب، ربطة عنق ذات خطوات زاهية، جوارب من الصوف الأحمر، حذاء من الشمواه، لكنه لم يكن أنيقاً على أى حال، كان يبدو كما لو كان دمية فى عارضة متجر كبير!

ثم غادر حجرة نومه، فوضاها كانت تثيره، وذهب إلى الصالون، هنا كل شىء نظيف، منظم لامع، ومن ثم عاوده الهدوء من جديد، ولو أنه فى ذلك الصباح منذ اللحظة التى استيقظ فيها، كانت تزعجه شبهة أنه نسى شيئاً..

موعد..

مكالمة هاتفية..

سداد دين...

حفلة..؟

وهز رأسه أخيراً، ثم اقترب من الحاكى ماركة أمريكية تعمل آلياً، الضغط على زر خارجى يجعل الذراع مع الإبرة يتحرك وحده، يمتد ثم يهبط، ويستقر على حافة الأسطوانة، وأخذ «جيدو» لا أرادياً، أسطوانة موسيقى خفيفة، وضعها ثم ضغط على الزر، حينئذ

حدث شيء غير متوقع، ارتفع الذراع ثم تحرك ولكنه لم يهبط، على العكس ابتعد بحركة يمكن أن يقال إنها مقصودة، وذهب أخيراً ليستقر، لا على حافة الأستوانة وإنما في وسطها، وكان نشاز حاد، ارتد الذراع بعده إلى الخلف، ثم ارتفع من جديد، ومع صوت كقرقة الأصابع عاد إلى مستقره ليستريح!

نزع «جيدو» الأستوانة وفحصها على ضوء النافذة، كانت تلفانة، وفي مواضع محددة منها رأى خدوشاً عميقة، لأول مرة تتوقف الآلية، وفي حيرة وضع أستوانة أخرى، لكن الذراع في هذه المرة ارتفع ثم انخفض عادياً، بدون أخطاء أزيد، وقد سأل «جيدو» نفسه وهو يستمع إلى الموسيقى: ماذا وراء موقف الحاكى الغريب، لكنه لاحظ أن التفسير الفنى المحتمل لن يقنعه..

في تلك اللحظة دخلت زوجته..

كانت تمسك بيديها ولديها، «بيرو» و«لوسيا»، كلاهما أصغر من خمس سنوات، ولهما وجهان ناعمان رقيقان وبخاصة «بيرو» الذى بدا كما لو كان صورة شمسية من جيدو والده، عندما كان فى نفس عمره، وقالت لهما هيا.. اذهبا فأعطيا والدكما قبلة، وبقيت فى منتصف الصلاة، بينما الصغيران، مطيعين محترمين، جريا ليقفزا على ركبتي والدهما فاحتضنهما بدوره، وهما على صدره بين ذراعيه، تطلع من فوق رأسيهما المدورين إلى زوجه، ولاحظ، كما لو كان يراها لأول مرة، أنها طويلة نحيفة مسطحة جافة فارغة بفعل الولادة، فقدت كل سحرها الأنوثى، ولاحظ أيضاً أنها تضع نظارة، وأن أنفها ضارب إلى الحمرة شيئاً، وترتدى فستاناً أزرق واسعاً، وبلوزة من الصوف الأزرق

أكثر غمقاً، وبدا له فجاءة أن كل هذه التفصيلات لا بد أن يكون لها معناها الذاتى، شىء هكذا كتفصيلات الألفاظ، التى تفسر عادة فى كلمة واحدة، لكن زوجه لم تمهله لكى يجدها، فنادته قائلة:

- هيا بنا.. هيا، لقد تأخرنا، وإذا انتظرنا أطول فقد نتعرض لخطر وجود الشوارع مليئة بالعربات!

ورد «جيدو»: هيا، وتابع زوجه، بينما عادت هى فأمسكت بذراعى ولديها من جديد.

كان سكنهما يقع فى الطابق الأول من عمارة جديدة فى شارع «باديولى» ويطل باب مدخله على حديقة صغيرة. ذات طريق مسفلتة، ومربعات مفروشة بالخزامى وأشجار مقصوفة، مدورة الشكل أو مثلثة، وعبرت الأسرة الحديقة، ثم خرجت إلى شارع ضيق ذى عمارات حديثة على جانبيه، غاص بالسيارات على امتداد طواريه، وسأل «جيدو» نفسه من جديد: أمن الممكن أن ينسى ما حدث هذا الصباح؟، وبينما رأسه ملىء بهذه الأفكار، أركب زوجه وطفليه السيارة، ثم أدار جهازها فتحركت، وهبطت مسرعة فى شارع «فلامينيا» عبر الجسر، وبدأ يجرى بها على امتداد نهر «التبير» وهدف الرحلة بحيرة «ألبانو».

كان اليوم أحداً، يوم جميل كما لاحظت الزوجة، التى كانت تجلس فى الخلف إلى جانب البنت، وقد أسفت.. أسفت فى عمق، لأنهما لن يستطيعا تناول غداءهما على الحشائش، فقد أمطرت السماء من قريب، ولا تزال الأرض رخوة بعد، ولم يجب «جيدو» على هذا بشىء، فاستمرت هى فى حديثها العادى، توجهه

بمهارة، مرة إلى الزوج، وأخرى إلى الأطفال بينما هو من جانبه ركز كل اهتمامه في الشارع، الذي كان متضخماً كما هو دائماً وبأناس يتميزون اليوم بأرديتهم الأنيقة، مما يحتاج إلى تعقل أكثر في القيادة، ومهارة فوق ما هو معتاد.

وبعد أن قطعت السيارة مسافة طويلة في شارع «أنتجوا» تابعت سيرها في شارع «نوفيا»، وكان «جيدو» يسير بسرعة عادية، غير عالية، حتى ولو بدا الشارع أمامه خالياً، وعيناه خلال ذلك كله، تلاحظان عديداً من الأشياء، كانت تبدو مسلية، ولكن معناها على الدوام كان يقلت منه: بريق النيكل لعربة سوداء تتبعه، البياض الجميل المتناثر من صهريج أسطوانى، نصف مختف بين أشجار ربيعية منسقة، الصفاء المنعكس من بعض البيوت، اللون الفضى لطائرة تهبط أفقياً عبر السماء، لكي تستقر على أرض المطار في «شياينو»، البريق الفجائى لنافذة كان يسقط عليها شعاع من شمس، طلاء الإشارات المرسوم فوق جذوع الأشجار على امتداد الشارع، كل هذه الأشياء البيضاء لامعة مشعة، تتناقض على نحو عنيف مع مجموعة كبرى من السحب الداكنة، تغزو السماء وتهدد بالقضاء على جمال اليوم، وتتناقض أيضاً مع الحقول الواسعة، غضة في خضرة فاتحة أقرب إلى لون اللبن، وتكاد تصبح نشاراً في عمق قاتم عاصف !

ومرة أخرى، سأل «جيدو» نفسه: ماذا يمكن أن يكون وراء هذه المتناقضات؟ لكنه لم يجد شيئاً، على الرغم من أنه متأكد أن ثمة شيئاً ما !

كانت الزوجة خلفه تتحدث إلى البنت، بينما جلس الابن بركبته على المقعد إلى جانبه، وشارك في الحديث بين أمه وأخته، وكان صوت الطفلين طرياً رقيقاً وهما يسألان، وصوت الأم هادئاً رزيناً وهي ترد، يخفى على التأكيد أيضاً معنى ما، لكنه بالنسبة إليه، كان ككل الأشياء الأخرى، التي كان يلحظها شيئاً فشيئاً، لم يستطع أن يمسك به، على الرغم من أنه كان مقتنعاً بوجوده!

ثم سكت الطفلان، وفيما تلا ذلك من سكوت لاحظت الزوجة صمت «جيدو»، فسألته:

- ماذا حدث لك.. هل أنت قرفان؟

- لا.. لست قرفانا.

- ولست منشرحاً على أى حال.

- متوسط.. مزاجى العادى.

- بالضبط، ذلك ما أقدره فيك أكثر، مزاجك المعتدل كما تقول، ولكنى أشعر أنك قرفان!

- ولماذا تحبين مزاجى المعتدل؟

- هكذا.. إنه يجعلنى أشعر بالأمن، أحس أننى فى رفقة رجل يمكن أن أضع فيه ثقتى كاملة.

- هذا الرجل.. هو أنا؟

- نعم، أنت.

كانت تتحدث بهدوء فى موضوعية كما لو كانت شخصاً ثالثاً: أثق فيك لأنى أعلم أنك زوج طيب، وأب طيب، أعلم أننى معك

لا يمكن أن أتوقع مفاجآت ما، فأنت دائماً تعمل ما هو حق وعدل،
وهذه الثقة تجعلني سعيدة.

- هل أنت سعيدة معي ؟

- نعم..

وبدت كأنها تفكر لحظة مع تردد:

- نعم.. إنني سعيدة، يمكن أن أقولها بلا زيادة.. إنني سعيدة،
لقد أعطيتني كل ما أحب.. أسرة وأطفالاً وحياة مريحة مطمئنة..
ألا يسرك أنني سعيدة معك ؟

وانحنى الزوجة، وبدأت تداعبه برفق في حنان على مؤخر عنقه،
ورد «جيدو» :

- نعم يسرنى..

في تلك اللحظة كانت السيارة قد تركت شارع «نوفيا» إلى
شارع «لوس لاجوس» مسرعة بين حقول خضراء، ترى فوقها هنا
وهناك سحباً بيضاء صغيرة مرتعشة محمرة من ازدهار الأشجار
المثمرة، فشجرة مصفرة إلى جانب بيت أزرق، ثم بعض أشجار
بابلية، محملة الأغصان بزهور حمراء في لون النيذ.

وقال «جيدو»:

- لم أكن قرفانا، وإنما كنت أفكر فحسب، في شيء حدث
منذ قليل..

- أي شيء ؟

قص لها حكاية الأسطوانة، وعطل الحاكي الآلى، ثم أنهى حديثه:
والآن.. فإن الأسطوانة تلفانة، لكنى لم أستطع بصفة خاصة أن
أقع نفسي، لماذا توقف الحاكي؟..

وقالت الزوجة منكتة:

بعض الآلات فيما يبدو، تتعب من كونها آلات، وتريد أن تظهر
أنها ليست كذلك.

- نعم.. ربما كان الأمر من هذا القبيل!

كان الطفل ما يزال جالساً القرفصاء فى المقعد إلى جانب
«جيدو» وسأل أمه فجأة عما إذا كانوا سيأكلون فراولة فى هذا
اليوم، فردت عليه: لا توجد فراولة فى هذا الفصل من العام، الفراولة
فاكهة والربيع على العكس من ذلك، هو فصل الزهور، أمر تستطيع
أن تقتنع به إذا تطلعت إلى الحقول. استمع «جيدو» برهه لشرح
زوجها، ثم قام بمحاولة أكثر ضعفاً وأخيرة، ليتذكر ما كان مقتنعا
بوجوب نسيانه هذا الصباح، لكنه لم يتذكر شيئاً ربما كان موعد
عمل لغد، الاثنين، يتصل بمهنته، على أى حال فى مكتبه دون
كل شىء فى المفكرة، وسيكون من السهل التعرف عليه.

ثم وصل إلى الشارع الذى يمتد حول بحيرة «ألبانو»، لم يكن
من الممكن رؤيتها بعد، لأنها كانت مختفية بين حدائق عزب
كثيرة، وفى المنحنى بدأت تظهر قليلاً قليلاً ملحقاتها المبعثرة،
مغطاة بسطح كثيف من الخضرة الغامقة، ثم تحت إلى أسفل،
كما لو كان فى عمق قمع، كانت البحيرة ساكنة مظلمة، بينما
ضفافها العالية والسماء المسحبة، تنعكسان عليها فى ظلال متباينة.

نظر إليها «جيدو» في احتقار، ثم عاوده الشعور من جديد بأن معنى ما يختفى وراء هذه التفاصيل العديدة المتكررة، وفي نفس اللحظة كان يبدأ الطريق صاعداً، فغير السرعة من الرابعة إلى الثالثة، وفي قمة المطلع كان يرى روشنا معلقاً في السماء، ويظن أن وراءه هوة يبلغ طولها عدة مئات من الأمتار.

ومر «جيدو» فجأة بإحساس من يخرج من كهف إلى سطح الأرض، إحساس من يخرج من هواء ناعم ساكن إلى آخر صاف منعش، وعرض له إلى جانب ذلك تفكير دقيق، أن يدفع سيارته بكل سرعتها في ذلك الفراغ الذي يتهد هناك بعيداً وراء المطلع، وأن يرمى بنفسه في البحيرة مع زوجته وابنيه، سوف تقفز السيارة مائة متر أو مائتين، وتسقط مباشرة في الماء، ومعها سيكون الموت فورياً !

وتساءل «جيدو»: أبغضه لأسرته هو الذي أوحى إليه بمثل هذا التفكير؟، لكنه ما لبث أن لاحظ أن الأمر ليس كذلك بل بدا له على العكس، إنه لم يحبهم في حياته يوماً كما يحبهم الآن، في اللحظة التي يرغب فيها أن يقضى عليهم، ولكن.. أكان ذلك تفكيراً حقاً، أم أنها محاولة؟.. محاولة لا تكاد تقاوم كحلوميت متشبث مفترس، يشبه ما توحى به تقوى لا تريد أن تظل عاجزة!

وانحرفت السيارة نحو الشمال حتى احتكت بحافة الطريق، صاعدة في سرعة نحو الروشن، وما إن تجاوزت النقطة الأكثر ارتفاعاً، حتى وجد «جيدو» نفسه أمام حقل صغير لم يكن يتوقعه، وأنه قد ترك الهوة وراءه وأن الفرصة قد فاتت، فالوقوع في الفراغ

شيء طبيعي، أما الانحراف للوقوع فيه فجريمة، وتوقف «جيدو»، وضع فرامل اليد، وظل عارياً من أي شعور محدد، كل ما هنالك كان يبدو له، أنه ترك الهواء المنعش ليواجه الهواء الناعم الساكن، وقالت الزوجة وهي تهبط من العربة، لقد صنعت طيباً عندما توقفت هنا هيا نلقى نظرة على سطح البحيرة.

عندما كان الأربعة على حافة الروشن منحنيين يتأملون البحيرة، تذكر «جيدو» فجأة كل ما كان قد نسي من قبل.. في هذا الأحد يقع عيد زواجه، ولقد تناقش حوله مع زوجته في الليلة السابقة، بعد أن نام الطفلان، ثم تقرررت هذه الرحلة خصيصاً.. احتفالاً بهذا اليوم !

[قصة إيطالية]

فهرس

صفحة

٣الإهداء
٥مقدمة الطبعة السادسة
٧كلمة فى البدء
٩• شىء من التاريخ
٩أصول بعيدة
١٠الأساطير
١٤الخرافة
١٥الموطن الأول
١٨خرافات هادفة
٢٠أساطير العرب وخرافاتهم
٢٣قصص العرب القديم
٢٦القصة فى القرآن
٣٢قصة الهبوط
٣٧القصص فى الإسلام
٤٠القصة الشعرية
٤٦أوج القصة العربية الوسيطة
٤٩القصة فى مصر الوسيطة
٥٣ألف ليلة وليلة

صفحة

٥٦ المقامات
٥٩ هجرة القصة إلى أوربا
٦١ بداية القصص الأوربي
٦٥ بداية النهاية
٦٩ • القصة الجديدة
٧١ نيقولاى جوجول
٧٦ إدجار ألن بو
٨٠ جى دى موباسان
٨٣ تشيخوف
٨٩ عصر القصة
٩١ • نحو تحديد الخصائص
٩١ ما القصة القصيرة
٩٩ بناء القصة
١٠١ اللغة
١٠٥ القصة والرواية
١٠٩ • القصة في الأدب العربي
١١١ المدرسة الحديثة
١١٤ الرواد الأوائل
١٢١ القصة المعاصرة
١٢٥ القصة في العالم العربي

١٢٨ المرأة قصاصة
١٣٠ القصة وهموم الإنسان العربي
	• مختارات من القصة العربية :
١٣٦ محمد تيمور : فى القطار
١٤٤ محمود تيمور : مولانا أبو البركات
١٥٤ عباس محمود العقاد : أحسن حمار
١٦٦ يحيى حقى : كنا ثلاثة أيتام
١٧٥ عادل كامل المحامى : ضباب ورماد
١٩٩ يوسف جوهر : الأفيون
٢١٨ إحسان عبد القدوس : الله محبة
٢٣٤ نجيب محفوظ : عنبر لولو
٢٧٢ أمين يوسف غراب : العوالم السفلى
٢٩٠ محمد عبد الحلیم عبد الله : طريق شجر الكافور
٣٠١ يوسف إدريس : أبو سيد
٣١٦ محمد أبو المعاطى أبو النجا : ذراعان
٣٣٠ غادة السمان : ليلى والذئب
٣٦٥ نزار قبانى : قصة قصيرة
٣٦٧ الطيب صالح : الرجل القبرصى
٣٨٠ محمود البدوى : الباب الآخر

صفحة

٣٨٧ عبد الحميد بن هذوقة : المغترب
٣٩٧ السيد الشوربجي : رجل في الطابور
٤٠٧ علاء مصطفى : الذي انتصر في الحرب
٤٢٠ سناء البيسي : امرأة لكل العصور
٤٢٣ طه وادي : موقف في حياة صعلوك
	• مختارات من القصة العالمية :
٤٣٠ أنطون تشيخوف : شقاء
٤٣٩ جي دي موباسان : الحبل
٤٤٩ روبين داريو : ملك برجوازي
٤٥٦ سومرست موم : رجل يعرف كل شيء
٤٦٩ بيو باروخا : الخان
٤٧٤ أجاثا كريستي : الرسالة المزيفة (قصة بوليسية)
٤٨٤ خورخي كامبوس : الغريق
٤٨٨ ألبرتو مورافيا : الآلة

كتب أخرى للمؤلف

- امرؤ القيس (حياته وشعره)
الطبعة الخامسة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- دراسة في مصادر الأدب.
الطبعة السادسة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- ملحمة السيد: دراسة مقارنة.
الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣
- مع شعراء الأندلس والمنتبى.
ترجمة أمينة لكتاب المستشرق الإسباني غرسية غومث الطبعة الخامسة
دار المعارف القاهرة ١٩٩٢
- بابلو نيرودا: شاعر الحب والنضال.
كتاب روز اليوسف، القاهرة، يونية ١٩٧٤ (نقد).
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة.
الطبعة الرابعة - دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢
- تحقيق طوق الحمامة لابن حزم.
الطبعة الرابعة - دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه.
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.
- دراسات أندلسية: في الأدب والتاريخ والفلسفة.
الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧

• الشعر العربي المعاصر: روائعه ومدخل لقرائه.

الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨

• الفن العربي في إسبانيا وصقلية.

للمستشرق الألماني فون شك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

• الحضارة العربية في إسبانيا.

للمستشرق الفرنسي ليفى بروفنسال الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة

١٩٨٥

• التربية الإسلامية في الأندلس.

للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠

• الأخلاق والسير لابن حزم.

تحقيق وتقديم وتعليق الطبعة الثانية دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢

• الشعر الأندلسي في عصر الطوائف.

للمستشرق الفرنسي هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١

• الشعر العربي في إسبانيا وصقلية، من البداية حتى النهاية

للمستشرق الألماني فون شك - الجزء الأول، دار المعارف، ١٩٩١

• مناهج النقد الأدبي، ترجمة، دار المعارف ١٩٩٢

• مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن ١٩٩٥.

تحت الطبع :

• الحب عند دانتي وابن حزم

دراسة مقارنة مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتي.

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٤٨٠٨
التقييم الدولي	ISBN 977-02-5647-1

١/٩٨/٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)